انتشار الإسلام

في إمارات الهوسا بالنيجر ونيجيريا

وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية

الدكتور
خالد علي عبدالقادر



انتشار الإسلام في إمارات الهوسا بالنيجر ونيجيريا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية

تأليف

الدكتور خالد على عبدالقادر

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الجبل الغربي ليبيا

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

info@darelfikrelarabi.com

٩٦٦ خالد علي عبدالقادر.

خ ا ان انتشار الإسلام في إمارات الهوسا بالنيجر ونيجيريا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية/ تأليف خالد علي عبدالقادر.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.

٢٧٦ ص: إيض؛ ٢٤ سم.

بيليوجرافية: ص ٢٦٢ - ٢٧٦ .

يشتمل على ملاحق.

تدمك: ٨ - ٢٨٩١ - ١٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - انتشار الإسلام في إمارات الهوسا. ٢- إمارات الهوسا- الأحوال الاقتصادية ٣- إمارات الهوسا - الأحوال الاجتماعية. ٤- الإسلام في غرب إفريقيا. أ-العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة



Elbardy-print@live.com

التمهيد

إمارات الهوسا: التأسيس وانتشار الإسلام

(أ) الموقع الجغرافي لإمارات الهوسا والتركيبة السكانية.

(ب) تأسيس إمارات الهوسا وانتشار الإسلام.

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة .

إلى أمي الغالية .

إلى إخوتي الأحباء .

إلى زوجتي الصبورة.

إلى بنتيّ عروبة وهبة الله.

أهدي لهم هذا الجهد المتواضع

الشكر والتقدير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الشكر لله العلي القدير الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله).

يسرني أن أتقدم بخالص تقديري وشكري الفائقين إلى كل من مدَّ لي يد العون بكلمة طيبة وأخص بالذكر أستاذي الفاضل الدكتور: **حسين سيد عبد الله مراد** أستاذ التاريخي الإسلامي بقسم التاريخ ووكيل معهد البحوث والدراسات الإفريقية لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة بجامعة القاهرة، المشرف الأول على هذه الدراسة والذي شملني برعايته وحسن إرشاده وتوجيهاته طوال فترة إعدادي لهذه الدراسة، حيث كان يعطيني من وقته الثمين ما يعجز لساني عن شكره فجزاه الله عني كل خير، كما أشكر الأستاذ الدكتور: **كرم كمال الصاوي باز** أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، المشرف الثاني على ما قدَّمه لي وللدراسة من دعم ومساعدة واهتمام وتشجيع، فلهما مني جزيل الشكر والعرفان والتقدير.

لقد كان أصل هذا الكتاب رسالة جامعية لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الإفريقية مقدمة لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة بجمهورية مصر العربية، وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى قدمت الرسالة ونالت **تقدير امتياز بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع على نفقة جامعة القاهرة وتبادلها مع الجامعات العربية والإفريقية** بتاريخ ٢٦/ ١/ ٢٠١٣م .

كما أتقدم بالشكر والعرفان والتقدير إلى الإخوة **بمعهد الدراسات الإفريقية الرباط بالمغرب**، والأخوة **بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر**، والإخوة بدار الفكر العربي بجمهورية مصر العربية لمشاركتهم المؤلف في نشر هذا الكتاب

الذي يعد الدراسة العربية الأولى لانتشار الإسلام في إمارات الهوسا الإسلامية في النيجر ونيجيريا وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فهذا الكتاب يلقي الضوء على صفحات ناصعة من تاريخ الإسلام المشرقة التي لم تدرس من قبل الباحثين والدارسين بسبب صعوبة الوصول إلى تلك المناطق وبسبب قلة المصادر والمراجع.

والله ولي التوفيق

المؤلف

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

النشاط التجاري الخارجي لإمارات الهوسا

الفصل الرابع

أثر الحياة الاقتصادية على المجتمع الهوساوي

الموضوع | الصفحة

يطرح هذا الكتاب قضية انتشار الإسلام وعلاقته بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إمارات الهوسا الأصلية Hausa Bokai في الفترة ما بين القرنين ٨-١٠هـ/ ١٤-١٦م، والتي تقع حالياً بشمال نيجيريا وجنوب النيجر، ضمن إطار بلاد السودان الغربي، والتي كان يسكنها شعب الهوسا، حيث أسس بها الإمارات السبع وهي: كانو Kano ، وكاتسينا Katsina وزاريا Zaria ، وغوبير Gobir ، ورانو Rano ، ودورا Daura، وبيرام Biram . فقد نشأت تلك الإمارات بشكل مستقل عن بعضها البعض دون وجود كيان سياسي موحد يجمع فيما بينها، في المنطقة الفاصلة بين نفوذ مملكة صنغي في السودان الغربي، ودولة الكانم والبرنو في الشرق، والتي تنتمي للسودان الأوسط .

لقد قدمت هذه الإمارات نموذجا للمدينة الدولة التي تخضع لسلطة الساركن "Sarkin" الحاكم بشكل مطلق، والذي اعتمد على بنية اجتماعية تخضع لسلطة الكاهن الأكبر أو لزعماء العشائر، والذين بدورهم ضمنوا له الولاء . فقد قاد نظام الساركن في كل الإمارات عملية التأسيس الاقتصادي من خلال إنشاء القرى والمدن، وتأمين الطرق، وإقامة الأسواق، وتشجيع التجارة، وترغيب كل الوافدين على تلك الإمارات في البقاء فيها أو المتاجرة معها، كما ساعد ذلك النظام ما تمتعت به تلك الإمارات من موقع مهم، ربط بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وبفعل ما قدمته منطقة الجنوب من ثروات كالذهب، والرقيق، والتي كانت تمثل السلعة الرئيسة الرائجة في الشمال.

ورافق ذلك التطور ازدهار نسبي وانتعاش اقتصادي في هذه الإمارات خصوصا في مجال الحرف والصناعات وذلك بفضل تنوعها وتنوع مصادرها، وبالرغم من أن اقتصاد الإمارات كان في البداية محلي يدار لغرض الكفاف ليس إلا، والدليل على ذلك استخدام الودع والأصداف في الشراء. فالنظام المالي النقدي لم يظهر إلا إن نجاحها كإمارات مستقلة في إدارة التجارة الصحراوية كان واضحاً .

إن دراسة تلك القضايا المتعلقة بالحياة الاقتصادية تستوجب متابعة المقومات الطبيعية والأنشطة المتنوعة للسكان، وخصوصية الحرف والصناعات القائمة، وكيف كانت تدار من قبل الصناع والحرفيين؟ وتجمعاتهم الحرفية بكل تنظيماتها، كما أنها تدخل في إطار استثمار عوامل القوة لكل إمارة على حدة. خصوصا وإن التجارة والتي تعتبر من أهم

جوانب الحياة الاقتصادية حملت لشعب الهوسا الهجرات البشرية الجديدة والتي تضم الخبرات والعادات والتقاليد، كما أنها حملت الإسلام الذي يعتبر أهم التحولات وأبرزها بالنسبة لهم .

تنطلق أهمية هذا الكتاب في كونه الأول في هذا المجال فلم تسبقه دراسات اقتصادية لإمارات الهوسا في الفترة ما بين القرنين ٨-١٠هـ/ ١٤- ١٦م، فهو يسعى لرسم ملامح وخصوصية تلك الفترة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، بكل مكوناتها ضمن إطار كل إمارة، بالرغم من تفرقها سياسيا ككيانات صغيرة أمام كيانات سياسية كبيرة كمملكة صنغي ودولة البرنو .

نظرة في المصادر والمراجع

لقد اعتمد المؤلف في إنجاز هذا الكتاب على بعض من **المخطوطات** التي تم الاطلاع على أصولها في منطقة الدراسة أثناء زيارته لبعض البلدان وعلى عدد من **المصادر العربية المنشورة سواء أكانت تاريخية أم جغرافية أم نوازلية، بالإضافة إلى العديد من المراجع، والدوريات العربية والأجنبية والرسائل الجامعية**، حيث مكنت الباحث من جمع عناصر هذا الموضوع، ولعل من بين تلك المصادر والمراجع ما يلي :

أولا: المخطوطات :

لقد استخدمت مجموعة من المخطوطات، والتي تم الاطلاع على أصولها الموجودة في معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية نيامي بالنيجر، قسم المخطوطات العربية والأعجمية، وهو يضم مئات المخطوطات المتنوعة، وبالرغم من عدم وجود الإمكانيات والوسائل الحديثة للبحث وحفظ تلك المخطوطات، إلا أن قدراً من الاهتمام والحرص كان ظاهرا على المستخدمين في ذلك الأرشيف. فقد اطلع المؤلف على عدد من المخطوطات، كان أهمها :

مخطوطة جواهر الحسان في أخبار السودان، جمعها المؤلف أحمد بابير الآرواني الذي ولد في قرية أروان سنة ١٨٨٧م ، حيث ورث العلم والحسب والنسب عن أجداده، فقد حفظ القرآن وهو صغير السن، ودرس مبادئ الحساب، والحديث، والنحو، والفقه على يد والده، ثم انتقل إلى مدينة تنبكت، حيث درس في جامع سنكري، وقد ترك هذا العالم

مجموعة من المخطوطات في كثير من العلوم، من بينها هذه المخطوطة التي توجد منها نسخة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بنيامي في النيجر تحت رقم ١٦٠، وتضم المخطوطة ٤٤ ورقة متوسطة الحجم بالخط المغربي، تناول فيها المؤلف أخبار ملوك السودان وأكابرهم وحروبهم ومدنهم بشكل من الاختصار، وقد استفاد المؤلف من بعض المعلومات الواردة فيها عن الشعوب والحروب والمدن والعلاقات بين الكيانات السياسية في السودان الغربي .

مخطوطة بعض أخبار هذه البلاد الحوسية السودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها ونتفاً من نوادر علمائها لعبد القادر بن مصطفى مالم تفا ولد سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤م وتوفي سنة١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، والتي تحمل رقم ١٤١٥، بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر، وهذه المخطوطة تعتبر أن البلاد السودانية كلها حوسية في الأصل، وليس كما جاء عند بعض الباحثين في التاريخ، حيث يضيفون حرف الواو قبل السودانية لتصبح والسودانية، فصاحب المخطوطة كان واعياً لما يكتب، فقد قدم تقسيماً جديداً لبلاد السودان الحوسية، والتي يعتبرها عوالي، وسوافل، وأواسط ويعتبر أن إقليم الهوسا هو أهمها، حيث يعرض أهم مزايا الإمارات والأحداث السياسية التي مرت بها، حول تأسيسها، والحروب التي دارت بين بعضها البعض .

واستخدم المؤلف **مخطوطة تاريخ أرباب كنو لمؤلف مجهول تحمل رقم ٣٦٦٣ بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر،** تضم ٢٥ ورقة وهي تتحدث عن كانو منذ التأسيس وحتى قبيل حركة الجهاد الإسلامي، وهي تتفق مع ما جاء في حوليات كانو، بل هي أدق من حيث الأسماء والأماكن وبعض التفاصيل حول الأمراء وأمهاتهم وكثير من أعمالهم. وبالرغم من أن هذه المخطوطة تتعرض للوضع السياسي الحربي الصرف إلا أنها تحوي كثيراً من المعلومات المهمة، عن السكان والمدن والحروب ، وبعض المهن والعادات والتقاليد .

كما استعان المؤلف **بمخطوطة تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، وهي الأخرى لمؤلف مجهول تحمل رقم ١٥٢١ بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر،** وهي بدون ترقيم، وهذه الوثيقة سرد فيها صاحبها تاريخ التأسيس لإمارات الهوسا، وذكر قصة بياجيدا بدقة متناهيه وحذر شديداً لدرجة أنه لم يرد فيها أى قصور أو خيال،

ولكن الوثيقة لم تتحدث عن دورا بل خصصت كل ورقاتها لكانو وحكامها والحروب التي خاضوها .

كما أن المؤلف استخدم بعضاً من مؤلفات الفقيه **محمد بن عبد الكريم المغيلي** ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م المخطوطة والتي توجد منها نسخ عديدة **في النيجر والمغرب والجزائر**، فقد اطلع الباحث على الجزء المصنف بهذا العالم **في خزانة الكتب بالقصر الملكي، ومركز علال الفاسي بالرباط المغرب**، وبعض المخطوطات بالنيجر وأخرى بنيجيريا واتضح للمؤلف أن هناك خلطاً كبيراً في تصنيف تلك المخطوطات خصوصا ما يخص بلاد السودان الغربي، فهذا العالم استخدم أسماء كثيرة لمؤلفاته لعل أشهرها :

١- **تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار عما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار** وهي المخطوطة التي تعرف **بمصباح الأرواح في أصول الفلاح**، وعدد نسخها كثيرة وهي في أغلب المكتبات العامة ودور المخطوطات ويتراوح عدد أورقها من ١٦ في بعض النسخ إلى ٢٢ ورقة في نسخ أخرى ولكنها تحمل نفس المضمون فهي تتحدث **عن ثلاثة فصول أساسية، الأول**: فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار . **والثانى**: فيما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار. **والثالث**: فيما عليه يهود هذا الزمان في أكثر البلاد والأوطان من الجرأة والطغيان، والتمرد على الأحكام الشرعية والأركان بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان .

٢- رسالة محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى أبي عبد الله محمد رمفا يعقوب سلطان كانو، وهي **مخطوطة في ست ورقات تحمل** رقم ٣٦٩ بالمركز الثقافي بمدينة صكتو، نيجيريا، وهي كما يقول المؤلف أنها جملة مختصرة **فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام** ، وهي على هيئة وصايا ونصائح، يعطي بموجبها العالم، للحاكم استخدام الشرع والقوة في ردع الناس عن الحرام، كما دلل فيها بالكتاب والسنة الشرعية تلك المحاسبة للمفسدين، كما قدم قضايا واضحة عن أهم المشاكل التي يعاني منها مجتمع كانو كالشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم وغيرها من المحرمات، كما أنه تحدث عن ضرورة منع الاختلاط في الأسواق وطرق المعاملات، والبيع وخصوصا الطعام . والمرجح أن هذه النسخة هي التي وصلت لسلطان كانو.

٣- مخطوطة تأليف فيما يجب على الملوك ، وهي لنفس المؤلف ولكنها تحمل عناوين أخرى منها رسالة المغيلي لسلطان كانو، ومنها واجبات الأمير في ترتيب الإمارة وهي مخطوطة تحتوي على ١٦ ورقة موجود منها نسخة في النيجر تحت رقم ١٧٢٤ خطها مغربي واضح، وهي مقسمة إلى ثمانية أبواب:

الأول: فيما يجب على الأمير من حسن النية .

الثاني : فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة .

الثالث : فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته .

الرابع: فيما يجب عليه من الحذر في الحضر والسفر .

الخامس : فيما يجب عليه من الكشف عن الأمور .

السادس : فيما يجب على الحكام في العدل والأحكام .

السابع: في مجبي الأموال من وجوه الحلال .

الثامن : في مصارف أموال الله .

والمرجح أن المؤلف توسع في نصح الأمير في بناء إمارته بالطريقة الشرعية وهي ربما كانت مفصلة كتبها المؤلف بعد تلك الرسالة التي بعث بها لمحمد رمفا ساركن كانو، ولكن أغلب الباحثين خلطوا بين الرسالة الأولى المختصرة وهذه الترتيبات العامة والتي لم يذكر فيها المؤلف أنها تخص كانو وإنما اعتبرها نصائح تقدم لكل الأمراء وما يجب فعله لترتيب الدولة بالطريقة الشرعية .

كما استخدم المؤلف مخطوطة العمل المشكور في جمع نوازل التكرور والتي جمعها أبو عبد الله المصطفى بن احماد بن عثمان السيدى الغلاوي وهي ستة أجزاء تحتوي مجمل فتاوى علماء السودان في زمن مملكة صنغي وما بعدها، كما أنها احتوت على فتاوى لعدد كبير من علماء المغرب والمشرق ، كما أنها دعمت بالقرآن والأحاديث وكثير من المصادر التاريخية لعلماء كبار من أهمهم ابن سحنون والامام مالك، والونشريسي، والتونسي، وابن عرفة وغيرهم.

لقد قسمت تلك النوازل إلى فتاوى كل حسب موضوعه ، فقد تناول الجزء الأول: الزكاة والصيام والحج ، ومسائل اليمين، والجزء الثاني: شمل نوازل النكاح ورضاعة الأطفال ، والجزء الثالث: نوازل البيوع، والجزء الرابع: تناول نوازل الدية والمقايضة

والاستعارة والغصب والسرقة. أما الخامس: تناول المغارسة والمواريث والأحباس .أما الجزء السادس: فقد تناول الجنايات والشراكة والوصايا .

أن تلك النوازل تعبر عن نمط الحياة المشترك والمتشابه في كل بلاد السودان الغربي بما فيها إمارات الهوسا، فالحياة في عمومها لم تكن تختلف، والمجتمعات عاشت نفس الظروف ونفس العوارض .

تناول الجزء الخامس من تلك النوازل كراء الحيوانات والبيوت ، ثم خصصت بعض من نوازله للحديث عن الأموال والمشاركة بين الرجال والنساء وأحكام الشرع في تلك المشاركة، كما تحدثت عن نوازل وقضايا تخص الرعاة، والمراعى والعلاقة بين أصحاب تلك المهنة وأصحاب الأرزاق، كما تتحدث عن بعض المهن وقيمة الأجور كمهنة قطع الملح، وصناعة الخشب، ثم تحدثت عن الزروع والمشاركة بين الناس وعملية الاختلاف على العكوم وهو المشاركة في بذر البذور دون معرفة مقدار ما زرع كل شخص ، ثم تحدثت تلك النوازل عن البساتين والكروم ونظام المغارسة، وكيف كانت تلك العمليات تبرم بين الناس، كما خصص جانب للحديث عن التجارة عبر المسافات الطويلة، وكيف كان الناس يستخدمون الوكلاء؟ ثم خصص فصل آخر للمعاملات الزراعية والأحباس، والهبات، وغيرها من القضايا الاقتصادية الجوهرية التي تمس حياة الناس، وهي صور توضح هموم ومعاناة المجتمعات هناك، خصوصا وأنها كانت تعيش في ظل عادات وتقاليد ونظم اجتماعية تنظم علاقاتها فيما بينها قبل الإسلام. والملاحظ هنا أن أغلب تلك الفتاوى كانت تنظر للمكان وخصوصيته، وتحاول التوفيق بين العادات القديمة والدين الإسلامي .

إن ذلك الكم الكبير جدا من المخطوطات وخصوصا الموجودة في أرشيف معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر، والتي يصعب الوصول إليها مصيرها مجهول، فالعناية بها غير كافية، وضياعها بسبب ما تعانيه من أساليب قديمة في التخزين جعل الكثير منها يتعرض للرطوبة والفساد، كما أن يد العبث والسرقة تمتد إليها في أوقات كثيرة.

ثانياً: المصادر المنشورة :

بالرغم من قلة المصادر التي تتحدث عن تاريخ الهوسا، إلا إن المؤلف استخدم مجموعة من المصادر ذات العلاقة المباشرة بالموضوع من أهمها :

(أ) المصادر الجغرافية والرحلات :

كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، للعلامة الرحالة أبي عبد الله محمد بن عبدالله بن محمد اللواتى المشهور بابن بطوطة المتوفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م . والذي أورد فيه معلومات قيمة ومهمة عن الرحلة التي قام بها للسودان الغربي سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، فقد وصف البلاد والعباد والطرق والدروب والأشجار والحيوانات ، كما أنه وصف المجتمعات الإفريقية بشكل دقيق . وهذا المصدر يعد من أهم مصادر السودان الغربي ، بالرغم من أنه لم يتعرض لإمارات الهوسا إلا بشكل مقتضب إلا أنه يعتبر دليلاً مبكراً على وجود ذلك الشعب في منطقة كابرة التي يعتقد أنها غوبير، وزاغة فهما تحت حكم سلطانين يؤديان الطاعة لملك مالي المسلم .

كما استعان المؤلف بكتاب وصف إفريقيا للحسن بن محمد الزياني الوزان المشهور بليو الإفريقي والمتوفى سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م ، وهذا المصدر في غاية الأهمية بالنسبة للإمارات، فهو الجغرافي الرحالة الإسلامي شبه الوحيد الذي زار تلك الإمارات وتحدث عن جزء من أوصافها، ونمط عيش سكانها، فقد زار غوبير، وكانو، وزاريا، وكاتسينا، وذكر عن تلك الإمارات معلومات في غاية الدقة عن مواقعها الجغرافية، ونوعية التربة، والحيوانات التي يربيها السكان، كما وصف حياتهم الاقتصادية وبعض من حرفهم ، ويكاد هذا الرحالة الجغرافي أن يكون الوحيد الذي تحدث عن وقوع بعض من تلك الإمارت تحت سيطرة سلطان صنغي . وبالرغم من اختصاره للمعلومات، إلا أن ما ذكره يعد مادة تاريخية مهمة، فقد قدم الرحالة مشاهدات ميدانية لا تخلو من الوصف، والسماع للآخرين أحياناً .

لقد جاء كتابه في وقت مهم، فقد استخدم من قبل الغرب لمعرفة العمق الصحراوي الإفريقي بعواصمه الأسطورية، وأرض الذهب والرقيق، فقدم هذا الرحالة خدمات جليلة لكل الرحالة الأوروبيين الذين دخلوا السودان الغربي فيما بعد .

كتاب كلابرتون، ودنهام، وأودني الذي جاء تحت عنوان رحلة لاستكشاف إفريقيا ترجمة : عبدالله عبد الرازق إبراهيم ، الجزء الثانى . وبالرغم من أن الرحلة كانت متأخرة عن زمن انتشار الإسلام، حيث إن كلابرتون وصل إلى كانو سنة ١٨٢٤م إلا أن مشاهدته كانت تعبر عن مرحلة سابقة وخصوصا أن الأحداث التاريخية والتطورات الاقتصادية

والاجتماعية تحتاج لعقود لكي تتغير، بل إن آثارها تبقى لمئات السنين، فما بالك بالزراعة، والصناعة، والنظم الاقتصادية الأخرى، فقد ربط المؤلف بين زيارة ابن بطوطة سنة٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، وزيارة الحسن الوزان سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م ، وزيارة كلابرتون سنة١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، ثم زيارة المؤلف للمنطقة فلم يشاهد إلا ما ذكره كل أولئك الرحالة وكأنه مازال مستمراً، فشظف العيش، والبدائية، والفقر، وظاهرة العري موجودة خصوصا في الأرياف وضواحي المدن .

(ب) المصادر التاريخية :

استعان المؤلف بكتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار ، لصاحبه محمود كعت ابن الحاج المتوكل كعت الكرمني المتوفى سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م، وبالرغم من الجدل الدائر حول مؤلف هذا المصدر الحقيقي، والذي يرى بعض من المؤرخين أنه ابن المختار، وقسم آخر منهم يرى أنه محمود كعت هو شخص آخر غير المؤلف المذكور، إلا أن هذا المصدر له أهمية كبيرة في تاريخ السودان الغربي، فقد جُمع فيه أخبار مملكة صنغي، وحكامها، وعادات شعوبها وطرق حياتهم، ومعاملاتهم، وبعض من أسفارهم، وحرفهم، التي كانت دون شك تعبر عن فترة ونمط عيش مشترك مع جيرانهم الهوسا . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك مخطوطة لم تحقق بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر لنفس المؤلف ولكنه يحمل عنواناً يختلف قليلاً فهو تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعزائم الأمور وتفريق أنساب الشاهد من الأحرار تحت رقم ١٧١١، ويعتقد الباحث أن هذه المخطوطة هي الأصلية التي اعتمد عليها هوداس عندما ترجمها للغة الإنجليزية .

كتاب تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر المعروف بالسعدي والمتوفى تقريباً سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م، والذي يذكر في الصفحة ٢١٣ من نفس هذا المصدر أنه مجرد جامع لهذه الكراريس، وأن لقبه الصحيح السعيدي، وليس السعدي، كما هو معتاد، وهذا القول دعا بعض من المؤرخين بالقول إن لقبه السعيدي وليس السعدي، وقد ناقش هذه القضية المؤرخ جون هنويك ، وأحمد الشكرى الذي أوضح في كتابه الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م تلك القضية بشكل

تفصيلي . كما ذكر عبد الرحمن السعيدي في صفحة ٣٠٣ من نفس الكتاب نسب أمه التي هي الشريفة فاطمة بنت الحسن الهوصية فهي على ما يبدو من الهوسا، الذين كانت أعدادهم كبيرة في السودان الغربي .

لقد قام السعيدي بزيارة العديد من مدن السودان الغربي، وتقلد العديد من الوظائف، مما سمح له بجمع تلك المعلومات الغزيرة عن تلك المدن، وقد استفاد المؤلف منه في كونه قدم معلومات عن الناس وعلاقاتهم الاجتماعية والثقافية، كما أنه أورد أخبار العلماء وطرق تدريسهم والكتب التي كانت مستخدمة في عملية الدراسة في السودان الغربي .

كما اعتمد الكتاب على مخطوطة **حوليات كانو**، التي تم اكتشافها في سنة ١٩٠٩م وهي مكتوبة في الأصل باللغة العربية، **وصاحبها مجهول**، وترجمت إلى الإنجليزية عن طريق المؤرخ **Palmer. H . R** الذي وضعها في كتابه، وطبعت سنة ١٩٦٧م وتعد من المصادر المهمة حول تاريخ إمارة كانو . لقد جاءت تلك الحوليات ضمن كتاب المؤرخ والذي يحمل عنوان **Sudanese Memoirs** الجزء الثالث فيما بين الصفحة ٩٢- ١٣٢ حيث سرد فيها قصة بياجيدا وقدومه لبلاد الهوسا، وكيف تأسست الإمارات، ثم قدم الحوليات في صفحة ٩٧ تحت عنوان **The Kano Chronicle**حيث يبدأ بالصفحة ٩٩ التي يذكر فيها أول حاكم لكانو، "لكانو باغودا بن باو" سنة ٣٨٩-٤٥٥هـ/ ٩٩٩-١٠٦٣م، وتنتهي في صفحة ١٣٢ في عهد محمد بلو بن إبراهيم بلو سنة١٣٠٠-١٣١٠هـ/ ١٨٨٣-١٨٩٢م، أى أنها تذكر ٤٨ حاكماً لكانو وأهم الأحداث التي وقعت في زمانهم .

وبالرغم من أن المؤلف مجهول وهي عادة أغلب المخطوطات الإفريقية في السودان الغربي، وربما ذلك راجع لكتابتها في زمن متأخر، أى زمن حركة الإصلاح الدينى، فعلى ما يبدو أن نوعاً من الخوف والمنع كان مفروضاً على المؤرخين الذين يكتبون عن إمارات الهوسا، فالطرح الموجود كان يكرس حق وشرعية ابن فودي في الحكم ، إلا إن أهميتها والاستعانة بها واجبة ولكن الحذر مطلوب ومقارنتها بغيرها المعروف وبالسياق التاريخى، وتعريضها للنقد يزيل عنها ذلك الحرج .

(جـ) المصادر النوازلية :

يأتي على رأسها أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي للعالم محمد بن عبد الكريم ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م وهي مخطوطة نوازلية تناولت سبع قضايا مهمة تخص الحياة الاقتصادية والاجتماعية في صنغي وبلاد السودان الغربي، فهي أجوبة فقيه لكثير من العوارض والقضايا التي يعاني منها المجتمع السوداني. حققها المؤرخ عبد القادر زبايدية، سنة ١٩٧٤م، وهي تحتاج لإعادة تحقيق لأنها تحتوي على معلومات مهمة، وهنا يجب الإشارة إلى إن البعض من الدارسين يرى أن هذه المخطوطة تحمل اسم أجوبة الفقير على أسئلة الأمير إلا أن هذه المعلومة غير دقيقة، فهذا العنوان لمخطوطة أخرى من تأليف العاقب بن عبد الله المسوفى، لم يحقق بعد .

كما استخدم المؤلف نازلة معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التنبكتي، ت ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م. والتي حققها J. S.Hunwick، وفاطمة الحراق سنة ٢٠٠٠م وهي نازلة مخصصة لمناقشة قضية جلب العبيد من إقليم الهوسا وبيعهم في أسواق السودان والمغرب، حيث يرى هذا العالم أن تلك الأفعال لا يجوز القيام بها خصوصا وأن أولئك السكان عرفوا الإسلام منذ زمن بعيد .

(د) مصادر الطبقات والتراجم :

كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج للعلامة أحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م ويعد هذا المصدر أضخم إسهامات أحمد بابا في عصره، فهو قاموس تراجم لعلماء المالكية الكبار من المغرب والأندلس، والسودان الغربي، ومصر، وقد استعان به المؤلف في معرفة كثير من العلماء الذين دخلوا إقليم الهوسا أو كانوا منه أصلا .

كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للمؤلف محمد أبي عبد الله الطالب ابن أبي بكر الصديق البرتلي المتوفى سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م حُقق هذا الكتاب مرتين النسخة الأولى بواسطة محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجى من المغرب، والثانية عن طريق الدكتور الهادي مبروك الدالي من ليبيا، وهذا الكتاب متخصص في تراجم العلماء والفقهاء والأعلام في السودان الغربي، وبه معلومات مهمة عن حياة أولئك العلماء، وشيوخهم،

وطرق تعليمهم، كما أنه يذكر صوراً مختلفة عن الأوضاع الثقافية والاجتماعية في المجتمع السوداني .

(هـ) مصادر موسوعية :

كتاب **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لمؤلفه شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م** فقد أورد فيه المؤلف معلومات دقيقة عن السودان الغربي من حيث الموقع والسكان والعادات والتقاليد ، والتجارة وأنواع كثيرة من البضائع التي تحمل إلى مصر والمغرب من بلاد السودان كما أورد أخبار بعض من الدول الإسلامية هناك منذ زمن مبكر .

ثالثاً: الدراسات الآثارية :

Soper .R.S: The Stone Age in Northern Nigeria .

وتعتبر هذه الدراسة من أهم ما قدم في حقل الدراسات الآثارية والتي قامت في كاتسينا، فقد أظهرت مواقع لكثير من القرى والمدن والحصون، وكشفت سر السلالات البشرية هناك، حيث قدمت الصيادين الأوائل الذين يستخدمون الأدوات الحجرية، ومن ثم تطورت أدواتهم إلى استخدام الخشب والحديد، في وقت سريع ، وذلك راجع للهجرات البشرية الكثيرة التي نقلت تلك التقنية إلى شعب الهوسا، كما أنها قدمت أنواعاً من الصناعات وموادها الخام، ويضاف إليها أنها استطاعت رسم ملامح المجتمع الهوساوي في وقت مبكر، من خلال العادات والتقاليد، فقد تم كشف النقاب عن نوع المعبودات وأشكالها والقرى التي كانت تقوم بتلك الطقوس .

لقد استندت تلك الدراسة على ما نقله الهوسا من تراث شفوي عبر الأجيال وبفضل ذلك التواتر، تم تحديد المواقع ، كما أن نتائج تلك الدراسة جاءت منسجمة مع التراث الهوساوي المنقول ومع الحقائق والمشاهدات التي ذكرها الرحالة الحسن الوزان، وما نقله كلابرتون فيما بعد .

رابعاً: المراجع العربية والمعربة :

لقد اعتمد الكتاب على جزء كبير من المراجع العربية والمعربة والتي تناولت تاريخ إمارات الهوسا، ضمن مواضيع أخرى، فلم يعثر المؤلف على أي مرجع عربي تخصص في

التاريخ الاقتصادي للإمارات، ما عدا ما قدمه الدكتور حسين سيد عبدالله في مقالته الموسعة حول دولة كانو الإسلامية، تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م.

واستخدم المؤلف ما ورد من المعلومات التي قدَّمها الأستاذ الدكتور إبراهيم على طرخان الذي يعتبر عميد المؤرخين في تاريخ الدراسات السودانية، فقد كانت مؤلفاته بمثابة حجر الزاوية لكل من أراد الكتابة والتعمق في تاريخ السودان الغربي، فقد استعان المؤلف بما ورد في كتاب دولة مالي الإسلامية وكتاب إمبراطورية البرنو الإسلامية .

هذا بالإضافة إلى العديد من الكتابات والدراسات العربية والمعربة لعل أهمها كتاب موجز تاريخ نيجيريا للمؤلف آدم عبدالله الألوري، الذي تناول شعوب السودان الغربي وأهم عاداتهم ومعتقداتهم، وبالرغم من قلة عدد صفحاته، وعدم اتباعه لبعض أساسيات المنهج التاريخى في اقتباس المعلومات إلا أن ما ورد فيه يلزم الباحثين الاستعانة به .

كما إن كتاب الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا للدكتور عبدالله عبد الرازق إبراهيم قدم للمؤلف دعماً كبيراً، فهو مرجع مدعم بعدد كبير من المصادر والمراجع ويحوي معلومات دقيقة عن الحياة الاقتصادية، وطرق البيع، وحرف الناس، وعاداتهم وتقاليدهم، خصوصا وأنه تناول جزءاً كبيراً من تاريخ الهوسا الذين وقعوا تحت سيطرة الفولانيين .

كما استُخدم كتاب حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا للدكتور شيخو أحمد سعيد، والذي طرح فيه قضايا كثيرة من بينها التركيبة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية للشعوب القاطنة في النيجر ونيجيريا، وبالرغم من أن دراسته تميل إلى الفروع الأدبية إلا أن استخدامه للمداخل التاريخية جعل من دراسته مرجعاً يعتمد عليه وتستقى منه المادة التاريخية عن شعب الهوسا الذي تحدث عنه وعن أعراقه المختلفة ضمن النسيج الاجتماعي للمنطقة .

واستعان المؤلف أيضا بما قدمه الدكتور خالد أوشن عن المقاييس والموازين وطرق المعاملات التجارية القديمة في غرب إفريقيا ، فهي دراسة وافية عن طرق المبادلة والبيع والأسعار والمكاييل ومسمياتها عند سكان غرب إفريقيا .

أما عن الدراسات المعربة فإن الكتاب استمد كثيراً من المعلومات الواردة فيه عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية المتخصصة في الحرف والمهن والصناعات والموارد الطبيعية، والأسواق، والطرق، والعادات والتقاليد والمجتمع، وغيرها من المعلومات من العديد من الكتب لعل أهمها كتاب أ . ج . هوبكنز ، **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية** . والسلسلة الموسوعية **لتاريخ إفريقيا العام الجزء الثاني، والرابع، والخامس**، حيث وردت في تلك الأجزاء مجموعة قيمة من الأبحاث التاريخية عن الهوسا كتبها الدكتور مهدى آدامو ، و م . أبيتبول ، و ب . ديابن، و م . بوسنانسكى .

وكذلك تم استخدام كتاب زاكارى مايكوريها **عن الحضارة الإسلامية في النيجر**، وكتاب روبن هاليت بوفيل: **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، وكتاب جون بادن: **أحمد بللو القيم والقيادة في نيجيريا**.

خامساً: المراجع الأجنبية :

إن الدراسات الأجنبية والتي تناولت تاريخ السودان الغربي كثيرة، وهي سواء قام بها الأفراد أم المؤسسات العلمية وغيرها، مازالت غير متداولة بشكل كبير، بسبب الاحتكار المفروض عليها وصعوبة الوصول إليها، ولكن ما يقوم به مركز جهاد الليبيين في ليبيا والمجلس الأعلى للثقافة في مصر، عمل مهم وغير مسبوق، من خلال السعى للحصول على تلك الكتب وترجمتها وتقديمها للباحثين بكل سهوله ويسر .

إن أهم تلك الدراسات الأجنبية التي استعان بها هذ الكتاب والتي كتبها كُتاب أجانب ومحليين من النيجر ونيجيريا هي:

The Transformation Of Katsina(1400-1883)

للدكتور: يوسف بلا Yusufu Bala :

وهو من أبناء المنطقة، حيث تناول في هذا الكتاب تاريخ كاتسينا من التأسيس وحتى حركة الجهاد الإسلامي سنة ١٨٠٤م، وقدم من خلاله معلومات مهمة اعتمدت على مصادر جديدة من خلال المخطوطات والدراسات الآثارية التي أجريت على كثير من المواقع، كما أنه تتبع التجمعات البشرية وتكوينها للمدن وطرق حياتها ، وعلاقاتها كمجتمعات رعوية، ثم زراعية، وصولا إلى المجتمع الصناعي .

ولم يغب عن المؤلف سرد نظم العلاقات ودورها في بناء المجتمع من خلال دعم الصلات والروابط الاجتماعية والمهنية والسياسية فيما بين تلك التجمعات .

كما استعان المؤلف بما كتبه المؤرخ الإنجليزى Smith . M . G جون سميث حول كاتسينا وزاريا، فقد قدم دراسة تمهيدية وافية ومحكمة عن تاريخ زاريا القديم، في عهد إمارات الهوسا، والمدن التي تم إنشاؤها والحروب التي خاضتها إلى أن وقعت تحت سيطرة الفولانيين، في كتابه الذي يحمل عنوان:

Government in Zazzau 1800-1950 .

كما تم الاعتماد على ما ورد عند الرحالة هنري بارث : Heinrich Barth's في مراسلاته التي بعث بها لوطنه من تونس تحت عنوان: Briefe Aus Tunesien 1845-1846

فقد ذكر فيها معلومات عن التجارة الصحراوية والمواد التي تجلب من غرب إفريقيا بواسطة القوافل .

والكاتب استعان أيضا بما نشر في مجلة دراسات كانو، والتي تصدر عن جامعة أحمد بيارو بنيجيريا، والتي احتوت على عدد من المقالات المهمة حول تاريخ شعب الهوسا، فقد قدم الدكتور سعد أبوبكر Saad Abu-Bakr دراسة حول زاريا وحكم الأميرة أمينة بها تحت عنوان:

Amina of Zazzau Exploits and Impact in the Savana Region of Nigeria .

سادساً: الدوريات العربية :

أما بالنسبة للدوريات العربية فإن أهمها ما قدمه الدكتور كرم الصاوى باز حول نظم **التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في الفترة من القرن ٨-١٠هـ/ ١٤-١٦م ومقالة تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب في الفترة من ق٣-٥هـ/ ٩-١١م، ومقالة دراسة نقدية تحليلية لمصادر التاريخ الاقتصادي لمنطقة غرب إفريقيا في القرنين ١٤-١٥م**، وهي من الدراسات المهمة والدقيقة، والتي يستفيد منها كل الباحثين في تاريخ غرب أفريقيا، فهي لم تقف عند حد الحياة الاقتصادية بل ذهبت أبعد من ذلك، في كونها تقدم مجمل أنماط الحياة في رؤية متكاملة للمجتمع السوداني الغربي .

وكذلك تم الاستعانة بما قدمه الدكتور سمير عزت إبراهيم في مقالة **الزواج الهوساوي** فقد تناول في هذه المقالة الأوضاع الاقتصادية للأسر في المجتمع، وطرق تقديم المهر، وقيمته ونوعيته، خصوصا وأنه كان يعتمد على ما تنتجه الأرض والحيوانات . يضاف إلى ذلك ما ورد في مقالة **الأمين أبومنقا محمد حول أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها في نشأة وتطور أدب الهوسا** . وما كتبه الدكتور **مصطفى حجازي عن الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا** ، وغيرها من الدوريات والدراسات المثبتة في قائمة المصادر والمراجع في نهاية هذا الكتاب .

وهذا الكتاب يعتمد على عدد كبير من المصادر والمراجع، والروايات الشفوية، والتي لم تضعف الأحداث، وإنما ربطت وقورنت مع غيرها من المعلومات، مما جعل سردها منطقي وعلمي إلى حد كبير .

وبالإضافة إلى ذلك الكم من المخطوطات والمصادر والمراجع والدراسات والأبحاث فإن المؤلف قام بزيارة ميدانية لبعض المناطق المتعلقة بموضوع الكتاب حيث تنقل خلالها بين القرى والمدن والمتاحف ودور حفظ المخطوطات، مما كان له بالغ الأثر في إنجاز هذا العمل المتواضع .

والله من وراء القصد

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾

[الأنعام]

صدق الله العظيم

لقد كان إقليم الهوسا بإماراته السبع Hausa Bokai وهي كانوKano، كاتسينا Katsina، زاريا Zaria، غوبيرGobir، رانوRano، دورا Daura، بيرام Biram من الأقاليم المهمة فى الفترة ما بين القرن ٨-١٠هـ/ ١٤- ١٦م وما بعدها بحكم وجوده بين منطقتين حضاريتين، الأولى : فى الشرق (السودان الأوسط)، والتي قامت بها مملكتى الكانم والبرنو[1]، والثانية : في الغرب (السودان الغربي)، والتي قامت فيها مملكة صنغى[2]التى ورثت الممالك الإسلامية التى قامت فى تلك المنطقة .

---

(١) الكانم والبرنو وهما من الدول التي نشأت حول بحيرة تشاد في السودان الأوسط في الشرق من إمارات الهوسا حيث يبدأ العصر الكانمي من بداية قيام الدولة إلى نهاية القرن ٨هـ/ ١٤م وعصر البرنو يبدأ من أواخر القرن ٨هـ/ ١٤م إلى بداية عصر الاستعمار الأوروبي . لقد كان الفضل في قيام هذه الدولة للعناصر المشكلة لها من الصو So والزغاوة Zagaua والكانمبو Kanembu والكانوري Kanuri والبولالاBulala، فقد كانت لهم كشعوب محلية محاولات لتأسيس دول متفرقة خاصة بهم، ولكن الأسرة الماغومية وهي من أصل طراقي، تمكنت من تأسيس الدولة الكانمية الواحدة التي تنتسب إلى سيف بن ذي يزن اليمني فسميت بالأسرة السيفية ولكن ظهور البرنو ومحاولة الوصول إلى الحكم أنهى وجود هذه الأسرة، وخضع الإقليم لحكمها، فقد كانت هذه الدول تحمل أطماعاً ضد إمارات الهوسا . لمزيد من التفاصيل انظر : إبراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٨ - ٢٠، ٤٣ ؛ مفتاح يونس الرباصي : العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو من القرن السابع إلى العاشر الهجريين/ الثالث عشر/ السادس عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ورقة ١١- ٣٦ .

(٢) مملكة صنغى : وهى التي ورثت الدول الإسلامية في السودان الغربي، حيث قامت بعد دولة مالي الإسلامية وعمرت هذه المملكة أكثر من ستة قرون وكان عدد حكامها نحو ٥٠ سلطاناً، عاصمتها جاو ولها دور بارز في نشر الإسلام في السودان الغربي، ويعتبر لقب الأسكيا أى الحاكم المغتصب، الذي يجب أن لا يكون إياه هو من أعلى المراتب فيها . ومن أشهر سلاطينها الأسكيا الحاج محمد أبوبكر التوري من السوننك إحدى فروع الماندنجو، الذي تولى بعد سني علي، حيث توارث أبناؤه الحكم فترة طويلة حتى تم تقويض هذا العرش على يد الغزو المغربي زمن المنصور الذهبي حاكم الدولة السعدية بقيادة جودر باشا سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م . لمزيد من التفاصيل انظر : السعيدي (عبد الرحمن بن عمران بن عامر، ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) : تاريخ السودان، تحقيق هوداس وبنوا، مطبعة أنجي، باريس، ١٨٩٨م، ص٧١- ٩١ ؛ إبراهيم طرخان : دراسات في تاريخ إفريقية الإسلامية قبل عصر الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض،=

وبالرغم من أن تلك الكيانات قد قامت ونشأت في ظروف خاصة بها إلا أنها كانت تحمل صفات ومؤثرات حضارية ولكل منها خصوصية بحكم الموقع والتركيبة السكانية الخاصة بها .

لهذا كان لزاماً على هذه الدراسة تقديم تمهيد يُعرف بإقليم الهوسا ويضعه في إطاره المكاني [1] لكي يتسنى للباحث دراسة الحياة الاقتصادية لإمارات الهوسا بكل عناصرها

= السعودية، ١٩٨١م، ص٨ - ٣٨ ؛ جميلة أمحمد التكتيك : مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، مركز جهاد الليبيين، ليبيا، ١٩٩٨م، ص٤٧ - ٧٢ ؛ عبد الرحمن المودن، محمد حجي : المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، ندوة دولية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٥، ص١١ - ١٩، ٢٧ - ٣٢ .

(١) مصطلح السودان يستخدم من قبل أغلب المؤرخين والجغرافيين بمفهوم واسع بالرغم من وجود مصطلحات أخرى للدلالة على نفس الرقعة الجغرانية كبلاد التكرور وبلاد الزنج ...إلخ، ولكن مصطلح السودان هو الغالب ويضم كل الأراضي التي تبدأ من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن الصحراء الكبرى شمالا إلى غابات السافانا جنوباً . ومن ثمة تقسم هذه المساحة إلى ثلاثة أقسام، الأول : السودان الشرقي ويبدأ من البحر الأحمر إلى إقليم دار فور، ويضم عدداً من الدول والممالك الإسلامية . أما القسم الثاني : فهو السودان الأوسط والذي يبدأ من حوض بحيرة تشاد وما حولها إلى أرض الهوسا، حيث تحدد الحدود بمدى سيطرة الدول والجماعات وقدرتها على فرض السيطرة . ثم يبدأ القسم الثالث: وهو السودان الغربي والذي يضم كل تلك المناطق الباقية حتى المحيط الأطلسي غرباً، وهذا الجزء أيضا تعاقبت عليه دول كثيرة بداية من غانة ثم مالي ثم صنغى، كما ضم عدداً كبيراً من الشعوب والأعراق التي تمازجت فيما بينها تحت مظلة الإسلام، فتركت تراثاً إسلامياً مازال ميدانا للدراسة والبحث والتحليل . لمزيد من التفاصيل انظر : ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر، ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م) : الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩٢م ؛ الاصطخري (أبوالقاسم إبراهيم بن محمد الفاسي، ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) : المسالك والممالك، تحقيق، محمد صابر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١م ص٣٥ ؛ القزويني(زكريا بن محمد محمود، ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت، ص٢٤ ؛ العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، ت٧٤٩هـ / ١٣٤٧م) : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٤٧ ؛ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، جـ٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،=

ودور سكان هذا الإقليم في الاستفادة من الموقع المكاني الذي ربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب من خلال الطرق والمعابر الصحراوية التي انسابت منها التجارة والمؤثرات الحضارية بالرغم من الصعوبات والمخاطر أثناء عبور الصحراء .

(أ) الموقع الجغرافي لإمارات الهوسا والتركيبة السكانية

للوصول لتحديد موقع إمارات الهوسا، ينبغي تحديد المفهوم العام لإقليم السودان الغربي الذي يضم كل المناطق الواقعة بين الحوض الأوسط لنهر غامبيا [1] والمجرى الأعلى لنهر السنغال، حيث يحده من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق إقليم السودان الأوسط، أما الشمال فإن الصحراء الكبرى كانت حاضرة بكل قوتها كحاجز طبيعي يصعب اختراقه، إلا أنها كانت بمثابة همزة الوصل بين بلاد المغرب بدوله المتعددة ذات الطابع الإسلامي، وبلاد السودان. أما الجنوب، فإن الغابات الاستوائية كانت ترسم الحدود الفاصلة بين إقليم السودان الغربي والشعوب والأجناس الإفريقية في مجاهل الغابات الاستوائية الإفريقية [2].

=٢٠٠٥م، ص٧١ ؛ محمد القندى وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية، مادة السودان، م ١٢، القاهرة، ١٩٣٣م، ص٣٢٧ – ٣٤٣ ؛ عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م، ص١٥ .

(١) لقد استخدمت الدراسات الأفريقية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، العديد من المصطلحات للتحديد المكانى للحضارات التى قامت فى السودان الغربى، منها إفريقيا الغربية، والسودان النيجري، وإفريقيا فيما وراء الصحراء، والسودان الغربي. ولكن أهم المصطلحات الحديثة كان مصطلح الفضاء السنغامبي نسبة لنهر غامبيا أو جامبيا، والذى يضم أكثر من عشرين دولة إفريقية فى السودان الغربي، وكان الفضل فى ابتداع هذا الاصطلاح وترسيخه فى مجال الدراسات الإفريقية للباحث الغيني الأصل بيكر بارى B .Barry . انظر : أحمد الشكرى: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م (نموذج بلاد السودان)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠١٠م، ص٢٨ .

(٢) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م، ص٥٩ –٧٥ .

وينبغي الإشارة هنا إلى أن إمارات الهوسا[1]ارتبطت بإقليم السودان الأوسط الذى كان يضم المناطق المحيطة ببحيرة تشاد ويحده من الشمال الصحراء الكبرى عند خط عرض ٢٢ شمالا، أما من الجنوب فتحده الغابات الاستوائية عند خط عرض ١٠ شمالا، أما من الشرق فيحده إقليم دارفور عند خط طول ١٠ شرقا الذي كان تابعاً للسودان الشرقي جغرافيا، أما من الغرب، فإن إقليم الهوسا يحده ويقع على خط طول ١٥غرباً[2].

إن وقوع إقليم الهوسا بين المنطقتين الحضاريتين سابقتي الذكر جعل منه منطقة يشار إليها بالأهمية ويعطيها بُعداً حضارياً ووسيطاً تجارياً مهماً . لهذا وجب تحديد إقليم الهوسا جغرافيا، فهو يقع ضمن الإطار الجغرافي المنحصر بين الصحراء الكبرى شمالاً، حيث يحدد بجبال العير ويستمر في امتداده إلى السفح الجنوبي لهضبة جوص، وصولا إلى خليج غانة جنوبا، حيث يضم في داخله هضبة الجوص، أما شرقا فإن البرنو تحده ككيان

---

(١) يدفع مهدي آدامو من خلال ما أورده في كتاب تاريخ إفريقيا العام بقولين، الأول : حول أرض الهوسا، حيث يرى أن الأرض التي سكنوها لم يكن لها اسم من قبلهم، حيث كانت تعرف باسم كازار قصر الهوسا، وهذا القول يدلل به صاحبه على أن التسمية لم تكن عرقية أو تضم أى تقسيم إثني مقفل بل إن لغة الهوسا كانت قوية التأثير على كل شعوب ذلك الإقليم مما رشحها لكي تكون الأقوى والمؤثرة والمسيطرة . أما القول الثاني : فيدفع بأن اللغة هي الأساس في التكوين الاجتماعي وهي العامل المجمع لكل من دخل في إطار تلك الإمارات وينفي بذلك صفة العرقية والإثنية، ولكنه ينقد نفسه في نفس الصفحة ويرى أن الهوسا من أهم التكوينات والمجموعات العرقية المهمة في إفريقيا، ومؤثراتهم اللغوية كانت الأقوى، مما جعل الشعوب المجاورة لهم تترك لغاتها الأساسية وتنضم إليهم . ومن الجائز هنا أن سيطرة الهوسا وصعود قوتهم الاقتصادية جعل من لغتهم المحور الأساسي للتعامل مع التجار في اعتبارهم الأصل والأقوى، وهذا ربما يضعف القول بأنهم أخلاط ومجرد شعوب تجمعت حول لغة فقط . انظر : مهدي آدامو : الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط، تاريخ إفريقيا العام، جـ ٤، اليونيسكو، لبنان، ١٩٩٤م، ص٢٧٣ .

(٢) محمد فاضل باري، سعيد إبراهيم كريدية : المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العملية، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٢١، ١٢٩، ١٣٠- ؛ محمد السنوسي العمراوي : نظام الحكم والإدارة بمملكة صنغي في عهد الأساكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠١١م، ص٤ .

سياسي مستقل وتنتهي حدوده الغربية عند ثنية نهر النيجر[1] أي أنه يقع بين خطي عرض ١٠، ٢٥ درجة و٥، ١٣ درجة شمالا، وبين خطي طول ٤ درجات و١٠ درجات شرقا[2].

إن هذه المنطقة والمنحصرة جغرافيا بين تلك الحدود شهدت انتشار شعب الهوسا بالرغم من وجود نوع من الصراع بين الشرق والغرب لفرض السيطرة، مما خلق حالة من عدم الاستقرار أدت إلى خلق إمارات متنافسة وغير متجانسة هدفها تأمين الوجود فقط .

لقد اعتبر إقليم الهوسا الحد الفاصل بين القوة السياسية فى الشرق ممثلة فى دولة البرنو بالسودان الأوسط والقوى السياسية فى الغرب والمُمثلة فى مملكة صنغى بالسودان الغربي، أما شمالا فإن أغاديس[3] كانت بمثابة حلقة الوصل تجارياً مع الشمال بكل دولة

---

(١) عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٨٥ ؛ حسين سيد عبدالله: دولة كانو الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م، نشرة محكمة يصدرها معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، رقم٤٧، ١٩٩٧م، ص٥ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٢٧٣ ؛ محمد فاضل، سعيد إبراهيم، مرجع سابق، ص١٤٦ .

(٢) حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص٦؛ انظر خريطة رقم (١) الملاحق .

(٣) أغاديس: تقع في الشمال الشرقي من نيامي عاصمة النيجر على بعد ١٠٠٠كم، زارها الحسن بن الوزان حيث ذكرها تحت اسم أغدس وأغلب سكانها من التجار، حيث كانت تحتوي سور وبيوت من القش ولها ملك ينفق أموالاً كثيرة على حرس القوافل بسبب اللصوص . وأغدس تقع في إقليم أمير وهي قاعدته. تكتب بأكثر من شكل منها أغادس، وأغاديس، أجادس وأكدس، وأقدز وأكدز ... إلخ هي من أهم المراكز في غرب إفريقيا تأسست في القرن ٥هـ / ١١م، على يد قبائل الغوابر حيث كانت تزود التجار بالماء والمؤنة، مما جعل كثيراً من التجار يقدمون إليها كما عاش فيها عدد من الصناع والحرفيين، فقد اشتهرت بصناعة الجلود . سيطرت عليها دولة صنغي، وكان لموقعها المهم دور بارز في استقطاب القوافل؛ فهي محطة تجارية وسيطة بين الجنوب والشمال الإفريقي، كما أنها المعبر المهم للحجاج الذين يعبرون ليبيا ومن ثم مصر وصولا إلى الحجاز . انظر : مجهول : تاريخ أكدز والطوارق، مخطوطة، بمعهد الأبحاث في العلوم الانسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٢، ورقة ٢- ٤ ؛ شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، حمزة أحمد عباس، جـ٤، أبوظبي، الإمارات العربية،٢٠٠٢م، ص١٣٣ -١٣٤؛ الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، ط٢، جـ٢. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص١٧١ـ ١٧٢؛عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، مكتبة الكتاب، مدينة نصر، مصر، ٢٠٠٠م، ص ١٢٩-١٣٠ ؛ أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٧ - ٢٨ .

وفى المقابل فإن الغرب ويعبر عنه بمناطق السافانا وصولا إلى المحيط الأطلسي، كان مصدراً مهماً وأرضاً للذهب والرقيق لكل السودان الغربي، لهذا كان دائما مقصداً وهدفاً لبعض حكام إمارات الهوسا المتعاقبين على إماراتهم بالرغم من أنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها[1].

لقد جاء فى كتاب إنفاق الميسور أن بلاد الهوسا تضم كل الأراضي الممتدة ما بين بحيرة تشاد ونهر النيجر وما ولاها من بلاد بوشي[2] فهي تقع حول جبل عظيم الارتفاع تظهر قمته للناظر على بعد عشرين ميلا، وبها مناجم معدن القصدير وبسبب وجود هذا المعدن فإن عدداً من الشعوب والقبائل سكنتها منذ وقت بعيد حيث كان أغلبها من قبائل البربر والنوبة وهم كفار وثنيين ولم يسلموا إلا فى وقت متأخر جدا[3].

لقد تداخلت عناصر الجغرافيا التضاريسية والسياسية ناهيك عن المفهوم اللغوي لمصطلح الهوسا، وصار هذا المصطلح غير واضح في كثير من الأحيان، فقد تناوله كثير من المؤرخين فى محاولة منهم لكشف ذلك الغموض حول تسمية الهوسا[4] أو

---

(١) بوفيل : روبن هاليت، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة، الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، ط٢، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٨م ،ص٢٠٩-٢٢٦ ؛ كرم الصاوى باز : تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية فى بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب فى الفترة من ق٣-٥هـ/ ٩-١١م، ندوة التواصل العربى الإفريقى عبر الصحراء الكبرى، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠٠٣م، ص٩-١٤ .

(٢)بوشي : مرتفعات على شكل هضاب وجبال بعضها عالٍ ومرتفع حيث تقع شمال نهر البنوي وهي الآن ضمن الحدود الإدارية لدولة نيجيريا . آدم عبدالله الالوري : موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص٦٥ .

(٣) محمد بلو بن عثمان فودي : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق، بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٦م، ص٥٦ ؛ آدم عبدالله الالوري، مرجع سابق، ص ٦٥ .

(٤) يرى بعض المتخصصين فى مجال علم اللغات أن مصطلح الهوسا ما هو إلا مصطلح مركب من مقطعين هو HAU ويعني أركب سا SA وتعني الثور أى بالمفهوم العام راكب الثور أو أركب الثور أى أنهم يركبون الثيران و يستخدمون المواشي في تنقلاتهم وتحركاتهم، وهذا تفسير غريب جدا، فقد أثبتت الدراسات العملية والجيولوجية من خلال الحفريات أن أنواع البقر هناك في المناطق المدارية=

الحوصا [1] ومكان سكنهم وأصولهم، وهذا ما دفع الدراسة فى محاولة منها لعرض جانب من تلك القضايا ذات الأهمية، خصوصاً حول جغرافية المكان وحدوده الفاصلة والصراعات الدائرة من أجل إعادة رسم الحدود من وقت إلى آخر، فقد كانت حاضرة بكل عناصرها بين دولتى البرنو وصنغى .

لقد طرح المفهوم اللغوي من قبل المؤرخين حيث اعتبر مصطلح الهوسا ذا بعد لغوي ليس إلا، فقد انتشر لسان الهوسا في تلك الرقعة الجغرافية المشار إليها، ولسهولته واعتماد السكان الخليط في المنطقة عليه في المعاملات التجارية كان له سبق الفرض والاستعمال، فهو لا يعبر وحسب رأي الكثيرين عن عرق أو مجموعة أثنية بعينها كانت تمتلك المنطقة

=وشبه المدارية ونتيجة للمناخ ونوعية الأعشاب ونسبة الرطوبة في الأرض، تؤثر على البنية والتركيبة الخارجية للبقر؛ حيث يكون صغير الحجم، وفي هذا اتفاق مع ما يرده الحسن الوزان الوزان حيث أكد أن البقر قصير القامة، فالكبير منه يشبه العجول ذات العامين في البقر العادي، كما أنه يؤكد أنهم يستخدمونها في الحرث ويدعون أنها شديدة الاحتمال والصبر. لذلك من الصعب الاعتماد عليها في الركوب والتنقل . كما أن كل الوثائق المكتوبة والروايات المنقولة والمتواترة لا تعير للبقر أى أهمية تاريخية في سيرة تاريخ الهوسا بالرغم من أن أعدادها كانت كثيرة وتذبح بأعداد كبيرة في المناسبات والأعياد خصوصا العجول الصغيرة منها . انظر: الحسن بن محمد الوزان : مصدر سابق، ص٢٦٤ الطيب عبد الرحيم محمد: الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٤م، ص ٣١٠ ؛ ب . واي . أنداه : غرب إفريقيا قبل القرن السابع، تاريخ إفريقيا العام، المشرف، جمال مختار، المجلد ٢، اليونسكو، ١٩٨٥م، ص ٦٠٨ .

(١) الحوصا : هكذا ترد في عديد من المصادر والمراجع وعلى ما يبدو أن للمكان المعروف بهضبة الحوص في الإقليم علاقةً وثيقة بهذه التسمية، فبعض المؤرخين يستخدمها عوضاً عن الهوسا، لذا رأت الدراسة إدراجها ضمن التوقعات التي ربما تكون هي الأصل في تسمية الهوسا، حيث حرفت من أصلها الذي هو الحوص، خصوصا عندما يذكرها بعض المؤرخين ويوردها حوس، فقد كتبها موسى كمر ومحمد بلو عثمان بالهاء عوضاً عن الحاء هوس، كما كتبت هوس وحوص وهاوس وحاوص وعند التتبع لمفهوم المصطلح وجد أنه كان يقصد به التعبير عن كل بلاد الهوسا من بحيرة تشاد إلى نهر النيجر . لمزيد من التفاصيل انظر : موسى كمر : أكثر الراغبين، تحقيق، أحمد الشكرى، خديم إمباكي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٣م، ص٩٩ ؛ محمد بلو ابن عثمان : مصدر سابق، ص٥٦ .

ولها لغة خاصة بها، ومأثور حضاري يمكن الركون إليه[1]،مما حرم الهوسا من الاستقلالية والخصوصية عبر التاريخ، على عكس الفولاني Fulani الذين حلوا محلهم، فقد أفردت لهم صفحات وأوجد المؤرخون لهم الاستقلالية التامة حتى وإن كانت الأسطورة تحاكي بعضاً من تاريخهم .

لقد قدم مهدي آدامو تحليلاً يعتمد على أن الهوسا ليست مجموعة عرقية وإنما هم ظاهرة لغوية ذات انتشار واسع تعتمد على قوة مؤثر اللغة فقط، فالهوسا ما هو إلا مدلول لغوي صرف ولكنه نسف ذلك في نفس الموضع واعتبر أن الهوسا تمثل مجموعة عرقية كشعب مستقل وله عرق خاص به بالرغم من وجود هجرات كثيرة لتلك المنطقة[2] .

لقد افترض بعض المؤرخين أن شعب الهوسا، والتي عاشت كقبائل فى شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحالية، كانت أبرز تجمعاتهم قبائل كيباوا kebbawa وهى التي بادت ولم يبق منها سوى اللغة كمؤثر قوي استفادت منه الشعوب التي هاجرت إلى المنطقة، مما جعل اللغة تبقى والهوسا كشعب باد وانصهر مع غيره[3] .

والمرجح أن صاحب هذا القول كان يرى أنهم انصهروا مع غيرهم ضمن نسيج واحد ولم يعد لشعب الهوسا عرق نقى، لهذا أصبحت اللغة هى الإطار الذى يجمع القبائل التى عاشت معهم فى نفس الموطن .

إن هذا الخلط وتلك المسوغات والآراء الكثيرة حول أصل الهوسا كأرض وشعب، جعل مهمة الوقوف على حقيقة الأمر من القضايا الصعبة فهي تحتاج لمصادر ووثائق ربما مازال البحث عنها مستمراً . ومما يزيد الأمر تعقيداً هنا، ما تعرضت له وثائق وتاريخ الهوسا من عبث وحرق وإخفاء كان مقصوداً من قبل الفولاني الذين أقاموا دولتهم على

(١) عبدالله عبد الرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، جـ ٤، ص٢٧٤ - ٢٧٦.

(٢) مهدي آدامو: مرجع سابق، جـ٤، ص٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٣) مصطفى على بسيوني أبوشعيشع : برنو في عهد الأسرة الكانمية ١٨١٤- ١٩٦٩، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٩٨٤م، ص ١٧ - ١٨ .

أنقاض إمارات الهوسا في فترة لاحقة، حيث اعتبروهم وثنيين، مما استوجب خوض حرب جهادية ضدهم قادها عثمان بن فودي مع بداية ١٩م[١] .

لقد شكلت المنطقة المنحصرة بين البرنو شرقاً وصنغي غرباً والصحراء شمالا وغابات السافانا جنوباً موطناً للهوسا الذين غاب تاريخهم وراء الأساطير والروايات الشفوية مما جعل كثيراً من المؤرخين يعتمدون على بناء الفرضيات والنظريات المدعمة بالأدلة للتدليل على أصل تلك الشعوب . لهذا كان لابد لهذا الكتاب من الوقوف على أهم ما طرح في هذا المجال من نظريات وآراء، فالرأي الأول : يعتمد على ما تطرحه بعض الوثائق التاريخية والتي من أهمها ما نشرها بالمر Palmer.H.R فى كتابهSudanese Memoirs والتي تخص حوليات كانو، حيث يرى بأن أصل الهوسا بناء على ما يروي عن قصة بياجيدا Bayajidaia الذى قدم من العراق إلى برنو واضطر تحت دافع الحرب من سلطان برنو من دخول أرض الهوسا، فقد استطاع بفضل ما قام به من أعمال أن يتزوج من إحدى بنات أميرة دورDaura حاكمة إحدى إمارات الهوسا، وبذلك تمكن من الحكم . وعند وفاته ترك أبناءه من بعده، مما جعلهم يسيطرون على بقية الإمارات ويكونون إمارات الهوسا السبع الأصلية[٢].

لقد طُرحت هذه الرواية[٣] في كثير من الوثائق وتناولها الباحثون بطرق متعددة،

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٨م، ص ٢٠٩- ٢١٢ .

(2) Palmer : H.R. Sudanese Memoirs, Frak Cass and CO. LTD, London, 1967, Vol 3, p 95 .

(٣) قصة بياجيدا : ذكرت في كل المواضع التي يذكر فيها تاريخ الهوسا حيث تناولها المتخصصون كلٌ وحسب استخدامه وتفسيره. ولكن ما ورد في مخطوط تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع من دقة وتكامل لدرجة انها لا تحمل في متنها أى قول لا يخضع للمنطق والواقعية، فقد ذكر المخطوط أن بياجيدا بن عبدالله من أمراء بغداد خرج منها بعد خلاف لم يفصح عنه صاحب المخطوط حيث يذكر انه قدم إلى البرنو ومعه قوة كبيرة من الفرسان حيث نزل ضيفاً عند سلطان برنو، ولكن بمرور الوقت وبسبب وشاية تم نقلها للسلطان حول تفكير بياجيدا في السيطرة على الحكم، جلس السلطان مع أعوانه للمشاورة فتم الاتفاق على تزويجه إحدى بنات السلطان وأن يستخدم سلطان برنو الحيلة لتفريق بياجيدا عن قوته العسكرية، حيث طلب السلطان منحه مجموعة من أصحابه ما بين ٤٠ و٥٠ فارساً يخرجون مع السلطان للجهاد في أرض الكفار ويتخلص منهم السلطان وعندما نقص عدد الفرسان وقلت قوة بياجيدا سنحت الفرصة للسلطان لقتل بياجيدا ولكن زوجته هذه=

فبعضهم نقدها وبعضهم أيدها وثالث أهملها . ولكن هذه الرواية تفرض نفسها كمؤشر تاريخي تحدث صراحة عن تاريخ الهوسا وإن ترك ما جاء فيها ربما يجانب الصواب . لهذا رأت الدراسة الوقوف عندها وتقديمها بشكل آخر، فهي لم تدخل إطار الأسطورة بسبب منطقية أحداثها فليس فيها ما لا يصدق وأحداثها من الجائز أن تكون واقعية خصوصا وأنها سجلت ودخلت إطار التدوين التاريخي في فترات مختلفة. ولكن ما يجعلها غير مقبولة عند البعض عندما تفسر بأن بياجيدا هو أصل الهوسا والمؤسس لذلك الشعب. وهنا وقع الخطاء في التفسير، فالقصة تتحدث عن السلالة الحاكمة التي حكمت إمارات الهوسا السبع Hausa Bokai والتي اعتبرت أصلية بسبب تولي أحفاد بياجيدا Byajidaia الحكم عليها، وما عداها فهي غير أصلية Banza Bakwai أى التي تولي حكمها أبناء بياجيدا من زوجته التي من برنو .

وهنا إذا ركن المؤلف لما تطرحه هذه القصة، فإن دخول الإسلام تزامن مع دخول بياجيدا وهذا يقوض كل الفرضيات الأخرى وهو ما استبعده كثير من المؤرخين .

= المرة أنقذته فقد أبلغته بخطة السلطان، مما جعله يخرج برفقة زوجته وأخويه. فقد ذهب أحد الأخوين إلى الكانم والثاني إلى باغرام، أما بياجيدا فإنه دخل إقليم الهوسا وعندما وصله غبس ترام ترك زوجته وذهب إلى دورا التي كانت تحكمها أميرة تتوارث الحكم عن أمهاتها. وعندما دخل بيت العجوز وطلب الماء، أجابته بقلته، والسبب يعود لوجود حية سركي في بئر الماء والناس لا يحصلون عليه إلا يوماً واحداً في الأسبوع، فقرر بياجيدا قتل الحية، خصوصا وأنه يمتلك سيفاً حديدياً قوياً. وتنجح في ذلك وعلمت الأميرة فكان جزاؤه الزواج من ابنتها حيث سكن معها في الدار وصار سركي أو ساركن Sarkin الذي هو اسم ثعبان البئر Ki-Sarki أي الحاكم أو الرئيس، وصار هذا اللقب هو الجاري على لسان سكان الهوسا ماى كيسركى أى قاتل الثعبان . لقد أنجب بياجيدا باو الذي أنجب بدوره سلالة الحكام في إمارات الهوسا الأصلية السبع . لقد جاءت هذه القصة متكاملة من حيث المكان والزمان والأعداد كما أنها تذكر أعداد الحكام وترتيبهم الدقيق كما أنها تذكر دخول الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى كانو وكيف عمل على تجذير الإسلام كما أنها تذكر أحداثاً أخرى كثيرة ومتعددة يمكن طرحها ومناقشتها . لمزيد من المعلومات انظر : مجهول : تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع : مخطوطة، بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٥٢١، ورقة ١ -٩ ؛ حسين سيدعبدالله : مرجع سابق، ص١٣ .

أما الرأي الثاني: فهو يسير في نفس الخط الأول ولكنه يعتبر أن باو جد أمراء الهوسا، ما هو إلا عبد لسلطان برنو أى أن أصلهم من برنو وهو لا ينفى قدوم الهجرة من البرنو، وهذا أيضا يتفق مع حكاية بياجيدا الذي قدم من الشرق ولم يأت من الغرب . لقد استفادت دولة البرنو من هذا الرأى، فقد اعتبرت أن حقها شرعي في المطالبة بالجزية، حيث كانت تدفع بشكل غير منتظم من قبل الإمارات ما عدا سلطان غوبير الذي رفض دفعها بحجة أن أصله حر وليس عبدا لسلطان برنو[١].

لقد كان من أشد أنصار هذا الرأى أصحاب حركة الجهاد الإسلامي في بلاد الهوسا في فترة لاحقة، فهو يتفق مع دعوتهم في كون تلك الإمارات غير إسلامية وحكامها من أصل مملوك وجب إسقاطهم وإحلال الشريعة الإسلامية محلها[٢].

أما الرأي الثالث: فقد اعتبر أن شعوب الهوسا في الأصل من الشعوب الإفريقية التي كانت تسكن الصحراء ثم سيطروا على منطقة الأير[٣] وكوار[٤] وتبستي فهم خليط من السكان الوافدين والأصليين حيث استقروا في أراضي الهوسا المذكورة . أما الرأي الرابع : فهو يرى أن الهوسا كانوا يسكنون الجزء الغربي لحوض بحيرة تشاد ثم دفعتهم الأحوال والجفاف وقلة الموارد للهجرة إلى موطنهم المذكور[٥].

---

(١) عبد القادر بن المصطفى : بعض أخبار هذه البلاد الحوسية السودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها، مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٤١٥، ورقة ٩ ؛ محمد بلو عثمان فودي : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص ٦٧ .

(٢) محمد بلو عثمان فودي : مصدر سابق، ص ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٣) الأير : إقليم جبلي يقع في الصحراء الكبرى بين خطي عرض ١٧ درجة و٢١ درجة شمالا وبين خطي طول ٩،٧ درجة شرقا تقدر مساحته بـ ٥٨٠٠ ميل مربع وتوجد به مصادر للمياه فهو يزود القوافل التي تدخل الصحراء بحاجتها من المياه مما جعله مقصد أغلب القوافل التجارية . لمزيد من التفاصيل انظر : إيفر، دائرة المعارف الإسلامية : مادة أير، المجلد ٥، القاهرة، ١٩٣٣م، ص ٢٨٧- ٢٩١ .

(٤) كوار : يقع جنوب فزان في الجنوب الليبي فوق رأس المفازة على رأس جبل وعر بينه وبين فزان مسيرة خمس عشرة ليلة كما قدرها البكري من خلال مسيرة الجيش . انظر: أبو عبيد البكري (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د، ت)، ص١٣ .

(٥) حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص ص ٨ -٩ .

أما الرأى الخامس : فإنه يرى أنهم من السكان المحليين وأصلهم من نفس نسيج المنطقة فهم وعلى حسب الرواية الشفوية خرجوا من ثقوب الأرض، وبسبب موقعهم الجغرافي الرابط بين الشرق والغرب، ومن خلال التجارة، جاءت إلى أراضيهم هجرات متعددة مما جعلهم أرض مُقام ومستقر لكثير من الشعوب، فحصل بذلك الاختلاط، ولعل أصحاب هذا الرأى يدللون على ذلك بهجرة الونقارة[1] المبكرة للإقليم وهجرة الفولانى[2] من

---

(١) الونقارة : هي جزيرة طولها ٣٠٠ ميل وعرضها ١٥٠ ميلاً والنهر يحيط بها من كل اتجاه في كل أوقات السنة. تعرف ببلاد التبر حيث يحمله الماء عبر النهر عند الفيضان وعندما ينحسر يجمع الناس ما تركه من تبر على الأرض ثم يباع في الأسواق وللتجار وخصوصا تجار المغرب، مما جعل سكانها من الأغنياء، فبلادهم معمورة وليس بها أسوار وهي خاضعة لدولة غانة . لقد كان لباس أهلها الأزر والقداوير، وهم سود جدا . يقول بعض المؤرخين. أن مصطلح ونقارة كان يقصد به أهل الهوسا فرعين من الماندنجو وهم السوننك والجولا، كما اعتبر بعض المؤرخين أن الديولا الماندبين هم الونقارة عند العرب فقد عرفوا بأسماء كثيرة، فهم عند المالكني بالنيجر العلوي الديولا، وعند الممبارا ماركا وعند منحنى نهر فولتا الأسود العلوي عرفوا باسم يارسي . ولقد عرف الهوسا والفولاني فرع الديولا باسم بوسا حيث أقاموا على الطريق الجنوبي الغربي من كاتسينا في بلاد الهوسا إلى الأشانتي وهو معبر فوق النهر ولهم حوله تجمعات خاصة بهم . لقد كان اسم ديولا يعني في لغة المالنكي التاجر وهم يكتسبون ذلك اللقب أباً عن جد . كما تؤكد بعض الدراسات أن الونقارة هم من أدخلوا الإسلام إلى بلاد الهوسا في القرن الرابع عشر، حيث وصلوا إلى كانو سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م فكانوا يتنقلون ويحملون تجارتهم على دوابهم فهم أسياد الذهب فقد استفادت منهم غانة ومالي كثيرا بحكم تجارتهم بالذهب . انظر: الإدريسي أبو عبدالله محمد ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة بريل، مدينة ليدن، ١٨٩٢م، ص٦-٩ ؛ إبراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٧ ؛ عبدالله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٢٢ ؛ مهدي رزق الله أحمد : حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،الرياض، السعودية، ١٩٩٨م، ص٨٠-٨١ ؛
Leo –Africanvs : Muslimandchiefs in West Africa "Astudy of Islamin the Middle Volta Basin in thepre " Colonial Period , oxford,1968 , pp 103-107 ; Lovejoy,P E:The Role Of the Wargala in the Economc Transformation Of the Cetral Sudan in the Fifteenth and Sixeassth Centuries, Journal Of African History,vol19,no2,(1978)pp173-193 .

(٢) الفولانى : يرى صاحب فتح الحنان المنان بأن أصل الفلان يرجع لعقبة بن نافع الفهري الفاتح العربي الذي فتح شمال إفريقيا حيث جاء ومعه عشرة الآف من المسلمين إلى نهر النيجر واستقر بمدينة=

الغرب كهجرات واضحة وكبيرة [1]، وهذا الرأى أكثر الآراء دقة فى كونهم كانوا يعيشون في ذلك الإقليم، وخروجهم من ثقوب الأرض يعنى أصالتهم وقدم مجتمعاتهم، ولكن تدفق الوافدين عبر الهجرات الكثيرة أدى إلى أنصهارهم خصوصا وأن شعب الهوسا يصنف من الشعوب الاجتماعية التى لها القدرة على تقبل الوافدين ومشاركتهم دون وجود عوائق اجتماعية تحول دون ذلك، وهذا القول سوف يؤكده الكتاب في الفصل الرابع .

ولكن السؤال المهم هنا وهو كيف طور الهوسا لغتهم وصارت هي لغة القادمين إليهم؟ بالرغم من أن القادم دائما أقوى وخصوصا الونقارة الذين حملوا الإسلام والمؤثرات

=السوق، حيث ترك ألفين من المسلمين لنشر الإسلام ثم رجع إلى القيروان فحرف ذكر العدد وصار من لفظ ألفين إلى فلان . بالرغم من أسطورة هذه القصة وعدم سلامة ما جاء فيها إلا أن أغلب كتاب الفلان يقولون بذلك فهم كغيرهم من الأفارقة يفضلون الانتساب إلى الأصول العربية وذلك لعدد من الأسباب لعل أهمها إيجاد السند الشرعي في الحكم، ولما للعرب والإسلام من تقدير واحترام عند الأفارقة . لقد تحدث كثير من المؤرخين حول أصل الفلان فهو مثار جدل إلى الآن، فبعضهم يرى أن بعضا منهم يرجع للعرب الفاتحين، وبعضهم يرجعهم إلى الروم، والبعض الآخر يرجعهم إلى الأقباط في مصر، والبعض يرى أنهم من الهجرات التي جاءت من اليمن والشرق عبر النوبة وبفضل تعايشهم وتصاهرهم مع الزغاوة والبربر والكوشيين استطاعوا الاستقرار في ذلك الإقليم الذي عاشوا فيه مع الهوسا، لقد دفع بعض المؤرخين أيضاً بالقول أن الفلان هم في الأصل من الحوض الأوسط لنهر السنغال ولهم هجرات كثيرة لعل أهمها الهجرة التي كانت في القرن الرابع عشر باتجاه الشمال الشرقي حيث اختلطوا بالقبائل البربرية ثم هاجروا إلى الشرق باتجاه إقليم الهوسا شمال نيجيريا وجنوب النيجر حاليا حيث اعتنقوا الإسلام فكان لهم دور كبير في القرن التاسع عشر عندما قامت حركة الإصلاح الديني على يد عثمان بن فودي . انظر: مرحبا القرشي: فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوطة، بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم١٨٠،ورقة ١٥ – ١٧ ؛ أحمد بن القاضي التنبكتي : مصطلح فولاني في بلاد المغرب، تحقيق، محمد منصور، فاطمة الحراق، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٠م، ص٥١ ؛ الطيب عبدالرحيم محمد : مرجع سابق، ص١٦ – ٢٥ ؛

Samuel N. NWABARA : The Fulani conquest and rule of the Hausa Kingdom of Northern Nigeria (1804-1900) In: Journal de la Société des Africanistes. 1963, tome 33 fascicule 2. pp. 231-242

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٧٤ – ٢٧٧ .

الحضارية. فهل كانوا أتباعاً للهوسا أو العكس؟ وكذلك حصل الأمر مع الفولاني الذين كانوا أقل تحضراً من الهوسا حيث يفضلون مهنة الرعي ويأنفون من الزراعة فاقتصر نشاطهم على الرعي ودفع الضرائب . فالهوسا وعلى ما يبدو أنهم كانوا أكثر دراية وأقوى تأثيراً من القادمين . فهل يكون من الصواب في هذه الحالة أن القادمين أكثر تحضراً من المقيمين ؟

إن خلاصة القول بين تلك الآراء المتعددة والتي من الصعب ترجيح أحدها على الأخر بسبب ما تحتويه من أدلة وبراهين يرى أصحابها أنها تحاكي الحقيقة التاريخية . ولا يستطيع المؤلف الجزم بحقيقة ثابتة حول أصل الهوسا، فالمرجح أنهم من ضمن النسيج الاجتماعي الإفريقي، فهم استقروا عبر فترات تاريخية متعددة في الإقليم، حاملين معهم أساليب تختلف عن تلك الموجودة في الإقليم، حيث ساعدهم موقع إقليمهم المهم من استقبال أعداد كبيرة من الهجرات التي استقرت وتداخلت مع شعب الهوسا والشعوب الإفريقية الأصلية فشكلت بذلك نسيجاً اجتماعياً واحداً يمكن الركونُ لما تركه من مؤثرات حضارية واستثمارها والبحث فيها . وربما بسبب هذا التداخل العرقي لتلك الجماعات فقد مُنعت من الانضواء تحت دولة واحدة وجعل إمارات الهوسا تستقل عن بعضها البعض دون أن تشكل دولة واحدة تعبرعن تلك اللغة الواحدة .

(ب) إمارات الهوسا وانتشار الإسلام :

الراجح أن المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد وبين مملكة صنغى كانت تعرف باسم البلاد الحوسية السودانية[1]، فقد سيطر مصطلح الحوسية أو الحوصية على ذلك الإقليم، ولكن الملاحظ هنا أن هذا المصطلح اختفى بحلول حركة الإصلاح الديني[2].

---

(١) عثمان بن محمد بن فودي : تنبيه الإخوان على أرض السودان، مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، رقم ٢٦٥، نيامي، النيجر، ورقة ٥ .

(٢) تؤكد أغلب المصادر والمراجع أن تاريخ الهوسا والوثائق الخاصة بهم قد تعرضت للحرق والإبادة وذلك راجع لكونهم وثنيين من وجهة نظر عثمان بن فودي وأتباعه بالرغم من محاولة أحد أحفاده وهو محمد بللو الذي حاول إيجاد مبررات لجده حيث اعتبره محافظاً وعالماً يرفض مثل هذه الأعمال إلا أن الرجال والقادة الذين حوله وقادة المعارك في أجزاء من إمارات الهوسا كانوا يفتقرون إلى الفهم مما جعلهم يقبلون على تدمير كل الوثائق وسجلات الهوسا القديمة . انظر : أحمد بللو : سيرتي الذاتية، ترجمة صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٣م، ص ٥٠ .

لقد قدّمت بعض الوثائق تقسيماً واضحاً يختلف عما هو سائد عموما فقد اعتبرت البلاد الحوسية السودانية مقسمة إلى ثلاثة أقسام عوالي، وأواسط، وسوافل . والعوالي تضم بلاد البرنو، وأهير، وزيرم، وصنغى، أما الأواسط فتضم بلاد الهوسا بإماراته السبع، أما السوافل فتشمل بلاد بيابيا وهي أرض الوثنيين في أقصى الجنوب وصولاً إلى المحيط الأطلسي وهي بلاد لم يسيطر عليها سلاطين البلاد الحوسية السودانية وهي مترامية الأطراف وبها شعوب كثيرة(١).

إن هذا التقسيم محلي حيث يعتبر السودان الأوسط والغربي وحدة واحدة، وقسم الإقليم بشكل عرضي يبدأ من الشرق وينتهي بالغرب ويعتبر المناطق الشمالية هي العلوية والتي تليها وسطى، والجنوبية سفلى، إن المثير في هذا التقسيم أنه يعتبر كل تلك البلاد بلاداً حوسية سودانية ويعتبر وسط تلك البلاد إقليم الهوسا الذى يضم الإمارت السبع(٢)

---

(١) عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة، ورقة ٢ - ٣ .

(٢) لقد وردت أشكال كثيرة ومتعددة حول رسم أسماء الإمارات وكلها تعبر عن نفس المكان لذلك كان من السليم وضع تلك الأشكال التي كانت تكتب عليها أسماء الإمارات . فزوايا وردت في المصادر القديمة زكزك، وكاتسينا وردت كشنة، كثنة كطنا، أما دورا تكتب بدون ألف دور، أما غوبير فترسم جوبير و غوبير، أما زمفارا فتكتب زنقرة، وزمفرا، أما كانو فانها تكتب كنو، وكنوا، وكانو، وأخيراً رانو فإنها غالبا ما تكتب برسم واحد . كما أن الترتيب العام لبعض الإمارات بين الأصلية والفرعية جاء عند بعض المؤرخين مختلف فقد اتفق الجميع على أن الأصلية هي زاريا، وكانو، وكاتسينا، وغوبير، ودورا، ورانو، واختلفوا حول بيرم ورمفارا ولكن وثيقة تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، ذكرت الترتيب كما هو ولكنها استبعدت بيرام واستخدمت مكانها غبس تيرام . أما عبد الرحمن زكي فإنه أورد ست إمارات واعتبر زعفرا وكبي من ضمن الأصلية، وإبراهيم حسن اعتبر أن زامفارا هي السابعة وكذلك فعل آدم عبدالله الألوري والذي اعتبر زنقرة هي من الإمارات الأصلية حيث حدد موقعها شرق سوكوتو واعتبرها أول إمارة يحكمها ابن أبياجيد، إن الملاحظ هنا وفيما ذكره صاحب إنفاق الميسور أن البرنو من ضمن إمارات الهوسا السبع، ويقول: إن إمارات الهوسا كاشنة وكنو وزكزك ودور وبرنو وبيرم من ولد باو وفي هذا خلط كبير . إن المتفق عليه عموما أن الإمارات الأصلية تضم غوبر، وكاتسينا، وزاريا ودورا، وبيرام، ورانو، وكانو، أما غير الأصلية على اعتبار أنها لا تتحدث لغة الهوسا هي كيبي، وزمفرا، ونيب، وجواري، ويوري، وايللورين، وكوارارافا . للمزيد انظر : عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة، ورقة رقم ١ ؛ محمد بلو بن عثمان : مصدر سابق، ص٦٧ ـ ٦٩ ؛ عبد الرحمن زكي:=

والتي تعرف Hausa Bokai وهي غوبير Gobir في الشمال على أطراف الصحراء، وكاتسينا Katsina في وسط الإقليم، وزكزك زاريا Zaria إلى الجنوب من كانو، ودورا Daura في الشمال من كانو، وبيرام Biram ورانوRano والإمارة السابعة كانوkano وهي الأشهر[1].

وإلى جانب تلك الإمارات الأصلية كانت توجد إمارات أخرى غير أصلية Banza Bakwal وهي كيبي Kebbi ويوروبا Yoruba وايللورين[2] Illorin وكواررافا[3] Kwarafa وبرغرBargu وزمفرا Zanfara[4].

=الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٨٦ ؛ حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١١٦ ؛ آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص٧٥ ــ ٨٣ ؛ أحمد محمد كاني : مرجع سابق، ص٤٩ ؛ عبدالله عبدالرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص ٦ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٦٦ ؛ مهدي آدمو : مرجع سابق، جـ٤ ، ص٢٧٧ ؛ مهدي رزق الله أحمد، مرجع سابق، ص ٣٨٠ .

(١) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٦ ؛ محمد فاضل باري، سعيد إبراهيم كريدية : مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ انظر : الملاحق الخريطة رقم (٢) .

(٢) ايللورين: هى من المدن التي تأسست في عهد حركة الإصلاح الديني حيث تقع حاليا في نيجيريا في الإقليم الشمالي وهي مقاطعة وسطى لها أهمية سياسية بالغة في كون شعبها مكون من الهوسا والفولاني. انظر : جون بادن، أحمد بللو القيم والقيادة في نيجيريا، ترجمة وتقديم صبري محمد حسن، المركز القومى للترجمة، جـ١ ، القاهرة، مصر، ٢٠١٠م، ص٦١٨- ٦٢١ .

(٣) الكواررفا : وهي من القبائل المحلية تعرف باسم جوكن يعرفها الهوسا بـ كواررفا في لغتهم تسكن في الوقت الحاضر في نيجيريا حول نهر بنوى وهي تحد إقليم الهوسا من الناحية الجنوبية الغربية . ولفظ كورورو الذي اشتق منه اسم هذه القبيلة يعني شعب الملح بسبب وجود مناجم الملح في أراضيهم، واشتغالهم به . لقد لعبت هذه القبيلة دوراً مهماً في تاريخ وسط وشمال نيجيريا في أوقات لاحقة، وهم مثل الهوسا، فقضية أصولهم لم تحسم بعد فهناك من يرى أنهم نزحوا من أعالي مصر والبعض الآخر يرى أنهم من نفس نسيج المنطقة أى أنهم محليون، وآخر يرى : أنهم هجرات جاءت من الشمال الشرقي إلى الإقليم حيث تزامن وصولهم مع وصول الكانوري إلى برنو . انظر : آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص٨٣- ٨٤؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٢٨٧ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص ٤٣.

(٤) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٦ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٦ .

لقد تحدثت المصادر والمراجع عن إمارات الهوسا بكثير من الاختصار والندرة من حيث التأسيس والأنشطة الحضارية المختلفة، لهذا كانت المعلومات الورادة قليلة جدا ولكن ما هو موجود ربما يكفي لرسم المعالم العامة لما كانت عليه تلك الإمارات المتصارعة.

لقد اعتبر بعض المؤرخين أن إمارات الهوسا السبع[1] تأسست قبل مجيء الإسلام إلى الإقليم بما يقارب مائة سنة حيث أخذت عملية التواصل ودخول المهاجرين سلميا وبدون عوائق ساعدهم في ذلك عدم وجود قوة مسيطرة في السودان الغربي[2].

(١) للحديث عن تأسيس إمارت الهوسا وخصوصا أن بعض من المؤرخين يشير إلى التركيبة السكانية على اعتبار أنها ساعدت كثيرا في ذلك التأسيس، فالهوسا وعلى مايبدو من خلال الدراسات أنهم من أصل النسيج الاجتماعي الزنجي الإفريقي بالرغم من أن لغتهم حامية المنشأ . كما يعتقد الكثير من المؤرخين بأن الهوسا لا يملكون الخصوصية العرقية أو الإثنية فهم مجرد أخلاط من شعوب متعددة محلية وهجرات خارجية اتخذت وحدة اللغة عامل تجمع وحيد يجمع فيما بينها . كما يرى بعضهم أنهم عبيد رقيق مجلوبون من برنو ما عدا سكان غوبر الذين يمثلون الهجرات الخارجية التي جاءت من مصر في فترات قديمة . أما الفولاني فهم أيضا من أصل غير محدد والأقوال حول أصلهم كثيرة : انظر الهامش ص١٠ . أما البربر فهم من الجماعات التي هاجرت من شمال إفريقيا مثل زناتة ورفجانة ونفوسة ولواتة ونفزاوة بالإضافة إلى صنهاجة الملثمين ومسوفة في وقت مبكر وعبر فترات زمنية مختلفة حيث استقروا في المدن المتاخمة للصحراء مثل أودغست وتوات وولاتة ثم دخلوا الإقليم. أما الونقارة: انظر هامش ص٤٢. أما الكانورى : فهم أيضا من الشعوب المحلية ذات الأصول الإفريقية فقد هاجروا من الكانم والبرنو حيث اختلطوا مع العرب والبربر والزنوج حافظوا على لسانهم ولغتهم الخاصة بهم مما جعل المتكلمين بها يضمهم هذا العرق كما أن الإقليم ضم الباوتشي وهم أيضا شعوب زنجية إفريقية سكنت الجنوب من هذا الإقليم وكانت تشكل جزءا من التركيبة السكانية، كما يضاف عنصر آخر وهو الرقيق الإفريقي متعدد الأجناس وغير معروف مكان الجلب فقد عمد بعض أمراء إمارات الهوسا على جلب أعداد كبيرة من الرقيق الإفريقي الوثني لتشكيل قرى وتجمعات سكانية كانت نواة لكثير من المدن . أنظر : مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص١١٧ - ١١٩ ؛ محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٥٨ ؛ س . ج . سليجمان : السلالات البشرية في إفريقيا، ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربي، القاهرة، (د . ت)، ص ٧١ - ٧٢ ؛ هوبير ديشان : الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، مراجعة محمد عبدالله دراز، تقديم مصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ص١٠٠ - ١٠١ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٩٤ .

(٢) جون بادن : مرجع سابق، ص٣٤٦ .

لقد كان تأسيس الإمارات دون شك أسبق من ذلك التاريخ، كما أنها أسبق من دخول بياجيدا إلى الإقليم فقد كانت إمارات الهوسا قائمة وأبناء بياجيدا هم من كونوا السلالة الحاكمة أو سيطروا على الحكم من الزعماء المحليين الذين كانت سيطرتهم محدودة بسبب وجود الدور القوي الذي يلعبه الكاهن الأول في كل إمارة فسلطته تفوق أى سلطة فهو من خلال تفويض المعبود يختار الحاكم الأقل منه سلطة [1].

لقد تداخلت جميع العناصر السكانية فيما بينها داخل الإقليم وكونت ذلك الإطار السياسي المستقل في كل إمارة من الإمارات السبع دون أن تفكر في تكوين إطار سياسي موحد يجمع شملها وذلك ربما راجع لعدم التجانس وبدائية التفكير وعدم نضوجها سياسيا، بالإضافة للضغط المستمر من قبل الدول المجاورة التي كانت تحكم الخناق على الإمارات وتلزمها في أحيان كثيرة بدفع الجزية كإمارات خاضعة لسلطة صنغي من ناحية أو البرنو من الناحية الأخرى، أما في حالة تجميع القوة وشعور أى إمارة بامتلاكها لعناصر القوة فإنها وبشكل مباشر تفكر في غزو جاراتها واسترقاق سكانها ونهب خيراتهم وهدم دورهم . لهذا تطرح دائما إمارات الهوسا بشكل مستقل وهي كالآتي :

(١) كانو [2] Kano :

إقليم كبير وشاسع الأطراف يقع على بعد خمسمائة ميل شرق نهر النيجر ويحده من الغرب إقليم أغاديس [3] وتضاريس الإقليم تحتوي على أنهار وجبال ووديان ورمال مما

---

(١) مجهول: تاريخ أرباب كنو : مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ٣٦٦٣، ورقة ٢-٦.

(٢) كانو : تكتب في المصادر العربية والوثائق السودانية كنو وترسم في المراجع العربية الحديثة كانو kano وهي عاصمة وولاية مهمة أنشأها الهوسا في القرن الرابع عشر ميلادي حيث أصبحت مركزاً تجارياً مهماً بسبب عبور القوافل التجارية والحجاج من خلالها، وتقع تحديدا شمال نيجيريا وجنوب الحدود مع النيجر بحوالي ١٥٠كم . انظر : عبد الحكيم العفيفي : مرجع سابق، ص٣٩٠ ؛ محمد بن شريفة : مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العملية في شمال نيجيريا خلال القرنين ١٥ -١٦ م، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٣م، ص١٢ .

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٧٣ ؛ مارمول كربخال : إفريقيا، ترجمة، محمد حجي وآخرون، جـ٣، دار المعرفة للنشر، الرباط، المغرب، ١٩٨٩م، ص٢٠٧ .

جعل التربة خصبة وساعد على وجود الأشجار المختلفة والغابات، فهو يوصف بالبركة نتيجة لتوفر تلك الميزات الطبيعية [1] كما أنه ساعد كثيراً في وجود تجمعات سكنية على هيئة قرى وبعض من المدن يشتغل سكانها بالزراعة والرعي ويمتهنون بعضاً من الحرف .

إن هذا الإقليم والذي يوصف بالغني والواسع احتوى على تجمعات سكنية متعددة حيث يرى بعض من المؤرخين أنه كان في البداية أرض فلاة تعيش فيه الوحوش ويسكنه بعض من جماعة فوررفا وهي أقرب إلى الطرف الشمالي من أوسط أرض السودان [2]، ولكن نوعاً من الغموض يلف تاريخ تأسيس هذه الإمارة كغيرها من الإمارات بالرغم من أن كانو أحسن حظاً في كون جزء من تاريخها المدون الذي يتحدث عن النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري هو الذي يناقش من قبل المؤرخين .

لقد تحدثت حوليات كانو التي وردت في كتاب بالمرSudanese Memoirs [3] عن الحياة السياسية بشكل عام حيث احتوت على قائمة تضم ٤٨ حاكماً من حكام كانو أي من التأسيس إلى وقت متأخر، وقد استخدم هؤلاء الحكام لقب ساركن [4] الذي يعد أرفع الألقاب، إلا أن ما تقدمه وثيقة أرباب كنو لمؤلف مجهول تقدم التاريخ الوثني للمدينة والتي تعتبر أن أول من سكن كانو رجل أسود غليظ الملامح ومفتول العضلات بجماعته

---

(١) محمد بلو : مصدر سابق، ص٦٧ .

(٢) آدم بن محمد العطار : الإعلان بتاريخ كنو، مخطوطة بالمكتبة المركزية، جامعة بايرو، نيجيريا، رقم ٤٥٣، ورقة ٦ - ٧ .

(٣) اكتشفت حوليات كانو سنة ١٩٠٩م حيث كانت مكتوبة بالعربية لمؤلف مجهول، ترجمت إلى الإنجليزية عن طريق المؤرخ بالمر الذي وضعها في كتابه تحت عنوان مذكرات السودان وطبعت سنة ١٩٦٧م وتعد من المصادر المهمة في تاريخ كانو وحكامها فيها تقع ما بين صفحة ٩٢- ١٣٢ من نفس الكتاب، حيث سرد فيها قصة بياجيدا وقدومه لبلاد الهوسا وكيف تأسست الإمارات ثم قدم الحوليات في صفحة ٩٧ تحت عنوان The Kano Chronicle حيث يبدأ في صفحة ٩٩ بذكر أول حاكم باغودا ين باو سنة ٣٨٩-٤٥٥هـ/ ٩٩٩- ١٠٦٣م وتنتهي في صفحة ١٣٢ في عهد محمد بلو بن إبراهيم بلو سنة١٣٠٠ - ١٣١٠ هـ/ ١٨٨٣ - ١٨٩٢م أي أنه يذكر ٤٨ حاكماً لكانو وأهم الأحداث التي وقعت في زمانهم . انظر: Palmer. H.R: Sudanese Memoirs, pp 92-132 ؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص١٢ .

(٤) تعريف الساركن : انظر هامش ص٤٠ .

يدعي بوشو سلاحه عصا يصطاد بها الفيلة ولا يعرف أصله ولكن قبيلته من دالا وهم على الوثنية يعبدون صنماً اسمه ثيتربري تحت شجرة اسمها شموس والرجل الذى كان يجلس تحتها ليلا ونهارا اسمه ميشبير ولديه بربوش أي خص من قش من دخل إليه يموت[1].

وما تقدمه الوثيقة دليل واضح على وجود حكومة قبل سيطرة باغودا بن باو بن بياجيدا على الحكم، فقد كان سكان الإقليم الوثنيين يعيشون حول تل دالا المقدس ولديهم طقوسهم الخاصة، فقد ربطت الوثيقة فى سرد دقيق علاقة الشجرة والجبل والغار القريب منها حيث إن هناك تزامناً فى إقامة الاحتفالات التى هى يومان فى السنة وكان يحضر الجميع ومعهم القرابين والتي تكون فى الغالب من الدجاج أو الماشية أو الأغنام وتذبح كطقوس خاصة ويظل جميع الموجودين يأكلون ويشربون من أول الليل حتى الصباح بشرط خلع ملابسهم كاملة، والشجرة تقسم طالع الناس من كان سعيداً أو شقياً خلال ذلك العام عن طريق ما يقوله الكاهن[2].

في ظل هذه المعتقدات يقول صاحب المخطوطة: إن رجلاً منهم كان معروفاً بالصدق أخبرهم بأن الشجرة المقدسة سوف تقطع من قبل رجل يملك هذه الأرض، مما جعل الأمر ممهداً أمام باغودا بن باو بن بياجيدا Bagoda Son of Bauwo ٣٨٩ - ٤٥٥هـ / ٩٩٩-١٠٦٣م، الذي قدم مع بعض من أهله وعاش في البداية في الإقليم وبمرور الوقت استطاع فرض سيطرته وسيادته على الإقليم بحكم ذلك المعتقد حيث دخل في مواجهة مع الكاهن الأكبر، ولكن في النهاية خضع الجميع لسلطانه. لقد استطرد صاحب الوثيقة في الأحداث بشكل دقيق كما أنه يذكر الحكام خلفاء باغودا ويذكر أهم الأعمال التي قاموا بها وخصوصا القضاء على سلطة الكاهن بتحطيم الصنم وقطع الشجرة ومحاربة الوثنيين[3].

إن التحليل العام لما جاء في الوثيقة يدور حول التأسيس والصراع الذي كان قائماً بين السكان المحليين تحت قيادة الكاهن وبين الوافدين بقيادة باغودا ولكن السؤال المهم

---

(١) مجهول : تاريخ أرباب كنو، ورقة رقم ٢؛ Umknown Outher : The Kano Chronicle Edited, By Palmer.H . R .,J . R . A . I , vol , 38 (Jan -1908),p 70 .

(٢) المخطوطة السابقة : ورقة ٢-٥ .

(٣) المخطوطة السابقة، ورقة ٣ - ١٥ .

والذي يطرح نفسه هو: لماذا ذلك الصراع هل هو من أجل السيادة والسيطرة ؟ أو أنه من أجل العبادة ونوعية المعتقدات ؟ لقد دفعت هذه الوثيقة أيضا بأسماء كثير من الحكام وحروبهم الداخلية والخارجية، والغريب أنها ذكرت صفات الحكام ببعض المهن وربما مرد ذلك لأنهم كانوا يشتغلون بها أو أنها كانت مصدر فخر واعتزاز لهم مثل الحداد، وصاحب النهر، والمداوي لكل الأمراض، ومخرج الحديد من الأرض، ومذيب الحديد .

كما أنها تقدم معلومات مهمة حول قدوم الونقارة الذين قدموا بالإسلام إلى كانو فتذكر أنهم كانوا ٤٠ شخصاً أكبرهم عبد الرحمن بتبر(١)، ومعه يعفور، ومندور وقاموری،

---

(١) إن قضية دخول الإسلام إلى الإقليم من القضايا التي لم تحسم بعد فهي مثار جدل بين المؤرخين فبعضهم يرى أن الونقارة هم من أدخلوا الإسلام، ويدفع بها لديه من أدلة، وبعضهم الآخر يرى : أن الإسلام جاء عن طريق الكانم و البرنو في الفترة ما بين القرن ١١ -١٤م من خلال هجرات كثيرة . وبعضهم يرى : أن البربر أي سكان الصحراء والخليط ما بين الطوارق والعرب هم من نشر الدين في الإقليم . كما يرى : بعضهم أن الفولاني هم من نشروه في الإقليم.
لقد ذكرت جماعة الونقارة سابقا بقيادة عبد الرحمن زيتي كما يورده أحمد محمد كاني ولكن وثيقة تاريخ أرباب كنو تورد الاسم بهذا الرسم المذكور في متن هذه الصفحة، ولكن وثيقة أصل الونغريين تورده تحت اسم عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن محمد قثم الونغري، وقد دخل مع جماعته زمن السلطان محمد رمفا حاكم كانو وليس كما جاء في هذه الوثيقة زمن على ياجي المعروف Yaji Son Tsamia سنة ٧٥٠ - ٧٨٧هـ / ١٣٤٩- ١٣٨٥م وهو الساركن الحادي عشر صاحب المزاج السيء والذي قاد حروباً كثيرة من أجل توسيع إمارته، ففي عهده جاء الونقارة من مالي كما تذكر حوليات كانو . ولكن المستغرب هنا هو أن السلطان كان يحارب الوثنيين ويحمل اسماً يدل على التأثير العربي فكيف يكون أول قدوم للإسلام عن طريق هؤلاء ؟ ومن خلال ما تقدم يمكن للدراسة هنا أن تسجل أن تسرب الإسلام كان قبل ذلك التاريخ وكان ربما مقتصر على السلطان وقليل من حاشيته ولم يكن للعامة الفقراء بسبب ضعف النشاط الدعوي من جهة وعدم وجود دعاة قادرين على نشر الدين بين الناس من جهة أخرى، لهذا عندما جاء الونغارة وجدوا الأرض جاهزة لبذر بذرة الإسلام، خصوصا وأن ما صدقته بعض الروايات في كون العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي جاء في هذه الفترة . انظر : شيخو أحمد سعيد غلادنثي : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط٣، النهار للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٨م، ص٢٧، ٣٧ ؛ Palmer :op cit , pp 104 – 106؛ أحمد محمد كاني : مرجع سابق، ص٣٣ ؛ حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص٢٢-٢٣ ؛ مهدى رزق الله أحمد: مرجع سابق، ص٣٩١-٣٩٤؛
A.M. Kani : The Rise and Influence of Scholars in Hausaland Before 1804 , Kano Studies,V2, no 2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981 , pp55 – 70

وبلقاسم ...إلخ . وهم ١٨ شخصاً، يبدو أنهم القادة لذلك الركب من الونقارة المسلمين فهم من تولوا الإشراف عن نشر مبادئ الإسلام من خلال إقامة الصلاة في أوقاتها والإشراف على ذبح الحيوانات بالطريقة الشرعية، كما أنهم ساهموا في إقامة المساجد والتي أشهرها المسجد المقام مكان الصنم، حيث تحول إلى مركز للسلطان ومكان لتخزين السلاح حيث كان يعج بالناس خلال الليل خوفامن تدنيسه من قبل الوثنيين [١].

تقول بعض الوثائق أن عدداً من السلاطين كان عددهم يصل إلى ما بين أربعين وثمانية وأربعين سلطاناً حكموا من سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م إلى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٩٢م، ولكن وثيقة تاريخ سلطان دورا ترى أن من باغودا المؤسس إلى محمد رمفا [٢] ١٨ سلطاناً حكموا ما يقارب من أربعمائة وخمس عشرة سنة، وأن سنوات حكم تلك السلالة من المؤسس إلى السلطان الوالي ٧٥٥ سنة [٣].

إن تلك الوثائق دون شك تقدم جزءاً كبيراً من الحقيقة، فهي تعرض سلالة حاكمة أسست الدولة وقادتها مدة طويلة من الزمن خاضت خلالها حروباً هجومية وأخرى دفاعية من أجل البقاء. وبالرغم من بساطة ذلك التكوين السياسي وعدم النضج الواضح فإن نوعاً من المدنية يمكن أن يطلق عليها مع الاعتراض حول قياس أو مقارنة تلك الإمارت بما كان موجوداً فى بلاد المغرب أو مصر، فالحياة ونوع الوعي كان بسيطاً جداً والحياة كانت بدائية جدا، لهذا لم ترتق تلك الإمارات لمرتبة كبيرة فمن الخطأ النظر إليها على أساس الإمارات المتكاملة والناضجة في جميع مرافقها .

لقد كانت مدينة كانو والتي سميت على اسم الإمارة نموذجاً بسيطاً لإمارة الدولة فهي مدينة مسورة بجدار طيني يحيط بها من كل الاتجاهات وقد اعتمد في مواده على التبن

---

(١) مجهول : تاريخ أرباب كنو، ورقة ٦، ١٧ - ١٨ ؛

Lewis .I.M: Islam in Tropical Africa , Oxford 1969 , pp24-25.

(٢) الساركن محمد رمفا ٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٢-١٤٩٨م وهو أعظم حكام كانو منذ تأسيسها، وقد اشتهر بالعلم والصلاح،كما كان حاكما قديراً حيث قام ببناء مسجد كبير فى كانو ورحب بمن وفد إلى بلاده من العلماء ورجال الدين كمحمد بن عبد الكريم المغيلي والذى طلب منه رمفا أن يكتب له رسالة يجدد فيها أسس الحكم الرشيد . انظر . حسين سيد عبد الله مراد : مرجع سابق، ص٣٤-٣٨.

(٣) مجهول : تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، ورقة ١٢، ٢٢ .

والخشب والطين وهما من المواد التي لا تحتمل الصمود مما جعل الحاجة ملحة لوضع ركائز خشبية كما يذكر ذلك الحسن الوزان، ولهذا السور أبواب عشرة، ثم صارت أربعة عشر بفضل التحسينات التي أقامها السلاطين . لقد قُسمت المدينة بشكل طبقي وعلى أساس اقتصادي ومستوى مادي صرف، فقد كانت الجهة الغربية عامرة بالبساتين، والجنوبية يسكنها الأمراء أرباب الدولة، أما الجهة الشمالية فهي تجارية وبها الأسواق ويرتادها السوقة والتجار وأصحاب الحرف، أما الغربية فيسكنها الفقراء والمعدومين . لقد كانت هذه الناحية الأخيرة من كانو مصدراً للأمراض وتلوث الهواء والماء بسبب دفن الموتى [1] في كل الأماكن دون تخصيص مكان خاص بهم ولعدم وجود مقبرة جماعية لدفن الموتى، بالإضافة إلى وجود النجاسات والقذارات في أماكن وجود الماء، لهذا كان الوباء يحل عليها بين الفترة والأخرى كما يذكر ذلك ابن العطار [2].

عاشت المدينة تحت سيطرة عدد كبير من الأمراء الذين اختلفت طموحاتهم من أمير إلى آخر، فمنهم عالي الطموح والمعمر في الحكم ومنهم قليل الطموح وقصير المدة ولكن أشهرهم الساركن باغودا ٣٩٠- ٤٥٦ هـ / ٩٩٩ - ١٠٦٣م المؤسس على اعتبار أنه انتزع الحكم من الكاهن الأكبر وحاول إيجاد نوع من الاستقلال السياسي للمدينة حيث سار على نهجه بقية الأمراء الذين كان أشهرهم الساركن ياجي بن تساميا ٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م الذي جاء في عهده الونقارة، والساركن محمد رمفا الساركن العشرين فى قائمة الأمراء٨٠٤- ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م، فقد كان عالماً وصالحاً جاء

---

(١) لقد كان للهوسا معتقد وعادة مقدسة حول دفن الموتى في المكان الذي يموت فيه الشخص مباشرة لدرجة أن بعضهم كان يدفن الشخص الميت في منزله حيث تترك كل حاجاته على ما هي . لهذا لم تكن فكرة المقابر منتشرة في تلك الفترة وربما كان قول هذه الوثيقة صحيحاً في تلوث هواء كانو وانتشار الأمراض فيها . فقد أكد ذلك أيضا كلابرتون عند زيارته لكنو حيث ذكر أن بالمدينة مستنقعات ملوثة كانت تقسمها إلى قسمين كانت ترمي فيها جثث العبيد لأنهم لا يدفنونها حيث تترك في العراء . انظر: دنهام، كلابرتون، اودني: رحلة لأستكشاف إفريقيا، ترجمة عبد الله عبدالرازق إبراهيم، مراجعة شوقي عطا الله الجمل، جـ٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٦١، ١٧٠ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص١٦١ .

(٢) المخطوطة السابقة : ورقة ٦ ـ ٧ ؛ الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ١٧٣ .

في عهده الأشراف من المدينة المنورة، كما أن الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي[1] دخل كانو وسكن فيها وتولى القضاء كما كان له دور مهم في دفع الأمير للتمسك بأمور الدين وتأسيس الإمارة على قواعد إسلامية[2].

لقد استفادت كانو من موقعها المتوسط بين الإمارات والوسط بين دولتي البرنو والصنغي، حيث أصبحت مدينة تجارية أكثر مما هي زراعية، فقد كانت القوافل تعبر منها

---

(١) محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني من أعلام القرن التاسع والعاشر الهجري، قال عنه ابن مريم بأنه خاتمة المحققين، الفهامة، القدوة الصالح، أحد أذكياء العالم، من له بسطة في الفهم والتقدم، ولد بتلمسان شمال غرب الجزائر من أسرة بربرية من قبيلة مغيلة ونشأ بتلمسان ثم رحل عنها بعد أن حفظ القرآن إلى بجاية لطلب العلم ثم رحل إلى توات واستقر بها وولد له أولاد، ثم رحل عنها بعد أن حارب اليهود فيها فمن المعروف عنه أنه يكره تصرفاتهم وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي حيث قصد بلاد السودان ونزل في ضيافة محمد رمفا أمير كانو الذي أكرمه غاية الإكرام واتخذ منه مستشاراً له وقاضي الإفتاء، فعمل على تأليف رسالة في شؤون الإمارة جاءت على شكل نصائح فيما يجب أن تكون عليه الإمارة الإسلامية ثم ترك له وصية تحت عنوان فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام ثم غادر من كانو إلى كاتسينا ومنها إلى جاو عاصمة الأسكيا الحاج محمد الكبير حاكم صنغي، الذي أكرم وفادته أيضا مما جعل الشيخ يكتب له رسالة حول ما لم يفهمه الأسكيا أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي أو أجوبة الفقير على أسئلة الأمير ثم عاد إلى توات حيث دفن فيها سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م . انظر : ابن مريم أبو عبدالله محمد بن أحمد : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن شنب، مطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٠٨م، ص٢٥٣ -٢٥٦ ؛ أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م، ص٥٧٦ ـ ٥٧٧ ؛ محمد بن عبد الكريم المغيلي : أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم، عبد القادر زبايدية، مطبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص٨- ١١ ؛ محمد بن عبد الكريم المغيلي : مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص١١ - ١٣ ؛ أبوبكر مقيا : دعوة الإمام المغيلي العلمية والإسلامية في السودان الغربي في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية في المنطقة، مجلة علمية محكمة، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد ٧، ١٩٩٢م، ص ٢٠٧ - ٢١٦ .

(٢) أ . م . كاني : مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، العدد ١، ١٩٨١م، ص١٨ - ١٩ .

وإليها من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكن حياة الفقراء كانت بائسة بحكم صعوبة العيش وكثرة الضرائب التي يفرضها الساركن بسبب الحروب التى كان يخوضها والجزية التي كانت تفرض عليه عند الهزيمة كما أن البدائية في الوسائل والحرف وبساطة حاجات الناس كانت دافعاً آخر لكي يكون الاقتصاد مسخراً ومكملاً للمتطلبات السياسية والسلطة، ناهيك عن خوف الناس الدائم من الوقوع في الرق بسبب فقرهم، فالحياة الاقتصادية لكل الإمارات كانت تقوم أساساً على غزو الشعوب الوثنية المجاورة وذلك من أجل الحصول على الذهب والرقيق عناصر القوة وبضاعة السودان الغربي الأساسية في تلك الفترة .

(٢) كاتسينا Katsina :

تقع كاتسينا[١] في المنطقة الجنوبية لزندر[٢] حيث تبعد عنها مسافة خمسة أيام وهي نفس المسافة التي تفصلها عن كانو، فهي تقع في الشمال الشرقي من إقليم الهوسا حيث يحدها من الشرق دورا وكانو ومن الغرب زمفرا ومن الشمال غوبير ومن الجنوب زاريا، كما تقع بالقرب من مجرى نهر ريما المتفرع من نهر مدينة سوكوتو[٣]

---

(١) كاتسينا : هي العاصمة والمدينة لهذا الإقليم وقد أخذ الإقليم اسمها، كما أن الإمارة التي كانت بها صارت تعرف بهذا الاسم، ويرى بعض المؤرخين أن الاسم مشتق أصلا من اسم زوجة الرجل الذي أسس المدينة والذي كان يدعى جنزما، إلا أن هذا الاحتمال مستبعد بسبب عدم دعمه من المصادر بالرغم من أنه ممكن بسبب مكانة المرأة الكبيرة في السودان الغربي عموما ، لقد كتب اسم المدينة ورسم بأشكال عدة منها كاتسينا، كتسينا، كاشنة، كشن، كطنا، كثنة ... إلخ، وكلها تعبر عن نفس المكان . لمزيد من التفاصيل انظر: مجهول : تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، ورقة ١؛ محمد بلو : إنفاق الميسور، ص٦٧؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص١١٦ ؛ إبراهيم طرخان: دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية قبل عصر الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص٦٩ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص٧٨- ٧٩ .

(٢) زندر : مدينة وسط النيجر على بعد حوالي ١٠٠كم شمالي الحدود مع نيجيريا. تقع على الطريق البري الواصل إلى نيامي عاصمة النيجر والمسافة بينها وبين نيامي ٧٠٠كم وهي مركز تجاري وزراعي مهم. لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الحكيم عفيفي : مرجع سابق، ص٢٧٠ .

(٣) مدينة سوكوتو Sokoto تقع فى نيجيريا وهى بين بورنو وجاندا سكانها من الفولاني وهى قريبة من نهر كيبي تبعد عن زاريا ٤٠٠كم تشتهر بصناعة الزيوت والصناعات الغذائية والمنسوجات ولما=

Sokoto[1] ، وطبيعة هذه الإمارة كانت تحتوى على مناطق جبلية وعرة ومناطق أخرى سهلية، وهذا التنوع وفر لسكانها أراض زراعية خصبة كانت تنتج كميات كبيرة من الشعير والذرة. ومن الملاحظ هنا أن السكان يحملون صفات وملامح زنجية خالصة في لونهم قاتم السواد، والأنوف الكبيرة، والشفاة الغليظة[2]ولكن بعض المؤرخين يرى أن السكان ما هم إلا خليط من البولا[3]والبربر، والونقارة والطوارق، أما الوجود العربي فقد تأخر قليلا إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادى، حيث دخلوا على شكل أفراد ومجموعات قليلة[4].

لقد ضم ذلك الإقليم الواسع أشجاراً وأنهاراً وغابات وقلاعاً، وأهله في العموم أظرف أهل حوس كما يصفهم البعض [5] وتشكل مجتمعهم على أساس طبقات كانت الحرف فيه من المراتب المتقدمة نسبيا، مما جعل كاتسينا تختلف في البناء والتركيبة العامة

=طرق برية كثيرة اتخذها الشيخ عثمان بن فودي عاصمة له عند نشر دعوته . انظر : عبد الحكيم عفيفى : مرجع سابق، ٢٩٣-٢٩٤ .

(١) صادق مؤيد العظم : رحلة في الصحراء الكبري بإفريقيا، ترجمة عبد الكريم أبوشويرب، مراجعة صلاح الدين السوري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، ١٩٩٨م، ١٦١ ؛ زاكاري مايكوريا : الحضارة الإسلامية في النيجر، ترجمة، محمد وقيدي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٤م، ص٤٨ .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ص١٧٣ ؛ مرمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٨.

(٣) البولالا فرع من الأسرة التى حكمت كانم منذ القرن٣هـ/ ٩م والمصطلح يتكون من لفظين بو Bo أو بول Bul وإيلالا Alala ومعناه أحرار الطوارق أو نبلاء الطوارق والراجح أن أصول البولالا بربرية مع التأثر بالدماء العربية. انظر: إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو، ص٩٦ ؛ حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص٥٥ .

(٤) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص٧٩ ؛ الأمين أبو منقا محمد : أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها في نشأة وتطور أدب الهوسا، مجلة دراسات إفريقية، العدد ٨، مركز البحوث والترجمة، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، السودان، ١٩٩١م، ص١٣٥ .

(٥) عبد القادر بن المصطفى: مخطوطة سابقة، ورقة ١١.

عن غيرها، فقد كانت لها خصوصية تكوين (1) مكانية، فالمستوطنات المحصنة بجدران تعرف البرنى وهى العاصمة، وقد أنتجت فى النهاية كاتسينا الإمارة والتي كان

---

(1) لقد أكدت بعض الدراسات الآثارية والتي تبحث عن نشأة المدن المحصنة وظهور نظام الساركن في كاتسينا في الفترة ما بين ١٤٠٠م -١٦٨٤م والتي أجريت في مواقع متعددة في الإقليم بين برنو وكاتسينا في التلال الترابية عن وجود بقايا وهياكل بشرية لجماعات عرفت باسم العمالقة الصيادين في موقع Durbi - takusheyi وبلدة Bugaje وهذه الاكتشافات تطابقت مع هو موجود في بعض مناطق الهوسا الأخرى كزمفرا، كما أنها اتفقت مع ما هو موجود في الأساطير والتراث والفلكولور الشعبي في أدب الهوسا كمغامرات Gizo والوحش الآخر Dodanni فقد استخدم ذلك التراث في تحديد ملامح جغرافية مهمة أكدت كثيراً من الوقائع التاريخية . كما توصلت هذه الدراسات إلى وجود بقايا لشعوب محلية عرفت بـ Sanodawa Adawa كانت تعيش في الإقليم استطاعت تكوين سلالة حاكمة سيطرت على الإقليم مئات السنين .

وفي هذا اتفاق كبير مع ما أورده الحسن الوزان الذي زار المنطقة وقدم وصفاً عاماً للسكان في كونهم يحملون ملامح زنجية، كما تم العثور على مستوطنات قبل تأسيس كاتسينا بسنوات بالقرب من Birnin – Katsina كانت تحاكي العصر الحجري حيث عاش الصيادون حياة بسيطة ولكن تحولات كبيرة وسريعة حصلت بسبب دخول معدن الحديد إلى الإقليم حيث أصبح هو السلاح الأول، مما جعل المستوطنات تستخدمه بدلا من الحجارة في الصيد والزراعة . لقد ظهر موقع Kwatarkwashi قبل تأسيس إمارت كاتسينا وهو منطقة حجرية بجانبها أرض زراعية خصبة. هذا دفع تلك التجمعات إلى إقامة قصر خاص للحاكم . لقد ارتبط هذا الموقع بالمعتقدات الإفريقية قبل دخول الإسلام وذلك متمثل في استخدام الحجارة لعبادة الأرواح حيث صنعت منها الأصنام. كما أن هذا الموقع كان الأهم في كونه صار مركزاً رئيساً لعبادة ماجيرو التي تحولت من عبادة الأرواح إلى عبادة الأسلاف وهو المعتقد الأهم عند الهوسا المحليين فهو المعروف بحد وهو صخرة تسمى Dungai التي كان يحتكرها زعيم المدينة الملقب بـ Mangul حيث كان من الضروري أن يشتق لنفسه اسماً من الصنم كما فعل خليفته Gemen Dodo والتي تعني لحية الصنم المعبود ـ فصار يجمع في يده سلطات كثيرة من بينها العلاقات فيما بين الناس وعلاقتهم بالمعبود .

لقد كانت هذه المواقع والمدن المسورة مستوطنات مهمة قبل قيام كاتسينا، فقد تم اكتشاف نموذج عن تلك المدن يقع في الجنوب من كاتسينا الحالية وهو Kwiambana حيث تم اكتشاف بقايا سور يضم مساحة ٤٠،٨كم إقيم بنفس حجارة المواقع السابقة وكانت له فتحات لتصريف المياه وقنوات لرى المحاصيل. إن اغلب المعلومات التي كانت تتحدث عن كاتسينا أخذت من بعض المصادر الإسلامية والتراث والأدب عند الهوسا، كما أن ما قدمه الحسن الوزان، وتراث المغيلي، ورسائل السيوطي، والرحلات التي قام بها الأوروبيون بعد ذلك هي التي فتحت المجال أمام الدراسات=

لها دور مهم [1]، حيث اختار لها المؤسس المفترض محمد كوري٨٤٩-٨٦٤هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٥م موقعاً مميزاً كان يقع على الخطوط التجارية ويضم منجماً للحديد بالإضافة إلى وجود ضريح مقدس [2] وتلك الأسس هي الضرورية من أجل إنشاء المدن في إقليم الهوسا عموما . لقد تم التوفيق بين ما أورده الحسن الوزان وما هو موجود فى تراث الهوسا والدراسات الآثارية لتحديد مكان مدينة كاتسينا وأهم المرافق التي كانت موجودة فيها من منازل ومساجد والسور الذي يحيط بالمدينة والإضافات التي تمت في فترات متعاقبة، كما أن الربط المنطقي لتاريخ كاتسينا السياسي يتفق مع منتصف القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وأنه أول ساركن تولى مهام الدولة والسيادة فيها، واعتمد في ذلك على مبدأ

=الأثرية الدقيقة التي تدعم الحقائق التاريخية المنقولة أو المكتوبة، كما أن حوليات كاتسينا والتي اكتشفت قدمت جزءًا كبيراً عن تاريخ المدينة و بالرغم من ذلك فهي قابلة للصواب والخطأ، لهذا تقدمها الدراسة على أساس أنها مجموعة من الآراء لما كان عليه الوضع في كاتسينا . فالبعض يرى أن المدينة ونظامها السياسي تكون قبل سنة١٢٠٠م والبعض الآخر يرى أنها تكونت بعد سنة٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م فقد حكم المدينة خلال ٤٠٠ سنة ما يقارب من ٣٥ حاكماً كان أهمهم Kumagau son Daura son Bawo son Biagajida فهو يعتبر أول حاكماً سيطر على المدينة وحاول فرض سيطرته على المناطق المجاورة وسار خلفاؤه على نفس المنوال إلى أن استولت أسرة أخرى على الحكم هي أسرة yandoto فهي سلالة جديدة حكمت المدينة .

ولكن دراسات أخرى ترى أن أسرة Kashia son Bawo التي جاءت من منطقة مجهولة إلى الإقليم وإقامة مستوطنة كانت هي الأساس ولكن سلالة Korau سيطرت بفعل القوة على الحكم فكان محمد كوري وهو أول ساركن ولقب ساركن أو ساركي هو اللقب المعتمد للحكام في بلاد الهوسا فهو يعني الرئيس أو الملك بلغة الهوسا وهو اسم للثعبان الذي قتله بياجيدا، ويجمع على سراكوما Sarakuma وقد كان ساركناً مسلماً حيث قام بأعمال كثيرة منها بناء سور حول العاصمة واعتماده على الإسلام كدين رسمي للمدينة . لمزيد من التفاصيل انظر : الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ١٧٣ ؛ إبراهيم على طرخان : إمبراطوية البرنو الإسلامية، ص٢١١ - ٢١٢؛ see to :

R . S . Soper : " The Stone Age in Northern Nigeria ", Journal Of African History ,lll ,2, 1965 , p192-213 ; Yusufu Bala Usman : The Transformation Of Katsina : (1400 – 1883) Ahmadu Bello University Press LTD , Nigeria , 1978 , pp 6 – 18

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، جـ٤، ص٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٨٠ ؛

Y . B . Usman : pp12 –28 ؛Smith M.G : The Beginning Of Hausa Ciety AD1000-1500 in The tudir,Landon,1964,p35 .

توارث الشعارات الخاصة بتولي السلطة حتى اليوم والمتمثلة في السيف القصيرGajere وهو كما يعتقد أنه سيف الساركن محمد كوري الذي قتل به الثعبان كما توارث السلاطينTuknyar karfe وهي عبارة عن قدر من الحديد هو أيضا ينسب للساركن المؤسس، وكذلك سيف طويل عرف Bebe وتعني الأصم وهو السيف الذي غنمه محمد كوري من ساركن غوبير بعد أن هزمه[1] .

إن هذه الشعارات والمتوارثة جيلاً بعد جيل حفظت جزءًا من تاريخ كاتسينا، ويبقى الجزء الآخر والمتمثل في قصر أو منزل كوري والمعروف باسم بارنى كاتسينا Birnin Katsina والذي مازال موجوداً إلى اليوم . لقد اتفقت أيضا الحوليات الخاصة بكاتسينا على أن عصر محمد كورى هو العصر الفعلى والبداية القوية لهذه الإمارة، فهو يظهر فيها كمؤسس لهذه السلالة الجديدة والقوية بغض النظر عن أصله .

لقد انتشرت الحصون والقلاع الصخرية مع بداية القرن ٩هـ/ ١٥م في إقليم كاتسينا حيث كانت تدار بواسطة زعماء القبائل والكهنة وأصحاب الحرف الذي كانت لهم مكانة كبيرة جدا وهؤلاء جميعا تحت طاعة الساركن المسيطرة لقد كانت فترة كوري ما بين ٨٤٩-٨٦٤هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٥م، عمل خلالها على تأمين خطوط التجارة والاهتمام بالمناجم خصوصا التي تنتج الحديد، كما أنه عمل على فرض نظامه السياسي الذى كان يدين فيه الجميع له بالولاء، فقد عمل على تقويض سلطة الكهنة والسحرة وحاول إيجاد نوع من الرابطة القوية بينه وبين الأرض الأم، في محاولة جادة منه لتغيير المعتقد المحلي من أجل فرض نظامه السياسي كساركن له جميع السلطات، لهذا كان له اتصال وعلاقات واسعة مع جماعات مسلمة .

---

(1) Y .B. Usman :op.cit. pp 12-28 .

وزار الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي [1] المدينة في عهده كما تم إنشاء مسجد غوبير بنفس مواصفات مسجد جاو [2] وفي هذا دليل على انتقال المؤثرات والحرف عبر الصحراء

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين في زمن دخول محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى إقليم الهوسا وصنغي وذلك راجع لعدم ضبط التواريخ، فقد دفع كل مؤرخ بما لديه من فرضيات حول هذا الموضوع ولكن الدراسة تحاول تحديد زيارة المغيلي من خلال ما هو موجود من أدلة وتواريخ يمكن استخدامها وتحديد الفترات الزمنية فيما بينها . فقد ذكر أنه ولد بتلمسان سنة٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م حيث عاش فيها حتى سنة٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م ثم انتقل إلى توات سنة ١٤٧٩م أى أن عمره كان ٥٤ سنة، حيث حارب اليهود وقام بدوره الجهادي والدعوي وربما استغرق منه ذلك ١٠سنوات بحكم ما قام به أى من المفترض أنه في سن ٦٤ سنة عندما دخل السودان الغربي ومن المفترض أيضا أنه أول مكان وصل إليه كانو وحتى يستقيم السياق وتتفق الروايات، وفي كانو كان محمد رمفا يحكمها١٤٦٣-١٤٩٩م واستقر فيها الشيخ مدة ٤ سنوات حيث يقول البعض أنه تزوج وأنجب ثلاثة أولاد هم: أحمد، ومحمد، وعيسى، وهو قول مستبعد في كونهم كانوا كبارا. كما تقول بعض الوثائق أنه ترك لهم بعض متعلقات الرسول صلى الله عليه وسلم وكلفهم بمتابعة دعوته. وهذا غير معقول بحكم المدة التي مكثها في كانو وعمره المفترض . ثم كتب الشيخ الوصية والنصائح لسطان كانو في سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، فهى الوثيقة الوحيدة التي كتب فيها التاريخ بالنسبة للشيخ، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن مملكة صنغي لم يصل فيها الاسكيا الحاج محمد أبوبكر التوري إلى الحكم فقد حكم سنة ١٤٩٣م، لهذا كان على الشيخ التوجه إلى كاتسينا التي يوافق فيها الحكم للساركن محمد كورى٨٤٩/ ٩٠٠هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٤م، أن صدقت التواريخ إذاً فمن المرجح أنه دخل صنغي وعمره يفوق بعد سنة ١٤٩٤م، ٧١ سنة، والمدة التي استقر فيها في صنغي غير معروفة، ولكن سنة وفاة الشيخ مضبوطة فقد توفي وعمره يناهز ٧٩ سنة في سنة ١٥٠٤م عندما عاد إلى توات فهل يعقل أنه عبر الصحراء وهو في هذه السن ؟ لمزيد من التفصيل انظر : مجهول : تاريخ دور وإمارات الهوسا السبع : ورقة رقم ١٤ ؛ بشير أحمد الفلاني : نظم الجمان في أخبار التكرور وبني فلان، مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، رقم ١٢٢، النيجر، ورقة رقم ١٩- ٢٠ ؛ دجيبو ملام حماني : الحضارة الإسلامية في النيجر، ترجمة محمد وقيدي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٤م، ص١٠٢ - ١٠٣ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٨٠، ٨٢ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٤١، ٤٣ ؛ مصطفى حجازي : الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، مجلة مجمع اللغة العربية، المشرف مهدي علام، جـ٦١، ١٩٨٧م، ص٧٣ ؛ أ . م . كاني : مرجع سابق، ص ١٨ - ٢٠؛ الأمين أبو منقا محمد : مرجع سابق، ص١٣٧ ؛ عبد القادر زبايدية: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠١٠م، ص١٣٠- ١٣١ .

(٢) مسجد مدينة جاو عاصمة مملكة صنغي والذي بناه الأسكيا محمد الكبير وقد بنى بنفس الطراز المغربي وصار من المؤسسات العلمية المشهورة في السودان الغربي . انظر : إبراهيم طرخان دراسات في تاريخ إفريقية الإسلامية قبل عصر الاستعمار، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص٦٦-٦٨ .

من مكان إلى آخر، كما أنه يدل على الهجرات خصوصا وأن منطقة صنغي كانت طاردة للسكان بسبب حروب حكام صنغي وكثرة الضرائب. وعلى العكس من ذلك فإن دول الهوسا والتي شهدت استقراراً نسبياً ونمواً اقتصادياً يمكن الركون إليه في وسط إقليم يتمتع بمواصفات مثالية للمهاجرين. لقد سار خلفاء محمد كورى على نفس الطريق حيث كان أشهرهم إبراهيم سوارا٩٠١-٩٠٣هـ/ ١٤٩٥- ١٤٩٧م الذي كان شديد المراس خصوصا في أمور الدين الإسلامي، فقد فرض على كل الرعية إقامة الصلاة ومن يمتنع يعاقب . وكذلك الساركن على المرابط، والساركن محمد يارا، والساركن محمد نزاكي، ثم جاءت سلالة يورا الذي حكم هو ومن بعده ابنه مدة ٤٤ سنة١٠٥١-١٠٥٨هـ/ ١٦٤١-١٦٨٤م، ففي هذه الفترة تم تأسيس نخبة مسلمة أكدت نظام الساركن كمؤسسة حاكمة داخليا وخارجيا، ثم حكم كاتسينا محمد بن حازو١٠٥٨-١٠٨٢هـ/ ١٦٨٤-١٦٧١م[1].

ويرجح البعض خضوع كاتسينا لسلطة الأسكيا محمد الكبير سلطان صنغي، حيث أخضعها بالقوة وأجبرها على دفع الضرائب، وبالرغم من ذلك كانت تنعم بنوع من السلطة الذاتية، قادتها إلى خلع سيطرة سلطان صنغي حينما قررت عدم دفع الضرائب المستحقة، مما جعل السلطان يرسل إليها حملة عسكرية سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ولكنها فشلت، حيث استمرت في تسيير شؤونها بشكل مستقل حتى إعادة صنغي المحاولة سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م عندما أرسل الأسكيا داود بن الحاج محمد ٩٥٦-٩٩٠هـ/ ١٥٤٩-١٥٨٢م، مجموعة من قواته لجباية الضرائب، فما كان أمام ساركن كاتسينا، إلا أن أعلن الحرب وقتل عدداً من تلك الحامية وأرسل لصنغي رفضه دفع الضرائب فرضخ الأسكيا للأمر الواقع وترك كاتسينا لشأنها[2].

(٣) زاريا Zaria or Zazzau :

المعلومات عن هذه الإمارة قليلة، فالموجود أساساً يعتمد على الروايات المحلية وبعض من الدراسات الآثارية حول بعض المواقع المذكورة داخل الإقليم ، لقد ضبط

---

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ٢٨٠ ؛ Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp12 – 28.

(٢) مارمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٨ ؛ محمد السنوسي العمراوي: مرجع سابق، ورقة ١١٦ - ١١٧ .

اسم هذه المدينة على عدة أشكال منها زازو، وزغزغ، وزارية، و زكزك، وزاريا، أما موقعها كمدينة فهي تقع في منتصف الإقليم وحدودها الخارجية كالآتي : من الشرق تحدها إمارة كانو ومرتفعات بوشي ومن الغرب زمفرا وجواري، أما من الشمال فكاتسينا والتي تبعد عنه مسافة خمسين ميلاً، أما من الجنوب تحدها أرض الوثنيين من الكوارارافا وكاجاركو التي تقع بينها وبين المحيط الأطلسي[1] .

لقد ذكرت بعض المصادر أن إقليم زاريا هو أوسع أقاليم بلاد الهوسا بسبب سيطرته على إقليم بوشي الذي يضم قرى ومدن كثيرة جدا، كما أنه يعتبر المصدر المهم للذهب والكحل والرقيق والملح[2].

إن هذه المساحة الكبيرة والشاسعة، وكما يؤكد الحسن الوزان، كانت تحتوى على منطقتين الأولى: حارة أى أن أشعة الشمس فيها قوية ويبدو أنها منخفضة عن سطح الأرض، أما المنطقة الثانية: باردة شديدة البرودة للدرجة أن السكان ابتكروا طرقاً لمواجهة ذلك البرد القارص، حيث جعلوا الجمر تحت أسرتهم أثناء الليل من أجل اتقاء البرد[3].

إن ذلك الاتساع جعل الإقليم يعرف نوعاً من التنوع الطبيعي في المصادر فقد كان يحتوي على أشجار كثيرة وأنهار وجبال ووديان ومساحات من الأراضي الصالحة للزراعة، مما جعل المهنة الرئيسة للسكان الزراعة، ساعدهم في ذلك سقوط كميات كبيرة من الأمطار، لهذا يوصف هذا الإقليم بأنه زراعي ورخيص الأقوات دون أن تكون التجارة النشاط الأول لسكانها كما أن البعض أرجع اشتغال الناس بالزراعة دون التجارة لسبب عدم وقوع الإقليم على خطوط التجارة[4].

لقد قدم الحسن الوزان شهادة أخرى تختلف عن ما يقول به البعض فهو يرى أن أهل زاريا المدينة التي زارها أغنياء بفضل اشتغالهم بالتجارة إلى جانب وجود المقومات

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ١٧٣ ؛ مهدي آدمو: مرجع سابق، ص٢٨٠ ؛انظر الملاحق خريطة رقم(١).

(٢) عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة، ورقة ١١ ؛ محمد بلو : إنفاق الميسور، ص٦٧ – ٦٨ .

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص١٧٣ ؛ مارمول كربخال: مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٨ .

(٤) عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة، ورقة ١١ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٤٤ .

الزراعية والمتمثلة في وفرة المياه وكثرة الحبوب، ولكنه يصف حالة بيوتهم كغيرهم من أهل الهوسا بالبسيطة والحقيرة في أحيان أخرى فهي تصنع من القش[1].

إن التاريخ السياسي لهذه الإمارة غير واضح بسبب نقص المصادر، ولكن الآراء المطروحة حول تأسيس المدينة كثيرة تورد الدراسة جزءا منها، فالأول : يعتمد على أن أهل الإقليم من المحليين والهوسا كانوا يعيشون قبل قيام الإمارة والحكومة المركزية بما يقارب ١٠٠٠ سنة في مراكز قروية قديمة أهمها كورونكو. وبفعل محاولة التوحد وفرض السيطرة، يعتقد أنها تجمعت في اتحاد واحد مع بداية القرن٩هـ/ ١٥م. ولكن هذا الافتراض كان ضعيفا بسبب ظهور معطيات جديدة دفع بها أصحاب الرأى الثاني: حيث أكدت بعض الدراسات وجود مستوطنات أقدم من زاريا في الإقليم عرفت بـ كنكومة حكامها من المحليين اتحدوا مع الهوسا مدة من الزمن، ولكن ذلك الاتحاد لم يستمر طويلا، مما جعل الهوسا يقومون بإنشاء مدينة زاريا حوالي سنة١٠٥١هـ/ ١٦٤١م، حيث أصبحوا هم السادة المتفقون[2]. ولكن المصادر المحلية تدخل هنا وتذكر بعض التفاصيل السياسية حول المدينة التي كانت تحت سلطة ساركن زاريا الذي ترك الإمارة وقيادة الدولة للأميرة أمينة بكوا ابنته، حيث خاضت حروباً كثيرة من أجل فرض سيطرتها على الأقاليم المجاورة حتى إنها وصلت إلى المحيط الأطلسي، كما أنها أخضعت كانو وكاتسينا لسيطرتها حيث تم دفع الضرائب لها، لقد اتفقت هذه الرواية مع ما ورد في حوليات كانو فقد جاء في أحداث سنة ٨٢٤-٨٤١هـ/ ١٤٢١-١٤٣٨م في زمن الساركن الخامس عشرDauda son Kanajeji حاكم كانو، إن زاريا بقيادة الساركن أمينة غزت كل المدن التي كانت تسيطر عليها كانو وتم دفع الجزية لها والمتمثلة في ٤٠ خصياً ومقداراً كبيراً من ثمر الكولا[3].

لقد قدمت الوثائق المحلية رأياً آخر يعتمد على أن أصل سلالة حكام زاريا من باو ابن بياجيدا وتذكر بعض من أسماء الأمراء مثل يموسى، وسليمان، وآدم زاكي وتقول : وإن

(١) وصف إفريقيا : ص١٧٣ .

(٢) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛
Smith , M . G : Government in Zazzau 1800 – 1950 , London , 1960 , pp 83 – 101 .

(3) Palmer , H .R :op.cit , pp 109 .

زمن دخول الإسلام كان في عهد الساركن ربو ثم جاء من بعده السلطان عبد الكريم الذي كان شديداً على الوثنيين، حيث حاربهم وفرض عليهم الصلاة وقام ببناء مسجد للجمعة ووضع فيه ١٠٠ عبد لخدمته (١).

إن تلك المعلومات والتي وردت من مؤلف مجهول في هذه الوثيقة ينقصها تحديد التواريخ وزمن أولئك الحكام حيث وردت معلوماتها بدون ذكر تفاصيل مكانية، وزمانية مما يضعفها ويجعلها مجرد رأي يطرح قابلاً للنقاش والتحليل، كما أنه يضعفها ويقلل من قيمة المعلومات الورادة فيها .

لقد أكد صاحب إنفاق الميسور ومعه بعض المؤرخين صدق الرواية حول الساركن أمينة (٢) في كون زاريا هي من أجدب أراضي الهوسا وأوسعها وأن أميرة اسمها أمينة حكمتها، كانت قوية استطاعت إخضاع أجزاء كثيرة من بلاد الهوسا مثل كانو وكاتسينا وأرغمتهم على دفع الضرائب لها . كما أنها غزت بلاد بوشي في نيجيريا الحالية ويقال أيضا أنها وصلت إلى المحيط الأطلسي جنوبا ثم ماتت في بلدة بأتاغر، لهذا يرد البعض اتساع إمارات زاريا في كونها أخضعت إقليم بوشي الذي يضم سكاناً أصليين عرّفتهم بعض المصادر بأجلاف السودان. لقد كان السبب الرئيس لدخول ذلك الإقليم وتوسع زاريا فيه ما يوجد به من خيرات فهو أرض الوثنيين مصدر الرقيق كما أن به مدناً تمتلك مناجم للمعادن الضرورية كمدينة غندر الواقعة في إقليم غوار والتي بها منجم معدن الرصاص وقرية كتو التي بها معدن التبر والشب، وإقليم كرترف الذي به معدن الذهب والكحل والملح (٣).

---

(١) مجهول: مخطوطة تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، ورقة ٢٣؛ آدم عبدالله الألوري: مرجع سابق، ص٧٥ .

(٢) يرى بعض المؤرخين أن الساركن أمنة أو أمينة كانت موجودة فعلا حيث حكمت زاريا لمدة ٣٥ سنة أي في الفترة ما بين نهاية القرن ١٤م وبداية القرن ١٥م، وامتد نفوذها ليشمل أجزاءاً كثيرة من بلاد الهوسا. ويستند أصحاب هذا الرأي على أسماء بعض المدن والتي حملت اسمها حتى الآن كمدينة مينة التي تقع جنوب نيجيريا الحالية . انظر : محمد بلو : إنفاق الميسور، ص ٦٧ ؛

Saad Abubakar : Amina of Zazzau Exploits and Impact in the Savana Region of Nigeria , Kano Studies ,V2, no 2,Bayero University , Kano ,Nigeria ,1981, pp99–104 .

(٣) محمد بلو : مصدر سابق، ٦٧ – ٦٨ ؛ كلابرتون : مصدر سابق، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) غوبير Gobir :

تقع غوبير[1] في الطرف الشمالي من بلاد الهوسا ويحدها من الشمال إقليم أغاديس ومن الجنوب كاتسينا، ومن الشرق إقليم زندر، أما من الغرب فإن إقليم الآير الجبلي الذي يعرف عند الهوسا آسبنAsban كان بمثابة الحاجز الغربي للإقليم. ويمر بالإقليم فرع من نهر سوكوتو ريما، فهذه الإمارة تبعد عن جاوGao [2]ما قدره الحسن الوزان بنحو ثلاثمائة ميل[3] والأرض بينهما لا يوجد بها مصادر للماء، وعبورها فيه كثير من المشقة والتعب .

---

(١) يضبط ويرسم اسم هذه الإمارة جوبير، وغوبير، وجوبر، وكوبر، وكابره وهي في أقصى الشمال من إقليم الهوسا تحد أغاديس على الحدود الصحراوية، وترجح الدراسة أنها هي المدينة التي ذكرها ابن بطوطة عندما زار السودان الغربي حيث كانت بداية رحلته سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م عندما خرج من سجلماسة وعاد إليها في سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م حيث يذكر وبعد خروجه من ولاتة صوب مالي وصل إلى قرية زاغري التي يذكر فيها التجار من ونجراتة ولابد وأنهم الونقارة فهم مسلمون وتجار وعندما غادرها وصل إلى النيل الأعظم وهو نهر سوكوتو ويقول إن النيل ينحدر إلى كابره التي لها سلطان يؤدي فروض الطاعة لسلطان مالي وفي هذا ذكر مبكراً في المصادر العربية لواحدة من إمارات الهوسا ولتجار الونغارة المتواجدين فيها. انظر: ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد بن عبد الله اللواتي، ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص٦٨٠ .

(٢) هي الأخرى تكتب بأشكال متعددة منها غاو، كاغ، وكاغو، وجاو، فهي عاصمة دولة صنغي الإسلامية التى ورثت غانة ومالي في السودان الغربي ويحدها من الشمال، مدينة تنبكت، ومن الجنوب، دندي، ومن الشرق الصحراء مضارب قبائل الطوارق ومن الغرب يحدها إقليم هنبري . وتعتبر مدينة جاو أهم مدينة في الإقليم فهي عاصمة الصنغي ومقر حكم الأسكيا والأمراء، كما أنها مركز تجاري مهم بالنسبة لتجارة الصحراء . انظر : زاكاري ما يكوريما : مرجع سابق، ص٤٠ ؛ محمد السنوسي العمراوي : مرجع سابق، ورقة ٩٦ .

(٣) توجد مدينة غوبير على بعد مسافة ١٠٠٠ كم جنوب شرق مدينة جاو وهي جزء من نيجيريا الحالية وهي في الشمال قريبة من نهر سوكوتو . ويبدا أن المسافة التى وردت عند الحسن الوزان غير مضبوطة وذلك راجع إلى اختلاف وحدات القياس فالميل عند العرب يساوي ألف ذراع، وعند الرومان يساوي ألف خطوة . ولكن الميل العربي في العصر الإسلامي لم يحدد بشكل دقيق فيقدمه البعض على أساس أنه ١٩٧٣،٥٠م، والبعض يرده للميل الاسكندري المقدر بسبع مراحل ونصف ٧،٥ أو ٤٥٠٠ قدم أي ما يعادل ١٩٩٧،١٠م والبعض يرى أنه ١٩١٧،٦٠م والبعض يرى أنه ١٤٢٠م ويلاحظ هنا عدم الاتفاق على معرفة دقيقة للميل وكم يساوي بالضبط وربما هذا ما وقع فيه كثير من المؤرخين السابقين وخصوصا الرحالة، فوحدات القياس في الوقت الحاضر =

كما أنها تبعد عن نهر النيجر مسافة ٤٠ ميلاً، وأغلب أراضيها جبال[1] ويصفها البعض بأنها من أجدب أرض الهوسا بحكم قربها من الصحراء، وأن أهلها من بقايا الأقباط فى مصر هاجروا منها إلى المغرب، ثم دخلوا السودان الغربى، لهذا هم أحرار على عكس بقية أهل الهوسا ولكن الدراسة لا تتفق مع هذا الرأى، وذلك لعدم وجود أدلة تاريخية، فقد استخدم هذا القول من قبل سكان جوبير للدفاع عن أنفسهم فى كونهم أحراراً، يرفضون الخضوع لسلطان الكانم والبرنو[2].

لقد اعتبرت هذه الإمارة هي الأصل لجميع سكانها ولكنهم وقعوا تحت ضغط قبائل الطوارق[3] الذين عملوا على تقليص مساحة الإمارة إلى حد كبير فقد اندفع السكان المحليون إلى الجنوب منذ القرن ٦هـ/ ١٢م فى هجرات مبكرة مما جعلهم يكونون هذه الإمارة وفي هذا الموقع أى أنها تأسست قبل سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، وقد زاد زحف هؤلاء إلى الجنوب فكونوا برنين لالي عاصمة لهم مؤقتة، ويعتقد أنهم من أدخلوا الملح إلى بلاد الهوسا[4].

=حددت الميل بدقة فظهرت المسافات المحددة بين المدن والأقاليم . انظر الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٤ ؛ خالد أوشن : المقاييس والمكاييل والموازين وطرق المعاملات التجارية القديمة في غرب إفريقيا، أكادير، المغرب، ٢٠٠٣م، ص ٢ ؛ أحمد بللو : سيرتي الذاتية، ص٤٤ .

(١) وصف إفريقيا : ص١٧١ ـ ١٧٢ ؛ مأمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ٢٠٦ .

(٢) عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة، ورقة ٩ ؛ محمد بلو : إنفاق الميسور، ص ٦٧ .

(٣) الطوارق : وتكتب في بعض المصادر التوارك، والتوارق، هم سكان الصحراء الكبرى بين بلاد السودان الغربي والمغرب الإسلامي، وينتسبون إلى صنهاجة وهم ظواعن أي متنقلون من مكان إلى آخر بحثا عن الكلأ والماء أى أنهم غير مستقرين. لهم فروع كثيرة منها الهقار والبربر ...إلخ، ولهم قبائل كثيرة منها كل أنصار و إفوغاس و ريقناتن وكل أغلال و كل السوق و منغساتن . كما أنهم كونوا سلطنات، منها سلطنة آزقر، وسلطنة الهقار، وسلطنة والليمدن كل أطرام، وسلطنة تقريقريت، وسلطنة أيير، وسلطنة تمزقدا، وسلطنة أقرس . لمزيد من التفاصيل انظر : أحمد بابير : جواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط بمعهد الدراسات الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٠٦، ورقة رقم ٣٤ ؛ السعيدى، مصدر سابق، ص٢٥ ؛ سعيد محمد القشاط : عرب الصحراء الكبرى التوارق، ط٤، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، ص٢٧- ٢٩، ٤٨-٥٥.

(٤) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨١ .

لقد وصفت غوبير بأنها مدينة جبلية تسكنها أسر كثيرة ضمن قرى، والقرية الواحدة تضم ستة آلاف كانون والناس متحضرون إلى حد ما والتنوع واضح في أسلوب حياتهم حيث كانوا يربون الأغنام والمواشي، كما أن بها عدداً كبيراً من التجار الأجانب والصناع إلى جانب مهنة الزراعة حيث استفادوا من النهر والفيضان السنوي له[1].

لقد حاولت الوثائق المحلية إيجاد نوع من التاريخ السياسي للإمارة، حيث ظهر ساركن غوبير الذي هو من سلالة باو بن بياجيدا رافضاً الخضوع لسلطان البرنو حينما رفض دفع الجزية له بحجة أنهم أحرار ورثوها أباً عن جد . فقد وجد مكتوباً عندهم أنهم من الأقباط، دخلوا إلى أهير أولاً ثم توجهوا إلى أزبين ولكن الطوارق دفعوهم للهجرة مجددا إلى عوالي غوار حتى بلغوا غور عبيس، كما أنها تذكر أسماء لسلاطين المدينة فى هذه الفترة كساركن محمد بن شروم وتذكر انتصاراتهم على حاكم زمفرا [2] .

إن ما تذكره الوثائق المحلية وما تقدمه من معلومات يتفق إلى حد كبير مع ما تورده الدراسات الحديثة التي تعتمد على الحفريات خصوصا فيما يتعلق بالمدن والمخلفات الحضارية .

لقد ذكر ابن بطوطة هذه الإمارة تحت اسم كابره حيث أكد أنها قريبة من النهر ولها سلطان في طاعة سلطان مالي[3]. وإذا صح هذا القول فإن المدينة كانت قائمة قبل سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م وأن الإسلام قد دخلها بحكم طاعتها لسلطان مالي المسلم، كما أن الحسن الوزان ذكر أن هذه الإمارة وقعت تحت سيطرة سلطان صنغي الذي قتل أميرها ووضع نواباً له فيها وتؤكد وثيقة محلية هذا القول، حيث تعتبر فتوحات الأسكيا محمد الكبير وصلت إلى غوبير سنة ٩٩١هـ / ١٥١٣م وتمكن من إخضاعها[4].

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص١٧٠ - ١٧١ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق : ص٢٠٦ .

(٢) عبد القادر بن المصطفى : المخطوطة السابقة : ورقة رقم ٩ ـ ١٠، ١٦ .

(٣) رحلة ابن بطوطة : مصدر سابق، ص٦٨٠ .

(٤) وصف إفريقيا : ص١٧١ ؛ مرحبا القرشي : فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوطة بمعهد الدراسات الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٨٠، ورقة ٣٢ .

(٥) رانو Rano :

تقع إمارة رانو [١] في الجزء الجنوبي الشرقي من إقليم الهوسا وهي من أصغر الإمارات حيث يحدها من الشرق مملكة البرنو، أما من الغرب فيحدها إقليم جواري، ومن الشمال تحدها إمارة كانو ومن الجنوب يحدها إقليم دوروم وأرض الكواررافا[٢].

لقد أُغفِلَ تاريخ هذه الإمارة حتى في الوثائق المحلية. وربما مردُ ذلك لصغر مساحتها وعدم تأثيرها في مجريات الأمور داخل الإقليم، أو لعدم قيامها بحروب خارجية من أجل توسيع مساحتها في المناطق التي حولها، أو لكون إمارة كانو كانت هي المسيطرة في المنطقة وكانت هي تحت سيطرتها مع تمتعها بنوع من الحكم الذاتي .

ويرى بعض المؤرخين أنها قبل أن تكون إمارة لها السيادة كانت مجرد مقاطعة ومدن صغيرة تسمى رمنغابا أو أوزمنكوجي مستقلة عن كانو [٣]، ولكن بحلول سنة ٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م، وفي بداية عهد حكم الساركن ياجي بن تساميا أمير كانو ورد في الحوليات خروج ساركن رانو من كانو إلى رانو ثم بعد سنتين خرج إلى بوبو[٤] ولم تذكر الوثيقة سبب الخروج ولا سبب الإقامة أصلا في كانو. ولكن من المحتمل أن رانو كانت

---

(١) بسبب قلة المعلومات والمصادر يشكك البعض في كون هذه الإمارة ضمن إمارات الهوسا الأصلية، كما أن البعض يرى أنها حديثة التكوين، أى أن تاريخ تأسيسها كان بعد حركة الإصلاح الديني في القرن التاسع عشر لهذا وردت ترتيبات مختلفة لإمارات الهوسا السبع الأصلية، الأول يرى أنها تشمل كانو، رانو، وزاريا، جوبير، كاتسينا، زمفارا والرأى الثاني يرى أنها كانو، كاتسينا، غوبير، زاريا، رانو، بيرام، دورا . أما بعض الوثائق المحلية فترى أن الإمارات السبع مكونة من بوشي، غوبر، زكزك، كنو، دورة، كاشنة، برم، نروا وأخرى ترى أنها تتكون من دورا، كطنا، غوبر، زكزك، كنوا، رانوا، غبس تيرام، أن ذلك الاختلاف مبعثه حكاية بياجيدا، فمن ينتسب له ومن نسله يكون الشرعي وله الحق في تكوين سلالة حاكمة، أما أبناء زوجة بياجيدا الثانية فهم غير أصليين وغير معنيين بهذا الترتيب . والدراسة اعتمدت على ذلك الترتيب على أساس أنه منتهج من قبل كثير من المؤرخين.انظر: عبد القادر بن المصطفى: المخطوطة السابقة، ورقة ٨ ؛ مجهول : تاريخ دور وإمارات الهوسا السبع، المخطوطة السابقة، ورقة ١ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص ١١٦؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٧٧ .

(٢) انظر الملاحق : الخريطة رقم(١)، والتى توضح الحدود الخارجية لكل إمارة .

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨٢ .

(4) Palmer .H.R :op.cit , pp 104 – 106 .

خاضعة لكانو، وساركن كانو كان يعين، حاكما لتلك المقاطعة، حيث يبعث به بعد أن يتولى هو الحكم، أو أن ساركن رانو كان من بين الرهائن المقيمين فى كانو، فعادة أخذ رهاناً من الدول الخاضعة كان موجوداً. وهنا ينبغي الإشارة أيضا إلى أن عادة خروج الحكام من إماراتهم إلى مدن أخرى واعتزالهم السلطة بدون أسباب كانت منتشرة في إقليم الهوسا، فأغلب الوثائق المحلية تذكر خروج حكام دون تحديد مكانهم ولا تذكر أخبارهم فيما بعد .

إن المهم هنا أن إمارة رانو كانت تابعة لكانو، وفي هذه الفترة أى في عصر الساركن ياجى بن تساميا Yaji Son of Tsamia ٧٥٠-٧٨٧هـ / ١٣٤٩-١٣٨٥م، دخل الونقارة ومعهم الإسلام الذي أصبح دين الدولة، فقد قاد هذا الساركن حروباً طويلة ضد الوثنيين في إمارته حتى انتصر عليهم وحطم أوثانهم وبنى مسجداً مكان الصنم المعبود[1].

والمعنى العام إذا يدل على أن رانو ستكون تابعة لما عليه الأحوال في كانو من حيث تغيير المعتقد، أي أن الإسلام دخلها مع دخول كانو أو بعدها بقليل .

(٦) دورا Daura :

تقع هذه الإمارة في الجزء الشرقي من إقليم الهوسا فهي البوابة الشمالية للإقليم من ناحية برنو حيث يحدها من الشمال إقليم زند والصحراء، ومن الجنوب كانو ومن الشرق دولة برنو ومن الغرب كاتسينا وكانو . وبما أنها البوابة الشمالية، فقد استقبلت العديد من الهجرات[2] القادمة من برنو وفي زمن مبكر. لقد اعتبرت هذه الإمارة من أقدم وأكبر

---

(1) Palmer :PP 104-105 ;

حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص٢٢-٢٣ .

(٢) لقد شهد السودان الأوسط والغربي هجرات عربية مسلمة كثيرة كان من بين أقدمها الإشارة التي وردت عند البكري ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م الذي يقول: إن جماعة من بني أمية هاجرت إلى كانم أثناء سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م وخصوصا أنهم كانوا مطاردين من قبل العباسيين واستقر بهم المقام في كانم بالسودان الأوسط . وفي هذه الرواية شبه كبير مع رواية بياجيدا المحلية عند شعب الهوسا التي تقول بقدومه من بغداد إثر خلاف أدى به إلى الخروج إلى أرض الكانم والبرنو ولكن بسبب خلاف آخر مع حاكم الكانم والبرنو هاجر إلى دورا التي أسس منها إمارات الهوسا السبع الأصلية. انظر : مجهول : تاريخ دور وإمارت الهوسا، المخطوطة السابقة، ورقة ١، ٥ ؛ أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثني، بغداد، العراق، ١٩٠٧م، ص ١١ .

إمارات الهوسا، فهي موطن الجد الأصلي للسلالة الحاكمة في كل إمارات الهوسا بياجيدا والذي نزل فيها وتزوج من أميرتها وتعاقب أبناؤه على حكم الإمارات فيما بعد[1] .

لقد حاول بعض المؤرخين وضع ملامح عامة لتاريخ هذه الإمارة في كونها مستقراً لهجرات جاءت من مصر والنوبة والحبشة وبلاد العرب حوالي القرن٤هـ/ ٩م. ولكن لهذه الإمارة خصوصية في تاريخها السياسي الذي يعتمد على حكم النساء، فقد أورد البعض قائمة تضم سبع نساء حكمن هذه الإمارة بالتوالي . كما وجدت قوائم أخرى تتحدث عن أكثر من٦١ أميراً كان أولهم أغزوري بن باو حكموا الإمارة بالتعاقب حتى وقت متأخر[2].

إن قرب الإمارة من حدود الكانم والبرنو كان له ميزات وعيوب، فقد وقعت الإمارة في فترات كثيرة تحت سيطرة الكانم والبرنو، فالحدود لم تكن ثابتة وجاءت أقدم إشارة في المصادر عن غزو مبكر وقع سنة٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م ضد جماعات تعرف بـ كالكين Kalkin وقبائل أدرما Aderma وقبائل دافومو Dafumu وهي قبائل كان بها بعض الدعاة المسلمين وكان لها دور مهم في نشر الإسلام في إمارات الهوسا عموما وإمارة دورا خصوصا[3].

(٧) بيرام Biram :

المعلومات عن هذه الإمارة غير متوفرة بشكل يسمح للدراسات بوضع نوع من التصور حول ما كانت عليه الأوضاع السياسية وكيفية التكوين حيث يكتفي صاحب إنفاق الميسور بذكر اسمها بيرم ضمن إمارات الهوسا الأصلية فقط[4]، وكل ما هو موجود يتحدث عن أنها وإمارة كانو يقعان في الجهة الشرقية من إقليم الهوسا، وهما الأقرب لدولة برنو، فإذا كانت إمارة كانو قد استطاعت الإفلات في كثير من الفترات من قبضة البرنو فإن إمارة بيرام كانت تحت السيطرة شبه المستمرة . وبالرغم من ذلك فقد تأسست السلالة الحاكمة فيها كغيرها من إمارات الهوسا بواسطة أبناء بياجيدا ولكن ليس من

---

(١) مجهول : مخطوطة تاريخ دور وإمارات الهوسا، ورقة ١ ـ ٣ ؛ انظر الملاحق : الخريطة رقم (١) .

(٢) آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص٧٢ .

(٣) بوبي جادو : الحضارة الإسلامية في النيجر، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٤م، ص٧٤، ٧٥ ؛ مفتاح يونس الرباصي : مرجع سابق، ورقة ٥ – ٩ .

(٤) محمد بلو : مصدر سابق، ص٦٧ .

أميرة دورا، بل ينسب المؤسس بيرام بن بياجيدا للزوجة الأولى البرناوية وقد أطلق اسم المؤسس على هذه الإمارة، أما الاسم الأصلي، فيرى البعض أنه جاران جاباس فهي مجموعة من المستوطنات والقرى كانت في إطار التنظيم المحلي والذي يعتمد ويقوم على الزعماء المحليين وعلى علاقات القرابة والأصل الواحد[1].

إن مجمل القول عن إمارات الهوسا يتمحور حول وجود غموض وإشكاليات لم تحسم بعد خصوصا فيما يتعلق بالأصل وكيفية التكوين، لهذا انقسم المؤرخون بين آراء كثيرة اتفقت حول عدم عرقية وأثنية الهوسا الذين توزعوا داخل هذا الإقليم مترامي الأطراف والفاصل بين كيانات سياسية لم تتصادم ولكنها كانت تتنافس فيما بينها للحصول على ثروات الإقليم دون حروب وبمعدات بدائية جدا .

إن هذا الإقليم والذي يمتد من دولة البرنو شرقا إلى أطراف الصحراء الكبرى شمالا ومن حوض نهر النيجر غربا إلى حوض نهر بنوي جنوبا لا يقال عن شعبه إلا خليط بين وافد ومحلي صبغ بلغة الهوسا ذات الجذور غير المنتمية لأمة أو عرق كأنها خلقت من العدم لكي تصاغ في صياغة تاريخية جديدة ضمن إطار فقدان المصادر الأصلية التي ضاعت بين قادة حركة الإصلاح الديني والاستعمار الإنجليزي والفرنسي في فترات لاحقة، هذا الضياع جعل المهمة عسيرة على كل الباحثين .

وفي ظل ذلك الضياع تخرج وثيقة من هنا أو هناك فتجد المئات من النقاد الذين لا يعترفون بحق الهوسا كأمة واحدة لها عرق وأصل واحد ولغة هي من أهم اللغات في السودان الغربي . لقد قدمت وثيقة أصل الونقارة أخيرا لكي تتحدث عن الوافدين فقط ولكنها لم تأت بالطريقة والأساليب التي انتشر بها الإسلام بين ذلك الخليط السكاني.

إن الإطار السياسي في إمارات الهوسا كان متفرقاً إلى حد كبير، فبالرغم من الادعاء بأن سلالة الحكام من أصل واحد، إلا إن الإمارات متفرقة ومتناحرة فيما بينها .

---

(١) الطيب عبد الرحيم محمد : مرجع سابق، ص٣١١ ؛ منى محمد عادل سيد : الحياة الاجتماعية والثقافية في إمارات الهوسا القرن ٨-١٠هـ / ١٤- ١٦م، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٩م، ورقة ١٨ .

لهذا فإن دراسة الحياة الاقتصادية ستكون فى إطار العموميات الاقتصادية والطرق البدائية في تلك المناطق النائية التي لا يجب أن تقارن بأي مدينة إسلامية كانت معاصرة لها، فمن الإجحاف المقارنة، فالحياة كانت بدائية والحرف الصناعية غير متطورة لدرجة أن البعض يرى أن الحداد وصانع الفؤوس هو نفسه الحرفي الذي يصنع حلي النساء .

وهذا ما سيطرحه الكتاب في فصله الأول والذي يتناول أنشطة الصيد والرعي والزراعة، والطرق المستخدمة والمبتكرة محليا في إنجاز مهمة إنتاج الغذاء والحصول عليه.

الفصل الأول

أنشطة الصيد والرعي والزراعة في إمارات الهوسا

أولاً: الصيد:

أهميته ، أدواته وطرقه، بري ، نهري.

ثانياً: النشاط الرعوي:

(أ) الحيوانات وأنواعها .

(ب) المراعي، والتعايش بين الرعاة والمزارعين.

ثالثاً: النشاط الزراعي:

(أ) المقومات الطبيعية للنشاط الزراعي، المناخ ، التربة، المياه.

(ب) الأراضي الزراعية: الملكية، المواسم، المحاصيل.

انحصر إقليم الهوسا فى الجهة الجنوبية من النيجر وشمال نيجيريا فهو يقع بين مملكتى صنغي فى الغرب والبرنو فى الشرق . وقد تميز ذلك الإقليم بتنوع الحياة الاقتصادية كونه اشتمل على تضاريس طبيعية متنوعة ضمت السهول والأودية والجبال وأجزاء من الصحراء، كما كانت الهضاب تشغل نسبة كبيرة من الأراضى الواقعة فى إطار هذا الإقليم(١).

كان لهذا التنوع التضاريسي والمناخي دون شك أثر على نوعية الأنشطة الاقتصادية في الإقليم والتي انحسرت في سبل المعيشة للسكان وطرقها والموارد التي حاول السكان استغلالها قدر المستطاع . ولكن السمة البارزة للنشاط الاقتصادي في هذا الإقليم انعكست على أولويات النشاط الاقتصادي والذي كان يلبي الحاجات الأساسية من المواد الغذائية ، فلم يكن يطمح أكثر من ذلك بسبب الصحراء وعدم إمكانية عبور أي مواد غذائية بكميات كبيرة منه وإليه .

لقد قلت الموارد الغذائية في الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم أي كلما اقتربت الحدود من الصحراء ، وزادت بشكل ملحوظ في الأجزاء الوسطى والجنوبية القريبة من فروع الأنهار والمناطق الاستوائية .

لقد ضم الجزء الأوسط من الإقليم هضاباً كانت بها واحات منحصرة بين نهر النيجر(٢)، ونهر دالول Le Dallol ، ونهر ماجيا Majya ونهر غولبي Gulbi حيث شكلت

---

(١) الحسن الوزان: مصدر سابق ، ص ١٦٤- ١٧٦ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق ،جـ٣، ص٢٠١-٢١٠.

(٢) نهر النيجر ينبع من هضبة فوتا جالون ويخترق الهضبة الغربية متجها نحو الشمال الشرقي لمسافة تبلغ حوالي ١٣٥٠كم ثم ينحني نحو الجنوب حتى يصب فى خليج غنيا، ويمر هذا النهر بإقليم الهوسا، وهو الذي أخذت منه النيجر اسمها بالرغم أنه لا يقطعها إلا فى مسافة ٥٥٠ كم في غربها الأقصى، ولكن روافده من الضفة اليمني تستفيد منه بشكل كبير ، كما توجد مجاري نهرية موسمية أخرى آتية من نيجيريا للنيجر أهمها كومادوغو يوبي، الذي يصب في بحيرة تشاد ويمتد هذا الأخير إلى ١٠٠٠كم، ولكنه لا يسقي النيجر إلا على مسافة ١٥٠كم وهو الحد الفصل بين البلدين، وهناك مجرى ماجيا الأدار، وغولبي، وغولبين كابا، وغولبين مارادا وتاركا وبعض مجاري المياه المغلقة مثل دالول بوسو، ودالول ماورى ، كما أن النيجر ونيجيريا موطن الهوسا تتقاسم بحيرة تشاد مع الكاميرون وتشاد وتمتلك النيجر حوالى ٣٠٠٠ كلم٢. انظر : زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص١٨ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، وآخرون ، موسوعة التاريخ والسياسة فى إفريقيا ، جـ٢، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ١٠٢٢ .

هضبة آدار Adar أهمها فأرضها خصبة ، ومكان مناسب لمزاولة نشاط الرعي والزراعة . كما أن للسهول دوراً مهماً في دعم ذلك النشاط ، فمن أهم سهول الإقليم من الناحية الغربية سهول تلاغ Talag في الشمال الغربي لمرتفعات أيار[1].

اعتمدت الحياة الاقتصادية في إقليم الهوسا على الرعي والزراعة بدرجة أساسية وذلك يرجع بطبيعة الحال إلى وجود مقومات لمزاولة تلك الأنشطة والمتمثلة في المياه والتربة الخصبة الصالحة للزراعة .

لقد أكدت كل المشاهدات والزيارات المبكرة للرحالة المسلمين أو المتأخرة من الغربيين بأن منطقة السودان الغربي كانت عموما تعتمد في اقتصادها على الرعي والزراعة فهما أساس الحياة هناك[2]، أما التجارة فهي من الأنشطة المرتبطة بالأسر التي كانت تمتلك الأموال وهم في الغالب من المهاجرين العرب وبعض من السكان المحليين، فالقول: إن الهوسا كانوا تجاراً بطبيعتهم هو قول يجانبه الصواب ، فلو كانوا كذلك لذكرتهم المصادر الإسلامية في حواضر السودان الغربي كما ورد ذكر الونقارة ، ولكنهم كانوا مزارعين بدرجة أولى كما ستبين الدراسة فيما بعد .

لقد وجد نوع من الحرف البسيطة عموما رافق تلك الحياة فكان ملبياً لحاجاتهم الضرورية والماسة لإنجاز تلك الأنشطة الأساسية . والدراسة اعتمدت هذا الترتيب في ذكر الأنشطة على اعتبار الأهم والأقدم من حيث المزاولة والأهمية بالنسبة لسكان الإقليم.

أولاً : الصيد : أهميته ، وأدواته وطرقه، (نهري ، بري).

يعد الصيد من الأنشطة الاقتصادية القديمة والتي وجدت بوجود الجماعات البشرية، فقد عبر عن حاجة الإنسان الملحه للغذاء ، كما أنه يأتي ضمن أنشطة واهتمامات سكان إقليم الهوسا. فقد أرجع البعض إنشاء كانو إلى مجموعة من الرماة الذين كانوا يعملون بالصيد فسكنوها وزاد عددهم وعندما أصبح الصيد مصدراً لا يُؤمن الغذاء الكامل، تحول أولئك الصيادون إلى مزارعين[3].

---

(١) زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص١٣ .

(٢) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٨٥ - ٦٩١ ؛ كلابرتون ، مصدر سابق ، ص ١٥١ -١٥٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ .

(٣) آدم العطار : المخطوطة السابقة ، ورقة رقم ٨ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص ٨١ .

كما أن المؤسس المفترض لكانو كان دائما يقدم على أنه ذو بنية جسدية قوية يحمل عصاه التي يصارع بها الفيل واستطاع بعد ذلك تطوير قدراته ليتمكن من نصب الشرك وإمساك الفيل بالحبال[1]، أي أنه صياد في الأصل جاء مع قبيلته إلى كانو واستقرت بها. وكما هي عادة أرباب كانو المؤسسين، فإن مهنته الأولى ومصدر فخره كانت الصيد. وبالرغم من أن هذه المهنة لم تذكر صفة للحاكم فيما بعد إلا أنها موجودة، وصيد الفيلة كان مهنة يسترزق منها الكثيرون في كون جلد الفيل يستخدم لصناعة نوع جيد من التروس[2].

وإذا كان تاريخ تأسيس كانو يعتمد على ما تذكره الوثائق والحوليات، فإن تاريخ كاتسينا أثبت هذه الحقيقة وهي كون مجموعات الصيادين هم من أسسها عن طريق الدراسات الآثارية، فقد أكدت اكتشافات The Discovery of Microliths by R. Soper في تلال Durbi – at – Kusheyi وجود مستوطنات للصيادين كانت تعيش في مجموعات وتمتهن هذا النشاط حيث يتم اصطياد الحيوانات الثدائية لكي تؤكل لحومها، وكانت أدواتهم في ذلك أسلحة بدائية وشراك ، ولكن دخول مؤثرات جديدة وهجرات أدت بهم لترك تلك المهنة والتحول إلى المهنة الزراعة[3].

إن الصيد كان يجمع بين المهنة والنشاط وهو على حسب الحاجة له فهو ضروري عند نقص الغذاء بالرغم من الأخطار الكثيرة التي يتعرض لها الصيادون سواء في حالة اقتناص الحيوانات البرية أو في حالة صيد الأسماك. فالوحوش الضارية [4]والفيضانات

---

(١) مجهول : تاريخ أرباب كنو ، ورقة ١ ؛ Palmer , H .R :op.cit, pp97-98 .

(٢) مجهول : أرباب كنو ، ورقة ١٥ .

(3) . R . S . Soper : " The Stone Age in Northern Nigeria " , p192

(٤) الإقليم كان يضم أراض واسعة وبرار كثيرة تحتوي على كثير من الحيوانات المفترسة كالأسود والضباع وغيرها فهي كانت تشكل خطراً على الصيادين ذوي الأسلحة البسيطة والتي لا تتعدى الحراب والسيوف والحبال . كما أن النمور كانت مثلا تهاجم الناس وقطعانهم ولكن عادة تربية الكلاب لمنع ذلك الهجوم كانت معروفة فهي دفاعية ولكنها لا تمنع ذلك الهجوم في كل الأحيان . كما أن الأنهار كانت تحتوي على حيوانات خطيرة كالتماسيح وأفراس النهر وهي كانت عائقاً للصيد وللملاحة في الأنهار . انظر : ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٢٦٦ ؛ الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ؛ انظر : الملاحق صور بعض الحيوانات في إقليم الهوسا.

كانت تشكل ذلك الخطر عليهم لهذا لم يكن نشاطاً رئيساً يمكن وضعه ضمن إطار أنشطة المجتمع ، كما أن تذبذب إنتاجه أو عائده أثر على مزاوليه . وبالرغم من ذلك فإن هذا النشاط كانت له مواسم وفصول ومواعيد، كان أهمها فترات الجفاف ونقص الموارد الزراعية ، وكذلك في فترة استراحة الأرض بين المواسم الزراعية [1]. أي أنه كان نشاطاً يزاول عند الضرورة . وأغلب المزارعين لديهم دراية بهذا النشاط إلى جانب كونهم مزارعين فهم صيادون في الأصل ولكنهم دون شك غير محترفين بسبب تركهم لهذه المهنة.

لقد قدمت كاتسينا نموذجاً لتطور مهنة الصيادين بشكل لا يعطيها أهمية كبيرة حيث كانت مدرجة مع طائفة أخرى من المهن كالجزارين والمغنيين والموسيقيين تارة ومع المجموعات المهنية الأخرى كالفلاحين والحدادين تارة أخرى ولكنها لم تكن ضمن إطار النشاط الاقتصادي المتكامل والذي تحكمه ضوابط مثلما هو الحال في النشاط الزراعي والرعي بالرغم من وجود رئيس الصيد لهذه المجموعة يعرف Uban Farauta (شيخ الصيادين) يضم تحته مجموعة مختلطة ومختلفة من الناس ليس لها رابط سوى المهنة حيث يقومون بهذا النشاط[2].

والراجح أن المقصود هنا بالصيادين لا يعني صيد الحيوانات البرية بل صيد الأسماك من الأنهار والتي كانت تقدم كميات كبيرة منه للمزارعين والرعاة حيث يتم التبادل فيما بينهم. إذن فالنشاط المتعلق بالصيد ارتبط بالأنهار وصيد الأسماك أكثر المجالات المستخدمة.

وفي إطار صيد الأسماك وهذا النشاط فإن تاريخ الهوسا يتضمن هجرات كثيرة جاءت من البرنو من ضفاف بحيرة تشاد في الشرق وهجرات أخرى جاءت من الغرب من صنغي وهؤلاء وخصوصا الذين جاءوا من صنغي جلبوا معهم طرقا وأساليب وأدوات جديدة للصيد، فقد استقروا في وادي ريما المنخفض ومارسوا مهنتهم الأساسية وهي صيد السمك[3].

لقد تحدث بعض المؤرخين على أن مهنة صيد الأسماك كانت نشاطا فاعلا ومهما لدرجة أن الصيادين في بعض مناطق الهوسا كانوا يدفعون الضرائب لمزاولتهم هذه المهنة[4] .

---

(١) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص٨٢ ـ ٨٣ ؛ زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص٢٥.

(2) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp60-61

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٤) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ٨٤ .

ولكن هذا القول لا يدلل بمصادر تؤكده لأنه من الأنشطة التي تحتاج ربما لمراقبين مباشرين لتحديد كمية الإنتاج اليومي لكي تفرض عليها نسبة أو جزءاً من المتحصل عليه الصياد ، ولكن المفروض من الضرائب كان على عموم أراضي الصيد حول مجاري الأنهار. لقد مثل هذا النشاط مصدر غذاء مباشر ومهم لمزاوليه حيث كان الفائض منه يستبدل بأنواع أخرى من الطعام .

لقد حمل المهاجرون الجدد وسائل كثيرة لصيد الأسماك كان أهمها القوارب الصغيرة ذات المجداف الصغير والمصنوعة من النباتات والأخشاب المحلية ، وبعض من الحراب والرماح والشباك وأنواع من سنارات الصيد، وهي أدوات ووسائل لم يكن بعضها معروفاً عند السكان وإنما هي مؤثرات جلبها المهاجرون معهم . لقد قدمت الأنهار وقت الفيضان وانحسارها كميات كبيرة من الأسماك، كانت عملية صيدها لا تحتاج لوسائل أو مهارات خاصة فهي مجرد عملية جمع فقط . كما أن المستنقعات وعند جفافها كانت تحتوي على كميات كبيرة من الأسماك البرمائية التي تحتمل العيش بدون ماء لفترات من الزمن ، وهذا ما أثبته الرحالة كلابرتون الذى شاهد أعداداً كبيرة من الناس حول نهر زرمي الذي يقع بالقرب من كانو وهم يصطادون الأسماك من المستنقعات التي خلفها النهر. إن نشاط صيد الأسماك كان دافعاً قوياً لهجرة [1] الصيادين للبحث عن مصادر جديدة في فروع الأنهار والبحيرات مما أدى إلى إنشاء مستوطنات تحول بعضها إلى مدن كبيرة في فترات لاحقة[2].

وإلى جانب صيد الأسماك كان هناك القنص والذي يكون للحيوانات البرية، فقد عدَّد الحسن الوزان أنواع الحيوانات التي كانت موجودة وذات فائدة بالنسبة للصيادين فهو يذكر الفرس الوحشي، وحيوان اللمت، والثور الوحشي، وقط الزباد، والغزلان، والأرانب البرية، وثور الماء، والتمساح، والضباع، والضب، والنعام، والجراد[3] وغيرها من الحيوانات التي كانت مستهدفة بعملية القنص وهذا النشاط كان يوفر للقائمين به اللحوم بدرجة أولى والجلود بدرجة ثانية وبعض الأدوية والعطور بدرجة ثالثة.

---

(١) يتحدث البعض عن أن تأسيس مدينة لاجوس عاصمة نيجيريا أسسها صيادون حيث استطاعوا تكوين مستوطنات قديمة كان أسس نشاطها صيد الأسماك ، وهنا يرتبط الترحال والهجرة ربما من أجل ملاحقة بعض أنواع الأسماك المهاجرة أو محاولة الصيادين الاقتراب من المحيط وتتبع مجاري الأنهار التي كانت تصب فيه لأنها كانت مكاناً مهماً لأسماك البحار التي هي أجود من أسماك الأنهار من حيث النوع والجودة . انظر : أ . ج . هونكيز : مرجع سابق ، ص٨٤ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق ، ص ١٨٣ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٣ – ٢٧٩ ؛ د . لايا : مرجع سابق ، جـ٥ ، ص ٥٢٩ .

لقد كانت بعض الإمارات ومنها كاتسينا لا تعتمد على القنص على اعتبار أن مزاوليه يمارسون نوعاً من السحر والتدريب الخاص، كما أنهم يستخدمون أشياء محظورة نُهي عنها، لهذا كان لا يدخل ضمن إطار الأهمية الاقتصادية للنشاط ولم يصنف من المهن التي كانت ذات اهتمام اقتصادي من قبل حكام الإمارات، حيث شكل الصيادون المهرة فرقاً ضمن الجيش كانوا يخرجون للحروب وقنص الرقيق، لهذا فهو ليس من أولويات الاقتصاد المعيشي مثل الرعي والزراعة والحرف فهو استرزاقي نفعي[1].

لقد أورد الحسن الوزان طرقاً عديدة لصيد كثير من الحيوانات وبوسائل مختلفة باستخدام الحيوانات مثل الخيول والكلاب وأنواع من الصقور إلا أن معظمها عبر عن بدائية الطرق والأدوات فهي تعتمد على المجهود العضلي أكثر من المجهود العقلي أو التقني، فمثلا طريقة صيد التمساح تتم بواسطة ربط حبل حول جذع شجرة قريبة من مجرى النهر من طرف ويربط في الطرف الآخر كلاب حديد مع الطعم الذي هو شاة أو عنزة ويترك بالقرب من النهر وعندما يظهر التمساح ويأكل الطعم يسحب الحبل بالتمساح ويقتل بالحراب خارج الماء[2].

أما طريقة قنص [3] الضبع فهي غريبة حيث يدق الصيادون الطبول محدثين جلبة كبيرة أمام المغارة التي يكون فيها ويدخل أحد الصيادين ويربط الحبل في إحدى أطرافه ويتم سحبه

---

(1) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp61-62 .

(٢) وصف إفريقيا : ص٢٧٣ .

(٣) أورد الحسن الوزان طرقاً عديدة عن قنص الحيوانات الإفريقية ولم يذكر بالضبط أماكن قنصها ولا الشعوب التي قامت بذلك مما يجعل الجزم بأنها في إقليم الهوسا أو من الطرق المتبعة هناك يعرض الدراسة لنقد شديد، فهو يورد تلك المعلومات في العموم ويخصص في بعض الأحيان ولكن المجمل والمتعلق بحيوانات الإقليم ربما يستخدم ويرفع ذلك الحرج عن نوعية المعلومات والتخصيص المكاني ، فقد ذكر طريقة قنص ثور الماء ذى الجلد المتين والذي يستخدم في التروس لصلابته وقوته ، كما أنه ذكر طريقة قنص الضب الذي يؤكل دون سلخ وطعمه مثل الضفدع . كما ذكر طريقة صيد النعام وهي أخذ الصغيرة منها ويتم تربيتها حتى تكبر ودون شك يستفاد من ريشها ولحمها وبيضها الذي يستخرج منه عقاقير طبية . كما ذكر قنص النسور والصقور وتعليمها وتدريبها على صيد الأرانب والحجل والسمان ، كما يقنصون الثعالب والذئاب ويعلمونها على المصارعة فيما بينها، كما ذكر قنص حيوان اللمت ذي الجلد القوي الذي هو أيضا يستخدم في صناعة التروس الحربية، كما ذكر طرق قنص البقر الوحشي والغزلان التي تدفع إلى الصحراء=

ثم قتله . أما قنص القطط البرية والتي تنتج المسك جيدا والتي تسمى قط الزباد فهي عن طريق الشراك والحبال، فالصيادون يحافظون عليها لأنها تنتج تلك المادة وهي في الأقفاص حيث يتم إطعامها كل يوم ثم يطرق بقضيب على السياج التي هي بداخله حتى تركض وعندما تعرق تخرج تلك المادة فتنزع من أماكن كثيرة في جسمها خصوصا أماكن العرق[1].

وخلاصة القول هنا، فقد استخدمت كثير من الطرق من أجل قنص الحيوانات البرية والإيقاع بها والتي كانت تشكل جزءاً من مصادر تأمين الطعام بشكل مباشر أو استبدال الزائد بالأطعمة الأخرى ، ولكنها لم تمثل أهمية كبيرة في اقتصاد إمارات الهوسا ولا تقارن بالزراعة أو الحرف والمهن التي كانت تعبر عن نشاط واهتمام السكان بالدرجة الأولى، إلا أنها تظل في إطار التنوع الحرفي والمعرفي ، وهذا ما سيطرح في الفصل الثاني حول تلك المهن والحرف الصناعية وما قدمته لكل تلك الأنشطة من أدوات ومعدات معتمدة على ما تنتجه الطبيعة محليا وما يجلب من خارج الإقليم .

ثانياً : النشاط الرعوي :

ترجع حرفة رعي القطعان في أصولها إلى الألف سنة قبل الميلاد حيث تم جلبها من المناطق الساحلية إلى ما وراء الصحراء بشكل تدريجي وبمرور الوقت تأقلمت الحيوانات وتغيرت أشكالها من حيث المظهر العام[2]، ويرجع بعض العلماء انتقال مؤثر استئناس البقر من السودان الأوسط إلى إقليم الهوسا. حيث تعد مهنة الرعي في الإقليم هي أقدم

=الساخنة مما يؤثر على حوافرها فتضعف وتسقط . إن طرق القنص والصيد كثيرة ومتعددة بفعل الطبيعة وكثرة الغابات إلا أنها لم تمثل الكثير بالنسبة للاقتصاد في إمارات الهوسا بسبب اعتماده على الزراعة في المقام الأول كما أن العقائد الإفريقية كانت تقف أمام صيد كثير من الحيوانات لأنهم يعتقدون بالتقمص ولديهم عبادة الطوطم الجد الأكبر للقبيلة فلربما كان الجد الأكبر فيل أو أسد أو نسر ... إلخ. للمزيد انظر : الحسن الوزان : مصدرسابق ، ص٢٦٣ - ٢٧٩ ؛ هوبير ديشان : مرجع سابق ، ص١٠ - ١٠٢ ؛ انظر : ملاحق صور الحيوانات والطيور الموجودة في الإقليم.

(١) المصدر السابق : ص ٢٦٧ ؛ د . لايا : مرجع سابق ، ص ٥٢٩ .

(٢) م . بوسنانسكي : مقدمة لإفريقيا المجاورة للصحراء في عصر ما قبل التاريخ المتأخر ، تاريخ إفريقيا ، المشرف جمال مختار ، جـ٢ ، اليونسكو ، (د ، ت) ، ص ٥٥٥ .

من الزراعة بزمن طويل وهذه العملية تقع ضمن إطار تغيير عادة صيد الحيوان إلى استئناسه وتُعرف بتطويع الحيوان في عملية اختيار طبيعي وتوجيه عملية تكاثره وجعله في خدمة الإنسان [1].

(أ) الحيوانات وأنواعها

من خلال مجموعة من الدراسات الآثارية [2] والتي أجريت في مواقع متعددة من شمال نيجيريا الحالية أى فى أجزاء من موطن الهوسا في المنطقة الواقعة بين خطي عرض ١٤،٣٠ ١٤ درجة إلى الشرق وخطي طول ١٢، ١٢،٥ درجة إلى الشمال ، حيث أشارت إلى وجود مستوطنات تسكن بيوتاً من القش وأغصان الأشجار، رعوية تربي حيوانات داجنة أبقاراً وضأناً أو ماعزاً بأعداد كبيرة [3].

وبناء على ما تقدمه دراسات استقصائية عن الفترة ما بين القرنين٤-١٠هـ/ ١٠-١٦م عموما حول هذه المهنة أو النشاط، فهي تؤكد أن مزاولتها لم تكن على نطاق واسع إلا في الجزء الشمالي من السودان الغربي والجزء الجنوبي من الصحراء الكبرى وذلك راجع لعدم وجود الأمراض الفتاكة مثل مرض النوم . وتلك المناطق الرعوية المشار إليها توجد بها جماعات تخصصت في هذا النشاط مثل البربر والطوارق والفولاني . وتعد الماشية من أهم حيوانات الرعى فهي صغيرة الحجم وتتمتع بمقاومة عالية للأمراض ولكن انتشارها كان محدوداً ولم يرغب فيها المزارعون لعدم جودة مخلفاتها التي تستخدم كسماد للأرض [4].

---

(١) المرجع السابق : جـ٢ ، ص ٦٠٨ ، ٦١٠ .

(٢) قام فريق من العلماء المتخصصين فى الحفريات والدراسات الآثارية بدراسة منطقة شمال نيجيريا في فترات قديمة وقد عثروا في مواقع شمال نيجيريا والكاميرون وتشاد على تلال تمثل فترات متعاقبة كانت تحاكي حضارة الإنسان القديم ، وتلك الدراسات كان أهمها دراسة ج . ب . ليبوف سنة ١٩٦٢م ثم دراسة ج . كونة سنة ١٩٦٧م و١٩٦٩م وهى الدراسة المهمة والتى كانت على التلال الموجودة في نفس المنطقة وجميعها أكدت وجود جماعات رعوية تربى الأبقار والضأن أو الماعز حيث يستعملون الأدوات الحجرية المصقولة وهى ترجع للقرن السادس قبل الميلاد . انظر نتائج دراسة كونة ص٥٥ ، ١٤٦-١٤٧ والتى وردت عند م . بوسنانسكي : المرجع السابق ، ص ٦١٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦١٧ .

(٤) أ . ج . هو بكنز : التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية ، ترجمة أحمد فؤاد بليغ ، تقديم محمد عبدالغني سعودي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص٧٧ - ٧٩ .

تتفق هذه المعلومات مع ما أورده الحسن الوزان الذي زار المنطقة وأكد أن البقر صغير الحجم جدا بحيث يعادل العجل ذا السنتين من البقر العادي ، كما أنه أورد ادعاء أهل تلك المواشي بأنها قوية تستطيع التحمل [1]. وهذا القول تؤكده أيضا دراسات آثارية أجريت لتتبع وجود قطعان المواشي عبر التاريخ فقد أثبتت بشكل قاطع وجودها منذ سنة ٣٨٣٠ ق.م، وهي صغيرة الحجم والبنية وكانت مناطق انتشارها في أواسط الصحراء وتسربت إلى إقليم الهوسا بمرور الزمن، كما يعتقد أنها كانت قادمة من مصر. لقد توصلت هذه الدراسات العلمية لحقائق كثيرة وهي تتفق مع ما تطرحه بعض المصادر والروايات المحلية في كون ممارسة الرعي هي الأقدم ، فالرعاة تحولوا بفعل بعض العوامل الطبيعية والمعيشية إلى مزارعين فأصبح الرعي والزراعة من الأنشطة المختلطة والمرتبطة بالمكان والعوامل الطبيعية [2].

لقد عرف إقليم الهوسا منذ زمن طويل مهنة الرعي كأول مهنة اشتغل بها السكان لدرجة أن بعض الدراسات تصف-حضارة الهوسا إن جاز التعبير- في بدايتها بالرعوية [3].

تعد شهادة الحسن الوزان عند دخوله لمدينة غوبير كأول إمارة يدخلها في إقليم الهوسا والتى كانت تدور حول القرى التي كان يسكنها رعاة الغنم والبقر ، ويذكر أن بها أعداداً كبيرة جدا من هذه الأنعام كما أنه يذكر نفس المشاهدة عند دخوله لكانو، فهم يربون الغنم ، والبقر صغير الحجم [4].

ويمكن القول هنا: إن الأبقار تأتي على رأس قائمة الحيوانات الرعوية في الإقليم فهي مصدر مهم للثروة الاقتصادية للسكان والراجح أن لفوائدها الكثيرة دافع لتلك التربية، حيث تنتج الحليب ومشتقاته وكذلك اللحوم، كما أن جلودها من أحسن أنواع الجلود المستخدمة محليا وخارجيا إضافة إلى ذلك مقاومتها للأمراض المتوطنة .

---

(١) وصف إفريقيا : مصدر سابق ، ص١٧١ .

(٢) م . بونسناسكي : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٦١٠ - ٦١٧ .

(٣) فيج . جي . دي : تاريخ غرب إفريقيا ، ترجمة السيد يوسف نصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م، ص٧١ .

(٤) المصدر نفسه : ص١٧١ ، ١٧٣ .

أما باقي الحيوانات فهي لا تخرج عن إطار الأغنام والماعز وهناك أيضا الحمير والبغال لنقل الأحمال والتنقل داخل الإقليم وهي تابعة ومكملة لعملية رعي تلك القطعان، فبيوت الهوسا من القش وأغصان الأشجار، لهذا فإن عملية التنقل وراء المراعي الخصبة كانت عملية شبه دائمة.

أما الجمال فإن زمن دخولها لبعض إمارات الإقليم كان متأخراً بعض الوقت؛ فقد أدخلت إلى كانو زمن الساركن عبدالله بورجا Abdulahi Burja ٨٤١-٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م في منتصف القرن ٩هـ/ ١٥م [١]. والراجح أن أهل الصحراء من الطوارق كانوا يحتكرون هذا الحيوان، فهو مصدر مهم لحياتهم خصوصا المستخدمة منها في القوافل.

لقد وصف الحسن الوزان إبل إفريقيا عموما بأنها نوعان، الأول: العادي والموجود الآن في الشمال الإفريقي والصحراء وهو مخصص لنقل البضائع ولنقل الناس عند السفر الطويل حيث تعتبر الإبل وسيلة النقل الوحيدة عبر الصحراء، فهى قادرة على تحمل العطش لمدة خمسة عشر يوما وبمقدورها حمل ما بين ٣٠٠ و ٣٥٠ كيلو جرام [٢]، وتذكر بعض النوازل أن الجمال تستخدم فى نقل البضائع والناس بأجر متفق عليه وهو على حسب قدرة الجمل التي تقاس بالعديلة [٣]، وكان الطوارق

---

(١) مارمول كربخال: مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٦؛ The Kano Chronicle,op.cit, pp109-110؛ حسين سيد عبدالله: مرجع سابق، ص٧٧.

(٢) وصف إفريقيا: جـ٢، ٢٦٠-٢٦٣؛ حسن المدنى علي كريم: مرجع سابق، ص١١٠.

(٣) تختلف حمولة الجمل على حسب الطريق والمسافات التى يسلكها، فالجمال المعدة لقطع المسافات الطويلة فى الصحراء لا تسطيع حمل أكثر من ٢٥٠ رطلا، والرطل يساوي نصف كيلو جرام، وذلك راجع لصعوبة الطرق وارتفاع درجات الحرارة، وقلة الأكل والشرب. وتعرف حمولة الجمل الصحراوي بالعديلة وهى أكياس مصنوعة من صوف الأغنام ووبر الإبل وهى قوية الصنع، ومعيار وزنها يتراوح بين ٧٠ و٨٠ كيلو جرام. لهذا درج تجار الشمال على تحميل الجمال بالوزن الكامل عند السير إلى الجنوب على اعتبار أن حمولة العودة تكون أخف وزنا، كما أن سكان السودان الغربي كانوا يقومون بكراء الجمال على حسب قدرتها حتى وان كانت ستقل بشراً دون وزن وتذكر نازلة إن مقدار كراء الجمل كانت أربع عشرة عديلة نقداً. انظر: أبو عبد الله المصطفى بن أحمد الغلاوي: العمل المشكور فى جمع نوازل التكرور، مخطوطة بمعهد الدراسات العليا والبحوث الإسلامية أحمد بابا التنبكتي، تمبكتو، مالي، جـ٥، رقم ١٠٣١، ورقة٦٧؛ محمد عمر مروان،=

والبربر يملكون أعداداً كبيرة منها، حيث يتم خصي الذكور ويترك ذكر واحد لكل عشر نوق[1].

أما النوع الثاني من الإبل : فهو المسمى رواحل نحيل الجسم رقيق الأعضاء ولا يصلح إلا للركوب وهو أيضا عند الطوارق، فهذا النوع قادر على قطع المسافات بسرعة حيث بمقدوره قطع مسافة ١٠٠ ميل خلال يوم واحد[2]. لقد دخلت الإبل للإقليم وكل الإمارات وصارت من ضمن الحيوانات التي كانت تربى في قطعان حيث يستفاد من حلبيها ولحومها وأوبارها .

أما الخيول فهي قليلة بالنسبة للبقر والجمال ، وفي الأصل لم ينتج الإقليم الخيول بل تم جلبها في وقت متأخر حيث تذكر حوليات كانو أنها دخلت إلى كانو في عصر الساركن ياجي بن تساميا Yaji Son of Tsamia ٧٥٠ - ٧٨٧هـ/ ١٣٤٩ - ١٣٨٥م[3]، فقد كانت حكراً على البربر، فالخيول العربية الأصلية والتي تسمى بربري حيث كانت تربى في مناطق البربر في أطراف الصحراء الكبرى الشمالية ولا تستخدم بشكل كبير في السفر وإنما تسخدم في الصيد والحروب حيث يتم إطعامها الحبوب وتسقى لبن الإبل مرتين في اليوم ولها مراعٍ خاصة بها في فصل الربيع، حيث لا يركبونها خلال ذلك الوقت ، وتباع الذكور منها فقط ، ونادرا ما تباع الإناث ، وجلبت الخيول إلى أسواق إقليم الهوسا حيث كانت تباع بأثمان باهظة وفي مقابل الرقيق ، بعد أن يتم عرضها على الساركن ليختار منها الأفضل[4].

=الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، طرابلس ، الجماهيرية العربية ، ٢٠٠٩م ، ص ٣٤٨-٣٤٩ ؛ حسن المدني علي كريم : علاقة ليبيا ببلدان ما وراء الصحراء في عهد يوسف باشا القرمانلي ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، طرابلس ، الجماهيرية العربية ، ٢٠٠٩م ، ص١١٠.

(١) أبو عبد الله المصطفى بن أحمد الغلاوي: المخطوطة السابقة ، ورقة ٣ ، ٥-٦ ، ٤١ ، ٦٧ .

(٢) الحسن الوزان: مصدر سابق، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ؛ ناختيجال : مصدر سابق ، ص٢٣٧ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص١٤٣ .

(3) Palmer : op.cit , pp 123 .

(٤) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ كلابرتون : مصدر سابق ، ص١٥٦ - ١٥٧ .

كما تعتبر الخيول من بين أهم الغنائم التي يغنمها حكام الهوسا في حروبهم ضد بعضهم، ففي إحدى الحروب بين كانو وكاتسينا سنة٩٩٠- ١٠٢٧هـ/ ١٥٨٢- ١٦١٨م والتي انتصرت فيها كانو حيث تحصلت على ٤٠٠ جواد بربري و٦٠ سرجاً من الجلد[1].

لقد كانت قطعان الماشية هي الأهم بالنسبة لسكان إقليم الهوسا فقد كان البقر يقدم لهم مصدراً مهماً من مصادر الغذاء ووسيلة لا غنى عنها لفلاحة الأرض ، كما كانت مصدراً للتفاخر بين الحكام في المناسبات المهمة . فقد ذُبحت أعداد كبيرة من الأبقار أثناء بناء سور مدينة كانو ، فقد ذبح في اليوم الأول لبناء السور عدد ١٠٠ عجل في عهد الساركن جيجماسو بن واريس Gijimasu son of Warisi في سنة ٤٨٨ - ٥٢٨ هـ / ١٠٩٥ - ١١٣٤م، كما وردت حادثة أخرى في حوليات كانو في عهد الساركن محمد نزاكي سنة ١٠٢٧ - ١٠٣٢ هـ / ١٦١٨ - ١٨٢٣م مفادها أن أحد رجاله حاول إسعاده ، فقرر توسيع أحد جوانب سور المدينة فقدم للعمل ٥٠ ثوراً وذبح يوم الانتهاء من العمل ٣٠٠ بقرة حتى يدخل الفرحة على قلب الساركن[2]. إن تلك الأرقام والتي ربما تكون كبيرة إلا أنها توضح بشكل جزئي أهمية قطعان المواشي واستخداماتها فهي لتنفيذ الأعمال الشاقة، وفي نفس الوقت مصدر غذائي مهم، فالملاحظ على شعوب الهوسا وسكان تلك المناطق، الشراهة في أكل اللحوم واستخدامها بشكل كبير جدا، وهذه من المشاهدات التي لاحظها المؤلف أثناء زيارته للإقليم.

إن نشاط تربية الحيوانات للأغراض المنزلية مثل الماعز والتي تقدم هي الأخرى مصدراً مهماً للغذاء، كان في نفس الوقت يعتبر كقربان للمعبودات الوثنية والتضحية الإسلامية فيما بعد، لهذا كانت الحيوانات تشكل أهمية بالغة بالنسبة للهوسا . والملاحظ هنا أيضا أن المجموعات الرعوية والهجرات المبكرة للإقليم والتي كانت هي الأساس في تكوين المدن كان أغلب أعضائها يمتهنون الرعي، والدليل: هجرات الفولاني، والتي يتوقع وصولهم إلى إقليم الهوسا سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، فقد كانوا أصحاب قطعان كبيرة جدا استقروا بماشيتهم وأغنامهم في مناطق عدة من كاتسينا عند ملتقى نهري كارادووا، وبونسورو. أما في كانو فقد أسسوا مستوطنات تركزت في أعالي نهر بنوي في الجنوب من

---

(١) د . لايا : دول الهوسا تاريخ إفريقيا العام ، المشرف ب . أ . أوغوث ، جـ٥ ، اليونسكو ، لبنان ، ١٩٩٧م ، ص٥٢٧ .

(2) Palmer : Sudanese Memoirs , pp 116 – 117 .

إقليم الهوسا حيث تم إلزامهم بدفع الضرائب [1] عن تلك المهنة ، كما أن الهجرات من الشعوب الأخرى للإقليم مثل الأزبيناوه وعرب الشوا والطوارق كانو يمارسون هذه المهنة بحكم أنها المهنة السائدة في الإقليم بما توفره من مصدر غذائي مهم [2] ولكن سنوات الجفاف وعدم مقدرة تلك القطعان على سد الحاجات الأساسية لأصحابها دفع أعداداً كبيرة منهم للركون إلى حياة الاستقرار وترك التنقل وتغيير نشاطهم الرعوي والعمل بالزراعة .

(ب) المراعي والتعايش بين الرعاة والمزارعين :

لم يتحدث الحسن الوزان عن المراعي الخاصة بالإمارات الأصلية وإنما أشار إلى مناطق قريبة من تلك الإمارات أي عند جيرانها ، فقد كانت هناك مناطق مخصصة للرعي حيث تربى فيها القطعان المختلفة وهي قرى كثيرة سمتها الرئيسة الترحال والتنقل بين المراعي. ويشترط في هؤلاء أن تكون بيوتهم بسيطة التركيب وحاجاتهم قليلة ، بحيث يتم

---

(١) تذكر حوليات كانو أن الساركن كوتومي بن محمد نزاكي ساركن كانو والذي حكم سنة ١٠٣٢-١٠٥٨هـ/ ١٦٢٣-١٦٤٨م، هو أول من فرض الضريبة على الفولاني والتي سميت Jongali ، حيث أخذ ١٠٠ رأس من البقر من زعيم عشيرة الفولاني و٦٠ من Baawa و٥٠ من Dindi Maji. ويبدو أن قطعان المواشي التي يمتلكها الفولاني صارت كبيرة جدا فهي تمثل ثروة فاقت الحد العادي في الحاجة إلى الغذاء ، فقد أوردت بعض الدراسات أن أربع جماعات كانت تورد ٢٨٠ رأساً من الماشية. فكم كان عدد قطعانها ؟ وهذا دون شك دفع حكام الهوسا لفرض تلك الضريبة وصارت ملزمة لكل مربي القطعان، وعين لها ساركن خاص لجبيها يعرف ساركن شانو وهو محصل ضرائب الماشية . أما في إمارة زمفارة غير أصلية فقد دفع المربون رسوماً عن المراعي أو الرعي عرفت بـ كودين هاكي والمكلف بجمعها يسمى نونو، حيث كانت تدفع على شكل لبن وزبد وتقدم للساركن . أما في غوبير فقد فرضت الضريبة على المواشي سنة ١٧٧٧-١٧٨٩م والتي عرفت باسم الجانغالي والتي تعرف بلغة الهوسا كوردين كاسا، وصارت معروفة في كل الإمارات وهي سنوية يدفعها أصحاب القطعان الذين تحولت مهنة الرعي عندهم من سد الحاجة إلى ثروة كان حكام الإمارات بأمس الحاجة إليها كمصدر دخلٍ بسبب الحروب الكثيرة بين بعضها البعض . انظر : د. لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥٤٤،٥٢٦؛ مهدي رزق الله أحمد: مرجع سابق، ص٢٥٠-٢٥٣؛ Palmer:op.cit,p 119

(٢) كلابرتون : مصدر سابق ، ص٢٠٨ ؛ د. لايا : مرجع سابق ، جـ ٥ ، ص٥٢٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ، ٢٤٩ - ٣٥٢ .

نقلها على ظهور الثيران التي هي من نفس القطيع ، لهذا فإن أماكن إقامة تلك القرى دائما ما تكون خارج المدن وبعيدة عن الحقول ، ونظراً للتنقل والحركة الدائمة فإن أعدادها وأحجامها تأتي دائما مختلفة ، ولكن السمة التي يؤكدها أنها قرى كان يسكنها الرعاة فقط، كما جاء وصفها وهو يتحدث عن كانو [1].

كانت المناطق المخصصة للمراعي [2] لها- دون شك- مواصفات معينة بحيث لا تتداخل مع مناطق الزراعة. فمثلا المناطق الشمالية من إقليم الهوسا والواقعة في النيجر حاليا كانت تحدد بما يعرف حديثا بخط التماطر، وهي المناطق التي تسقط فيها الأمطار بمعدل٢٥٠م سنويا حيث ترعى القطعان هناك فترة ثم تعود لمنطقة الجنوب في مواسم الأمطار،وتعود من جديد إلى الشمال فاسحة المجال للمزارعين لزراعة الأرض بالمحاصيل الموسمية كالحبوب، وعند انتهاء فصل الحصاد تعود من جديد للمناطق الجنوبية[3] .

---

(١) وصف إفريقيا : ص١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) تحدد المراعي في إقليم الهوسا عموما في منطقتين، الأولى: في الشمال من الإقليم ، فالرعاة لا يعترفون بسيادة أو بحدود الإمارات وهدفهم كان بلوغ المناطق المحاذية للصحراء عند خطي عرض ١٣، ١٦درجة شمالا في امتداد عرضي يبدأ من بحيرة تشاد شرقا وحتى مالي غربا ، فهذه المنطقة كانت دائما منطقة النشاط الرعوي حيث تكثر فيها الواحات وهي وطن ملائم للإبل وأغنام الضأن والتي تختلف عن ضأن شمال إفريقيا، وهي نوعان، الأول: يسمى التيدا وهو كبير الحجم والثاني : يسمى بالمحلي التيهري وهو يمتلك ذيلاً طويلاً وعالي الارتفاع وصوفه قليل . انظر ملاحق الصور . أما الماعز، فالنوع الذي يربى صغير الحجم وشعره قصير وإنتاجه للحليب قليل ولكنها سريعة التكاثر . انظر ملاحق الصور. أما المنطقة الثانية : فهي جنوب الألي والتي تعتمد على الأمطار الموسمية، وهي مناطق رعي داخلية قريبة من بعضها البعض تربى فيها الإبل والأغنام والماعز والحمير والبغال والخيول . أما المنطقة الثالثة : والتي تلي الثانية جنوبا هي أراض زراعية على طول مجرى نهر النيجر وتفرعاته داخل السهول المنبسطة في شمال نيجيريا الحالية وتوجد بها حيوانات المزارعين والتي تلبي حاجاتهم الزراعية كالحرث والنقل . انظر : جوستاف ناختيجال : الصحراء وبلاد السودان ، ترجمة عبد القادر مصطفى المحيشي ، مراجعة صلاح الدين حسن السوري ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، ص٦٣٠ ؛ إسماعيل أحمد ياغي ، محمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ط٤، جـ٢، مكتبات العبيكان ، الرياض ، السعودية ، ص٢١٤ .

(٣) زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص٢٤ .

كما كانت هذه العملية والتي تعرف بالهجرة الموسمية لمربي القطعان تحتوي على أهداف عامة مهمة لأصحابها فهي رحلة طويلة من حواف الصحراء في الشمال حتى مناطق السافانا في الجنوب والعودة ثانية. وهي في خط مستقيم تمر بمناطق عشبية تتغذى منها الحيوانات خلال سيرها ، فالرحلة طويلة تحتاج لعدة أيام أو شهور ولكن تلك الهجرة تنحرف عن خطها المعتاد في بعض الأحيان فتسمى الانحراف الهجري ، وهو تحويل وانحراف خط الهجرة عن مسارها ، كما أنها في أحيان كثيرة يتم تغيير خط سيرها بسبب فقر المراعي القديمة مما يستوجب البحث عن أماكن جديدة [١]. لقد كان البحث عن المراعي الجيدة مهمة صعبة بالنسبة للرعاة، فخصوصية المراعي تكمن في نوعية الأعشاب وليس في كثرتها ، كما أن من متطلبات المرعى الجيد ضرورة وجود مصادر للماء، وأعشابه تحتوي على كميات جيدة من الملح .

والمرجح أن حرية تنقل القطعان كانت تصطدم بوجود المزارع والمزارعين، فأراضي الرعي الجيدة كانت في نفس الوقت أفضل الأراضي الزراعية مما جعل نزاعات دائمة تدور بين المزارعين والرعاة . ومما يزيد الأمر تعقيداً غياب السلطة السياسية القادرة على حل تلك المنازعات ، فقد كانت انتهاكات الرعاة الجائرة للأراضي الزراعية خصوصا في سنوات الجفاف مستمرة ، فقلة الماء تدفع الرعاة للاقتراب من مجاري الأنهار وهي أراض زراعية صرفة [٢]. لقد شكلت المزارع وأصحابها الزارعين عائقاً أمام الهجرات الموسمية للقطعان مما استوجب في أحيان كثيرة انحراف خط الهجرة وتغيره كحل من الحلول التي تطرح لفض المنازعات ، ولكن تمدد الأراضي الزراعية وإنشاء قرى [٣] جديدة في أطراف المدن جعل كثيراً من الرعاة يغيرون نشاطهم ويتحولون إلى مزارعين مستقرين .

---

(١) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(٢) م . أبيتبول : نهاية إمبراطورية الصنغاي ، تاريخ إفريقيا العام ، إشراف ب . أ . أغوث ،جـ٥ ، اليونسكو ، لبنان ، ١٩٩٧م ، ص٣٦٢.

(٣) لقد كانت كل إمارات الهوسا تعتمد على المدن المسورة التي تضم بيت الساركن وبيوت الأمراء والأسواق والمرافق العامة وبعضاً من المزارع الصغيرة ، أما القرى المحيطة بالمدينة فهي خاصة بالفلاحين والرعاة والعبيد وبيوتهم من القش وأغصان الأشجار وهي متفرقة وغير مزدحمة والأراضي شاسعة من حولها، فقد أكد كلابرتون قبل دخوله كانو وجود تلك القرى وقطعان الماشية التي تربى و ترعى في الأراضي المكشوفة فقد كان الفولاني هم من يمتلكون تلك القطعان الكبيرة،=

كما أن محن الرعاة والمتمثلة فى فقدان القطعان بسبب الأمراض أو النهب أو الجفاف أو الضياع[1]، أو كثرة الضرائب كانت من الدوافع الرئيسة وراء استقرارهم بدلا من حياة التنقل. وبالرغم من ذلك فإن الحياة والمُعايشة اليومية والعلاقة العامة بين الرعاة والمزارعين[2] كانت مهمة وتبادلية إلى حد كبير فقد ظهر نوع من التجارة التكاملية والتى تقوم على التبادل في المنتوجات الحيوانية من جهة والزراعية من جهة أخرى ، كما أن حاجة

= كما أنه وصف الأراضي المزروعة بجانب المراعي . كما أن تلك القرى وخصوصا في كاتسينا كانت منازل للطوارق في سنين الجفاف وفي فصل الصيف عندما يقدمون لشراء المنتجات الزراعية كالقمح . كما أن كاتسينا كانت من أهم مراكز تربية الإبل المتخصصة في نقل البضائع عبر الصحراء فهي كغيرها من الإمارات تجمع بين الأراضي الزراعية والمراعي. انظر : كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١١٤ ، ١٤٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٦ .

(١) لقد كانت الحيوانات السائبة والتى ضاعت من أصحابها كثيرة، فإلى جانب الفساد الذي تحدثه في المزراع والحقول، كان اصحابها يغرمون الرعاة فى ثمنها ، كما إنها كانت من أهم نوازل العلماء في السودان الغربي، فقد خصصوا له فتاوٍ كثيرة تتحدث عن أحكام اللقطة من الأغنام والإبل والأبقار الضائعة بل تحدث بعضهم عن أحكام الرعاة وخلطها بحيوانات الغير وقدر الاستفادة منها، وهل يجوز لأصحاب القطعان مقاسمة الرعاة فى ثمنها انظر: أبو عبد الله المصطفى الغلاوي، مخطوطة سابقة ، جـ٥ ، ورقة ٧٤ ، ١٢٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ .

(٢) لقد وجدت المشاجرات والمشاكل المستمرة بين الرعاة والمزارعين وخصوصا في حالة التعدي المباشر، فقبائل الطوارق التي كانت في أطراف الصحراء كثيرا ما كانت تندفع نحو الجنوب بقطعانها مما يلحق الأذى بالمزارعين. لهذا فإن بعضاً من المؤرخين يصف الرعاة في غرب إفريقيا بأنهم مستعمرون ويملكون تلك النزعة لغزو المستقرين من المزارعين والأحداث تثبت ذلك في حالة الطوارق والفولاني ، فقد دخل الفولاني إلى إقليم الهوسا رعاة واستمروا في هذه المهنة إلى أن أسقطوا الإمارات وصاروا هم السادة . فقد بدأ تدفقهم من القرن ١٢م بحثا عن المراعي وعندما وجدوا الأراضي الجيدة في الجنوب لحيواناتهم زادت مواشيهم وصار تنقلهم يعبر عن الحركة السلمية إلى الشمال فكانوا مرحباً بهم من قبل المزارعين لما يحملونه من منتوجات حيوانية وسلالات جيدة ومتجددة منها، لكن الأمر لا يخلو من المضار التي تلحقها الحيوانات بالمزروعات كما أن جزءاً كبيراً منهم ترك الرعي وصار يمتهن الزراعة خصوصا وأن الأرض عند الهوسا لم تكن محتكرة فملكية الانتفاع كانت حقاً مشروعاً للجميع بما فيهم الغرباء . انظر : بوفيل : مرجع سابق ، ص ٣٧١ ؛ فيج. جي . دي : مرجع سابق ، ، ص٧٢ .

الأرض للأسمدة والمواد العضوية من مخلفات الحيوانات كان ينظر إليها المزارعون بعين الأهمية، وكذلك كانت الحيوانات الوسيلة المهمة والأساسية لنقل المنتوجات الزراعية من بلد إلى أخر[1].

ولم تكن حياة الرعاة مستقلة عن حياة المزارعين بحكم امتلاك أصحاب الحقول والمزارع قطعان كانت تحتاج لرعاية واهتمام، فقد كان هناك رعاة يمتهنون مهنة الرعي حيث يقومون بجمع حيوانات أهل القرية من المزارعين، ويتقاضون أجوراً عينية عليها بعد مضي ثلاثة أشهر أو على حسب الاتفاق، كما كان يعين أصحاب تلك القطعان ناقة أو بقرة، يمكن للراعي استخدام حليبها كقوت يومي[2].

ثالثا : النشاط الزراعي :

عرفت الزراعة بأشكال كثيرة لكن أبسطها ما يقدم على أساس تحكم الإنسان في الإنتاج الغذائي، حيث يقوم بزراعة البذور والدرنات في الأرض ويرعاها بهدف استخدامها واستثمارها فما هي إلا وسيلة تُسخر لها الإمكانيات المتاحة من أجل إنتاج الغذاء، كما أنها تعبر عن المجتمعات المستقرة والمتحكمة في أجزاء من الطبيعة لإنتاج الغذاء اللازم لاستمرار الحياة دون الحاجة للتنقل والبحث عن الطعام[3]. فالنشاط البشري والدور المقصود الذي يلعبه الإنسان في مجال الزراعة وتطويع عناصر الطبيعة من أجل إنتاج الغذاء هو نشاط مهم وطبيعي من أجل سد الحاجة الضرورية للطعام، فالزراعة مرتبطة بالحياة وعناصرها الأرض، والماء ، والإنسان .

والنشاط الزراعي في مجاله أزلي عند كل الشعوب، فهو عصب الحياة بالنسبة للسكان ومحور رئيس للحياة الاقتصادية في كل المجتمعات. ومجتمع الهوسا يصنف من المجتمعات الزراعية الصرفة فكل هوساوى كان مزارعاً بدرجة أولى، وهذا لا يعني إهمال الأنشطة الأخرى، كالصيد والرعي والحرف، فهي عند الهوسا كانت تابعة ومكملة للزراعة. أما التجارة وخصوصا الخارجية فقد كانت من الأنشطة الخاصة جدا والمحتكرة من قبل

---

(١) أبو عبد الله المصطفى الغلاوي: المخطوطة السابقة، ورقة ٦٤- ٦٥ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٨٠ .

(٢) المخطوطة السابقة : ورقة ١٠١ ، ١٢٥ .

(٣) م . بوسنانسكي : مرجع سابق ، ص ٥٥٤ .

بعضهم دون سواد المجتمع الزراعي. ولمعرفة ماهية ذلك النشاط وكيفيته وعناصره لابد من تقديم الأسس والمقومات الأساسية لقيام ذلك النشاط في الإقليم الذي ضم الإمارات السبع وسيطرح تحت هذه العناصر :

(أ) المقومات الطبيعية للنشاط الزراعي ، المناخ ، التربة ، المياه .

إن لطبيعة الأرض دوراً مهماً في نجاح أو فشل العملية الزراعية. فهذه الجزئية تدخل ضمن إطار التضاريس بشكل عام ، ولكن المعطيات المناخية تلعب دوراً مهماً وأساسياً لا غنى عنه فالمناخ بمفهومه الواسع والذي يشمل الأمطار والرياح والحرارة والبرودة هو أيضا من الأسس المهمة في العملية الزراعية . لهذا فإن مناقشة المناخ العام لإقليم الهوسا قبل التربة ومكوناتها يعد طرحاً منطقياً . فإقليم الهوسا مقسم بين مناخين أو منطقتين، الأولى : شبه صحراوية في الشمال قريبة من مدار الجدي والسرطان ويغلب عليها الجفاف وكثرة الرياح الآتية من الصحراء خصوصا في فصل الصيف الذي هو من أصعب الفصول وأطولها في السنة بسبب رياح الحرور Harmattan حيث يستمر من أكتوبر إلى مايو ولا يقتصر على الحرارة وإنما على البرودة أيضا، فقد وصف الحسن الوزان أن سكان زكزك كانوا يضعون الجمر تحت أسرتهم وينامون عليها بسبب البرد القارص [1]. وهذه المنطقة من الإقليم تعد قليلة الأمطار حيث تتراوح ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ ملم في السنة . أما المنطقة الثانية : فهي الجنوبية والتي تضم مناطق غابات السافانا والغابات الاستوائية وهي مرتفعة الحرارة وتكثر بها الأمطار صيفا بمعدل يتراوح بين ٢١٧ إلى ٧٥٠ ملم، فهي مصدر مهم لتغذية العيون والأنهار ويغلب عليها المناخ الاستوائي لهذا فهي مصدر مهم للأخشاب وموطن مثالي لكثير من المزروعات [2]:

إذاً فالإقليم متنوع المناخ بحكم موقعه الوسط بين الشمال والجنوب ، فهو يقع بالقرب من الصحراء الجافة قليلة الأمطار شمالا، وجنوبا يحده خط الاستواء الممطر دائما والصالح للزراعة والرعي ، والملاحظ هنا عن مناخ تلك المناطق أنها لا تحتوي على أربعة فصول في السنة فهي غير مقيدة بالمعدل الطبيعي .

---

(١) الحسن الوزان : جـ٢ ، ص١٧٤ ؛ زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص١٥.

(٢) زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص١٥؛ إسماعيل أحمد ياغي ، محمود شاكر : مرجع سابق، ص ٢١٢ - ٢١٣، ٢٤٢ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص٢٤ .

لقد ساعد هذ المناخ وخصوصا في المناطق الجنوبية من إقليم الهوسا، على ظهور نمط من النشاط الزراعي المبكر ذي خصوصية وسمات محددة ، فالمناخ الممطر صيفا والمعتدل ساعد التربة على أن تكون خصبة إلى حد كبير. فالتربة [1] داخل الإقليم متنوعة وكثيرة، منها التربة الطينية المختلطة بحصى مستدير من الكوارتز الأصفر ، والتربة السوداء بفعل الطمي القوي ، والتربة الطينية الحمراء المخلوطة بالجرانيت، والتربة المخلوطة بالصلصال والحصى ومعدن الحديد، والتربة الرسوبية، والتربة الملحية التي تنبت الأعشاب الجافة[2].

تعتبر التربة الطينية السوداء والمعروفة بالطمي والتي تجلبها مياه الأنهار هي أخصب تلك التربات فهي جيدة للزراعة. ولكن الملاحظ على إقليم الهوسا بشكل عام أن عملية الهجرات الأولى والتي أسست المدن البرني، كان أصحابها يختارون الأراضي الصخرية وذلك لحاجتهم للحجارة في عملية البناء وخصوصا الأسوار، لهذا كانت الأراضي الزراعية في بعض الإمارات بعيدة عن المدينة الرئيسة [3]. كما أنه يفسر انتشار تلك القرى الزراعية خارج المدن وبأعداد كبيرة، فالتربة الزراعية كانت تقع على مسافة من المدن المحصنة والانتشار الزراعي كان صوب الأرياف .

لقد اكتفى الحسن الوزان بذكر الأرض ومدى إنتاجها ولم يقدم لها وصفاً يمكن الركون إليه فقد أورد عن كاتسينا مثلا أن أرضها جبلية ووعرة أي أن بها الأحجار الصلبة، ولكنها تنتج الشعير أي أنها ملحية التركيبة . كما يلاحظ عنه أنه ذكر أرض كانو التي كانت طينية فهي خصبة بسبب وجود المياه ونوعية التربة فإنتاجها الزراعي يختلف

(١) لقد رأى بعض المتخصصين أن السودان الغربي والذي يبدأ من دكار في السنغال الحالية إلى بحيرة تشاد بشكل طولي تبلغ المسافة المغطاة بالأشجار فيه ما يصل إلى ألفي ميل، وهو حزام عرضي عرضه ستمائة ميل يضيق في أحيان حتى يصل إلى مائتي ميل ويتسع حتى يصل ألف ميل وعمقه الغابات وبجانبها السافانا ، فالمناخ لعب دوراً مهماً في تلك البيئة حيث يتميز بعدم وجود الشتاء القارص أو البارد، فنسبة الرطوبة عالية مما يساعد على نمو الأشجار بكثافة، كما أن نسبة الأمطار والمياه تضمن نمو النباتات . لهذا فإن المناخ ساعد كثيراً على خصوبة التربة وجودتها، كما أن عدم وجود الرياح ساعد على عدم وجود ظواهر التعرية هناك . لمزيد من التفاصيل انظر : أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص٢٢ .

(٢) كلابرتون: ص١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢١٣ ، ب . واي . آنداه : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٦١٥ ؛ إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢١٣ .

(3) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp9 – 10 .

عن كاتسينا كما ذكر أرض غوبير التي بفعل الفيضان النهري والذي يجلب الطمي هي دون شك التربة السوداء الغنية بالعناصر المعدنية، وهي من أخصب الترابات وإنتاجها جيد لكل ما يزرع فيها[1].

أما المياه في الإقليم وبشكل عام فإن وقوع الأجزاء الجنوبية منه على مقربة من المناطق الاستوائية [2] جعل نسبة الأمطار كبيرة فلم تكن المياه تشكل أي مشكلة بالنسبة للمزارعين هناك.

كما أن الإقليم يمر به نهر النيجر [3] والذى ينبع من الغرب ويصب في الجنوب، فهو يتفرع في الإقليم إلى فرعين: يتجه الأول إلى كبي [4] ثم أرغونغو ثم يصل إلى سوكوتو،

---

(١) وصف إفريقيا: جـ٢، ص ١٧١، ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) المناخ الاستوائي في وسط القارة الإفريقية يتميز بسقوط كميات كبيرة من الأمطار والتي تصل إلى ٢٠٠٠ ملم سنويا حيث يمتد موسم الأمطار من مارس إلى يوليو، يليه موسم الجفاف والذي يبدأ من أغسطس إلى سبتمبر ثم من جديد موسم الأمطار ولكنه قصير، حيث يبدأ في أكتوبر إلى نوفمبر ويليه موسم جاف من ديسمبر إلى مارس، والجو دائما مشحون بالرطوبة على الدوام حتى أثناء موسم الجفاف. هذه الأمطار دون شك كانت عاملاً مهماً في خصوبة التربة ونمو الأشجار والأعشاب، كما أن هذه الكميات الكبيرة كانت تمثل المصدر الأول للأنهار والعيون والمياه الجوفية، فالمناطق شبه الاستوائية كانت مستفيدة إلى درجة كبيرة من تلك الكميات الهامة من الأمطار. انظر: ب. كيبريه: من البحيرات العاجية إلى نهر الفولتا، تاريخ إفريقيا العام، جـ٤، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص ٣٢٧.

(٣) يمر نهر النيجر بالأجزاء الغربية لدولة النيجر الحالية التي أخذت اسمها منه، فهو يقطع البلاد بمسافة ٥٥٠كم فقط ولكن روافده من الضفة اليمنى كثيرة فهى تسمى إيسا بيري، أوكورا وهى منطقة حيوية بالنسبة للبلاد. أما مجاري المياه الأخرى فهي موسمية مثل كومادوغو يوبي، الآتي من نيجيريا، والذي يصب في بحيرة تشاد ويمتد هذا النهر إلى ١٠٠٠ كلم داخل أراضي النيجر، وأيضا مجاري ماجيا الأدار و غولبي. كما يوجد بعض مجاري المياه المقفلة كدالول بوسو، و دالول ماوري، أما بقية المجاري والقريبة من الصحراء فإنها تجري بشكل مؤقت في السنة بفعل الأمطار فهي تجري من خمس إلى عشر مرات في السنة، كما أن الإقليم عرف البرك الدائمة أو البحيرات الصغيرة مثل بحيرة مادارونفا، وطابالاك، و باغا، و جيديموني، و أجلهان آيار. انظر: زاكاري مايكوريبا: مرجع سابق، ص١٨.

(٤) مدينة كبي إحدى المدن القديمة بشمال نيجيريا حيث يعتقد أن سلطانها قادم من صنغي حيث أسسها بعد أن تزوج من أهل كاتسينا وقد برز تاريخها سنة٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م عندما تولى حكمها الساركن=

حيث يتفرع إلى قسمين : يذهب الأول بالقرب من غوبير وهو فرع الريما ويصل إلى مارادي ثم يتجه جنوبا إلى كاتسينا . أما القسم الثاني : والذي تفرع من سوكوتو فإنه يتجه إلى زامفارا ويصل إلى زاريا القريبة من كانو ، حيث يمر بالقرب منهما أيضا نهر زرمي الذي ذكره كلابرتون . أما الفرع الثاني والمتفرع من نهر النيجر فإنه يتجه إلى زورو بالقرب من كادونا[(١)].

كما يمر بإقليم الهوسا وعلى مقربة منه نهر بنوي في أقصى الجنوب والذي ينبع من الشرق ويتجه إلى الغرب حيث يلتقي مع نهر النيجر عند أراضي لكوارارفا ، ولهذا النهر فروع تتجه شمالا حيث تدخل هضبة بوشي . بالإضافة إلى ذلك فإن بحيرة تشاد في الشرق من الإقليم تزوده ببعض المجاري والتي تتفرع عند برني جازرنمامو حيث تمر بجانب نغورو ، ثم تدخل بلاد الهوسا على مسافة قريبة من كانو وكاتسينا ودورا ثم تنحرف جنوبا لتدخل إلى هضبة بوشي[(٢)].

إن تلك الأنهار والبحيرات والأمطار كانت دون شك عامل مهم لجذب السكان واشتغالهم بالزراعة حيث ترى كثيراً من الدراسات أن أغلب المهاجرين إلى إقليم الهوسا

=كنتا والذي حارب كاتسينا، وكانو وغوبير، ونوفي وصنغي، وأهير، حيث اتخذ من سورمي عاصمة له . أما مدينة سوكوتو فقد أسست سنة١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م وهى مدينة الشيخ عثمان بن فودي، حيث كانت موطنه بعد هجرته من غوبير، وهى عاصمة الشمال في نيجيريا الحالية، تقع على خط عرض ١٣،٤درجة شمالا وخط طول ١٢،٦ درجة شرقا بالقرب من التقاء مجرى ينساب من نهر زرمي، وصارت تضم بلاد زنفارا إحدى إمارات الهوسا غير الأصلية . أما كادونا فهى مدينة حديثة تأسست بعد حركة الإصلاح الدينى بوقت طويل في شمال نيجيريا بالقرب من زاريا، حيث كانت مجرد منطقة تنبت فيها السافانا وتكثر فيها المستنقعات والتماسيح، لهذا فقد أخذت اسمها من اسم التمساح فى لغة الهوسا الذي يطلق عليه Kada ولكن البعض يرى أن اسمها مشتق من الكلمة الموساوية الجابياجية والتي تعنى عبور نهر القواقع فهي مركبة من Oka قوقع، du يعبر،و udna النهر، وقد سكنها شعب جواري Gwari الذي دفع جنوب خارج حدود نيجيريا.انظر: كلابرتون : مصدر سابق ، ص٢٠٧ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق ، ص٧٦-٧٧ ؛ جون بادن : مرجع سابق ، جـ١ ، ص٦٠٤-٦٠٦.

(١) كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص٢٠٧ ؛ الخريطة رقة (٢) بالملاحق .

(٢) انظر الخريطة رقم (٢) بالملاحق .

باختلاف مهنهم الأساسية فإنهم اشتغلوا بالزراعة بسبب غنى الأرض ووفرة المياه . فقد أكدت دراسات آثارية أجريت في كاتسينا أن تأسيس المدن كان على علاقة وثيقة بالزراعة الدائمة والتي تخضع إلى نظام دقيق تحت موظفين يعينهم الساركن، مهمتهم الأساسية العمل على تنظيم الزراعة ومراقبة أداء العاملين بها (1). وهنا تذكر حوليات كانو فى عهد الساركن عبد الله بورجا الذي أرسل قادته إلى الجنوب من أجل تأسيس قرى جديدة بواسطة الرقيق حيث وصل عدد القرى الزراعية إلى ٢١ قرية، يسكنها ١٠٠٠ عبد مقسمين بين ذكور وإناث وكانت المسافة بين القرية والأخرى ثلاثة أميال (2).

كما أورد أحد المؤرخين حياة الرفاهية التي عاشتها الهوسا إلى عملهم الجاد في مجال الزراعة خصوصا وأن الأرض لم تبخل عليهم (3) . لقد كانت هناك دون شك جماعات محلية ذات عناصر حضارية بدائية في إقليم الهوسا استطاعت التكيف مع المناخ وأن تستخدم الأرض بشكل يضمن لها الحياة ولكن الوضع تغير فيما بين سنة٩٠٦- ١٢١٥هـ/ ١٥٠٠-١٨٠٠م، حيث صار العنصر البشري في إقليم الهوسا ما نوما (4) المزارعون مسيطرين على الأرض بأساليبهم التي طوروها من خلال التقنيات المتنوعة واستخدام الأسمدة والدورات المحصولية ضمن إطار المتاح من الأدوات وعبر فترات مختلفة (5). ولكن البعض يرى أن هجرات الهوسا والتي جاءت من الشرق إلى الإقليم وجدت أمامها شعوباً محلية من الزنوج يشتغلون بالزراعة، فسيطروا عليهم وصاروا هم السادة، مهنتهم الرعي والزنوج عبيد لهم في خدمة الأرض (6). إن هذا قول ربما يجانبه الصواب في بعض أجزائه في كونه لم يعتمد على ما يؤكده من المصادر، كما أن الهوسا شعوب زراعية علاقاتها بالأرض قديمة لدرجة القداسة، فالأرض الأم من ضمن معتقداتهم الوثنية ، كما أن جزئيات في العبادة كانت تنطلق من الأشجار. فمثلا تطور عبادة شجرة الباؤونات الاستوائية ثم أشجار التمر الهندي التي كانت تحمل الكثير من

---

(1) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp9 – 10 .

(2) Palmer :op.cit, pp 118-119 .

(٣) بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٥٤ .

(٤) وهو مصطلح هوساوي استخدمه العلماء للتعبير عن هذه الفئة والتى تشتغل بالزراعة والأرض .

(٥) د. لايا : مرجع سابق ، جـ ٥ ، ص ٥٢٨- ٥٢٩ .

(٦) فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٧٢ .

المعاني الدينية عندهم فقد حفظت هذه العبادة وحتى بعد الإسلام فقد حملت إلى الأرياف وظلت تختلف عن عقيدة الساركن وأتباعه في البرني المركز [1].

لقد قدم الهوسا في مناطقهم المختلفة من الإقليم نمطاً مهماً للزراعة ، فقد أظهرت بعض الدراسات الآثارية معرفتهم بشؤون الأرض والتربة والزراعة من خلال عزق الأرض وتسميدها ، وتسخير الحيوانات لإنجاز الأعمال الزراعية ، ومكافحة النباتات الضارة بالقلع والحرق، وتنظيم الري والحفاظ على التربة من الانجراف [2].

كان استخدام تلك الأساليب يعبر عن الوعي المعرفي والممارسة لمهنة الزراعة دون شك، فقد أكد الرحالة كلابرتون ذلك في فترة لاحقة من خلال وصفه للمساحات المزروعة والمسورة والمنظمة بشكل جيد، لدرجة أنه قارنها بإنجلترا، كما أن معلوماته جاءت منسجمة مع ما أوردته تلك الدراسة الآثارية عن بعض الأراضي الزراعية بالقرب من غوبير والتي تركها أصحابها دون اهتمام بها مما جعلها عرضة للنباتات الشوكية الضارة [3].

وخلاصة القول، فإن المقومات الطبيعية في إقليم الهوسا من تربة ومناخ ومصادر مياه، لعبت دوراً مهماً في بروز النشاط الزراعي الذي مارسه أغلب السكان، وذلك لسد حاجاتهم الأساسية من الغذاء ، وبالرغم من أنه يوصف في أحيان كثيرة باقتصاد الكفاف إلا أنه عبر عن حركة وحيوية جماعية قام بها أبناء الإمارات تحت سلطة الساركن وفي ظروف مختلفة، حتى صار كل هوساوي يوصف بالمزارع . ولكن كيف تم ذلك؟ وما الطرق والكيفية التي كان بموجبها يتم العمل في الحقول العامة والخاصة؟ وما الأدوات المستخدمة ؟ وكيف تم توزيع الأرض وجبي الضرائب؟

(ب) الأراضي الزراعية: الملكية ، المواسم ، المحاصيل

لقد عمل بعض الحكام في إقليم الهوسا على اتباع سياسية فرض سيطرة البرني العاصمة على الأرياف الزراعية والتي كان يقطنها المزارعون والرعاة على اعتبار أنها كانت المصدر الرئيس للاقتصاد في إمارات الهوسا. والراجح أن الحكام غضوا الطرف عن عملية المعتقد والدين فكانت محاولتهم جعل تلك الأماكن مستقرة إلى حد ما . وهذا

---

(1) Y . B . Usman : op.cit : pp7 – 10 .

(٢) ب . واي . آنداه : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٦٢٢ .

(٣) كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٥٢ ، ٢٠٩ .

القول تؤكده الأعمال التي قام بها ساركن كاتسينا محمد كوري سنة ٨٤٩-٩٠١هـ/ ١٤٤٥ - ١٤٩٥م، والذي جذب إليه الهاربين من سلطته وأدخلهم لمنزله وأطعمهم طعامه في مقابل الاعتراف بسيطرته وحكمه ، فقد دفعوا له مقابل ذلك ألواح الحديد كاعتراف منهم بسلطته على الأرياف الزراعية فاعتبرت تلك هي بداية ضريبة الأرض عن النشاط الزراعي في كاتسينا[١].

يُضفي الكثير من المؤرخين صبغة المدن الزراعية على إمارات الهوسا ، فقد طُوع النظام الإداري بشكل يوافق البنية الزراعية والتي تعتمد هي بدورها على التركيبة الاجتماعية في تداخل وامتزاج يعبر عن المفهوم العقائدي لتلك المدن وهما أي التركيبة الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالزراعة، فالأسرة [٢] كوحدة اجتماعية أساسية كانت تلعب دوراً مهماً ، ومجموع الأسر والتي تشكل العشيرة الأسرية جيداجة هي النواة للعملية الزراعية في إمارات الهوسا، فهي تجمعات زراعية صغيرة مستقلة تخضع لزعيم من بينها يسمى المايغاري . أما الحلقة التي تليها فهي المعروفة باسم غارورروا وهي التي تكون على مستوى القرية وكان على رأسها ساركن غاري أو مغاجين رئيس القرية، يساعده زعماء الأحياء مازو- أنغوه، وهؤلاء تحت سلطة الساركن حاكم العاصمة مباشرة [٣].

لقد كانت القوة الزراعية من حيث البشر والأراضي تتمركز حول البرني العاصمة في الأرياف والقرى المبنية من بيوت القش حيث كانت إما مجتمعة في مكان واحد أو متفرقة بين الحقول الأسرية والمسورة بأغصان الذرة . لقد شكلت تلك القرى القوة الاقتصادية

(1)) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp18 – 19 .

(٢) يعتمد النظام الزراعي في إمارات الهوسا على الأسرة Family العاملة والأسرة أو العائلة تعرف بأنها وحدة اجتماعية يجب تميزها عن الأسرة المعيشية Household فهي تعتمد على صلة القرابة عن طريق التوالد والنشأة أي أنها تعتمد على الأب والأم والأبناء ، أما الأسرة المعيشية فهي وحدة اقتصادية اجتماعية تتكون من مجموعة من الأفراد الذين تربطهم مصلحة واحدة، حيث يشتركون في المسكن وفي واجباتهم الأساسية ويكون لهم رئيس هو الذي يسيرهم ويستفيد منهم بالدرجة الأولى. وقد كان هذا النوع موجوداً في كاتسينا، فهم تحت زعامة رئيس الفلاحين المعروف باسم Noma انظر : أ . ج . هوبكيز: مرجع سابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ ؛

Polly Hill : Ruyal hausa auiylage and setting , Cambidge at theuniversity , Press , 1972 , pp 3 , 5 –8؛ Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp 60 – 61

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ٢٩٧- ٢٩٨ .

الزراعية لإمارات الهوسا والأعداد التي وجدت فيها كانت تنم في البداية عن الوحدة الاجتماعية المترابطة ولكن دخول واستخدام الرقيق واليد العاملة المجلوبة من المناطق المجاورة جعلها تخرج من الإطار الاجتماعي إلى الإطار الاقتصادي الصرف . ولم تكن تلك الوحدات القروية كبيرة الحجم دائما فقد ذكر الحسن الوزان أن عدد سكان القرية الواحدة في كاتسينا تضم ثلاثمائة بيت حياتهم بائسة وأوضاعهم سيئة على عكس المدن التي صارت ملاذاً لكل المزارعين الذين هجروا أراضيهم وغيروا حرفتهم وصاروا حرفيين، فقد كان عدد القرية الواحدة يضم ستة آلاف بيت تناقصت إلى النصف أي صارت ثلاثة آلاف بيت، وذلك راجع لطبيعة الأوضاع السياسية والحروب والفقر وكثرة الضرائب[1].

كان رئيس القرية أو المستوطنة هو الذي يتحكم في توزيع الأراضي الزراعية فهو يوزعها على الأسر بشكل منظم كما أنه المسئول والمراقب لعدد السكان من حيث الزيادة والنقصان فهو يرصد حركة الوافدين الجدد ، كما أن من بين مهامه توزيع الأراضي الخصبة على مجاري الأنهار على المزارعين وله علاقة وسيطرة مباشرة على القرى الجديدة التي في الأرياف وفي نطاقه والتى تسمى الخوذات الريفية وهي وحدات اقتصادية متكاملة يقيم فيها المزارعون والحرفيون وعمال المناجم وأصحاب الأفران لصهر الحديد[2].

لقد كانت الملكية الزراعية في عمومها مشاعة بين الجميع أي أنها ملكية انتفاع لكل السكان، فالقرية الدسكرة كانت تحت سلطة زعيم محلي منهم هو من يمتلك الإذن بتوزيع الأراضي بين الناس ، كما أنه يشرف على عملية الإنتاج والمواسم الزراعية ويقدم القرابين والنذور للمعبود ، فهو يمثل السلطة الروحية والزمنية كما أنه المسؤول عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية . والتقليد السائد عند الهوسا يقضي بعدم بيع الأرض وفي نفس الوقت يسمح للجميع بالاستفادة منها عن طريق الزراعة وجني المحاصيل حتى للغرباء . ولكن هذا النظام وفي وجود السلطة المركزية البرني أخذ في الاختفاء حيث حل الساركن محل الزعيم المحلي وصار هو الذي يمنح الأراضي لمن يشاء[3]. والراجح هنا أن نوعا من

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٧١ ، ١٧٣ .

(2) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : p 14 .

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق ، جـ٤ ، ص٢٩٩ .

الإقطاع أخذ فى الانتشار فى إمارات الهوسا، فالساركن كان يُقطع رجاله والمقربين منه الأراضي دون الرجوع لرؤساء العشائر والعادات الاجتماعية، وذلك دون شك كان بسبب الحروب وحاجة الإمارات للذهب والإمكانيات المادية .

لقد عاش الفلاحون تلاكاوا تحت سيطرة الساركن "بوما" رئيس الزراعة وفي ظل نظام مقيد وعام لتقسيم الأراضي في الإمارات، حيث كانت تقسم إلى ثلاثة أنواع، الأول: يعرف الغندوم ساركن وهي ضيعات وحقول الساركن الحاكم وهي ملكية خاصة وتضم أحسن وأكبر وأخصب الأراضي الزراعية ويقوم على خدمتها الرقيق من العبيد [1] ذكور وإناث وبأعداد كبيرة . أما النوع الثاني : فهو الغندوم جيد وهو حقل الأسرة . أما النوع الثالث : تعرف الغيونه [2] وهي الحقول الفردية [3].

---

(١) لقد كانت حقول الساركن ملكية خاصة به ويسخر لخدمتها أعداد العبيد من الرقيق الكبيرة فقد ميز الهوسا بين نوعين من العبيد، الأول : يعرف البايي وهم الذين أسروا في الحرب أو تم شراؤهم من الأسواق ولم تكن لهم حقوق بالمعنى العام . أما النوع الثاني : فهم الكوسيناوة وهم في مرتبة الأقنان على اعتبار أنهم ولدوا في الأسر فهم من الجيل الثاني من العبيد ، فقد ذكرت حوليات كانو في عهد الساركن عبدالله بورجا ٨٤١ -٨٥٦هـ/ ١٤٣٨ - ١٤٥٢م حيث كان يرسل قادته للغزو وضم الأقاليم المجاورة من أرض الوثنيين في الجنوب ، حيث كانوا يغنمون أعداداً كبيرة من العبيد لدرجة أنهم كانوا يرسلون ١٠٠٠ عبد كل شهر إلى كانو ، مما جعل العبيد يكثرون في كانو بشكل كبير جدا، ولكن أحد قادته قرر تأسيس قرى جديدة فكان يضع ١٠٠٠ عبد مقسمين بين ذكور وإناث ويلزمهم بقطعة من الأرض وينتقل إلى قرية جديدة حيث تبعد القرية عن الأخرى مسافة ثلاثة أميال حتى وصل عدد القرى ٢١ قرية وعندما وصل إلى كانو كان معه ٣٠٠٠ عبد ، فما كان من الساركن إلا أن عينه حاكم لكل تلك القرى الجديدة . إن المستنتج مما تقدم يوضح العدد الكبير من الرقيق الذي كان يجلب ويستخدم في المهن المختلفة وخصوصا الزراعة ، كما أنه يفسر الوجود غير الثابت للقرى حول الإمارات ، فربما هروب العبيد وعدم بقائهم في تلك القرى يجعلها تنهار كما أنه يقدم تفسيراً للمساحات الكبيرة المزروعة حول كانوا، فقد ذكر كلابرتون من خلال مشاهداته للمساحات الشاسعة المزروعة والمنظمة حول كانو . انظر . كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص٣٠٢ ؛ Palmer : pp18 – 19 .

(٢) الغيونه أوغيامة وهو لفظ هوسي لم يعد مستخدماً للتعبير عن تلك الملكية الخاصة بالرجال بل صار يعني الحقل الذي يعطى للنساء حيث تتصرف صاحبته في غلته كما تشاء . انظر : مهدي آدامو : مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ٣٠٠ .

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص٣٠٠ .

لقد لعبت الأسر الممتدة دوراً مهماً في الاقتصاد الزراعي على اعتبار أنها المهنة الأولى والسواد الأعظم من الهوسا منخرطين بها، فقد أدخلوا تحسينات في أساليب الزراعة واستغلال الأرض واتباع أنظمة خاصة لتسميد التربة كحرق النباتات وبقايا المحاصيل واستخدام مخلفات الحيوانات .

أما طرق الزراعة المستخدمة فقد كانت بدائية جدا لدرجة أنهم لم يستخدموا المحرات لشق الأرض بقوة لتعميق جذور النباتات، مما جاء على حساب الإنتاج ، فقد استخدموا بدلا من ذلك عصا الحفر والمعزقة والمنجل مع وجود نوع من المحاريث التي هي بين المعزقة والمحراث البدائي . لهذا يلاحظ أن حوليات كانو ذكرت بعض الأشعار التي تمجد من يقوم بحرث الأرض الصلبة كمصدر للتفاخر وعمل لا يقوم به الكثيرون وقد جاءت هذه الأشعار في فترة متأخرة جدا في أحداث سنة ١٢٧٢ - ١٣٠٠ هـ/ ١٨٥٥ - ١٨٨٣ م[1].

لقد أورد الحسن الوزان طريقة زراعة الأرز في غوبير والتي تعتمد على فيضان أحد روافد نهر النيجر فقد شاهد المساحات التي يخلفها النهر والمصحوبة بالطمي حيث ينثر الأرز فوق الماء مباشرة، والراجح أن هذه الطريقة ناجحة مع نوعية الأرز الإفريقي ذي القشرة الحمراء، فقد أكدت دراسات آثارية أن هذه الزراعة وهذا النوع كان معروفاً ويزرع في السهول الفيضية في السودان الغربي عموما ، ولكنها أيضا تعبر عن البدائية جدا في الزراعة[2] كما أورد كلابرتون وفي فترة متأخرة طريقة زراعة القمح وهي بسيطة جدا ولا تنم عن أي تقدم زراعي حيث ذكر أن صاحب الحقل يحفر الأرض بفأس صغيرة وتسير خلفه زوجته تضع الحبوب في حُفر الفأس وتهيل عليها التراب[3].

كانت الفترة بين زيارة الحسن الوزان وكلابرتون[4] للمنطقة كبيرة جدا فهي لا تنطوي على أي تطور زراعي يذكر، فالبدائية وزراعة الكفاف كانت هي الطاغية على النمط

---

(١) د . لايا : مرجع سابق ، جـ٥ ، ص ٥٣٥ ؛ أ . ج . هونكيز : مرجع سابق ، ص٧٩ ؛ كلابرتون : مصدرسابق ، ص٢٢٤ ؛ Palmer : pp131

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ١٧١ ؛ ب . واي . آنداه : مرجع سابق ، ص٦١٧ - ٦١٨ .

(٣) كلابرتون ، مصدر سابق ، ص ٢٢٣ .

(٤) قام الحسن الوزان بزيارة السودان الغربي في سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م وقام الرحالة كلابرتون بزيارة كانو سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م والمدة الفاصلة بين الاثنين كبيرة حيث لم يلاحظ كلابرتون أي تغير أو تطور لدرجة أنه عبر عن كانو بأن القول الذي كان عنها أكثر بكثير من الواقع فقد صدم وشعر=

الاقتصادي الموجود بالإقليم . وبالرغم من ذلك فإن التطور المحلي لتلك الشعوب يجب أن لا يقارن بغيره وذلك راجع لخصوصية المنطقة وشعوبها والتعاطي مع ما هو موجود هو المطلوب. فقد كانت المحاصيل الزراعية تسير بشكل يتفق مع الضروريات الغذائية .

لقد ذكر الحسن الوزان أنواع المحاصيل التي كانت موجودة فهي بين المزروعة والبرية يأتي على رأسها الحبوب كالقمح والشعير التي لا تحتاج لكميات كبيرة من المياه ولا لتربة شديدة الخصوبة، ولكن الأرز ذا القشرة الحمراء والفونيو، والذرة بأنواعها الصفراء والبيضاء هي المحاصيل الأهم في إقليم الهوسا فهي تمثل الغذاء الرئيس. كما اعتمد السكان في زراعتهم على شيء من البقول، والبصلات، والقرع اليقطين، وكثير من النباتات الخضراء البرية والتي تأكل مع الأطعمة الرئيسة، كما وجدت الدرنات مثل بطاطة اليام . أما الفواكه فكانت بين البرية والمزروعة لا تخرج من إطار البرتقال والليمون والموز والنوتا والتمر [1] والتمر هندي والمانجو الطبيعي والتين والبطيخ والأعناب [2].

=بخيبة أمل عندما شاهد بيوتها البسيطة والبرك والمستنقعات في كل مكان والهواء ملوث والبدائية ظاهرة على كل الموجودين المنشغلين بأعمالهم.انظر: كلابرتون: مصدر سابق، ص١٥٤ .

(١) شجرة نوتا Nutta يسميها أهل دورا Doura وهي تنمو بارتفاع يفوق شجرة التفاح وتتمدد فروعها بشكل كبير . ثمارها صغيرة الحجم مثل البن. بعد جنيها تغسل وتجفف في الشمس وتطحن ، حيث يصنع منها خليط يشبه الشيكولاتة . أما العنب فإنه كان موجوداً في المزارع بشكل كبير ولكن حركة الجهاد بقيادة الفولاني ، قامت بقطعه وتخريب مزارعه والسبب على ما يبدو أن المزارعين يصنعون منه النبيذ . انظر: كلابرتون: مصدر سابق ، جـ٢ ، ص٢١٥ ، ٢١٨ .

أما أشجار النخيل دخلت إلى الإقليم في أوقات مختلفة. ويرى البعض أن محمد بن عبد الكريم المغيلي هو من أدخل هذه الشجرة إلى كانو من توات وجنوب الجزائر التي تحتوي على فصائل جيدة من النخيل، فقد ذكر كلابرتون أنها كانت حول المستنقعات وسط مدينة كانو وهي تثمر مرتين في السنة وهي من أملاك الساركن ضمن بساتين أخرى تحتوي على أشجار التين . لقد كانت كانو مقسمة إلى جهات بشكل طبقي، فالجهة الغربية كانت مخصصة للزراع، فهي تحتوي على بساتين عامرة وهي من الملكيات الخاصة للأمراء والمتنفذين من أهل المدينة والغرباء . آدم محمد العطار : الإعلان بتاريخ كانو ، ورقة ٧ ، ٢٠ ؛ انظر : كلابرتون : نفسه : ص ١٦٧.

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص١٧٣ ـ ١٧٥ ، ٢٨١ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص٢٠٦ ـ ٢٠٩ ؛ كلابرتون : مصدر سابق ، ١٦٧ ، ٢١٣، ٢١٥ ، ٢١٨ ؛ زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ٢٢ ؛ إسماعيل أحمد ياغي ، محمود شاكر : مرجع سابق ، ص٢١٤ ـ ٢١٥ .

أما المزروعات التي تدخل في الصناعة فعلى رأسها القطن [1] وأشجار الصمغ الذي يعرف بالصمغ العربي ونبات النيلة [2] وزيت النخيل وشجرة الطلح التي تنمو بشكل كبير جدا ومتشابك تنتج سائلاً يتجمد يشبه المصطكي يؤكل مباشرة ويدخل في صناعة العقاقير الطبية المحلية ، كما كان يوجد نبات الداد ذو الجذور السامة والذي يستخدم لأغراض كثيرة منها الإضافة إلى البخور [3]. كما كان الطنبول الكولا في أراضي الوثنيين من أهم المنتوجات الزراعية التي يكثر عليها الطلب فهو يقدم مهراً للنساء عند الزواج كما أنه ضريبة كانت تفرض على المهزوم في الحروب والدليل ما فعله ساركن زاريا عندما هزم كانو، فقد فرضت عليهم عشرة آلاف ثمرة كولا تم دفعها [4].

لقد وفرت التربة والمياه والمناخ ظروفاً مناسبة لنمو أشجار وشجيرات برية كثيرة منها أشجار الماهوجني والكابوك والأكاسيا حيث كان استخدامها في المقام الأول كحطب ومادة أساسية لبناء البيوت وصناعة الزوارق والأدوات المنزلية وكذلك كوقود لصهر المعادن وغيرها من الاستخدامات [5].

في ظل تلك الوفرة الطبيعية عاش الإقليم نوعاً من النشاط الاقتصادي الزراعي المعتمد على الروابط الاجتماعية التي تكونها الأسرة فكانت حقولهم غاندوم جيدا توفر الحاجة

---

(١) يذكر كلابرتون حقول القطن التي ذكرها الحسن الوزان في كانو من قبله فهذا المنتج الزراعي قديم في إقليم الهوسا فهو من المنتجات الزراعية التي تدخل مباشرة في صناعة النسيج ، ولكن ما يذكره كلابرتون عن طريقة فصل البذور عن زهرة القطن في كانو كانت قديمة جدا حيث يفصل بواسطة الحجارة ويضرب من قبل النساء والجواري بشكل مباشر دون وجود أي أدوات خشبية أو معدنية وعندما يفصل يتم غزله. انظر الحسن الوزان: ص١٧٣ ؛ كلابرتون : ص١٦٧ .

(٢) نبات النيلة هو نبات ذو أغصان طويلة ينمو بالقرب من الأنهار وهو دائم الخضرة يقطع ويجفف ويدق بشكل جيد حتى يلين حيث تصنع منه السلال وبعض الفرش الأرضية بعد صبغه، كما تصنع منه الأخصاص الصغيرة . انظر : كلابرتون : مصدر سابق ، ص١٦٨ .

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٨٣ .

(٤) آدم عبدالله الألوري: مرجع سابق، ص٢٥ ؛ سمير عزت إبراهيم: الزواج الهوساوي، مجلة آفاق إفريقية، م١، العدد ١٣، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٤٠؛
Palmer : pp109 ؛Saad Abubakar : Amina of Zazzau,p 103-105

(٥) (٣) زاكاري مايكوريا : مرجع سابق ، ص١٧ .

للغذاء، والفائض كان ينقل للسوق ليتم مبادلته بمنتوجات أخرى حيوانية وصناعية. ولكن تلك الأنواع من الملكية المقتصرة على حق الانتفاع كانت دائما خاضعة لسلطة ساركن بوما والذي بدوره خاضع لسلطة الساركن الحاكم، فقد تم فرض الضرائب على الأرض الرعوية وكذلك الأرض الزراعية والتي كانت تسمى كودينا كاسا يدفعها المزارعون للإمارة وهي عينية تؤخذ من المحصول مباشرة، فهي ثمن المحاصيل عند الحصاد، فقد قدمت حوليات كانو دليلاً على أنها كانت مفروضة على المزارعين في عهد الساركن ناغوجي٥٩٠-٦٤٥هـ / ١١٩٤- ١٢٤٧م[١] . ولكن الأوضاع في كاتسينا تختلف حيث فرضت الضريبة في البداية مادية من قضبان وألواح الحديد التي كانت تقدم للساركن [٢].

كما أن حالات البناء والتجديد في مرافق المدن كانت تحتاج لكميات من محاصيل الأرض كغذاء للعمال، فقد قدم أثناء زيادة سور كانو سنة ١٠٢٧- ١٠٣٢هـ/ ١٦١٨ - ١٦٢٣م ما مقداره ١٠٠٠ قطعة يقطين كل صباح[٣]. ودون شك، فإن هذا الرقم كبير جداً خصوصا إذا استمر العمل لمدة أيام. فلم توضح الحوليات هل ما إذا كانت تقدم كنوع من المساعدة أو بدلا من الضرائب أو أنها مفروضة على المزارعين ؟

كانت تلك الأعمال تلقى بثقل كبير على كاهل المزارعين مما جعل كثيراً منهم يهجر الأرض كما شاهد الحسن الوزان ذلك في غوبير التي تقلصت فيها البيوت من ٦٠٠٠ إلى النصف فكانت المساحات المهملة كبيرة جدا والتي عادت إليها الأشواك والنباتات الضارة[٤] .

إن تلقص عدد القرى يأتي دائما على حساب المدن البرني التي أصبحت تعج بالناس وأصبحت الأسواق اليومية مكاناً لطلب لقمة العيش وزاد الأمر تعقيداً وجود نظام اقتصادي يعتمد أساسا على العمل اليومي والإنتاج ، فالموارد محدودة والغذاء مرتبط بالعمل الذي يقوم به الأفراد .

---

(١) د لايا : مرجع سابق ، ص٥٢٦ ؛ Palmer , H .R : op.cit, pp101 .

(2) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina : pp18 – 19 .

(3) Palmer , H .R : op.cit, pp 116 – 117 .

(٤) وصف إفريقيا : ص١٧١ ؛ كلابرتون : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

لقد نفذت أعمال الزراعة بواسطة النساء بدرجة أولى والعبيد الرقيق الذين أصبحوا أقنان الأرض وليس لهم حقوق تذكر بدرجة ثانية ، وتحت إشراف رئيس القرية أو رئيس الجماعة الزراعية والذي كان يمتلك دراية واسعة بالمواسم الزراعية من حيث البداية والنهاية كما أنه يطبق ما توارثه عبر الأجيال من خبرة ونظم وضوابط تنظم تلك العملية الزراعية .

وعموم القول فإن حياة المزارعين كانت تخضع لنظام اجتماعي مرتبط بالعادات والتقاليد الوثنية، ثم صارت تخضع للساركن الذي وضع أسس نظام إقطاعى يخدم مصلحة الطبقة الحاكمة ويعطي الإمارة موارد مهمة لتصريف أمورها، كما أن إمارات الهوسا وقعت تحت تأثير الثقافة الإسلامية فقد تحدثت النوازل عن هموم ومشاكل الفلاحين التى حاولت أن تجد لها حلولاً تتفق مع العادات السائدة من خلال تنظيم البيع بالأجل وكراء الحيوانات وتنظيم عملية الزرع الجماعي للمحاصيل والتى تعرف العكوم[1] ونظام المغارسة واستئجار الناس لخدمة الحقول والكروم وغيرها[2] .

وبحلول القرن ١٠هـ/ ١٦م، وبسبب الأزمات الاقتصادية والجفاف والفوضى التي عمت السودان الغربي بسبب سقوط صنغي، تناقص عدد السكان وهرب الفلاحون بسبب أعمال النهب والاعتداء، مما جعل أوضاع الريف تتدهور بعد ما كانت هي الأساس في دعم سيادة البرني والمصدر الرئيس لقوتها لخوض الحروب، وأهملت الأرض وعادت الأحراش وانتقلت الزراعة إلى وسط الغابات الاستوائية فصار الاقتصاد الزراعي يمثل اقتصاد الكفاف بمعنى الكلمة [3]. وعادت الحياة في كثير من مرافقها إلى

---

(١) العكوم : وهو طريقة تقسيم المحاصيل المشتركة بين الناس بعد حصادها، حيث تزرع الأرض بشكل جماعي مقصود أوغيره، ويبدو أن هذه المشكلة كانت سائدة فى السودان الغربي، خصوصا عند الفقراء بسبب قلة البذور وعدم ملكية الأراضي الزراعية حيث يشترك مجموعة من الناس في بذر البذور والاهتمام بها، ولكن خلافات على قسمة المحصول يبدو أنها تقع بعد موسم الحصاد، وذلك راجع لعدم ضبط كمية البذور المزروعة لكل شخص، مما يستوجب إيجاد حل لتلك المشكلة، لهذا فقد أفتى بعض العلماء باللجوء إلى حلف اليمين لكل واحد منهم على الكمية التى بذرها ويقسم الناتج على ذلك الأساس . انظر : أبو عبد الله المصطفى الغلاوي : مخطوطة سابقة ، جـ٥ ، ورقة ١٠٥ .

(٢) المخطوطة السابقة : جـ٥، ورقة ٥٨-٥٩، ١٠٥، ١٠٩.

(٣) ب . ديابن : مرجع سابق ، جـ٥ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

المراحل الأولى أي مرحلة البحث عن الطعام، فصار الناس يبحثون عن ما يسد رمقهم بين الغابات فيجمعون الثمار وبعضاً من العسل، أو تعج بهم الأسواق التي صارت يومية بل منتشرة في كل الأماكن تحت الأشجار وعلى الطرقات .

وخلاصة القول أن الملكية الزراعية كانت منسجمة مع العرف المحلي وتقاليد الهوسا الذي يقضي بحق الانتفاع Usufruct [1]، حتى للغرباء وتم تطويعها لتخدم مصلحة الإمارة دون وجود قيود الملكية الخاصة التي تقيدها فى البداية، ثم صارت ترزح تحت عبء الضرائب العينية والهدايا، التي تقدم من حين إلى آخر . وفي إطارها عاشت الشريحة الكبيرة من الفلاحين والعبيد في خدم الأرض التي تلبي حاجاتهم الضرورية، فعلى قدر المحصول تأتي الضرائب، وعلى حسب العرف ومعرفة رئيس الفلاحين تقام المواسم الزراعية التي كانت معظمها تدور حول زراعة الأرز والذرة والقطن. كما أن تلك الأوضاع أدت بالمزارعين لترك مهنة الزراعة ومارسوا مهناً وحرفاً أخرى، وهذا دون شك أعطى الحياة الاقتصادية تنوعاً حرفياً مهماً، وهذا ما سيطرح فى الفصل الثانى .

---

(١) جون بادن : مرجع سابق ، جـ١ ، ص٥١٨ .

الفصل الثاني
الحرف والتجارة الداخلية لإمارات الهوسا

أولاً: الحرف:

(أ) الحرف الزراعية والنباتية .

(ب) الحرف ذات المواد الخام الحيوانية.

(جـ) الحرف المعدنية.

(د) حرف أخرى.

(هـ) التجمعات المهنية، تنظيماتها وعلاقتها بالسلطة.

ثانياً: النشاط التجاري الداخلي لإمارات الهوسا:

(أ) الأسواق، أنواعها والعاملون بها.

(ب) أسواق الإمارات وطرق المعاملات التجارية.

يبدو من خلال ما تطرحه القواميس الاقتصادية حول بعض المصطلحات المتعلقة بالنشاط الصناعي دقيقة ومتقاربة، وكل منها يعبر عن جزء من المفهوم العام لهذا النشاط . فالصناعة والحرفة والمهنة تستخدم كلها دفعة واحدة بالرغم من وجود اختلاف جوهري فيها بينها، فالصناعة في عمومها تهتم بالعلم والمعرفة المتعلقة بكيفية إنجاز العمل، أما الحرفة فتُعني بالعمل الذي ينفذه الصناع الذين يصنعون بأيديهم، أما المهنة فتتعلق بالحذق في الخدمة والعمل وهذه الدقة دون شك لا تنطبق تماما على النشاط الاقتصادي في إمارات الهوسا على اعتبار أنه بدائي إلى حد ما . لهذا من المهم استخدام مفهوم الحرفة في إطار كسب لقمة العيش ليس لا[1]. وبالرغم من ذلك فإن بعضاً من الصناعات وخصوصا الجلدية في بلاد الهوسا كانت تعتمد على المهارة والدقة مما جعلها مطلوبة ومشهورة في المناطق المجاورة .

لقد عرف إقليم الهوسا بعضاً من الحرف المختلفة في وقت مبكر والتي كانت تفي بحاجات السكان المزارعين والرعاة والصيادين من الأدوات البسيطة والمتعلقة بحياتهم اليومية فقد كانت الحرف وخصوصا الصناعية منها مصدر فخر وموضع للألقاب بين المؤسسين الوثنيين لبعض الإمارات، فقد وصف أسياد كانو بالحرف التى كانوا يقومون بها كالحداد[2] وصاهر الحديد ورجل المناجم ومعالج الأمراض ورامي السهام وصاحب الرمح وبائع الملح[3] .

---

(١) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١١١، ٢٥٧، ٤٤٥.

(٢) لقد كان هناك معتقد وثني لبعض سكان الصحراء في المناطق الفاصلة بين بلاد الهوسا وفزان وخصوصا عند قبائل التيدا مفاده احتقار مهنة الحدادة والحدادين فهو عار لا يغسله إلا الدم وذلك راجع لاستخدامهم السحر وأشياء محظورة. وقد تطور هذا المعتقد حتى بوجود الإسلام فقد اعتبروا الحدادين مثلاً حياً للخيانة ودعم ذلك بأحاديث منقولة عن الرسول الكريم مفادها أنه كان يربي إبل يتركه يرعى في البرية بعد أن أخذ على الصيادين والحدادين موثقاً بأن لا يقربوه ولكنهم أبوا واصطادوا ذلك الإبل وذبحوه مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو عليهم بنزع البركة. إن هذه المعتقدات والروايات بين سكان تلك المناطق مردها إلى عدم تجذر الإسلام والأمية وقلة التعليم فهي مبنية على حكايات وقصص ليس لها أساس من الصحة ولكنها موجودة فكانت عائقاً أمام كثير من الصناعات . انظر : ناختيجال : مصدر سابق، ص٦٧١ - ٦٧٢ .

(٣) مجهول : تاريخ أرباب كنو، ورقة ٦ ؛ آدم العطار : الإعلان بتاريخ كانو، ورقة ٩ ؛ Palmer. H .R : op.cit, p99

لقد تطورت الحرف بعد عملية الاستقرار وتكوين المدن التي شهدها الإقليم، وصار التنوع مطلوباً بسبب حاجات الناس، فالبناؤون والحفارون والصباغون والدلالة، وغيرها منْ المهن صار أصحابها يمارسونها بشكل دائم، كما أن المشغولات اليدوية والمتعلقة بالنجارة وصناعة الأدوات المنزلية والزراعية والملابس صار الطلب عليها متزايداً . لهذا ظهرت الأسواق المحلية كمراكز داخلية تُمارس فيها تلك المهن شغلا وتصريفا، حيث يتم حصول الناس على حاجاتهم بالمقايضة أو الشراء المباشر بالودع . فالأسواق المحلية كانت عاملاً رئيساً لدعم التجارة الخارجية وجذبها، كما أنها كانت ملتقى ومتنفساً وحيداً للسكان ومصدر حياة بكل معنى الكلمة. وهي أيضا مكان تفاعلت فيه الخبرات المحلية بالخبرات المهاجرة التي كانت في تقاطر مستمر على الإقليم دون انقطاع. لهذا رأت الدراسة ضم وربط كل من الصناعات والحرف القائمة في الإقليم بالأسواق المحلية على اعتبار أنهما تكامل بين الإنتاج الصناعي وتسويقه، فهي عملية واحدة .

أولاً : الحرف :

لقد ساعد توفر الموارد الطبيعية [1] في عملية نمو الحرف المختلفة والتي كانت تلبي حاجة الناس بالدرجة الأولى، فقد كان الإقليم يحتوي على أراض زراعية خصبة مترامية الأطراف تمر من خلالها الأنهار وتسقط عليها كميات كبيرة من الأمطار، مما جعل المحاصيل والإنتاج الزراعي متنوعاً بين غذائي ومحاصيل صناعية كالقطن والنيلة وبعض الشجيرات ذات الأصباغ وأشجار الأخشاب وكلها تأتي ضمن المواد الخام التي وفرتها الطبيعة المتنوعة.

---

(١) من العوامل الرئيسة لظهور الصناعة في إقليم الهوسا حاجة السكان للأدوات المستخدمة في الزراعة والصيد والأدوات المنزلية . أما العوامل التي ساعدت على ظهور تلك الصناعات فمن بينها توفر المواد الخام الصناعية بشكل كبير فوجود الغابات والأخشاب والتي تستخدم في بناء البيوت وصناعة الزوارق والعصي والأدوات المنزلية وكوقود لصهر المعادن، جعل هذه المهنة ناجحة بقدر كبير، وكذلك الأمر بالنسبة لقطعان الحيوانات والتي شكلت جلودها مصدراً مهماً لصناعة جلدية مميزة . كما أن وجود المعادن كالحديد والنحاس، قاد الحدادين لابتكار طرق لصهره وسبكه ثم صناعته . أما العامل المهم هنا يكمن في الهجرات والعناصر البشرية المقيمة والأخرى التي دخلت الإقليم ومعها خبراتها حيث استغلت تلك الموارد، ناهيك عن وجود الأيدي العاملة من الرقيق والتي كانت تشتغل دون مقابل، فقد فرق الهوسا بين الرقيق البايي والكوسيناوا . إن تلك العملية أظهرت قدرة على الإنتاج والتعامل مع الموارد الطبيعية والبشرية. انظر : أ. ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٥١، ٥٣ .

كما ضمنت تلك الأراضي الواسعة وجود القطعان من الأغنام والماشية والتي كانت مصدراً مهماً للمواد الخام . لهذا يمكن تقسيم الحرف على حسب المواد الخام المتوفرة في الإقليم والعوامل التي ساعدت على نجاحها وهي: زراعية، وحيوانية، ومعدنية [1].

(أ) الحرف الزراعية والنباتية :

تأتي الصناعة في إقليم الهوسا من حيث الأهمية بعد الزراعة كنشاط ومهنة ولكنها في الأساس صناعة بدائية طوعت لمصلحة تنفيذ المهام الزراعية وصناعة الأدوات والوسائل التي من شأنها تسهيل مهمة المزارعين، فقد رافقت عملية صهر المعادن الحاجة الملحة للمزارعين للأدوات مثل المعازق والفؤوس وأدوات قطع الأشجار[2] . ولكن الصناعات الزراعية والتي تدخل ضمن هذا الإطار يأتي على رأسها صناعة النسيج والتي تعتمد على القطن كمادة خام زراعية [3] يتم جمعها وتمشيطها وغزلها ثم نسجها وهي مراحل تحتاج لفترات زمنية طويلة وعمل مضنٍ تقوم به النساء والجواري والرقيق . كما أكد الحسن الوزان أن غوبير بالرغم من جدبها كان بها عدد كبير من نساجي القماش، وهؤلاء هم من يصنعون الملابس القطنية [4]، كما أنهم يستخدمون الصوف والوبر كالمنتوجات الحيوانية فعملية النسيج لا تقتصر في موادها على القطن فقط[5] .

لقد كانت صناعة المنسوجات القطنية [6] ضرورية بسبب اعتماد أغلب الملابس عليها وهي تحتاج إلى مراحل كثيرة حيث تبدأ من الحليج، ثم التسريح، ثم الغزل، فالصباغة

---

(١) عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص١٦٨ .

(٢) أ . ج. هوبكنز : مرجع سابق، ص ٨٦ .

(٣) يزرع القطن في شمال شرق هضبة جوس وفي زاريا وكانو وكاتسينا نظرا لتوفر كميات كافية من الأمطار والتربة هناك خصبة وجيدة . انظر : مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص ٢٥٧ ؛ عبدالله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص١٥٨ .

(٤) وصف إفريقيا : جـ٢، ص١٧١ ؛ مارمول : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٦ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، جـ٤، ص٣٠٠ .

(٥) فيجي : مرجع سابق، ص٧٦ .

(٦) لمزيد من المعلومات عن مزارع القطن وجني المحصول، والحصول على القطن في كانو انظر: الهامش ص ١٠٣ .

وأخيرا النسيج [1] وهي مراحل كثيرة تحتاج دون شك لمهارت متعددة نادرا ما تجمع في يد مهني واحد . لهذا فإن أعداداً كبيرة من الرقيق كانوا يشتغلون بها، فقد أكد كلابرتون ذلك، فقد قابل أعداداً كبيرة من النساء يجلسن على الطرقات وفي الأسواق يقمن بغزل القطن والصوف ويعرضن منتوجهن للبيع. ولكن أعداداً كبيرة من السكان كانت تنقل ذلك الإنتاج إلى أنوال المدن التي يعمل بها نساجي القماش حيث يتم نسج القماش منها [2]. والنول[3] المحلي كان صغير الحجم وقصيراً ويعرف بالضيق، أي أن مساحة النسيج تكون طولية ولكن عرضها لا يتعدى نصف المتر وهو بسيط التركيب يصنع من الخشب المثبت في الأرض والمتصلة ببعضها البعض [4]. وهناك طريقتان لعمل النسيج الأول: أفقية والأخرى عمودية، حيث كان جُلُّ عمل صناعة القماش يعتمد على قدرة الحائك في عملية الخياطة بين تلك الأجزاء، فقد شهد إقليم كاتسينا هجرات جماعية لمجموعات من الخياطين القادمين من الونقارة Wanaka حيث استقروا في البداية قرب الحوض العلوي لنهر سوكوتو ثم اندمجوا في المدن حيث أدخلوا طرقاً جيدة في الحياكة وخياطة الملابس [5] .

ولكن عموم الملابس والمصنوعات القطنية والصوفية والوبرية والتي هي مواد أولية زراعية وحيوانية كانت بسيطة جداً، فلم تكن الملابس نتيجة للطقس الصحراوي والاستوائي بحاجة للتعقيد والكثرة، فهي لا تتعدى في أحسن الظروف والحالات القفطان الأبيض أو الأزرق الذي يتكون من شريحتين عريضتين تتدليان إلى الأسفل حتى القدمين، وفي نهاية الثوب شريط أحمر من الصوف وهو المعروف بقميص بلاد السودان

---

(١) مارمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٦ ؛ أ . ج . هويكنز : مرجع سابق، ص٩٤ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص٧٨ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠ .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ص١٧١ ؛ كلابرتون : مصدر سابق، جـ ٢، ص ١٦٨ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١١٨ .

(٣) أشكال نول النسيج الأرضي عند الهوسا لم تتغير ومازال يستخدم إلى اليوم، وقد جمعت منه مجموعة وضعت في المتحف الوطني بالنيجر، اطلع الباحث على أشكالها وطريقة صنعها وعملها . انظر : الملاحق الجزء الخاص بالصور.

(٤) عبد الله عبد الرازق : مرجع سابق، ص ١٦٩ ؛ أ . ج . هويكنز : مرجع سابق، ص٩٩ .

(5) Y . B . Usman : The Transformation Of Katsina , pp 58 – 59 .

المريح . كما صنع الخياطون البنطال والرداء الفضفاض وأُزر وملاحف النساء وغطاء الرأس، والرداء الفولاني وكلها مؤثرات إسلامية [1].

والراجح أن مهنة النسيج والحياكة قد تطورت في أوقات لاحقة بحيث صار بمقدورها تغطية حاجة بعض المدن بل ووصل الأمر لوجود فائض، فقد تم توزيع هدايا بمناسبة نهاية أعمال بناء سور كانو زمن الساركن محمد نزاكي ٩٩٠-١٠٢٧هـ / ١٥٨٢-١٦١٨م بلغت ١٠٠٠ ثوب على المشاركين في البناء والفقراء. وعلى ما يبدو أن بمقدور النساجين في كانو تغطية تلك الأرقام بفضل أدواتهم البدائية وصغيرة الحجم، فقد وصفت تلك الملابس والتي قدمت كهدايا في مواضع أخرى من الحوليات بأنها ثياب جميلة، فهل هي محلية أو مستوردة ؟ لم يكن مبيناً ولكن تلك الأرقام الكبيرة لا تنم إلا عن أنها من صنع محلي رخيص التكلفة والتصنيع [2].

أما المنتج الزراعي الثاني والتي اشتهرت به كانو وزاريا، والذي يقدم مادة خاماً لصناعة الحصر والسلال والحبال فهو نبات النيلة والذي كان يزرع على هامش حقول القطن وعلى جانبي الأنهار وفهو كان ينمو بكثرة في الإقليم ولا يحتاج لعناية ومشقة في زراعته كما أنه ينمو بشكل بري حيث يستفاد من أوراقه وأغصانه الطويلة التى كانت تنقع في الماء في إناء خاص عرضه في طوله: قدم ونصف وتستخرج بشكل دوري وتضرب بالعصي الخشبية لكي تصبح لينة ثم تجفف حيث يتحول لونها من أخضر إلى أصفر يميل للبني وتصنف في حزيمات صغيرة تربط مع بعضها البعض ويتم بيعها فى الأسواق كمادة نصف مصنعة، حيث يشتريها الناس وتصنع منها الحبال والسلال وغيرها من المواد البسيطة الأخرى التي تستخدم للنقل على ظهور الحيوانات أو المستخدمة كأثاث للبيوت مثل الحصر [3].

---

(١) كلابرتون : مرجع سابق، جـ٢، ص ١٦٩ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص١٢٢ – ١٢٣ ؛ ب. دياين : مرجع سابق، جـ٥، ص٦٢ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١١١، ١١٣ ؛ محمد فاضل علي، سعيد إبراهيم كريدية : مرجع سابق، ص١٤٧ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٢٥٤ ؛ ناختيجال : مصدر سابق، ص٢٠٦ ؛ انظر الملاحق الخاصة بالصور.

(٢) زاكاري مايكوريا : مرجع سابق : ص٢٥ ؛ Palmer , H .R : op.cit, p116 ,118-119

(٣) كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٨ ؛ ب . دياين : مرجع سابق، جـ٥، ٥٨ ؛ عبد الله عبدالرازق إبراهيم: مرجع سابق، ص١٦٩ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١١٣ ؛ فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص٣١.

أما عندما تدخل تلك المواد الزراعية طور الصناعة فإنها تصبغ بألوان متعددة أهمها الأزرق [1] والأصباغ هي الأخرى تستخرج من نباتات كمواد خام زراعية، فجزء منها يزرعُ والجزء الآخر يجلب من البرية وأهمها الفوة، والزعفران، والحناء، حيث توضع الملابس المصنوعة من القطن أو الصوف أو الوبر أو نبات النيلة في وعاء واسع من الفخار عمقه تسع أقدام وعرضه ثلاث أقدام مثبت في حفرة له في الأرض. توضع فيه الملابس المراد صباغتها ويسكب عليها الماء البارد وتترك لمدة ثلاثة أيام حيث يتم تقلبها بأعواد خاصة وتستخرج أثناء الليل حيث يتم عصرها ونشرها. ويبدو أن هذه العملية لا تحتاج للحرارة أو الشمس حيث يتم تغطيتها بالحصر أثناء النهار وعند انتهاء عملية الصباغة ترسل إلى الشخص الذي يعمل بالصق الذي لديه هو الآخر أدوات أغلبها من الأخشاب حيث يضعها تحت المكبس مع استمرار عملية الضرب . وعند الانتهاء من هذه المرحلة يباع القماش جاهزاً للخياطين لتفصيله ملابس وبعض من المفروشات وغيرها من المستلزمات الأخرى [2].

الراجح من خلال ما تقدم أهمية بعض المواد الزراعية والنباتات المستخدمة في الصناعة بشكل مباشر. فالمواد الخام النباتية كانت جزءاً مهماً في عملية الصناعة حيث استخدم الخشب في صناعة الأدوات المنزلية الأخرى والمتمثلة في بعض الصحون والملاعق وأجزاء النول وأدوات زراعة الحقول، وبناء الحظائر والبيوت، والمقاعد وغيرها، ولكن أهم ما قدمته المواد النباتية كان متمثلا في صناعة الزوارق والتي تعرف بـ

(١) لقد كان اللون الأزرق اللون المفضل لسكان الهوسا فقد صبغت به الملابس وأثاث البيوت التي تصنع من النيلة، كما أن النساء استخدمن هذا اللون الذي يستخرج من نباتات طبيعية لصبغ شعرهن وأيديهن وأرجلهن وحتى حواجبهن، كما تم استخدام زهرة أشجار الجوحي Goorjee من قبل الرجال والنساء لتلوين الأسنان والشفاة حيث تدعك على المكانين المذكورين مما يعطيها لوناً أحمر قاتماً . واستخدام الأصباغ الملونة ربما راجع للمعتقدات المحلية لكثير من الشعوب الإفريقية والتي تستخدمه للزينة ولتغيير الملامح خصوصا في الأعياد والمناسبات المحلية . انظر : كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٨ – ١٦٩ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٨ ؛ ب . ديابن : مرجع سابق، ص٦٢ .

المشاحيف [1] وهي من جذوع الأشجار الكبيرة تستخدم للصيد والتنقل في أنهار الإقليم، كما وفرت المزروعات مصدراً مهماً للصناعات الغذائية فهي الأهم، حيث حولت الحبوب إلى دقيق بواسطة رحايا الحجارة [2] وصنع منه الخبز. كما استخرج الزيت من بعض النباتات، وصنع نوع من الصابون والشمع من نبات السنا، كما صنع من الخشب التماثيل والمنحوتات والأقنعة على أشكال الحيوانات[3].

كما استخرج الملح من بعض النباتات والحشائش وعيدان الذرة، حيث كانت تغلي على النار مباشرة أو توضع في أفران خاصة وهي تنتج كميات قليلة من الملح [4].

لقد اعتبرت الإمارات القريبة من الغابات الاستوائية والسافانا ككاتسينا وكانو وشمال زاريا ودورا أحسن حظاً من غيرها في كون تلك الغابات وفرت لها استخداماً

---

(١) صناعة الزوارق النهرية كانت بسيطة الصنع تستخدم فيها جذوع الأشجار الكبيرة حيث يتم ربطها مع بعضها البعض بالحبال لكي تشكل طوافة فوق الماء . أما المشاحيف صغيرة الحجم، صنعت من أجل عبور البرك والمستنقعات أثناء الفيضانات وكذلك لصيد الأسماك من البحيرات ومجاري الأنهار. أما الزورق الكنو ويبدو أنه منسوب إلى كانو كان يستخدم للنقل فهو يمثل صناعة متقدمة بالنسبة لما هو موجود حيث يعتمد على قدرة النجارين في عملهم حيث ينحت شكل الزورق بحيث يكون مدبب الطرفين ومجوفاً من الوسط، لا يعتمد على الرياح في حركته وإنما بواسطة المجاديف، ويبلغ طول الكبير منه ثمانين قدماً يحمل ما يقارب مائة شخص . ولكن الملاحة في الأنهار كانت محفوفة بالمخاطر بسبب وجود الحيوانات المفترسة كالتماسيح وأفراس النهر، كما أن وجود الصخور في الأنهار أعاق عملية الملاحة النهرية مما جعل من عملية استخدام تلك الزوارق لا تتطور، فقد كانت بدائية أمام تلك التي استخدمها البرتغاليون للدخول للغابات الاستوائية والمناطق الداخلية لإقليم الهوسا، والتي تعرف بالكرافيل. انظر: الملاحق الصور الخاصة بنهر النيجر والملاحة فيه ؛ أحمد بللو : سيرتي الذاتية، ص٣٥ ؛ أ.ج. هوبكنز: مرجع سابق، ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ أحمد الشكري : الاسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، ص ١٩٩ .

(٢) كانت هناك محاجر بالقرب من كاتسينا تسمي Kwata تجلب منها المسنانات وأحجار الرحي حيث كان هناك عمال يقطعون الحجارة ويصقلونها لكي تستخدم في الحاجات الضرورية . انظر:
Y . B . Usman.op.cit, pp13-15,

(٣) م . أبيتبول : مرجع سابق، جـ٥، ص٣٦٢ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ٢٥، ١١٥، ١١٨ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٩٧ ؛ ب . ديابن : مرجع سابق، ص ٥٨ ؛ هوبير ديشان : مرجع سابق، ص١٣، ٢٥، ٣٤، ٨٥ .

(٤) ب . واي . آنداه : مرجع سابق، ص٧٣٤ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٨٨ .

واسعاً للأخشاب خصوصا بما يتعلق بعملية صهر المعادن والتي تحتاج لكميات كبيرة من الوقود الخشبي والفحم[1].

وخلاصة القول فإن المواد الخام النباتية ذات الصبغة الصناعية كانت تمثل ركيزة أساسية لكل الصناعات فقد استخدمت الأخشاب بشكل واسع وخصصت لها مساحات كبيرة في الأسواق على اعتبارها مادة مهمة تستخدم في بناء البيوت والقلاع والحصون ودعم الأسوار والأبواب والنوافذ . كما كانت تستخدم بعض النباتات الزراعية والبرية في صناعة الأدوية والعقاقير الطبية والعطور حيث كان هذا مهمًّا . كما وجدت أيضا صناعات غذائية تعتمد على عصر بعض الثمار فقد ذكر كلابرتون في هذا الإطار حجم المزارع التي كان يزرع بها العنب ولكن حركة الفولاني قامت بتخريبها على اعتبار أن ما تنتجه محرم في حالة صناعته[2] . كما قدم نبات اليقطين مادة مهمة لصناعة أواني حفظ الماء والحليب. لهذا فالنشاط الزراعي لعب دوراً مهماً ومحورياً في تقديم المواد الخام لبعض الحرف الرئيسة في الإقليم ويعتبر النشاط الأول من حيث الزراعة كممارسة، والحرفة كتصنيع .

(ب) الحرف ذات المواد الخام الحيوانية

تعتمد هذه الصناعة على ما تنتجه الحيوانات فالإقليم كان يعتمد على القطعان وتربية الماشية كنشاط اقتصادي يأتي بعد الزراعة من حيث الترتيب العام فقد كان أغلب الحرفيين من الهوسا ومربي القطعان من الفولاني الذين كانوا ينظرون إلى الزراعة على أنها من أدنى الحرف البشرية لهذا وصل ما يملكونه إلى ثلاثة أرباع الماشية في الإقليم.

كما يشار إليهم بأنهم هم من أدخل ماشية الزيبو Zebu إلى الإقليم [3]وهذا دون شك دعم الصناعة التي تقوم على المواد الخام الحيوانية بأنواع مختلفة من الحيوانات فضلا عن تلك البرية مثل اللمط والفيل وغيرها .

---

(١) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص ٨٦ ؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص ١٥٥ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٢٩٩ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص ٧٧ ؛ فيج . جي . دي . : مرجع سابق، ص ٤٠ .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص ١٧٣ ؛ كلابرتون : مصدر سابق، ص ٢١٥ – ٢١٦ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١١٢؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص ١٧١ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص ٢٧٥ ؛ Y . B . Usman : op.cit, pp 24-25,54-55 ؛ انظر الملاحق الخاصة بالصور.

(٣) فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص ٨٠ ؛ عبدالله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص١٦٦ .

فقد قدمت الحيوانات مواداً أساسية لصناعات مختلفة كان أهمها المصنوعات الجلدية التي اشتهرت به بلاد الهوسا عموما، فكل المراجع تشيد بذلك المنتج الذي بلغت درجة إتقانه وجودته الأفق، حيث صنع منه الحقائب والأكياس [1] والأحذية والسروج والدروع والأدوات المنزلية كالأوسدة الجلدية الملونة وبعض المفروشات، وبعض الملابس [2] ومقابض وأغمدة السيوف والسكاكين[3]وغيرها. ولكن المصادر لم تذكر طرق الصناعات الجلدية تلك ولا توجد إلا شذرات بسيطة حول براعة المشتغلين بهذه الحرفة من دباغين وإسكافيين وتجار يسوقون ذلك المنتج . ويرى البعض أن فنون صناعة الجلود المتقنة دخلت إلى كاتسينا عن طريق مهاجرين من صنغي . في حين يرى البعض الآخر أن مهاجرين قادمين من أودغست Agadasawa استقروا في كاتسينا ساهموا في تقدم وتنوع الصناعات الجلدية . وتعد كاتسينا وكانو أشهر المدن التي اشتغلت بجلد الماعز الأحمر الذي كان يصدر إلى فاس والشمال الإفريقي ومن ثمة إلى أوروبا وهو نصف مصنع أي أنه مصقول ومدبوغ وناعم و لا يحتاج إلا للصناعة . لهذا شهدت تلك المدن منافسة مع جيرانهم لعل أهمها منافسة كاتسينا مع أغاديس [4]. والراجح أن براعتهم كصناع أحذية

---

(١) عرفت الأكياس الكبيرة المصنوعة من الجلد الطبيعي باسم الجوالات وعلى ما يبدو أن وفرة الجلد وخصوصا جلود الماشية جعل السكان يستخدمونها من أجل تخزين الحبوب، كما أنها تستخدم كأحمال توضع على الجمال في حالات السفر في القوافل لما تتمتع به من قوة وصلابة. انظر: أحمد بللو: مرجع سابق، ص ٣٦ .

(٢) تصنع أغلب ملابس المحاربين العاديين في إقليم الهوسا من الجلد المدبوغ والقوي المرصع بالصدف البحرية كنوع من الحماية لكي تقيهم من السهام وينتعلون أحذية خاصة تسمى الصنادل ولكنها بسيطة الصنع، أما الفرسان فيلبسون الدروع المصنوعة من الجلد القوي وهي الأخرى للحماية . انظر: كلابرتون : مصدر سابق، ص ١٥١ .

(3) Palmer :op.cit, p103 -104؛
مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠ ؛ د . لايا : مرجع سابق، ص ٥٣٠ ؛ ب . دياين : مرجع سابق، ص ٥٨ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص ٧٨ ؛ دونالدو برنر : تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٥٩ ؛ آدم عبدالله : مرجع سابق، ص١١٣ .

(٤) مهدي رزق الله : مرجع سابق، ص ٤١٢ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص ٩٦ ؛ Y . B . Usman :op.cit, pp57؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص ١٦٦ .

ونعال والخبرة التي اكتسبوها كانت مثار إعجاب الحسن الوزان الذي ذكر غوبير وصناع الأحذية فيها والتي كانت تقليداً للصناعات الرومانية القديمة من وجهة نظره، حيث يعتقد في أن الهجرات العربية نقلتها لسكان الصحراء، فقد اشتهر بها الإقليم وصار يصدرها إلى الأقاليم المجاورة مثل تنبكت[1] جاو[2].

لقد استخدم الجلد بشكل واسع كمادة متوفرة في الإقليم بحكم وجود القطعان المختلفة وبأعداد كبيرة، فقد صنعت من الجلد قِرَبُ الماء وهي من جلد الماعز المدبوغ من الداخل ويترك الشعر عليها من الخارج وتسمى بالقراب السودانية وكانت كثيرة الانتشار في الصحراء وبصحبة تجار القوافل فهي لا تضاهيها قرب أخرى[3]. كما استخدم الجلد في حفظ كثير من الأطعمة وخصوصا السائل منها كالزيت والزبد والسمن والعسل وشمعه حيث كان يوضع في الزلع الذي هو جلد ويحتاج لطريقة وخبرة في إعداده، حيث ينقع في الماء لمدة من الزمن ثم تضاف إليه مواد خاصة لكي يصبح مرناً وصالحاً لتخزين تلك

---

(١) تنبكت : ترد في المراجع أيضا تمبكتو وهي تبعد أربعة أميال عن نهر النيجر، فقد زارها ابن بطوطة وذكر أن أغلب سكانها من مسوفة أهل اللثام. فيها قبر أبي إسحاق الغرناطي المعروف بالطويجن وقبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار تجار الإسكندرية . هي من أشهر مدن السودان الغربي . أسسها التوارق الرحل في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي . تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى عند منحنى نهر النيجر. تبعد عن ولاتة خمسة عشر يوماً وعن جاو اثنتي عشرة مرحلة . ويرى السعدي أن الاسم في الأصل يخص إحدى نساء التوارق . لقد أصبحت تنبكت من المراكز التجارية والعملية في السودان الغربي حيث كانت تحت سيطرة مالي ثم صنغي وأخيرا أصبحت مركز حكم الحملة المغربية على السودان الغربي وبها عدد من المساجد والمنارات العلمية أهمها الجامع الكبير وجامع سنكري، ومسجد يحيى . للمزيد انظر: أحمد بابير الأرواني : مخطوط سابق، ورقة ٢٤ – ٢٥ ؛ ابن بطوطة : مصدر سابق، ص٦٩٤ ؛ السعدي: مصدر سابق، ص ٢٠ – ٢٣ ؛ محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، مطبعة بردين، إنجي باريس، ١٩٣٠م، ٢٢ –٦٠ ؛ محمد الميري: الإسلام في مالي، مجلة تراث الشعب، العدد ٩، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣م، ص ١١٨.

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص ١٧١ ؛ مارمول : مصدر سابق، ص٢٠٦ ؛ آدم عبدالله الألوري: مرجع سابق ص١١٢ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٢٥٤

(٣) ناختيجال : مصدر سابق، ص ١٠٠ .

المواد وهذه العملية تعتبر صناعة في حد ذاتها فهي فن من فنون تخزين الطعام [1]. واستخدم الجلد أيضا فى صناعة الطبول الكبيرة التي تستخدم في الحروب وفي الأفراح . واستخدم في تجليد المصاحف، كما كان من الغنائم المهمة في الحروب، حيث تحصلت كانو من كاتسينا في عهد الساركن محمد نزاكي ٩٩٠-١٠٢٧هـ/ ١٥٨٢-١٦١٨م على ستين طاقماً من دروع الخيل المصنوعة محليا [2].

لقد استفاد الهوسا من الثروة الحيوانية، لدرجة كبيرة حيث كانت ألبانها مصدر طعام مهم فهو مادة خام أيضا حيث يستخرج منه الدهون، كما كان الصوف والشعر والوبر مادة أساسية لصناعة الأقمشة التي تصنع منها الملابس والأغطية وأثاث المنازل كما حصل السكان على بعض من الملح من روث بعض الحيوانات عن طريق حرقه بالنار في أفران خاصة [3] . لقد قدمت الحيوانات والطيور مواداً أساسية لكثير من الصناعات المحلية، بسيطة الصنع ولكنها كانت تفي بأغراض الناس الضرورية كما أنها عبرت في بعض الأحيان عن الترف حينما يستخدم ريش النعام والأوز في الزينة وصناعة المراوح [4].

(جـ) الحرف المعدنية

حرفة التعدين من الحرف القديمة في بلاد الهوسا وتعتمد هذه الحرفة على استخراج المعادن [5] والمتمثلة في الحديد والذهب والملح والنحاس والقصدير والفضة والتى تستخرج

---

(١) كلابرتون : مصدر سابق، ص١٦٨ .

(2) Palmer:op.cit, p107 -108 , 116-117 .

(٣) ب . واي . آنداه : مرجع سابق، ص ٧٣٤ – ٧٣٥ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص ٣٨٨ .

(4) Ibid : p112 .

(٥) تحتاج المعادن لعملية دقيقة ولمعرفة جيدة ببعض خصائص المواد والعناصر كما أنها تحتاج لمعرفة ولو جزئية في علم الكيمياء، كما أنها تحتاج للأفران وأنواع خاصة من الكير في عملية النفخ المستمر، فدرجة صهر الحديد تصل إلى ١١٥٠ درجة مئوية والنحاس إلى درجة حرارة ١١٠٠ درجة مئوية وهذه التقنية والمعرفة لسكان تلك المناطق كان مشكوكاً فيها، ولكن الدراسات الحفرية في جنوب شرق نيجيريا الحالية كشفت عن معرفة مبكرة لصهر الحديد ترجع إلى القرن التاسع الميلادي فقد تخصصت عشائر وقبائل معينة في معرفة أصول وأسرار هذه المهنة . لقد تم الكشف على معدات زراعية وسيوف وسكاكين وأجراس ونواقيس حديدية . أما النحاس فإن الغالب في وجوده يرجع للتجارة الصحراوية حيث كان يجلب من مالي والنيجر من منجم نيورو، وتاكيدا على شكل قضبان وأسلاك وخواتم=

بكميات قليلة حيث كانت تستخرج من رواسب الفحم الحجري [1]. واشتهر الإقليم بوجود المعادن مثل النحاس والذهب وحجر الشب Alum والملح والحديد، ومهنة جلب المعادن وخصوصا الحديد وسبكه كانت على حسب طلب السوق المحلية وهو لصناعة الأدوات والوسائل المستخدمة في الزراعة وأدوات الطبخ، والصيد والحروب [2].

لقد كان المؤسسون لكانو من الحدادين الذين سكنوا بالقرب من جبل دالا والذي كان يوجد به منجم للحديد حيث مد السكان بحاجاتهم لهذه المادة الخام . وفي هذا الإطار يدفع البعض بأن بياجيدا عندما دخل الإقليم قابل في منطقة غايا أحد الحدادين الذي صنع له السيف الحديدي الذي قتل به ثعبان البئر [3]. وهذا يعني أن سكان كانو كانوا من الحدادين، فقد عرفوا صهر الحديد في فترة مبكرة قد ترجع إلى ما قبل القرن ٤هـ/ ١٠م.

إلا أن الدراسات الآثارية تثبت وجود صناعة مبكرة للحديد في شمال نيجيريا من خلال وجود أفران لصهر الحديد، وهذه العملية كانت تعتمد على مراحل سبقتها وهي عملية استخراج تلك المعادن فقد ورث الإقليم تلك المعرفة عن حضارة النوك [4] التي

=وأجراس وأطباق وهذه كانت بمثابة سبائك يعاد صهرها واستخدامها في مصنوعات أخرى . كما وجدت مناجم قليلة في مناطق الوثنيين في الشرق من نيجيريا الحالية . لقد ميز السكان في الإقليم بين النحاس الأحمر النقي والنحاس الأصفر البرونزي ولكل نوع استخدامه انظر : م . بوسنانسكي : مرجع سابق، جـ٢، ص ٥٥٩، ٧٣٢ – ٧٣٤ ؛ ب . واي . آنداه : مرجع سابق ٦٢٦ – ٦٢٧ .

(١) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص٢٤ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ٨٦ .

(٢) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠ ؛ زاكاري مايكوريما : مرجع سابق، ص٢٥ .

(٣) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص٨١ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص٧٧ ؛ عطية مخزوم الفيتوري : مرجع سابق، ص٢١٣ .

(٤) حضارة النوك Nok culture وهي قبائل قديمة تعيش على امتداد حوالي خمسمائة كم في الأراضي النيجيرية في الشمال يستخدمون معدن الحديد في صناعة الأواني وأدوات النحت منذ سنة ٩٠٠ق م وهم أحد فروع قبائل اليوروبا، أسسوا مدينة أيفي وحضارة بنين على ساحل المحيط الأطلسي وكانت أراضيهم مصدراً مهماً للنحاس الأصفر حيث كان يصدر إلى إقليم الهوسا ويستوردون النحاس الأحمر النقي أساس صناعة البرونز. انظر: جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصرية، مصر، ١٩٨٤م، ص١٠٠-١٠٣،١١١؛ فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص٣٨ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

ترجع إلى القرن ٩٠٠ق . م والتي سيطرت على شعوبها وقراهم إمارة زاريا، فمناطق النوك الوثنيين كانت تحتوي على مناجم لكثير من المعادن مما جعل تلك المدن والمراكز تتطور بفضل استقطابها الكثير من الصناع والحرفيين الذين صهروا الحديد وصنعوا منه المعدات البسيطة والمتمثلة في المعازق ورؤوس السهام والحراب والنصال والسكاكين والسيوف وأدوات قطع الأشجار وأدوات الحدادة مناخ الكير والسندان وبعض الأدوات الأخرى (١).

لقد كان لسيطرة كانو على تل دالا أهداف كثيرة من أهمها وجود معدن الحديد وقرب هذا التل الغابات الاستوائية التى وفرت الوقود لعملية صهر الحديد خصوصا وأن عملية الصهر كانت تحتاج كميات كبيرة جدا من الوقود . كانت عملية صهر الحديد في إقليم الهوسا بالطرق البدائية حيث كانت تجمع الحجارة والتي تحتوي على نسب من الحديد المرتفعة وتوقد عليها النار بشكل مكشوف وتستمر عملية الصهر لمدة ثلاثة أيام ثم يترك الحديد لكي يبرد ثم يصهر من جديد حتى ينفصل الحديد عن الشوائب وعندها يغسل بالماء ويغربل قبل وضعه في الأفران والتي يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام وقطره سبعة أقدام وبه ستة منافس رأسية توقد لكثر من ٣٦ ساعة مستمرة حيث يتم تغذيتها بالوقود عشرات المرات وهذه العملية تحتاج لمعرفة وأدوات خاصة يحتكرها صاهرو الحديد دون سواهم. ثم يستخرج الحديد ويبرد ويباع للحدادين الذي يشكلونه على حسب طلب الناس. فدور الحدادين مهم حيث يسافرون لمناطق إنتاج وصهر الحديد الخام لجلبه وتصنيعه (٢).

والمرجح أن النمو الاقتصادي الذى شهدته إمارات الهوسا كان مرده وجود مناجم الحديد بالقرب من عواصم الإمارات والتى استغلت من قبل صاهري الحديد الذين استفادوا من الخبرات المهاجرة إليهم حيث كانت تجمع الصخور الحديدية وتصهر على النار مباشرة أو عن طريق الأفران التي تسمى عند الهوسا مرمرة والتي كانت تصنع من خليط الطين عالي التحمل للحرارة على شكل مخروطي له فتحة علوية وفتحات سفلية

---

(١) ب . واي . آنداه : مرجع سابق، ص٦٢٤ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨١ فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص٩٣ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٨٦، ٩٧ .

(٢) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٨٦ – ٨٩ .

للتهوية والنفخ، وبه فتحات خاصة لخروج مصهور الحديد عن طريق قنوات تختلف من فرن إلى آخر أقلها اثنتين [1] .

لقد تم اكتشاف نوعين من الأفران في مواقع صناعية كثيرة في إقليم الهوسا ووضعت لها نماذج في المتحف الوطني بالنيجر وكانت لصهر الحديد وأخرى للنحاس وهي أسطوانية الشكل، يبلغ طولها ست أقدام وقطرها ثلاث أقدام ولها بين الأربع وست قنوات لخروج المصهور، والفرن له فتحة علوية حيث يوضع الحديد مع الوقود وتستمر عملية الصهر حتى يذوب الحديد فيخرج من المخارج المخصصة له . كما أنها مزودة بفتحات للنفخ يركب فيها الكير العادي الذي يصنع من الجلود لتسهيل عملية النفخ وتزويد الحديد بالأكسجين الضروري في عملية الصهر [2].

لقد قدمت كاتسينا نموذجاً مهماً للدراسة في التمركز حول مناطق مصادر الحديد التي كانت قليلة . فقد تم اختيار العاصمة في موقع دوبي بالقرب من منجم حديد، كما كانت هناك مواقع أخرى بها هذا المعدن، مثل Dustin Bamle بالقرب من مناطق Gazawa حيث تم ربطها بشبكة من الطرق الداخلية التي تؤدي إلى المدن الصناعية، كما اعتمد بعض الحكام على سياسة التنقيب عن معدن الحديد في الجنوب من منطقة Matsai . وفي عهد محمد كوري ٨٤٩-٩٠١هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٥م صار التنقيب وتعيين الموظفين المشرفين عن تلك العملية وتنظيمها في جماعات صناعية مهمة ورئيسة، حيث أسس مكان للصهر والسبك بالقرب من Kwarin Tama [3].

كانت معرفة صناعة الحديد في وقت مبكر حيث يلاحظ عليها نوع من التطور ف إمارة كانو ف القرن ٦هـ/ ١٢م بسبب الحاجة إليها وخصوصا فيما يتعلق بالأسلحة والشعارات. ففي عهد الساركن يوسا yusa ٥٣٠-٥٩٠هـ/ ١١٣٦-١١٩٤م تم استخدام الدروع Garkwa لأول مرة ولم تذكر الحوليات طبيعة تلك الدروع ولا الكيفية التي صنعت بها إلا أنها تعتبره إنجازاً غير مسبوق. أما في عهد الساركن ياجي٧٩٢-

---

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ؛ م . بوسنانسكي : مرجع سابق، جـ٢، ص٧٣٥ .

(2) . Musee National Boubou Hama – Niger

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨١ ؛ Y . B . Usman :op.cit, pp 11-13 .

٨١٢هـ/ ١٣٩٠-١٤١٠م، فقد تم استخدام الخوذات الحديدية للفرق العسكرية في الحروب [1]وهذا يدل على تطور مهم في إطار المعدات القتالية التي كانت الإمارات تركز عليها أكثر من الاهتمام بالصناعات الأخرى والتي كانت تعاني بدائية بشكل ملحوظ .

كما قدمت كاتسينا هي الأخرى مثلاً حول الشعارات الرسمية التي يتوارثها الحكام من القدم والمتمثلة في السيف القصير والقدر الحديدي [2]، وهي مشغولات حديدية محلية الصنع صنعها حرفيون من كاتسينا للساركن محمد كوري ٨٤٩-٩٠١هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٥م فصارت من الشعارات التي لابد لكل ساركن من امتلاكها والحصول عليها وهي من الأشياء التي مازالت حتى اليوم تنقل وتتوارث بين أمراء الهوسا في كاتسينا .

لقد كان الحديد يمثل مادة مهمة للحكام، كما أن الإمارات المتحاربة قد سعت للحصول عليه بكل الطرق، حيث يتحدث تاريخ كاتسينا في زمن محمد كوري أن الوثنيين قدموا له الألواح الحديدية كاعتراف منهم بسلطته على مناطقهم والتي كانت في هضبة جوس بنيجيريا [3].

أما النحاس فيرى البعض أن السودان الغربي عموما لم يدم به العصر النحاسي طويلا بسبب انتقال الحديد من المناطق المجاورة له في فترات مبكرة، ولكن رأياً آخر يُطرح على أن صناعة النحاس ترجع إلى الفترة ما بين القرنين التاسع والخامس قبل الميلاد [4].

لقد حصلت أغلب إمارات الهوسا وخصوصا جوبير على النحاس الأحمر من تكدا تيجيدا Tigidda [5]، حيث كان يستخرج من باطن الأرض بواسطة الرقيق والخدام وينقل

---

(1) Palmer :op.cit, pp101, 107 - 108 .
(2) Y . B . Usman :op.cit, pp 6-18
(3) Ibid , p19 .
(٤) فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص٤٠ ؛ م . بوسنانسكي : مرجع سابق، جـ٢، ص٥٥٨ .
(٥) تيجيدا : وهى مدينة تكدا التى وصفها ابن بطوطة، وقد اشتهرت بصناعة النحاس الأحمر الذي يصهر ويصب على هيئة خيوط، طولها شبر ونصف ويصدر إلى بلاد السودان و كوبر غوبير إحدى إمارات الهوسا . وهذه المدينة لم يبق منها اليوم إلا الأطلال، وهى موجودة بالقرب من أزليك على بعد ١٨ كلم شمال شرق تيغدان – تسوم، وقد دخلها الإسلام عبر الأير فى القرن ٧-٩م وحكمها سلاطين من البربر، ويعتقد أن سلطنة داموشوش تأسست فيها . انظر : ابن بطوطة : مصدر سابق، ص٦٩٧-٦٩٨ ؛ زاكاري مايكوريا : مرجع سابق، ص٥٦-٥٧ .

إلى بيوتهم حيث يصهر ويسبك ثم يباع بواسطة التجار [1]، على شكل قضبان وخواتم وأسلاك وأجراس وأطباق، حيث يعاد صهره وتشكيله في أدوات مختلفة .

أما معدن الذهب فهو يجمع من مجاري الأنهار بالقرب من مناطق تقسيم المياه لكل من نهر النيجر وبنوي والسنغال ومالي وغينيا، حيث يفصل عن الطين بواسطة الغربلة والغسل بالماء . كما كانت هناك مناجم الذهب الرسوبية الواقعة في أودية النيجر الأوسط . وفي أودية السنغال أراضي الوثنيين [2] التي كانت من الصعب الدخول إليها، فعملية جلب المعادن منها لم تكن إلا عن طريق المبادلة أو عن طريق النهب والغزو في بعض الأحيان .

وعندما يحصل الصناع على ذلك المعدن سواء أكان كتلاً صغيرة أو تبراً، تراب الذهب، فإن عملية صهره تحتاج للأفران خاصة، حيث تصنع منه الأسلاك والقضبان والحلي الخاصة بالنساء وأدوات الزينة التي تستخدم في قصور أو ملابس الحكام الذين تقدم لهم هدايا من أتباعهم تحتوي على كميات كبيرة من الذهب والفضة المصنعة [3].

أما الملح فهو من العناصر المهمة للبشر خصوصا في المناطق الجافة وهو عنصر مهم لسكان الصحراء. ووجود الملح في الطبيعة كان على شكل رواسب نتيجة عملية التبخر والتجفيف أو عن طريق حرق بعض الحشائش [4]. وكان يصدر إلى إمارات الهوسا .

أما استخراجه من المناجم فهي عملية شاقة حيث يحفر عليه في الأرض على شكل سراديب وعندما يوجد يقطع منه نوعان الأبيض والأحمر . ويوجد الملح في منطقة تغازي التي يسكنها مسوفة من البربر الطوارق، حيث يحمل إلى السودان الغربي على شكل ألواح كبيرة. وعندما يصل إلى أماكن الاستهلاك يقسم إلى مربعات صغيرة ويؤكل لوحده مع الطعام لغرض الاقتصاد فيه لارتفاع ثمنه، كما يستخرج أيضا من البحيرات بفعل التبخر حيث يكون طبقة بيضاء فوق التربة تجمع وتستخدم مباشرة [5].

---

(١) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٩٧-٦٩٨ ؛ م . بوسنانسكي: مرجع سابق، ص٦٢٧ ؛ زاكاري مايكوريا: مرجع سابق، ص٣٦ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق، ص٧٧ – ٧٨ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص ١٧٢ .

(٢) م . بوسنانسكي : مرجع سابق، ص٧٣٦ ؛ فيج . جي . دي : مرجع سابق، ص ٤٥ .

(٣). أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٩١ ؛ Palmer :op.cit, pp101, 107 - 108 .

(٤) م . بوسنانسكي : مرجع سابق، ص٧٣٤ .

(٥) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٧٤ ؛ الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ص ٢٨٠ .

لقد كانت هناك خمسة مناجم ملح في السودان الغربي رئيسة يعتمد عليها سكان السودان الغربي وهي: أوليل القريبة من البحر في أقصى الغرب، وبيلما في الشرق وهو في يد الطوارق وإيدجيل، وتغازة، وتأوديني . كما تحصل سكان الواحات على ما تنتجه واحات كاوارKawar وأرغام Argam وسيدغودين Sedguedine وتيجدا تيوم Tigidda Tesum [1].

لقد قام الطوارق والبرنو والونقارة بدور مهم فى تجارة الملح، حيث يستبدلونه بالقطن الخام والمواد المصنعة محليا في إمارات الهوسا، مما جعل تجارة الملح رائجة بين الإمارات خصوصا كانو وكاتسينا [2] فالملح مهم لكل السكان فهو يمثل البضاعة والنقد في نفس الوقت .

أما بقية المعادن والتي كانت تدخل في إطار الحرف والصناعات في الإمارات فهي معدن الرصاص الذي يوجد في إقليم بوشي والمعدن الأصفر والشب في إقليم كتو ومعدن الكحل الذي يوجد في مناجم الرصاص والذي يحتاج لمهارة عالية ليفصل عن الرصاص بواسطة الكبريت ومعدن القصدير الذي كان في أراضي الوثنيين في بوشي [3]. وكلها معادن كانت معروفة عند الهوسا حيث تستخدم حسب الحاجة إليها، وحسب توفرها من خلال إنتاجها أو الحصول عليها عن طريق التجارة والاستبدال بما ينتج محليا .

(د) حرف أخرى

لقد عرفت إمارات الهوسا حرفاً وأنشطة صناعية أخرى متعددة كانت تعتمد في موادها الخام على عناصر مشتركة بين الزراعية والحيوانية والمعدينة، ويأتي البناء في مقدمتها حيث كانت حرفة البناء تضم عدداً كبيراً من المصممين والبنائين والحفارين والحجارين وصناع الطوب والمبيضين وجمهرة كبيرة من الرقيق. فقد شهدت بعض الإمارات حركة عمرانية من خلال إقامة الحصون والأسوار والقصور والمساجد والبيوت، خصوصاً بعد

---

(١) أ . ج . هوبكنز : ص٩٢ ؛ زاكاري مايكوريا : مرجع سابق، ص٢٥ .

(٢) بوفيل : مرجع سابق، ص ٢٢٢ ؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص١٦٩ .

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص٢٨٠ ؛ كلابرتون : مصدر سابق، ص ٢٦١-٢٦٢ ؛ محمد بلو: مصدر سابق، ص٦٨ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ٦٥ .

قدوم المهاجرين من صنغي وبلاد المغرب والبرنو فقد جلبوا معهم مؤثرات كانت واضحة المعالم في طراز البناء الذي ظهر في كانو وكاتسينا .

لقد شهدت كانو في عهد الساركن الثالث Gijimasu Son of Warisi ٤٨٨-٥٢٨هـ/ ١٠٩٥-١١٣٤م بداية بناء أسوار كانو حيث قام الناس بشكل جماعي بالبناء بحكم أنهم يمتلكون الطاقة والقوة وأصبح السور يضم ثماني بوابات، ولكن الأمر تغير في عهد الساركن محمد رمفا ٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م حيث شهدت كانو حركة عمرانية قادها المتخصصون العاملون في مهنة البناء، حيث تم بناء القصور والمساجد والحصون والقلاع ومرد ذلك الازدهار وجود الحرفيين والمواد الخام من الأحجار والطين واللبن والأخشاب، لهذا فقد بني قصر جيدان والمسجد الجامع(١). لقد كان النمط المغربي المنتقل إلى صنغي في البناء واضحاً من حيث الشكل والتصميم والدليل مسجد هيب Habe في كاتسينا(٢).

لقد شاهد الحسن الوزان بعضاً من تلك المدن والقصور والأسوار المقامة، والتي كانت تعتمد على الطين كمادة أساسية في بنائها وتدعم بالركائز الخشبية(٣) ولكن الفرق كان واضحاً في نوعية المواد المستخدمة في بناء البيوت، حيث كانت بيوت الفقراء من أغصان الأشجار والطين النيء بينما بنيت منازل الأغنياء وقصور الحكام من الطوب المحروق . لقد كانت البيوت التي على الطراز المغربي بسيطة البناء ومربعة الشكل تحتوي على نوافذ وكوات مربعة ودائرية الشكل للتهوية وللزينة. أما السقف فقد كان خليطاً من الطين والأخشاب، حيث ترصف أخشاب النخيل ويطرح فوقها الطين الممزوج بالماء وهذا دون شك يحتاج لخبرة النجارين وعمال البناء(٤). كما عرف الإقليم انتقال مؤثر البيوت الكبيرة والمقسمة إلى حجرات والتي تحتوي على أفنيةٍ واسعةٍ تُعبر عن نوع من الترف والرفاهية لبعض السكان المشتغلين بالتجارة(٥). لقد كانت عملية البناء تحتاج لعدد

---

(١) عبدالله الألوري : ص٨٢ ؛ حسين سيد عبدالله : ص ٧٨ - ٧٩ ؛ Palmer :op.cit,p100

(٢) مهدي رزق الله احمد: مرجع سابق، ص٢٧٥-٢٧٦ ؛

Ibid : pp111-112.

(٣) وصف إفريقيا : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٧٣ .

(٤) كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٦١ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١١٢ .

(5) Y . B . Usman :op.cit, pp 55-56

من الحرف المرافقة لها كالصناعات الخشبية المتمثلة في صناعة الأبواب خصوصاً تلك التي تغلف بصفائح الحديد[1].

كما عرف الإقليم عدداً من المهن والصناعات الأخرى والتي كان منها استخدام الطين في صناعة التماثيل وصناعة الفخار في الأدوات المنزلية وحفظ السوائل والحبوب، واستخدام الحجارة في صناعة المجاريش الخاصة بالحبوب وبعض الصناعات الخاصة بالحُلي من حجارة الزينة كالعقيق الأبيض والبلور الصخري أو الكوارتز [2] كما أن الإمارات عرفت أنواعاً من الصناعات المتعلقة بالأدوات الموسيقية خصوصاً الطبول التي تصنع من جلود الحيوانات والثعابين ففي عهد الساركن التاسع Tsamia Son of Shekkarau ٧٠٦-٧٤٣هـ/ ١٣٠٧-١٣٤٣م، كانت ترافقه ألف وأربعمائة طبلة، وفي هذا العصر تم استخدام الأبواق الطويلة لأول مرة في كانو [3].

إن تطور الأنشطة كان يحتاج الأيادي العاملة المدربة، لهذا تحول الرقيق إلى عمال مع الحرفيين مما أدى إلى زيادة أعدادهم بشكل كبير، كما أدى هذا التطور إلى وجود منافسة بين أصحاب المهن على المواد الخام وتصنيعها ثم بيعها في الأسواق التي كانت تقام في القرى والمدن بشكل يومي[4].

(هـ) التجمعات المهنية، تنظماتها، وعلاقتها بالسلطة

لقد أدت الحروب بين الإمارات إلى انكماش الأوضاع الاقتصادية وانحسار الأراضي الزراعية وهجرة كثير من الحرفيين والصناع إلى مراكز الإمارات في الإقليم، وزاد الأمر سوءاً وجود كوارث طبيعية والتي قضت على جانب كبير من الحيوانات والناس، أن كل تلك العوامل مجتمعة كانت تقود المجتمعات في إقليم الهوسا للتركيز على الإنتاج الغذائي المتمثل في الزراعة وتربية الحيوانات، فإنتاج الحبوب كان يعني: الغذاء الكامل بما يوفره.

---

(١) كلابرتون : مصدر سابق، ص١٦١ ؛ مارمول : جـ٣، ص٢٠٧ .

(٢) ب . واي . انداه : مرجع سابق، ص٦٢٥-٦٢٦ ؛ م . بوسنانسكي : مرجع سابق، ص٧٣٦-٧٣٧؛ فيج : مرجع سابق، ص٩٣ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٩٧ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠ .

(3) Palmer :op.cit, pp 103-104 , 107-108

(٤) ب . دياين : مرجع سابق، جـ٥، ص٥٤ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٣٠٠ ؛ Y . B . Usman : op.cit, pp61-62

أما القطن والصوف والوبر والنيلة فكانت تمثل: المادة الأولى في صناعة الملابس والنسيج، أما المواد الضرورية كالمعادن والملح والرقيق وجوز الكولا [1] والعاج والذهب وغير المنتجة بكميات كبيرة في الإقليم فقد تم جلبها من خارجه من المناطق المجاورة كتغازي ومناطق حوض نهر بنوي في الغرب من الإقليم وهي مناطق الوثنيين [2].

إن تلك الأسباب سالفة الذكر وتوفر المواد الصناعية المختلفة في الإقليم، أدت إلى ظهور المجموعات المهنية المنظمة خصوصا في كاتسينا، فقد كانت بمثابة العصب وشريان الحياة والمكون الأساسي للنشاط الاقتصادي، فقد تكون المجتمع فيها على أساس طبقي مهني مرتب تحت ست فئاتٍ رئيسة هي : الفلاحين، والرعاة، والحرفيين، والتجار، والمسئولين، وفئة المتعلمين كما أضيف لهم فئات فرعية أخرى كان أهمها: أصحاب بعض المهن مثل الصيادين [3] الجزارين، والحلاقين والمغنيين والموسيقيين [4] .

لقد شكل الصيادون والفلاحون والحدادون أساس المنظومة الاجتماعية في الإقليم، حيث برزت أهمية رئيس الصيادين والمزارعين ساركن Noma والحدادين ساركنMakere وصارت هذه المهن تجمع أناساً من أصول مختلفة ومتنوعة للقيام وتنفيذ النشاط الاقتصادي

---

(١) جوز الكولا: نبات منشط يحتوي على الكافيين حيث يمضغ، لتخفيف التعب والتغلب على العطش، وهو أنواع منها نتيدا: الذي كان يزرع في الغابات من غينيا شرقا إلى ساحل الذهب، وتعتبر مناطق السودان الغربي سوقاً له باعتبارها مناطق جافة وبحكم وجود الإسلام فيها ومنعه للمشروبات الكحولية فقد استعاض عنها بهذا المنشط . انظر : أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص١١٧ .

(٢) م . إبيتبول : مرجع سابق، جـ٥، ص٣٦٢ ؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص ١٥٨ .

(٣) يبدو أن هذه المهن كانت ثانوية وهي ليست نشاطاً مستقلاً لوحده فبمقدور الفلاح ذبح الحيوانات وحلاقة أبنائه في وقت واحد فقد ذكر كلابرتون أن تعدد الحرف في يد شخص كانت مألوفة حيث يذكر شاب كان جزار وحلاق في نفس الوقت في كانو، وهذا ينم عن عدم التخصص الحرفي الواحد وهو سمة اقتصاد المناطق البدائية، كما أن المغنيين والشعراء كان دورهم يعتمد على تملق أفراد الطبقات الغنية من أجل الاسترزاق فكل طبقة من الطبقات المذكورة كان بها مجموعة من المغنيين وهؤلاء لايقومون بأي دور اقتصادي سواء إنتاج الكلام مقابل الطعام. أما الصيادون والموسيقيون فإن عملهم كان بمثابة الفرق العسكرية المساعدة للجيش في الغزوات والحروب ضد الإمارات الأخرى.إذا فتلك المهن غير المرتبة ضمن الفئات الست كانت هامشية بالنسبة لنشاط إنتاج الطعام أو الصناعة كما أنها مهن موسمية، ويمكن لشخص واحد الإلمام بها في وقت واحد. انظر: كلابرتون: مصدر سابق، ص١٩٨ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص ٧٣-٧٤ .

(4) Y . B . Usman :op.cit. pp 60-61.

من ناحية، وإقامة الشعائر الدينية من ناحية أخرى. لقد تنوع الاقتصاد والحرف بحيث صارت المجموعات المهنية أكثر تخصصا كالصباغة والأشغال الحديدية،وصار التجار والحرفيون ضمن المنظومة الهرمية للدولة تحت سيطرة Sarakunan Sanaa الذي يعينه الساركن الحاكم وبموافقة رؤوساء المهن المتخصصين حيث كانوا يشرفون على الأنشطة الخاصة بهم، ويضعون الضوابط ويطرحون الآليات لتحسين المهنة وجبي الضرائب، لهذا أصبحت المهن الرئيسة في كاتسينا تضم الوظائف التالية: ساركن الحدادين Makera وساركن النساجين Tarno والصباغين Dauhaganzame والدباغين Majema وباعة النطرون Zannuwa وباعة الملح Gariya وباعة أحجار الحبوب Mudda ونجارى الخشب Dawa وجامعي العسل Zaki والجزارين Pawa وعمال البناء Magina والحلاقين Askaـ[1].

أن هذه التجمعات الحرفية دون شك كانت تشبه الطوائف الحرفية التي وجدت فى بلدان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه حيث كانت كل طائفة تضم الحرفيين العاملين فى نفس المهنة . لقد كان عمل رؤساء المهن فى إمارات الهوسا ينفذ بمساعدة مجموعة حرفية أخرى يعينها موظف مختص يسمى ماجري Maigari حيث يعملون على ضبط المقاييس وتخصيص الأراضي ومراقبة عملية التجارة والأشراف على السوق، وجمع الضرائب، وهؤلاء جميعاً كانوا يعملون لخدمة الساركن الحاكم، والدليل أنه كان يطلب جماعات الصيادين لمرافقته في الحروب . وله علاقة مباشرة مع السماسرة من أجل الصفقات التجارية الرسمية، والبنائين لبناء الأسوار والقلاع[2].

لقد طُوع النظام السياسي في الإمارات لخدمة النشاط الاقتصادي حيث يعتمد الساركن على ثلاث مجموعات من الموظفين يأتي في مقدمتهم الأمراء، ثم حكام المقاطعات، ورؤساء المهن[3]، ولكل مجموعة عمل ومهام مناطة بها تخدم الحرف والإمارة

---

(1) Ibid : p60- 68 .

(٢) ب . دياين : مرجع سابق، جـ٥، ص٥٤ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٣٠٠ ؛
Y . B . Usman :op.cit, pp61-62

(٣) من أهم الموظفين في كاتسينا غالاديما هو نائب الساركن، وآجيا أمين الخزانة، وتوراكي وشانتالي وهما بخصوص الترتيبات السلطانية، أما ماداواكي فهو المسؤول عن الاصطبلات . لقد اعتمد الساركن على ممثلي أصحاب الحرف المختلفة فقد كان دورهم تنظيم المهن، وجمع الضرائب . ولكن بعض المهن مثلت أهمية خاصة للساركن بحكم تمتعها بصفة عسكرية فقد اعتمد على الصيادين في فرق الجيش، والحرفيين والحدادين لصناعة الأسلحة . انظر : د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥١٩ – ٥٣٦ .

بشكل أساسي، لهذا عرفت تلك المهن نوعاً من التنظيم شبه النقابي إن جاز التعبير فلكل حرفة رئيس ومجموعة من الموظفين الذين يعملون على ضبط وجمع الكودين ساناءا [1] ضريبة الأعمال الحرفية والمعروضات في الأسواق[2].

أن إنشاء الطوائف الحرفية في الإمارات كان يعتمد على الأسر والعلاقات الاجتماعية المكونة للأنشطة الاقتصادية، فالعلاقات التي تنظم التجمعات الحرفية كان النسب فيها للحرفة هي الأساس، فالزواج دائما يحدث بين أبناء الحرفة الواحدة بحكم المصالح وبحكم انتقال مبدأ توريث ابن الأخت فهي علاقة اجتماعية أساسها اقتصادي، وقد كانت تلك التجمعات الحرفية منسجمة ومؤيدة للسلطة الحاكمة بحكم استفادتها من عملية جمع الضرائب واستغلالها لمناصب رؤساء المهن خصوصا عندما تتفق مع اتجاهاتها الدينية والحرفية والعشائرية الواحدة[3].

لقد اعتمدت السلطة المركزية في أغلب إمارات الهوسا على مساعدة رؤساء الحرف على الاستيطان والتمركز في القرى والمدن والتي تعتمد على قوة الفلاحين وأصحاب الحرف والصناعات، فقد مُنحوا الشرعية من الساركن في كونهم مشرفين يملكون السلطة الكاملة الحرفية فهيمنوا بها على شؤون القرى والمدن حيث شكل عمال المناجم مثلا وحدات سكانية مستقلة تضم الصيادين وعمال المناجم وصاهري الحديد في مستوطنات خاصة عُرفت بالخوذات الريفية[4].

تم تكييف الأنشطة الحرفية والصناعية بشكل يخدم مصلحة الإمارة والساركن، ويحقق نوعاً من الاستقرار والتبعية للسلطة السياسية أو الدينية المقامة عليها القرية

---

(١) كانت هناك مجموعة من الضرائب التى تفرض على كل نشاط حرفي فى إمارات الهوسا وهى تحصل بواسطة ممثلين عن الساركن، ولها أسماء هوساوية محلية تعرف بها، كضريبة الأرض التي تعرف كودينا كاسا، وكودين ساناءا وهى ضريبة الحرف المهنية يدفعها التجار والحرفيون، وكودين هيتو وهى رسوم الجمارك، وجانغالي ضريبة الماشية وغيرها . انظر : د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥٢٦ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص١٧٢-١٧٦ .

(٢) د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥١٩ – ٥٣٦.

(٣) جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص٧٣ – ٧٤، ١١١ ؛ د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥١٩ – ٥٣٦ ؛ Y . B . Usman :op.cit, pp61-62 .

(4) Y . B . Usman :op.cit, pp 14-15 , 19-20 .

الواحدة والمتكونة على أساس حرفي أو اجتماعي واحد، بحيث تنسجم تلك العناصر فيما بينها وتقدم إنتاجاً يقوم على سد الحاجات الضرورية ويوفر مدخولا عينياً، ضريبياً كطاعة للسلطة الحاكمة . ولكن ذلك التكيف والانسجام تعرض للانهيار، بسبب كثرة الضرائب وتنوعها وعدم مشروعيتها في بعض الأحيان مما أثر على الحياة الاجتماعية والتجمعات المهنية التي يعتمد عليها الاقتصاد في إقليم الهوسا عموما، ولكن نسبة النمو والتي ساعدت فيها الأوضاع العامة للسودان الغربي شجعت الأسواق المحلية في إقليم الهوسا على تأدية دور مهم في جلب التجارة الخارجية . كما خلقت تلك الأسواق نوعاً من الحراك والجذب الاقتصادي لكثير من الحرفيين والصناع المهاجرين وكانت مكاناً للمقايضة واستبدال المنتوجات فيما بين السكان .

ثانياً : النشاط التجاري الداخلي لإمارات الهوسا :

إن الدور الذي لعبته التجارة المحلية[1] كان مهماً بالنسبة للنشاط الاقتصادي حيث دارت عملية المتاجرة من خلال الأسواق المحلية والتي تقع فيها المبادلة بين السلع المحلية في يوم معلوم، فهي وإلى جانب كونها نشاطاً اقتصادياً هي عملية نشاط اجتماعي حيث تلتقي الناس لتبادل الأخبار والمعلومات وممارسة الألعاب خصوصا في الأسواق القروية. أما الأسواق الأكبر حجماً وهي التي على مستوى الإقليم فإنها تجارية تحتوي على منتوجات خارجية وهي تحاكي الأقاليم الأخرى وتعمل على جذب التجارة الخارجية

---

(١) لقد أورد البعض تصورات خاصة حول مفهوم التجارة المحلية حيث قصد بها المعاملات التي تجرى داخل دائرة يبلغ نصف قطرها حوالي عشرة أميال من منطقة الإنتاج على اعتبار المدى الذي يمكن تحققه مسيرة يوم واحد على القدمين أو على ظهر الحمار وسيلة النقل المحلية مع سماح الوقت بتبادل المنتوجات والعودة قبل الغروب . وبالرغم من التداخل الكبير بين عوامل نجاح التجارة الداخلية والخارجية فإن الأسواق المحلية كانت من أجل استكمال عملية التبادل الخارجي وهي مشجعة للتجارة الخارجية فمن أهم دوافع التبادل الداخلي استقطاب التجارة الخارجية كما أن التبادل الداخلي مقصده تصريف المنتوجات المحلية خصوصا الزراعية التي تصاب بالفساد ما لم تباع بشكل سريع، كما أن تلك المناطق والتي تعتمد على التكامل الزراعي والحيواني فيما بين شعوبها لا يمكنها زراعة كل الأنواع أو صناعة كل الحاجات الضرورية لهذا وجُد هذا النشاط المحلي التبادلي فيما بين سكان المنطقة الواحدة . انظر : أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٥ .

حيث كانت تقام على الطرق والدروب التي تمر منها القوافل، كما أن المدن والمراكز كانت مقرات دائمة لها[١].

(أ) الأسواق، أنواعها والعاملون بها :

لقد كانت الأسواق مكاناً مهماً للمبادلات التجارية حيث كان يُسمى عند الهوسا كازوة (kasuwa) أي المكان المخصص لعرض البضائع وتبادلها مع الناس وهو ملتقى اجتماعي لهم[٢] والصفات التي يمكن ملاحظتها على الأسواق في إقليم الهوسا بأنها تُعقد في كل القرى في النهار والليل وهي كبيرة في بعض الأماكن العامة وصغيرة سويقات في أماكن أخرى، فالعامة والكبيرة تعقد في الساحات وأمام قصور الحكام والأمراء والزعماء، أما الصغيرة فهي تحت الأشجار وعلى الدروب وفي منتصف القرية . أما مواعيدها أو ساعات انعقادها في اليوم فهناك ميعادان: الأول في الليل حيث يبدأ من قبل غروب الشمس إلى الثلث الأول: من الليل، والثاني: في النهار يعقد مرة كل خمسة أيام يجمع أهل القرية والقرى المجاورة للبيع والمقايضة[٣]، ولكن البعض يرى أن مواقيت الأسواق المحلية كان يفضل انعقادها ما بين يومين وثمانية أيام ولكن التوقيت الأكثر شيوعاً بعد سبعة أيام، أما ما بين ذلك فهي أسواق تحتوي على كميات محدودة من البضائع وتقام لغرض التبادل والمقايضة ولا يستهدف منها الربح، كما أنها كانت لجلب التجارة الخارجية[٤].

لقد قُسمت الأسواق في إمارات الهوسا إلى منطقتين على حسب الموقع الجغرافي ونوعية المنتجات، فأسواق منطقة الشمال والشمال الشرقي تقدم القطن والنيلة والخضراوات والماشية، أما أسواق المناطق الجنوبية فتقدم الحبوب وخيوط الغزل والأقمشة والرقيق، أما إقليم كبي المجاور للهوسا فقد كان يوفر الشباك وأدوات صيد الأسماك وقوارب أبارا الكبيرة المصنوعة من الجذوع المجوفة والجلد الخام، ولكن تلك الأسواق المحلية في عمومها لم تعتمد على التطور والنمو بالقدر الكبير، وإنما كان تطورها نسبي على عكس التجارة الخارجية التي كانت تمثل الدخل الأكبر لخزائن الساركن[٥].

---

(١) د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص٥٣٠ .

(٢) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠ .

(٣) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ١١٩-١٢٠ .

(٤) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص١٠٩-١١٤ .

(٥) د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص ٥٣٣ .

قامت بعض الأسواق المحلية بالربط الاقتصادي بين مناطق إنتاج المعادن والقرى والمدينة الرئيسة العاصمة، ففي كاتسينا تم إقامة سوق في مكان يعرف Rufan Najandarwa حيث جذب التجار وهو يقع عند منطقة Gazawa جازوا حيث تم ربطه بمنطقة Birnin Daura بطريق يمر عبر الآبار القديمة في منطقة الأدغال فضمن وصول سلع أهمها الأواني الخزفية ومعدن الحديد وحجر الرحى والقطن والأصباغ والمنسوجات[1].

إن أهمية الأسواق المحلية تتمحور حول جلب المواد الخام والتجارة الخارجية لهذا جعلت الحكام يهتمون بالنظم الداخلية لها وخصوصا تلك المركزية والتي تقام في البرني وهي يومية من الصباح إلى المساء عدا الجمعة، كما أنها كانت تعبر عن الصلة والتواصل الحقيقي فيما بينها كأسواق قروية داخلية تجمع المستوطنات بشبكة من الطرق ومن ثم كعامل موحد للإمارة وفي نفس الوقت تعبر عن الأساس الحقيقي للاقتصاد المكون لها[2].

إن تلك الأبعاد والفوائد التي قدمتها الأسواق المحلية جعلت نظام العمل بها والإشراف عليها جزءاً أساسياً من عمل الساركن وموظفي الإمارة ورؤوساء المهن، لهذا تم تعيين مشرف على السوق يسمي ساركن كازوة حاكم السوق[3] له أعوان يساعدونه على حفظ نظام السوق، وحل المنازعات التي تحدث أثناء البيع والشراء، وجبي الضرائب للدولة، وشيخ السوق وهو المسؤول عن تأجير الأماكن المخصصة للباعة، كما أنه يقوم بمراجعة الأسعار وتحديدها، وله نسبة عن الصفقات الكبيرة قدرها كلابرتون في كانو بخمسين ودعة[4].

---

(1) Y . B . Usman :op.cit, pp 15 .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٣ ؛ Y . B . Usman :op.cit, pp 55 , 60-61

(٣) حاكم السوق كان يؤدي بعض أعمال المحتسب في العصر الإسلامي في إمارات الهوسا على غرار ما هو موجود في بلدان المغرب والمشرق خصوصا بعد أن نصح بذلك الإمام محمد عبد الكريم المغيلي الحكام في كاتسينا وكانو .

(٤) المصدر نفسه: ص١٦٣؛ مهدي آدامو: مرجع سابق، ص٣٠٠؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١٢٤.

- لقد كانت الوسيلة المستعملة إلى جانب المقايضة والمبادلة الشراء بالأصداف الودع Cowries، وهي الأكثر شيوعا فقد ذكر العمري أن أهل السودان يتعاملون بالودع والخرز والنحاس والقماش والودع يجلبه التجار إلى السودان الغربي وهو نوع من القواقع المناقيف الصغيرة تستخرج من البحر حيث=

لقد تشكلت العناصر المكونة للتجارة المحلية السينكي في فئات متخصصة بهذا النوع حيث احتوت على فئة تتاجر بالمنتجات الفلاحية وأخرى بالصناعة، كما كانت هناك فئة ثالثة تمتهن تجارة الجملة الفاتوسي ولكن سمتها البارزة كانت المحدودية في الكم والكيف. إن طبقة التجار المحليين أو الخارجيين الذين يسمون فاتاكي كانت منزلتهم كبيرة ومحترمين إلى حد كبير فهم ذروة النشاط التجاري ويأتي من بعدهم فئة متوسطة هي يان كولي مفردها دان كولي وهؤلاء ينتقلون من سوق إلى آخر للبيع والشراء . أما قاعدة ذلك الهرم التجاري فتمثله فئة بان كازوره مفردها دان كازوه وهم يعملون بالتجارة في مدنهم الأصلية [1].

=ينظف ما في جوفها وتستخدم كعملة ويعتقد أنها تجلب من المالديف إلى مصر ثم الشمال الإفريقي ثم تدخل الصحراء . لقد تحدث الحسن الوزان عن استخدام الودع إلى جانب الذهب حيث اعتبر أن الودع يستخدم لشراء الأشياء التافهة وهو صدف مستورد من بلاد فارس ثم ذكر قيمته الشرائية في تلك الفترة والتي كانت تساوي ٤٠٠ ودعة مثقال واحد من الذهب، في حين أن ستة مثاقيل وثلث المثقال تساوي أوقية رومانية واحدة، وهذا يبدو سعر صرف مرتفعا والسبب كما يرده البعض إلى تعرض القوافل التجارية الآتية من مصر للمخاطر بسبب أعراب برقة . كما تحدثت بعض الوثائق البرتغالية عن استخدام الودع عند نزولهم لساحل إفريقيا عند بنين حيث ذكروا بعض الأسعار والقيمة الشرائية له، فأنثى الماعز كانت تساوي ٩١٠ودعة، والدجاجة تساوي ٤٠ ودعة، والأمة البكر ٥٠ قضيب نحاس أو ٦ معزات أي ما يعادل ٤٥٥٠ ودعة . والبرتغاليون كانوا وراء تدفق الودع بكميات كبيرة في السودان الغربي، حيث جلب من جزر المالديف . وتفيد مخطوطة برتغالية أن سفينة واحدة حملت أكثر من ١٥ قنطاراً منه إلى بنين في مارس سنة ١٥٢٢م . لقد كانت هناك العديد من أنواع الودع في بلاد الهوسا من حيث النوع والقيمة فقد كان يوجد الودع الغوري فارين كودي الذي يعرف حديثا بالنقد الأبيض وكان يستعمل في كاتسينا في القرن السادس عشر وهناك صدف بحري آخر شديد البياض وذو قيمة عالية يستخدم لشراء الأشياء الصغيرة، أما الأشياء القيمة والصفقات الكبيرة فقد كانت بالذهب . انظر : العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ٤، ص٩٦، ١٢٢؛ الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص ١٦٤، ١٦٧؛ مجهول : تاريخ سانتاكروز أكادير، تحقيق أحمد صابر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط المغرب، ١٩٩٤م، ص ٥-٣٥ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠-٣٠١ ؛ عبدالله عبد الرازق: مرجع سابق، ص١٨٩-١٩٠؛ أ.ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص١٣٤ ؛ حسن المدني علي : علاقة ليبيا ببلدان ماوراء الصحراء في عهد يوسف باشا القرمانلي، المركز الوطني للمخطوطات والدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٩م، ص١٥٠ ؛ خالد أوشن : مرجع سابق، ص٤٨، ٥٠، ٧٣ .

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠-٣٠١ .

لقد وجدت تخصصات تجارية كثيرة ودقيقة داخل الأسواق منها تجار اللحوم، والأصواف وتجار الحبوب وتجار القطن .... إلخ، كما وجدت مهن تجارية يقوم أصحابها بأعمال مكملة لعملية البيع والشراء كمهنة الدلال دلالي أو دلالاي والذي يحتل مكاناً خاصاً في السوق وتتطلب هذه المهنة معرفة الأسعار في السوق الذي يقيم فيه والأسواق المجاورة فهو يتحكم في الأسعار ويضارب على التجار والباعة ويكمل عملية البيع التي تضمن له عمولة مجزية. كما أنه يقوم ببعض عمليات المبادلة والبيع خارج الأسواق في منازل الصناع أو الورش، كما أنه يدير بعض العمليات الخاصة بالبيع للأغنياء في بيوتهم وقصورهم ويضاف إلى تلك العناصر المشتغلة بالأسواق النساء، فقد كان لهن دور كبير جدا في عملية التصنيع، خصوصا فيما يتعلق بالأطعمة والمنسوجات كما لعبن دوراً مهماً في عملية البيع في كل الأماكن دون التقيد بالسوق فقد شاهد كلابرتون في طريقه إلى كانو نساء الهوسا والفولاني يجلسن تحت الأشجار للبيع وغزل القطن كما كن يتجولن وفوق رؤوسهن أوعية تحوي الحليب ويبعن الزبد[1].

(ب) أسواق الإمارات وطرق المعاملات التجارية

لقد كان الطابع الغالب على إمارات الهوسا الحركة التجارية في المنتوجات المحلية لهذا يلاحظ وصف الحسن الوزان لكل من غوبير وكانو وكاتسينا زاريا بأنها كانت تنعم بتجارة رائجة يحققون منها أرباحاً طائلة، فعدد كبير من السكان يتعاطون التجارة [2] لهذا انعكس ذلك النشاط على كثرة الأسواق وحيويتها فكان عامل جذب للهجرات، والتي كان أهمها هجرة تجار الونقارة وهجرة الفولاني من مالي الذين دخلوا إقليم الهوسا مما جعلهم مصدراً مهماً للثروة الحيوانية التي كان إنتاجها من الصوف والألبان ومشتقاته والجلود عاملاً مهماً لوجود الأسواق التبادلية بينهم وبين الهوسا الفلاحين، كما كان دافعاً مهماً لحركة إنشاء الأسواق ورواجها دخل تجمعاتهم القروية والسكنية كما أدى وصول الماندي الذين سكنوا بوسا وأسسوا بها مركزاً تجارياً في القرى الوثنية عاملاً مهماً أيضا .

---

(١) كلابرتون : مصدر سابق، ص ١٥٤ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١١٩ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٠-٣٠١ .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص ١٧١-١٧٤ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٠٦-٢٠٨ .

إن تلك الهجرات أدت إلى تبادل الأساليب التجارية حيث استخدم الهوسا نفس أسلوب الماندي الديولا Mande Dyula في عملية المعاملات التجارية، لهذا صارت لغة الهوسا هي اللغة المستخدمة في المعاملات التجارية وهي لغة السوقMarker حيث كانت تصنف في إطار خمسمائة كلمة يجب الإلمام بها لكل من يريد التجارة في بلاد الهوسا . فقد عرف تجار كانو في منتصف القرن ٩هـ/ ١٥م الاتصال بتجار الكونجا Gouja [١] تجار الكولا وجوز الهند وكذلك كانت لهم علاقات بتجار اليوروبا حيث تواصلوا معهم وجلبوا نواقص الأسواق المحلية من النحاس والبورونز والخيول والرقيق والملح وغيرها[٢].

إن أسواق المدن الكبيرة كانت منظمة ومقامة في إحدى جوانب المدينة وعادة تكون ثابتة مثل سوق كانو، ولكن الأمر يختلف في كاتسينا والتي تحوي سوقاً يقام في مكانين مختلفين، الأول: في الجنوب، والثاني: في الشمال حيث يُقدم إليه التجار من كل مكان من غدامس وتوات حيث يتم إرسال الوكلاء إلى كانو لشراء الأثواب الزرقاء والتي ترسل إلى سوق حرات Chraat [٣].

لقد شهدت مدينة كانو ازدهاراً كبيراً ورواجاً تجارياً في إقليم الهوسا وخارجه وذلك راجع لحيوية أسواقها المحلية وسوقها المركزي المقام في المدينة والذي يسمى سوق كاسور كورمي Kasuwar kurmi الذي أقيم في عهد الساركن محمد رمفا ٨٦٨-٩٠٥هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م، فهو يوصف من أكبر الأسواق في السودان الغربي، وقد فرض هذا الساركن رسوماً جمركية على بعض المنتوجات الزراعية المستوردة، وعين له ساركن كازوة مشرف عام يساعده مجموعة من الأعوان، ثم تحول ذلك المشرف إلى محتسب بحكم نصائح الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي[٤]. والمرجح أن هذا السوق جلب إليه تجار

---

(١) تقع الكونجا بين الداجومبا والغابة الاستوائية في غانة الجديدة جنوبا . ويرى بعض المؤرخين أن تجار الهوسا وصلوا إلى ساحل دهوامي خارج أراضي اليوروبا وأن هناك علاقات تجارية بين الهوسا والبرتغاليين في وقت مبكر منذ نزولهم إلى السواحل الغربية لإفريقيا في نهاية القرن ١٥ م على ساحل لاجوس وبنين . انظر : فيج .جي . دي : مرجع سابق، ص ٩٧ .

(٢) فيج .جي . دي : مرجع سابق، ص٨٢-٨٨، ٩٧ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص٦٠١ .

(٣) آدم بن محمد العطار : المخطوطة السابقة، ورقة ٧ ؛ كلابرتون : المصدر السابق، ص ٢١٦ .

(٤) أحمد العلمي حمدان : مرجع سابق، ص١٠٠ .

المغرب وبرنو ومصر وشجع سكان كانو على ممارسة التجارة الخارجية مما أفرز طبقة ثرية وصفها الحسن الوزان بأنهم تجار أغنياء ومتحضرون[1] والفضل في ذلك يرد إلى هذا الساركن الذي وفر الحماية للتجار وممتلكاتهم[2]. لقد استمر هذا السوق وغيره في أداء مهمته التجارية لزمن رحلة كلابرتون والذي وصفه بشكل دقيق، حيث ذكر أنه مقسم إلى أقسام لكل سلعة، فالماشية لها ضاحية من السوق ومكان آخر للأخشاب والحشائش والقش والحبوب، وقسم آخر للحيوانات الصغيرة كالماعز والضأن، ومكان للخضراوات والفاكهة وهناك مكان في العراء لطهي الطعام مثل الخبز والفطائر والكعك حيث تقوم النساء بذلك فهن من يشرفن على إعداد الأطعمة وتقديمها للناس، كما كان هناك مكان مخصص للجزارين حيث تذبح الحيوانات بطقوس خاصة، وكنوع من الدعاية وجلب الناس للشراء وكانت هناك مقاعد خاصة للجلوس مصنوعة من البامبو، كما أن هناك أماكن لبيع أدوات الزينة والملابس والأدوات الأخرى ويوجد أيضا مكان مخصص لبيع الرقيق وهو منفصل الذكور في مكان والإناث في مكان . والسوق يومي يبدأ من الصباح حتى المساء ما عدا الجمعة[3].

إن هذا الوصف بالرغم من أنه متأخر بالنسبة للدراسة إلا أن أساسه كان في عهد التأسيس فالأحداث الاقتصادية والمعاملات التجارية تحتاج لفترات طويلة حتى تتغير، والدليل على ذلك مشاهدات المؤلف[4]عند زيارته لمكان الدراسة فقد كانت كل الأوصاف

---

(١) وصف إفريقيا : جـ٢، ص١٧٣ .

(٢) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٤٩، ٨١ .

(3) Palmer :op.cit, pp110-112 .

كلابرتون : المصدر السابق، ص١٦٣– ١٦٤ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص ٣٩ ؛ مهدي آدامو: مرجع سابق، ص٢٧٩ .

(٤) لقد كانت زيارة المؤلف لدولة النيجر في سنة ٢٠١١م حيث تنقل بين القرى والمدن الرئيسة من الدولة وشاهد الحياة الاقتصادية في الأسواق وحركة العامة فيها وطرق التبادل وعرض البضائع وهي بدائية جدا وخصوصا في القرى، فالمنازل وحظائر تربية الماشية والماعز والأغنام والدجاج تحيط بكل الأماكن العامة والخاصة، فتلك الحيوانات مهمة لأصحابها حيث تنقل متوجها إلى السوق لتباع وليشتري بثمنها الخضراوات والحاجات الأخرى . والنساء هن اللواتي يقمن بذلك، فالرجال يمارسون الكسل بشكل لافت للنظر أمام المساجد وتحت الأشجار في انتظار الصلاة فقط، أما هن فيعملن كل شيء، يتسوقن ويبعن ثم يقمن بعمل البيت كاملا . وهذه المشاهد تتكرر أيضا حول =

بداية من وصف ابن بطوطة إلى وصف الحسن الوزان وصولا إلى وصف كلابرتون باقية كما هي لم تتغير بالرغم من الفترات التاريخية الكبيرة التي تفصل بينها، فالأسواق مازالت مبنية من الأخشاب والقش والقماش وهي مقسمة على حسب نوع البضائع وجمهور التجار نساء وظاهرة الطهي والذبح والشواء كما هي لم تتغير .

لقد احتوى إقليم الهوسا على العديد من الأسواق المحلية كانت موزعة بين القرى والأرياف حيث عمل الحكام على ربطها بالمناطق المجاورة لها وذلك للاستفادة من الرواج الداخلي، فقد قام الساركن محمد كوري ٨٤٩-٩٠١هـ/ ١٤٤٥-١٤٩٥م في كاتسينا بإنشاء شبكة من الطرق الداخلية من أجل ربطها بالمراكز والقرى الداخلية لتشجيع التجارة المحلية التي كانت تدور حول التبادل للمنتوجات المحلية الضرورية من الملح والنطرون وجوز الكولا والعبيد والخيول، وصارت الأسواق المحلية تدعم بتلك المواد الخارجية ولكنها للاستهلاك المحلي . وقد ساعد في ذلك إنشاء شبكة من الخطوط البرية والتي كانت تربط كل المناطق على امتداد حوض نهر فولتا الأسود حتى شواطئ بحيرة تشاد ومن هضبة Abzin في حوض النيجر الأوسط إلى ما ورائه . لقد لعبت شبكة الخطوط التجارية الداخلية في كاتسينا دوراً مهماً في الرواج الداخلي، المحلي حيث تم ربط المدن الداخلية Birane garuruwa من السهول الرئيسة بمراكز الثروة الجديدة التي ظهرت حول Fadamar Tila وKwarin Tama . لقد كانت لتلك السياسة نتائج مهمة في إحداث نوع من الاستقرار، فقد لوحظ انتقال المزارعين والحرفيين والتجار من البرنو

=نهر النيجر. فالنساء يقمن بغسل الصوف والملابس والرجال من حولهن يسبحون أو يمارسون بعض الألعاب، والأطفال عري دون ملابس، كما أن نساء السوق وبعد المغرب يقمن بالاغتسال على الطرق العامة في الظلام. إن كل ما يقال عن تلك المناطق لا يعطيها ذلك الدور المضخم والمذكور عند الباحثين، فالطبقة الغنية والمتعلمة بسيطة وهي مترفعة عن العامة والمعاملة لبعضهم البعض مبنية على الأصل والمستوى الاجتماعي وفيها كثير من الازدراء والتحقير . أما حياة الغالبية من العامة فهي بسيطة وبدائية جدا، فالحرفيون مازالوا يستخدمون الأدوات القديمة، والحدادون يستخدمون الكير الجلدي القديم، وكثير من النساجين يستخدمون النول الضيق والذي يتراوح عمر صناعته مئات السنين . أما مظاهر التقدم التقني والحضاري المعاصر فهي قليلة ووسائل النقل بدائية فمازال دور الحمار في التنقل ونقل البضائع يعتبر ترفا ما بعده ترف . انظر : مجموعة الصور في الملاحق .

Borno في الشرق من إقليم الهوسا واستقرارهم في مناطق Unguwar Yammawar Rafukka خصوصا وأن تلك المناطق كانت تحتوي في الأصل على مقابر قديمة، استفاد منها المهاجرون وتشكلت حولها مستوطنات غير مسلمة كانت تحمل معها حرفاً ومهاراتٍ جديدة، كما أقامت أسواقاً وتجمعات حرفية داخلية كان لها دورٌ مهم في حركة الرواج والتجارة المحلية[1].

كما كان سوق زرمي وهو قريب من غوبير وكانو وكاتسينا من الأسواق التي كانت محلية في الأصل وتحولت إلى أسواق خارجية يفد إليها التجار من كل الأماكن. فقد كان سكان القرى المجاورة يذهبون إليه عبر النهر حاملين بضائعهم المختلفة على رؤوسهم وعلى الحمير والثيران[2].

لقد شارك رجال السلطة والأثرياء والنساء في إنشاء الأسواق المحلية، والدليل ما قام به Dagach في عهد الساركن عبد الله بورجا Abdulahi Burja ٨٤١-٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م والذي أقام سوق Karabka بسبب ثروته الكبيرة. كما أقامت أم الساركن الثاني والعشرين محمد kisoki ٩١٤-٩٧٢هـ/ ١٥٠٩-١٥٦٥م واسمها Lamis سوقاً محلياً في كانو[3]. ومهما يكن من مقاصد تلك الشخصيات في عملية الإنشاء تلك، إلا أن دعم التجارة الداخلية والتبادل فيما بين الأسواق بفعل حاجات الناس، كان ضروريا فهو يوفر الدعم المادي اللازم لاستمرار الحكومة المركزية ويلبي متطلبات الحروب المستمرة.

عند الحديث عن الأسواق ونشأتها في إقليم الهوسا يجب ألا يجنح التفكير والخيال إلى مدى بعيد. فمفهوم السوق التبادلي المحلي كان بسيطاً جدا، حيث يقام في منتصف القرية أو في أحد أطرافها أو تحت الأشجار، فهي تختلف عن تلك الكبيرة والدائمة والتي يجلس البائعون تحت عرائش القش جيدة الصنع خوفا من وصول مياه الأمطار وأشعة الشمس، ويعرضون البضائع أمامهم في سلال[4]، حيث تجرى عملية المقايضة والمبادلة كمرحلة

---

(1) Y . B . Usman : pp 16-18 .

آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ٧٩ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق، ص١٧٩ ، ١٨٣ .

(3) Palmer :op.cit, pp109-110 ,112-113 .

(٤) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ١١٩ .

أولية ثم صارت بالمقابل تستخدم فيها الأقمشة القطنية التي تسمى بلغة الهوسا سوابي كنوع من العملية بما يقابلها من الملح والمعادن والكولا [١].

لقد كانت المبادلات في الأسواق بسيطة وتتكون من مواد منتجة محليا . أما فيما يتعلق بالعملات أو ما ينوب عنها، فإقليم الهوسا لم يعتمد على النقود في التعامل، فقد كانت الصفقات المهمة والكبيرة تنجز بواسطة الذهب وقطع القماش الطويلة والنحاس وقضبان الحديد والعبيد، ولكن الغالب في المعاملة البسيطة كان عن طريق المقايضة والشراء بالودع، فشكله وحجمه كانا يجعلان من تناوله يسيراً، وعده مريحاً، وتزييفه مستحيلاً [٢].

والمرجح أن تلك الأسواق المحلية وعلى حسب موقعها والرواج الذي تشهده، تكبر وتتحول إلى أسواق كبيرة يرتادها التجار الأجانب أي من خارج الإقليم ولكن كثرتها كان مصدر تمويل للدولة مما جعل كثيرا من الضرائب تفرض، فقد تم فرض قدرٍ كبير من الضرائب على الأسواق مما جعلها تقفل تماما كما جعلت تلك الضرائب العرب والتجار والحرفيين يغادرون كانو إلى كاتسينا، كما فر معظم الفقراء من المدينة إلى الريف [٣].

لقد شكلت الضرائب [٤] والمكوس حجر عثرة أمام تلك الأسواق، فبالرغم من صعوبة الحياة المعيشة إلا أن السلطة المركزية لم ترحم المزارعين والحرفيين وأصحاب

---

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٣٠٠، ٣٠١ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ٩٠ ؛ حسن المدني علي : مرجع سابق، ص١٥٠ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق، ص ١٦٢ ؛ أ . ج . هونكبز : مرجع سابق ، ص١٣٢ - ١٣٤ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٢ .

(3) Palmer :op.cit, pp124-125 .

(٤) لقد كان نظام الضرائب مقسم إلى أربعة أقسام : على الأرض، والمحاصيل، والماشية، والحرف المختلفة، حيث يلاحظ وصول ضريبة القطعان إلى ١٠٠رأس في السنة أي أنها تصل إلى عُشر ما يملكه الراعي . أما ضريبة الخراج والتي تسمي كوردن كاسا، كانت حوالى ٢٥٠٠صدفة على الفرد من كل عائلة في كاتسينا وفي كانو . أما زاريا تجبى حسب مساحة الأرض المزروعة . أما ضريبة المحاصيل الزراعية فهي على حسب المحصول وصلت إلى ثمن المحصول. وضريبة الحرف تفرض على أصحاب الحرف اليدوية مثل الحدادين والصباغين والنساجين وصناع الجلد وصناع الزوارق والصيادين، أما ضريبة التجارة فهي تفرض على البائعين وأصحاب المتاجر، كما وجدت ضريبة ورسوم القوافل كودين هيتو وهي على المنتوجات التي تدخل الإمارة من خارجها، وكذلك ضريبة السوق . انظر : د . لايا : مرجع سابق، جـ٥، ص ٥٣٣ ؛ عبدالله عبد الرازق : مرجع سابق، ص١٧٢-١٧٧ ؛ مهدي رزق الله : مرجع سابق، ص٢٥٦-٢٥٧ .

الأسواق، فكل إنتاج كان يخضع لضريبة مستحقة الدفع، كما أن الأسواق المحلية كانت تعاني من الاحتكار والمضاربة والتحريم في البيع والشراء وهذا ما استوجب من الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي تقديم النصائح حول الأسواق وما يحدث فيها من مخالفة للشرع من خلال جهل الناس وارتكابهم الأخطاء، مثل بيع الطعام قبل وصوله إلى السوق وبيع الأشياء قبل وصولها على أكثر من يد[1].

أما فيما يتعلق بالموازين والمقاييس والمكاييل[2] التجارية والمستخدمة في أسواق إمارات الهوسا فإنها بين المحلي والمجلوب من الدول الإسلامية من بلاد المغرب ومصر كثيرة ومعرفتها

---

(١) محمد بن عبد الكريم المغيلي : فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، مخطوط بالمركز الثقافي بمدينة صكتو نيجيريا، رقم ٣٦٤، ورقة ٣ -٧ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق، ص١٣٥ ؛ أحمد العلمي حمدان : رسالة للمغيلي فى أمور السلطنة، مجلة كلية الآداب، عدد خاص ٥، فاس، المغرب، ١٩٨٩م، ص١٠٢، ١٠٠، ١٠٥-١٠٦ .

(٢) المقاييس والمكاييل والموازين في السودان الغربي عموما من المواضيع التي يصعب الحديث فيها بحكم انتقالها من الشمال الإفريقي عبر الصحراء عن طريق المسلمين حيث كانت المقاييس المعروفة في السودان الغربي تندرج تحت معرفة الآتي :

(أ) مقاييس الطول وتبدأ بالأصبع الوحد والذي يساوى ٦ حبات من الشعير مصفوفة جنبا إلى جنب وهو حوالي سنتيمترين، أما الذراع العربي فيساوي ٢٤ إصبعا حوالي ٤٨سم . ثم الباع ويساوي ٤ أذرع أو ١٩٢ سنتم ثم الميل العربي. أما الفرسخ وهو مقياس خطوط الرحلات الفارسية ويساوي ساعة واحدة على ظهر الدابة أو على الأقدام ويساوي ٣ أميال. أما البريد وهو المسافة الفاصلة بين محطتين خاصتين بنقل الرسائل وهو يختلف من منطقة إلى أخرى ففي المغرب يساوي ٤ فراسخ، وفي العراق ١٢ميلاً . أما وحدات القياس المحلية فقد استخدم الطوارق والفولاني والبربر المسافة التي تفصل بين بئرين حيث تكون مضبوطة ومحددة بالزمن والمسافة . وعند السوننكي والمالنكي والبمبرا لديهم عادة رمي العصا من نقطة إلى أخرى . كما وجدت مقاييس تحمل أسماء محلية كالتردس وهي المسافة بين الإبهام والخنصر وأمي ن ايد، فم الكلب وهو عرض يبلغ ٥ أصابع ملتصقة، وتدي، وهي قامة رجل رافع يديه، وظي الخطوة، وتكو ماض، قامة رجل من رجليه إلى رأسه، وتسك، وهي قامة رجل من رجليه إلى أعلى أذنيه، وتماض، تساوي ١.٥٠ متر، وحركف تساوي متراً واحداً، وأفود تساوي ٥٠ سنتم، والشوف مسافة رؤية الشخص بالعين، وجيص، مسافة سماع النداء، وتودا مسيرة يوم، وحافز طول الإصبع الأوسط، وسكون الذراع، وسوبور الشبر، وقنس القدم، وسخني الذراع، وجاخ ذراع واحد، ودانك الخطوة، وتتياخ القدم، وكنكوند الصوت . أما تحديد الاتجاهات فهي إلى الأمام الشرق من الوراء الغرب واليمين الجنوب واليسار الشمال . أما لوحة قياس القماش تسمى الجار الكبير وهي ذراعان متوسطان، والكل أو القالة هي أيضا لقياس القماش وهي ذراع متوسط ٥٠ سم،=

مرت بمراحل ولكن عمومها كان بدائيا يعتمد على مقاييس الأصابع والذراع والقامة والخطوة والنداء. أما الأوزان فقد اعتمدت على السلال وثمار القرع وبعض المثاقيل المصنوعة محليا، ولكن تلك الأوزان والمقاييس لم تكن مضبوطة بشكل كبير فهي للمقاربة والتقريب، وجُل المعاملات كانت تتم عن طريق النظر بالعين والمعاينة والقبول والتراضي بين كل الأطراف .

إن الأنشطة الحرفية والصناعية وعلاقتها بالأسواق كانت مكملة لبعضها البعض، فما ينتج يستهلك لسد حاجات السكان، وما يفيض ويزيد عنهم ينقل ويستبدل في السوق المحلي التكاملي الذي يعني المقايضة والمبادلة، فتلك النظم والعلاقات الاقتصادية بالرغم

=وهي تستخدم عند خياطين صنغي ومالي . أما الثمن فيستعمل للقماش ٤٠ ذراع كلول يساوي ٥ أمتار، وتمكلم يساوي متراً واحداً . واستعمال الذراع في تحديد الحقول وبناء البيوت .

(ب) مقاييس السعة وحدة قياس الحبوب القنطار والمثقال والهبزة وهي ملء اليد، مات يساوي ٤٠ مدًّا، وتنجفغ يساوي ٣٠ مدا، كما استخدمت السلال المصنوعة من النيلة والقرع اليقطين المجوف . أما الفواكه بالحبة والعدد، حيث يكون داخل القرع . وكان القرع مثلا يحتوي على ٢٠٠جوز كولا، و ٢٥٠٠ جوز كولا يباع بـ ١٠٠،٠٠٠ ودعة ، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى، ويحدد ثقل القرع الواحد وبه الكولا بنحو ٢٥ كيلو جراماً عندما يحمل على رأس الرقيق و بـ٥٠ كليو جرام عندما يحمل على ظهر الحمار .

(٣) أما الموازين فيستعملون الأوقية، والرطل، والوسق، والمثقال، المحدد بالكيلو جرام، وهو على شكل الحجارة وزجاج ونحاس ورصاص .

(د) أما العملة النقدية والتي تحل محل النقود فكانت من المعادن على رأسها الملح والحديد والنحاس والذهب، كما استخدمت الأقمشة في إقليم الهوسا كنقود حيث كانت عبارة عن قطعة من القماش، وزرة يختلف طولها وعرضها من منطقة إلى أخرى . كما استخدمت ثمرة الكولا كعملة سلعية تستبدل بها البضائع، ومصدرها مناطق الغابون الجنوبية، وتختلف أنواعها فمنها الجوز الأبيض الغليظ من إقليم وورو دوكو وهو من أحسن الأنواع بحكم المادة التي يحتويها وصبره على التعفن وهو غالي الثمن، والكولا الحمراء من بلاد الأشانتي . كما كانت المبادلات بالحبوب والخضراوات بالحيوانات وإنتاجها وبالمصنوعات اليدوية والعكس صحيح . كما استخدمت الحلي وقطع الزجاج والعطور والبخور وهي مواد قابلة للمبادلة . كما استخدم الرقيق كعملة، فالعبد كان عبارة عن عملة قابلة للصرف . للمزيد انظر :

R .Mauny : Tableau geographique de l 0uest Africin au Moywn – age , Dakar , 1961 . pp 77 – 180 .

خالد أوشن : مرجع سابق، ص ١ – ٨٧ .

من بساطتها إلا أنها حملت تعقيدات عديدة، جعلت عملية دراستها والوقوف عليها ضرباً من المستحيل في كون الدراسة عجزت عن سرد يوم واحد من أيام السوق .

لقد كانت الأسواق المحلية القروية شرايين الأسواق الكبيرة التي تمثل ذروة النشاط الاقتصادي التجاري في إقليم الهوسا خصوصا. وعندما يرتبط الموضوع بتجارة الصحراء من جهة وتجارة الأدغال من جهة ثانية، وما حملته من مواد أساسية كانت تصرف في الأسواق المحلية كالملح والرقيق .

لهذا فإن الكتاب سيتناول موضوع التجارة الخارجية للإمارات مع بلاد المغرب ومصر ومناطق الوثنيين والبرنو في خط سير واحد ومكمل لما طرح آنفا حول الحياة الاقتصادية .

فقد كانت التجارة الخارجية تدار من قبل أسر تمتلك الثروات وتسعى للحصول على الأرباح والكثير من الكماليات التي كانت تنتجها الدول الإسلامية المتقدمة في الشمال، كما أن أصحاب السلطة دعموا هذا الاتجاه وعملوا على تأمين الطرق وحراسة القوافل طمعا فيما تدره تلك التجارة .

إن كل تلك الموضوعات والقضايا حول التجارة الخارجية سوف تعرض في الفصل التالي في محاولة لربط عناصر الاقتصاد الهوساوي في بناء عام ضمن إمارات مستقلة كلٌ منها يسعى للحصول على أكبر قدر من عائدات التجارة الخاجية .

الفصل الثالث

النشاط التجاري الخارجي لإمارات الهوسا

(أ) دور حكام الإمارات في دعم نشاط التجارة الخارجية .

(ب) الطرق التجارية الصحراوية المتعلقة بإمارات الهوسا.

(جـ) الروابط والعلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة.

- العلاقات مع مملكة صنغي.
- مع دولة البرنو.
- مع الممالك الجنوبية الوثنية.

(د) الصادرات والواردات.

إذا كانت التجارة الداخلية تُعنى بالأسواق المحلية داخل الإمارات، وكيف كانت توفر مناخاً ومكاناً للمقايضة، وتبادل السلع المنتجه محلياً ، فإن الأسواق المركزية الكبرى كانت تعمل من أجل جذب التجارة الخارجية من خلال إقامة بعض المراكز، والمدن على الدروب والطرق التجارية المؤدية إلى كل الاتجاهات .

لقد لعب الموقع الجغرافي لبعض الإمارات دوراً مهماً، كموقع كانو، وكاتسينا، وغوبير، وزاريا حيث نشب صراع طويل بين تلك الإمارات حول السيطرة على الطرق التجارية العابرة للصحراء من جهة أو على الدروب، والمنافذ المؤدية للجنوب الوثني بإماراته التجارية، التي كانت تقدم السلع والرقيق والمواد الضرورية، لحركة التجارة والصناعة من جهة أخرى . كما أن أهمية ذلك العمق الوثني كان يعني الحصول على نصف المعادلة التجارية للتجارة الصحراوية المهمة فإمارات الهوسا قامت بدور الوسيط التجاري بين تلك الاتجاهات الأربعة، مما جعل أسواقها المركزية تصل في وقت قصير إلى مرتبة تفوق أسواق تنبكت، وجاو بل صار التجار يقصدون أسواق كانو وكاتسينا بدلا من تلك الأسواق القديمة التي أخذت في التلاشي والاضمحلال إلى أن وصلت إلى مستوى لم يعد يذكر وذلك راجع بطبيعة الحال لعدد من الأسباب: منها اتساع نطاق التبادل التجاري بين المدن الإسلامية فى الشمال وتعدد الكيانات والإمارات، والدول في السودان الغربى، ولم يعد التبادل مقتصراً على تلك الممالك، يضاف إلى ذلك كثرة الحروب بين ورثة الأسكيا محمد الكبير فى صنغي، والغزوات التي قاموا بها على الشعوب المجاورة دون شك غيرت الموازين في السودان الغربي، وجلبت حالة من الفوضى وتدهور الحالة الأمنية في كل حوض النيجر الأوسط، كما أدى ذلك إلى تحرك قبائل الصحراء وزحفها نحو الجنوب، مما أشاع حالة من التغيير في البنية السياسية، والاجتماعية، كما كان عاملاً مهماً لتحول التجارة إلى إقليم الهوسا، حيث أصبح إقليم الهوسا هو الأساس في العملية التجارية مع بلاد المغرب ومصر وبرنو[1] .

وقبل الخوض في هذا المحور والمتعلق بالتجارة الخارجية، وجب التنويه إلى أن المصادر الإسلامية وخلال ٧هـ/ ١٣م لم تذكر عواصم إمارات الهوسا كمراكز تجارية معروفة، فمن خلال زيارة ابن بطوطة وهو الرحالة الذي اعتاد تدوين الملاحظات حتى السماعية لم

---

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص١٣٧ – ١٤٥؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ، ص ٨٩ .

يتحدث عن كاتسينا وكانو كمراكز تجارية يتردد عليها التجار، فقد اكتفى بذكر غوبير وأشار إلى أنها من مناطق الوثنيين التي يصدر إليها النحاس، ويجلب منها الرقيق[1].

والراجح أنه لم تكن هناك علاقات تجارية[2] بين إمارات الهوسا وبلاد المغرب ومصر عبر الصحراء قبل سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م . ولكن بحلول منتصف القرن الرابع عشر بدأت العلاقات التجارية والاجتماعية في التشكل والتكوين ، فقد أصبح إقليم الهوسا منطقة جاذبة للسكان والتجارة وهذا القول تؤكده الهجرات التي جاءت من مالي، والتي قادها الونقارة سنة ٧٥٠-٧٦٠هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م ثم الهجرات التي جاءت سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م ، حيث وصلت أربع مجموعات من الوافدين إلى كانو لهم علاقة بالإسلام والتجارة، ولم تقتصر الهجرات عن تلك القادمة من الغرب بل لوحظ قدوم مجموعة Baribari والكانوري القادمة من الشرق من برنو إلى كانو، حيث استقرت تلك الجماعات في مراكز الإمارات المقامة أو القريبة من المعابر التجارية حاملين معهم أنماط وطرق جديدة للتجارة، فضلا عن كونهم نشروا الإسلام[3].

---

(١) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٨٠، ٦٩٧-٦٩٨ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص٣٦٧ ؛ أحمد الشكري : رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان ، مجلة المنهل، عدد خاص ٥٩ ، القسم الأول ، الرباط، المغرب ، ٢٠٠٢م ، ص١٤٦-١٥٦ .

(٢) يورد بعض المهتمين تواريخ محددة للتجارة والعلاقات التجارية، بين الشمال الإفريقي والجنوب عبر العمق الصحراوي حيث يرى البعض أن بداية التجارة العربية مع إفريقيا كانت قبل القرن السابع الميلادي، ولكن التواصل الحقيقي وازدهار المعابر، والطرق التجارية كان ما بين القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر . أما إقليم الهوسا فإن دخول التجارة والإسلام يرجح أنه في الفترة ما بين القرن الحادي عشر والرابع عشر على اعتبار أن ملامح التواصل لم تكن واضحة وقضية دخول الإسلام بالضبط لم تحسم بعد . فقد اتفقت أغلب المصادر والمراجع على أن تجار الونقارة وهم تجار متنقلون يحملون تجارتهم على الدواب أو يحملونها فوق رؤوس العبيد استقروا في كانو سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وكونوا قرى ومراكز تجارية في أعالي النيجر ومناطق إنتاج الذهب ويرد لهم الفضل في انتشار الإسلام بين شعوب الهوسا كما أنهم حملوا تقاليد التعامل التجاري والمقايضة إلى سكان تلك المناطق. شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق ، ص١٧-١٨ ؛ عبدالله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق ، ص٢٢؛ Abdullah Smith : The Early States Of The Central Sudan , History Of West Africa , Edited by Ajayi and Crowder , vol I , 1971 , pp 172 – 175 .

(٣) بوفيل : مرجع سابق ، ص ٣٦٧؛ الأمين أبومنقا محمد: أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها وتطور أدب الهوسا ، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والترجمة جامعة إفريقيا العالمية ، العدد ٨، الخرطوم ، السودان ، د. ت، ص١٣٦ .

لقد ارتبطت التجارة الخارجية بالإسلام ارتباطاً وثيقاً حيث استطاع تجار الديولا تأسيس مراكز تجارية بجوار المراكز الوثنية في القرى ومدن إقليم الهوسا، وخصوصا التي تنتج الذهب مما جعل المعاملة التجارية تقوم على أساس من التبادل وحسن الجوار نتج عنها تسرب واعتناق تلك القبائل للإسلام[1]. وفي هذا الإطار تذكر بعض الوثائق أن كانو وكاتسينا وزاريا دخلها الإسلام طوعا من الشرق والغرب والشمال عن طريق التجار في القرن الخامس عشر مما ساعد على ظهور نوع من التجارة الرفيعة[2].

عند الحديث عن التجارة الخارجية في السودان الغربي، دون شك تُستحضر الصحراء الكبرى بكل ما فيها من مخاطر ولكنها في هذا الإطار لعبت دوراً مهماً في عملية التبادل التجاري بين الشمال والجنوب فقد صارت تلك التجارة الصحراوية تغطي ما ينقص الأسواق الجنوبية من الصناعات والمواد المستوردة، وحملت منها ما يزيد عن حاجتها من البضائع والسلع مثل الذهب والرقيق[3] إلى أماكن الاستخدام والاستهلاك في الشمال،

---

(١) فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص ٨٩ .

(٢) مرحبا القرشي : مخطوط فتح الحنان المنان ، ورقة ٢١، ٤٧، ١١٤-١١٥ ؛ بشير الفلاني : مخطوط نظم الجمان في أخبار التكرور وبني الفلان ، ورقة ٥ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٣) إن قضية الرقيق هي من القضايا التي مازالت تستحق لدراسات معمقة، فهي سلعة الجنوب الأساسية وكثير من الملابسات والتعتيم وقع عليها، وخصوصا فيما يتعلق بإمارات الهوسا فقد شكلت منعطفاً مهماً عند أحمد بابا التنبكتي الذي أُسر أثناء الحملة المغربية على صنغي، وتم نقله إلى مراكش سنة١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م حيث بقي فيها عشر سنوات منفي ثم عاد إلى تنبكت بعد موت المنصور الذهبي سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م وقد خصص جانباً من علمه للحديث عن الرق وجواز بيع الرقيق وما هي الشروط الواجب توافرها في تلك العملية، والدراسة تطرح هذ القول بسبب أن دواعي تأليف كتاب معراج الصعود وأجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق هو بخصوص أهل الهوسا، فقد اعتبر المؤلف أن أهل كانو وكاتسنيا وغوبير وزكزك مسلمون وأحرار ولا يجوز بيعهم وكذلك معظم الفلان، بل أنه يذكر ومن خلال معرفته للسودان الغربي أن تلك الشعوب المجاورة للمغرب أغلبهم على الإسلام من فزان إلى كانم حيث دخل التجار إليهم للمتاجرة من زمن بعيد بل يخصص فتواه ومعرفته لسكان الهوسا حين يرد على أسئلة يوسف بن إبراهيم بن عمرو الأيسي فيقول: أن جميع أهل صنغي وجميع أهل كانو وكاتسينا وزكزك كلهم على الإسلام من قديم الزمان . ويذكر أهل إمارة كبي من إمارات الهوسا غير الأصلية والذين هم بين صنغي والهوسا بأنهم على الإسلام وله فيهم أكثر من ستين سنة وعلى حسب رأيه أن الإسلام دخل دول الهوسا سنة٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ويرى أن الحروب بين=

وهنا يجب التنويه للدور الذي لعبه العنصر البشري [1] في الشمال والجنوب على حد السواء فهو دور محوري في ذلك النشاط وإدارته لتلك العملية ببراعة فائقة، رغم المخاطر، والعراقيل، التي كانت تحول دون تحقيق تلك الأهداف [2].

لقد اعتمدت التجارة الخارجية على وجود ثلاث مناطق رئيسة تدار منها تلك العملية الأولى: منطقة بلاد المغرب ومصر وهي منطقة الكثافة السكانية والاستهلاك وهي المطلة على البحر المتوسط، فقد تواصلت مع الصحراء بفعل التجار وقوافلهم، التي كانت تعبر

=كاتسينا وكانو نتج عنها أسر الناس وبيعهم في الأسواق وهذا ما يحدث في كل الدول الإسلامية على حد تعبيره . وفي هذا الجانب أيضا تورد الدراسة ذلك الاتهام الذي اتهم به التجار المغاربة من مراكش وخصوصا بعد غزو صنغي بأنهم هم من أدخل ذلك النوع من التجارة للسودان الغربي عن طريق قنص وأسر الرقيق وتشجيع القائمين بها عن طرق شراء كل ما يجلبون من رقيق، ولكن قضية الرقيق الإفريقي قديمة، فقد وجدوا في الأسواق العربية في شمال إفريقيا منذ فترات أقدم من تلك الفترة ، كما حاول الكتاب المغاربة نفي تلك التهمة عنهم بأن أشادوا بذلك الدخول واعتبروه قد قدم خدمات جليلة للسودان الغربي . انظر : أحمد بابا : معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق ، تحقيق فاطمة الحراق ، جون هانويك ، معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، المغرب ، ٢٠٠٠م، ص٥٣ ، ٥٥ –٥٨ ، ٨٢–٨٤ ؛ كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١١٥ ؛ محمد رزوق : دراسات في تاريخ المغرب ، دار إفريقيا للنشر، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٩١م ، ص ١٠٥–١١٣ .

(١) من العناصر البشرية التي يربط بعض من المؤرخين وجودهم بالنشاط التجاري الخارجي بعد الونقارة الفولاني، فقد شهدت إمارة كانو في عهد الساركن يعقوب بداية التعامل في مجال التجارة الخارجية بسبب دخول عنصر الفولاني من مالي ودخول الطوارق من إقليم الآير إلى غوبير، حاملين معهم الملح، ودخول تجار من جونيا Gunya إلى كاتسينا، كما لوحظ دخول عناصر تجارية من برنو سكنت كاتسينا . أما الوجود العربي فقد جاء هو الآخر إلى كانو وكاتسينا واستقر بها مما جعل المؤثرات العربية تنقل إلى لغة التعامل التجاري الهوساوي فقد كتبت اللغة التجارية بأحرف عربية وصارت المصطلحات التجارية العربية تستخدم بشكل كبير في تلك المرحلة . انظر : ناجتيخال : مصدر سابق ، ص٣٣٠–٣٣١ ؛ بوفيل: مرجع سابق ، ص٣٦٧ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق ، ص٣٦ ؛ فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٧٠ ؛ الأمين أبومنقا محمد : مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٢) إبراهيم حركات : دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول، السنة الثالثة ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس، ليبيا ، ١٩٨١م ، ص ٢٧–٢٨ .

الصحراء من أجل الوصول إلى سلع الجنوب، لهذا فقد ازدهرت تلك التجارة في الفترة ما بين القرنين ٦-١٠هـ/ ١٠-١٦م، وكان المستفيد منها ثلاث مناطق إسلامية هي :

١- طرابلس وتونس وهي منطقة تجارية متداخلة وتمثل سوقاً تجارياً واحداً[١].

٢- مصر والتي تعتبر السوق الرئيسة والأكبر في المنطقة فهي تتحكم في تجارة البحر المتوسط وتجارة الهند باعتبارها مركزاً للعالم القديم قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

٣- المغرب وهى الأقدم فى المعاملة التجارية مع سكان السودان الغربي بحكم قرب المسافة وكثرة المسالك والدروب بل إن العلاقات السياسية بين دول المغرب والسودان تكاد تكون الوحيدة واضحة المعالم، والتى كانت تهدف لدعم التجارة والاستفادة من سلع الصحراء، وخصوصا فيما يتعلق بالذهب والعبيد . لقد ساهمت هذه المناطق في لعب دور فى تلك التجارة، حيث تدفقت سلع الجنوب حتى وصلت أوروبا[٢]عبر البحر المتوسط[٣].

---

(1) Heinrich Barth's : Briefe Aus Tunesien 1845-1846 ,Beit Hikme ,1987, pp88,64-82.

(٢) لقد شكل السودان الغربي هاجساً للعالم الغربي في أوروبا بما ينقل عنه من أخبار عجيبة وغريبة وخصوصا فيما يتعلق بالذهب والثروات العظيمة، وثراء تنبكت وكانو وجاو ، مما جعلهم يتحينون الفرصة لدخوله وسبر أغوار تلك المناطق في وقت مبكر جدا ولكن اكتشاف عمق الصحراء ودول الجنوب استغرق وقتاً طويلاً فقد وصل عدد الرحلات العملية إلى أكثر من ٢٠٠ رحلة ، قادها رحالة حاولوا اكتشاف مجاهل القارة فمات منهم ١٦٥ رحالة ، بالأمراض والقتل على يد الطوارق وقد كانت في الفترة ما بين سنة ١٨٢٨-١٨٨٠م وفي نهاية المطاف وصل الغرب إلى مدينة تنبكت، وكانو، وجاو وغيرها وكتبوا عنها مشاهداتهم، فقد كان من أهم الرحالة هنري بارث الذي وصل إلى تنبكت، وإلى نيجيريا، وأرض الهوسا وكتب حول أجناسهم وطرق معيشتهم وكانت الدراسة عمرها ٥ سنوات دونها في كتابه رحلات في إفريقيا الشمالية والوسطى نسخ الكتاب أكثر من ٢٢٥٠ نسخة سنة ١٨٩٠م ولم يطبع ثانية . كما أن رحلة الرحالة كلابرتون تعد من الرحلات المهمة، فقد سار هؤلاء جميعا على خطى الحسن الوزان ليو الإفريقي الذي وصف لهم الدروب والمسارات والمدن في العمق الإفريقي فقد سبقهم إلى ذلك بسنوات . انظر : Heinrich Barth's :op.cit, pp88-90 ؛ جيمس ويللارد : الصحراء الكبرى ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٦٧م ، ص٢٦٨ ص٢٧٦ .

(٣) ب . ديابن : مرجع سابق ، م٥ ، ص ٤٦-٤٧، ٦٧-٦٨ .

أما المنطقة الثانية: فهي المراكز والمحطات التجارية الصحراوية التي تقع في منتصف الطريق، فهي مستودعات ومحطات تجارية، كانت بمثابة الوسيط التجاري فوقوعها في أطراف وعمق الصحراء جعل منها مراكز تعمل على تأمين الطريق، وتزويد القوافل بكل ما تحتاجه من مؤنة وماء، وعلى تقريب المسافة بين المراكز الجنوبية والشمالية . كما أنها تقوم بجمع البضائع وتوفيرها للتجار وتقدم أيضا الإبل والأدلاء لعبور الصحراء وهى : فاس وتكادا وتغازة وتوات وعين صالح وأغاديس وسجلماسة التي حلت محلها تندوف، ورقلة وتلمسان وغدامس وفزان وغات وبيلما [1]. أما المنطقة الثالثة: هي التي تمركز فيها النشاط التجاري التبادلي في مدن السودان الغربي، والتي كانت حول منطقة منحنى نهر النيجر، جاو، وتنبكت وإمارات الهوسا، وبرنو فهي ما بعد الصحراء، كانت تتنافس فيما بينها من أجل السيطرة على المحطات الأخيرة في التجارة الصحراوية الشمالية .

لقد عانت إمارات الهوسا كثيرا حتى أصبحت مراكز تجارية مهمة في السودان الغربي حيث ساعدتها مجموعة من العوامل لكي تؤدي ذلك الدور، فموقع إقليم الهوسا وفر تواصلاً جيداً بالتجار القادمين من الشمال ، كما أن تجار الهوسا كانوا فاعلين، ونشيطين، وأذكياء عاشوا وكونوا مدناً وقرى على الدروب التجارية، ساهمت في جذب التجار والتجارة إليهم ، كما أن تركيبة شعب الهوسا وتكوينهم، ساعدهم على البقاء والمقاومة أمام القوي المتصارعة عليهم، صنغي والبرنو والطوارق والتي حاولت السيطرة على أراضيهم وسلب إقليمهم ، كما أن ميلهم للتجارة وإتباعهم أسلوب التعاون والتسامح مع القوى المعادية، جعلهم يؤسسون لتجارة تبادلية بحجم تجارة الصحراء الناجحة[2].

لقد ساهمت عملية توسع صنغي[3] وعدم استقرار الأوضاع السياسية بها إلى تحويل

---

(١) أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص١٦٨ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ١٧٥؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٣٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق ، ص١١٧ .

(٣) لقد تسبب سقوط صنغي وضعف سياسة الباشوات في اختلال الموازين والاضطرابات التي أدت في النصف الأخير من القرن السادس عشر إلى تغيير النمط القبلي وذلك أن جزءا من الطوارق كونوا علاقة جيدة مع حكام البرنو في عهد الماي إدريس علومة حيث سيطروا على الآير طريق القوافل التي تربط الهوسا بغات . كما أن تلك الفترة الواقعة ما بين سنة ٩٠٦-١٢١٥هـ/ ١٥٠٠-١٨٠٠م وصفت بمرحلة النهب، وإقامة المستودعات التجارية على السواحل الجنوبية للسودان الغربي، من=

خطوط التجارة لإقليم الهوسا، كما أن عداءها للطوارق والبربر جعل تلك القبائل تناصبها العداء وتعطل الطرق التجارية المتجهة إلى صنغي، خصوصا طريق القاهرة طرابلس تنبكت وهذا اضر بحركة القوافل التجارية، وهو دون شك منح الفرصة للمراكز الشرقية من السودان الغربي والأوسط، لتكون مراكز جديدة تتعامل معها مراكز العالم الإسلامي فى الشمال مباشرة، وهنا برز إقليم الهوسا والبرنو كمراكز جديدة تعمل على استقطاب تجارة الشمال، ولكن فترة أزدهارها لم يدم طويلا بفعل النشاط الأوروبي على السواحل الغربية للقارة فى فترات لاحقة[1].

لقد كانت الفترة الذهبية للتجارة الصحراوية مابين القرنين٥-١٠هـ/ ١١-١٦م، ولكن طبيعة التجارة مع السودان الغربي وعبر الصحراء كان يلفها الغموض من قبل التجار العرب، وذلك راجع لخوفهم من تطفل الآخرين . كما أن مدن السودان الغربي لم تستفد من رواج تلك التجارة، فقد ظلت أوصافها لا تختلف عن ما قبل ١٥٠ أو ٢٠٠ سنة سابقة فالنمط الموجود والمتوارث من القديم ظل سائداً إلى زمن زيارة الحسن الوزان إليها، ومن بعده إلى زمن زيارة كلابرتون . بالرغم من أنها كانت تمثل المصدر شبه الوحيد للذهب في العالم القديم حيث قدر بحوالي ثلثي إنتاج العالم، فقد كان ينساب عبر الطرق والمعابر الصحراوية إلى شمال إفريقيا والقاهرة، ومن ثم إلى أوروبا دون أن يترك آثاراً مادية وفنون معمارية على مدن الجنوب . إن تلك الكميات من الذهب القادم من الصحراء كانت هدفاً ومطمعاً للغرب والشمال، ولكن فترة من الركود التجاري والاقتصادي شهدتها الفترة ما بعد القرن ١٠هـ/ ١٦م، فقد رافق ذلك الركود كوارث وقلة الأغذية، وكثرة الامراض وتقاسم التوتر بين البدو الرحل والسكان المستقرين وتدخل الأوروبيين بشكل مباشر للاستفادة من سلعة الصحراء الذهب والرقيق، مما أثر على دول الشمال الإفريقي ومصر بشكل مباشر[2].

=قبل الأوروبيين والتي تقوم على النهب أكثر من الشراء والتبادل، حيث استطاعوا الوصول إلى غينيا والسواحل الاستوائية وكان هدفهم القضاء على التجارة الصحراوية مع بلدان المغرب الإسلامي ومصر . انظر : بوفيل : مرجع سابق ، ص٣١٨ ؛ ب . دياين : مرجع سابق ، م٥ ، ص ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ؛ م . أبتيبول : مرجع سابق ، م ٥ ، ص٣٦٣ .

(١) فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص ٧٠ .

(٢) م . أبتيبول : مرجع سابق ، م ٥ ، ص٣٦٠ ؛ أ . ج . هوبكنز: مرجع سابق ، ص ١٥٩، ١٦٣ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص ٢٩٣ ؛ جيمس ويللارد : مرجع سابق ، ص٢٣٨ .

إن تلك الجوانب العديدة والمتداخلة بكل تلك القضايا التي عبرت عنها التجارة عبر الصحراء، والتي توالى قيادتها في الجزء الجنوبي من الصحراء الهوسا كانت منظمة إلى حد كبير فقد اهتم الهوسا بالنشاط التجاري التبادلي عبر المسافات، حيث أوجدوا مجموعات وفئات تجارية متخصصة، الأولى: تهتم بالتجارة عبر الصحراء والأقاليم المجاورة البعيدة. والفئة الثانية: متوسطة تعني وتهتم بالتجارة بين الأسواق المركزية، أطلق عليهم بان كولي، وفئة ثالثة تمارس التجارة في الأسواق المحلية القروية وهؤلاء أصغر حلقة في المنظومة التجارية الصحراوية للهوسا[١].

لقد ساعدت الحكومات المركزية في الإمارات على التواصل مع تجار مالي وصنغي في الغرب وتجار الكانم والبرنو في الشرق، بالرغم من العداء السياسي كما أنهم لم يتبعوا سياسة نهب القوافل والتجار الأجانب القادمين من الشمال، فقد دفعت تلك القوافل ثمناً للعبور كرسوم وتعريفة مقابل السماح لها وبإتمام العملية التجارية ما يقدر بحوالي ما بين ١٠ و١٥ في المائة من تكلفة غالبية الأصناف[٢] وهذا في حد ذاته مردود جيد بالنسبة لهم.

لقد تطورت كانو وكاتسينا بشكل سريع، حيث سمح لهما الموقع الجغرافي وحسن تدبير الحكام ونشاط التجار في تحولهما إلى مراكز تجارية تبادلية، ولكن ذلك التطور رافقه تنافس شديد بين الإمارتين، وصل إلى درجة التصادم، والحروب الطويلة، ولكن كاتسينا كانت أحس حظاً من كانو في كونها المحطة الجنوبية الأخيرة في طريق القوافل القادمة من الشرق عبر الأير[٣].

(أ) دور حكام الإمارات في دعم نشاط التجارة الخارجية

لقد اتبع كثير من الحكام في إمارات الهوسا سياسة كان من شأنها دعم التجارة الخارجية وجذبها من خلال تشجيع إقامة الأسواق وأماكن الاستراحة للتجار بما يشبه النزل بالقرب من البوابات الرئيسة للمدن، أو في الأماكن التجارية. كما أن بعضاً من

---

(١) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص ٣٠١.

(٢) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠١؛ أ.ج. هوبكنز : مرجع سابق، ص١٦١؛ دجيبو سايبو : تاريخ السودان في نظر ابن بطوطة وابن خلدون، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، ٢٠٠١م، ورقة رقم ٦٢-٦٤.

(٣) مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٣٠٢؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص ٤١.

الحكام قام بإنشاء أسواق مركزية كبيرة تعمل بشكل منتظم كل يوم، كما فعل محمد رمفا في كانو سنة٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م عندما أقام سوق Kumri وكذلك فعل الساركن محمد كزوكي٩١٤-٩٧٢هـ/ ١٥٠٩-١٥٦٥م، الذي أقام هو الآخر سوقاً في مدينة Buki ، كما عمل البعض الآخر على فتح الطرق، والمعابر التجارية، كما فعل الساركن عبدالله بورجا٨٤١-٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م الذي فتح الطرق المؤدية إلى برنو عبر Gwanja مما جعل التجارة والبضائع تنساب، ففي عهده أدخل الجمل إلى كانو فسجل بذلك نقلة نوعية في مجال وسائل النقل وتطور جديد يضاف إلى الاهتمامات التجارية الخارجية(١).

لقد كان الاهتمام بالتجارة الخارجية من قبل الحكام، هاجساً سيطر على كثير منهم لدرجة أنه أثر على العلاقات فيما بين الإمارات مما جعل العلاقات متنافرة ومتصارعة، ومتنافسة إلى حد بعيد، فقد أثرت سياسة ساركن زاريا أمينة العدائية على التجارة والعلاقات التجارية بسبب تبنيها لسياسة الحرب، ومهاجمة كانو وكاتسينا، مما حرم زاريا في أن تكون من العواصم أو المراكز التجارية، بالرغم من كبر حجم رقعتها الجغرافية، وحتى عندما تولى الساركن محمد ربو الحكم كأول ساركن مسلم فى أواخر القرن٩هـ/ ١٥م لم يستطع جذب التجار وتحويل الإمارة إلى إمارة تجارية(٢) بالرغم من أن البعض من المؤرخين يرى أن سكان زاريا من المشتغلين بالتجارة لدرجة أنهم يجنون من ورائها ثروات طائلة(٣) ، وربما هذا القول صحيح، ولكنه لا يفسر ضمن سياسات الحكام العامة التي تعمل على توطيد أركان التجارة الصحراوية، وجذبها لمدنهم، فلربما كان جهد تجار زاريا وراء ذلك الثراء .

كما أن من بين السياسات التي كانت عاملاً مساعداً لدعم التجارة الخارجية فى إمارات الهوسا ما قام به ساركن كانو محمد رمفا الذي عمل على إقامة أماكن لاستراحة القوافل بالقرب من قرية Fadamar للتجار المسافرين عبر المسافات الطويلة، وهذه الاستراحات كانت لربط الممرات التجارية التي تربط الهوسا Hausa ، Borno وبرنو أوائل٩هـ/ ١٥م بشبكات تجارية داخلية لتبادل الملح، والنطرون وجوز الكولا، والعبيد،

---

(1) Palmer :op.cit, pp109-110 .

(٢) شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق ، ص٤٤؛ Saad Abubakar: Amina of Zazzau, pp 103-115 .

(٣) حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق ، ص٢٢٦ .

والخيول [1]. كما سار خلفاؤه على أثره فقد اكتشف في كانو مكان السوق الكبير الذي يحتوي على المحلات، والنزل التي ينزل بها تجار القوافل عبر المسافات الطويلة وسوق كانو كان مرتبطاً بفضل جهود الحكام بشبكات من الطرق حيث تصله البضائع من أسواق Karkara الداخلية حول Dugazzawa ، Ajiwa كما أنهم عملوا على بناء المخازن الكبيرة في برني العاصمة لتخزين الزائد والفائض من البضائع [2].

بل تطورت السياسات وصارت أكثر نضجاً ووضوحاً في جذب التجارة الخارجية، فقد تم إنشاء منازل من أجل إقامة التجار عبر المسافات، حيث تم تخصيص بيوت لهم بجانب بيت ساركن Kofa رئيس أو حارس البوابة للمدينة، مما جعل مهمة هذا الساركن تتطور حتى أصبحت الإشراف على حركة الأفراد والعلاقات التجارية داخل تلك الأحياء التي سرعان ما تحولت إلى مراكز تجارية كبرى، مما جعل الساركن يضعها تحت سلطته المباشرة ، فمثلا البيوت الخاصة بالتجار المتجولين في القرى والأرياف البعيدة كان حرص الساركن أن تكون داخل الأسوار ومحمية مثل البيوت التي كانت في Zakka و Runka في مناطق حوض سوكوتو عند مرتفعات كاتسينا الغربية [3].

لقد تعدى اهتمام الحكام في كاتسينا العاصمة ليصل إلى إنشاء المحطات والمستوطنات التجارية فقد وجدت ثلاث مستوطنات وتكتلات تجارية، أقيمت في القرن ٩هـ/ ١٥م في الجزء الجنوبي الغربي من كاتسينا هي Kogo و Maska و Gozaki يحكمها حكام تابعين لساركن كاتسينا كانت بمثابة المدن المتكاملة اقتصاديا بحكم اشتغال سكانها بالزراعة والصناعة والرعي حيث وجدت عندهم المعادن والقطن وصناعة المنسوجات التي كانت مشهورة باسم Dan Maska وقد كانت مقصداً للتجار المتجولين حيث وجدوا الحماية والرعاية من حكام تلك المقاطعات [4].

كما قام الحكام في كاتسينا بتمهيد الطرق الداخلية التجارية، وذلك بقطع الأشجار، وإزالة الصخور، بسبب وجود سلسلة من الجبال التي تفصل مناطق كاتسينا عن مناطق الوثنيين، حيث كانت صعبة العبور على البشر والدواب ولكن اختيار الأقرب والأسهل وتمهيدها كان من أولويات بعض الحكام [5].

---

(1) Y . B . Usman :op.cit, pp 16-17 .
(2) Ibid : pp 40 – 41 .
(3) Y . B . Usman :op. cit , pp 41, 46-47 .
(4) Ibid : pp 47 - 49 .
(5) Ibid : pp 50 – 51 .

إن تلك المنشآت والأعمال دون شك رافقتها تنظيمات دقيقة لمراقبة تلك الطرق والمدن فقد عين الحكام أشخاصاً مسؤولين عن الطرق وما تحتاجه من تأمين ومؤن كانوا يوفرونها للعابرين ، حيث كان ساركن Masugori مسئولاً عن ما ينقص الطرق وحمايتها من الحيوانات الضارية والنهب وتطورت تلك المهنة لدرجة أن الساركن أعطاهم لقب Tafarki، ثم تأسست أماكن للتوقف وإستراحة القوافل، حيث تم وضعها تحت قيادة مسؤول وهو تحت Maigori الذي يعين ساركن القوافل Zango وهو المسئول عن القوافل، وتحركاتها، ونواقصها كما أشرف المختصون عن بناء محلات ونزل بالقرب من البوابات وأخرى في الأماكن التجارية وعندما لا تتوفر تلك الخدمات في بعض المراكز يكلف ساركن Kofa باستقبال الرحالة في منزله الملحق بالبوابات الرئيسة بالمدن والمراكز التجارية [١].

إن هذا التنظيم، وتلك المصالح التجارية، دون شك شارك في تأكيدها التجار الذين حرصوا على مشاركتهم في حكومة الساركن من خلال وجود ممثلين عنهم ، ووجود الوكلاء والسماسرة لإكمال الصفقات التجارية الكبيرة والرسمية للدولة ، بالرغم من وجود منافسة بينهم في الأسواق المحلية و الخارجية، ولكن الحرص والدافع كان دائما العمل المشترك من أجل جذب أكبر قدر من التجارة الخارجية، وتوفير الظروف الملائمة لاستمرار التجارة [٢].

لقد قدمت بعض الإمارات ككانو مثلا نموذجا للمدينة التجارية، والتي تستقبل التجار من كل الأجناس، فطبيعة حكامها كانت تنطوي على مفهوم التعامل مع الجميع، لما فيه صالح التجارة وجذب الناس، فقد وفد عليها أحد أمراء البرنو وهو عثمان ماي برنو في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م في عهد الساركن داوود ٨٢٤-٨٤١هـ/ ١٤٢١-١٤٣٨م الذي استقبله وأحس إليه بالرغم من أنه على عداء مع البرنو، وبالرغم من أن الماي عثمان كان بصحبته قوة كبيرة تحمل أسلحة نارية متطورة فقد خرج ساركن كانو للغزو وتركه يُسيِّر شؤون الإمارة [٣] دون الاكتراث لما كان يشار عليه من مخاوف ، وهذا يدل على تسامح الهوسا وعلى قبولهم بأعدائهم، فقد كان حكامهم يبدون سياسة حسن النوايا للجميع .

---

(1) Ibid : p 51 .
(2) Ibid : p 16-19 , 60-61.
(3) Palmer :op.cit, pp94 ، 109

وفي المقابل كانت هناك سياسات من قبل بعض الحكام في وقت متأخر [1]، تعمد إلى إفساد نظام التجارة الخارجية، من خلال ما ارتكبوه من نهج خاطئ .

(ب) الطرق التجارية الصحراوية المتعلقة بإمارات الهوسا

لقد كانت الصحراء رغم الصعوبات الجمة جسر التواصل والتبادل بين الشمال والجنوب حيث حُملت المواد والبضائع التجارية لمسافات طويلة كي تصل إلى إمارات الهوسا [2]، ومن هناك تنطلق في رحلة جديدة صوب الجنوب في مناطق الوثنيين عند ملتقى نهر النيجر ونهر بنوي [3] حيث تتم عملية التوزيع والتبادل عبر دروب ومسالك لا تقل هي الأخرى في خطورتها عن عبور الصحراء، فالتجارة الصحراوية لا تتوقف عند المراكز الجنوبية بل تنقل إلى الدواخل فعملية التبادل التجاري الصحراوي عملية متكاملة تشترك فيها مناطق التوزيع على اعتبار أنها مناطق الحصول على السلع الجنوبية، التي يحتاج إليها الشمال كالرقيق والذهب .

لقد كانت التجارة الصحراوية بين الشمال والجنوب قديمة تُرد إلى عهود موغلة في القدم فهي نشاط لا يمكن تحديد زمن ظهوره، ولكن عوامل نجاحه ارتبطت بالعنصر البشري الذي سعى لتكوين مراكز جاذبة تمتهن التجارة والتبادل، مما خلق منافسة في المنظومة المتكاملة التي كانت الطرق والمسالك والمعابر من أهم جوانبها، فالطرق القديمة

---

(١) لقد ذكرت حوليات كانو الكثير من الأخطاء التي ارتكبها الحكام والتي أثرت على التجارة الخارجية حيث كان من بين دوافعهم الطمع والشجع، فقد تم في عهد الساركن Kumbari Son of Sharefa سنة ١١٤٣-١١٥٦هـ/ ١٧٣١-١٧٤٣م ساركن كانو فرض ضريبة Kasua kurmi على الأسواق مما جعل الكثير منها تقفل ولشدة طمع الساركن فقد فرضها حتى على المعلمين وشيوخ الدين وهذا أدى بالناس إلى ترك المدينة والهجرة إلى كاتسينا، التي كانت سياستها تعمل على عكس كانو ، إن اختلاف السياسة المتبعة بين الحكام في الإمارات السبع دون شك كانت تختلف من إمارة إلى أخرى، فالإمارات التي كانت تعول على التجارة الخارجية، سارت على خطى البناء، وتوفير عوامل الجذب التجاري ككانو، وكاتسينا، مما جعلها تحصلان على عوائد اقتصادية كبيرة ، أما بقية الإمارات فلم تنجح في استغلال الظروف المتوفرة لها، ولم تستطع الدخول في منافسة الإمارات القوية، مما جعلها تخضع في أحيان كثيرة للنهب والسيطرة من قبل الأقوى . انظر :

Palmer :op.cit, pp124-125 .

(٢) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٢٧ .

(3) Mervyn Hiskett : Reflections on The Location of Place Names on The 10-16 Century Map of Hausaland and Their Relation to Fataucl Routes , Kano Studies , V2 no 2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981, pp 74- 88 .

من عهد الجرمنت هي التي كانت تستخدم في عبور الصحراء إلى بلاد السودان، فهي مازالت تؤدي نفس الدور التجاري [1]. بالرغم من تغير العناصر البشرية المنفذة لذلك العمل. ويرى البعض من المؤرخين أن أقدم الطرق الصحراوية التي تربط الشمال بالجنوب هى الأولى: تبدأ من تغازة إلى تنبكت في الغرب وهى التي تصل إلى المناطق الغربية من السودان الغربي. والثاني طريق غدامس إلى منطقة الأير ومن ثم إلى إقليم الهوسا، ويعتبر هذا الطريق هو الأوسط . والطريق الثالث: طريق فزان[2] كوار Kawar [3] إلى إقليم برنو في الشرق، وهذا الطريق طويل المسافة وقليل الماء[4].

---

(١) ناجتيخال : مصدر سابق ، ص٦٤٣-٦٤٤ .

(٢) فزان بلاد الجرمنت وكانت تعرف باسم فزانيا Phazania وهي من المدن الصحراوية الكبيرة والمسكونة وفيها قصور وقرى عامرة سكانها أغنياء يملكون النخيل والأموال وهم على علاقة بأغاديس في الجنوب ومصر فالمسافة بينها وبين القاهرة مسيرة ٦٠ يوما . وهي تقع في الصحراء الليبية وهي الأرض الواقعة ما بين بونجيم وتجرهي حيث تقع على خط عرض ٣٥ ، ٣٠ درجة شمالا وتتصل من الشرق إلى منطقة جبال الهروج شرقي مركز تكسة في الشرق، ومنطقة أوباري في الغرب وهي منطقة جافة بها بعض المزروعات والنخيل والحيوانات، وتحتوي على مصادر لبعض المعادن كالطرونا والشب والجبس والملح الصخري والكبريت . أما مدينة تجرهي فهي كانت بمثابة استراحة للقوافل القادمة من برنو وأقاليم السودان الأخرى حيث تقع في أقصى جنوب فزان، بها الماء وأشجار النخيل، وهي بداية خط التماس مع الصحراء، وتقع المدينة على خط عرض ٤ ، ٢٤ درجة شمالا، واقتصادها يعتمد على التبادل التجاري وإنتاج زراعي وحيواني محدود . الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٤٦ ؛ ناجتيخال : مصدر سابق ، ص٢٩١ ؛ ع . ف . لايون : مداخل الصحراء ، ترجمة الهادي أبولقمة ، منشورات جامعة قاريونس ، ليبيا ، ١٩٩٣م ، ص١٣١-١٣٢ ، ١٤٥ - ١٤٦ ؛ جاجوا حسين : دور غدامس التجاري ما بين طرابلس والسودان الأوسط والعرب خلال ١٨٥٠-١٨٨١م ، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة الجزائر ، ١٩٨١م ، ص ٩٧ - ١١٠ .

(٣) كاوار أو كوار: وهي من المراكز الصحراوية المهمة التي وصلها الإسلام في وقت مبكر، وقد ضمت مراكز مهمة مثل بيلما والقصبة وقد وقعت الإشارة لها منذ القرن العاشر الميلادي من قبل المؤرخين، وقد خلفتها أنكالاس Ankalas منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وقد كان لها كيان سياسي مستقل، ولكنها وقعت تحت تأثير الكانم والبرنو، حيث كان ينظر إليها على أساس أنها مصدر مهم للملح وحجر الشب، وطريق مهم للقوافل، وقد كانت لها علاقات واسعة مع المراكز الصحراوية الليبية كغدامس وغات وفزان . بوبي جادو : مرجع سابق ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤) بوفيل : مرجع سابق ، ص٣٨٤ .

وفي المقابل فإن استفادة تجار الهوسا من الطرق التجارية [1] الجنوبية كانت كبيرة فهي الطرق لتوزيع وجلب منتجات الجنوب، فقد كانت الطرق التي مهدها الديولا هي

---

(١) الطرق والمعابر التجارية الصحراوية العامة والتي تتصل بالسودان الغربي كثيرة، حيث كانت تقاس بالأميال أو المراحل، حيث تبدأ من الشمال عند المراكز الحضارية في مصر وطرابلس وتونس والمغرب، وتتجمع في المراكز الوسطى التي تقوم بدور الوسيط التجاري، والتي تتعامل مع إمارات الهوسا مباشرة وتلك الدروب والمسالك كانت ضمن الآتي :

(١) طريق جبل نفوسة القريب من طرابلس، حيث يبدأ من قرية جاو ويصل إلى زويلة، وهو طريق قليل الماء .

(٢) طريق برقة ودان وزويلة وسبها، وهو مرتبط بغات مدينة التيبو والتيدا والطوارق في أقصى الجنوب الليبي .

(٣) طريق طرابلس ودان والذي تسيطر عليه قبيلة هوارة وهو أكثر الطرق استعمالا .

وللشمال طريق ساحلي يبدأ من الإسكندرية والقاهرة، ويتجه إلى الصحراء الليبية في الجنوب، ويتصل بالطرق الآتية :

(أ) طريق فزان المتصل مباشرة بمناجم بيلما وإمارة كانو وكاتسينا ودولة برنو في تشاد وكان يحمل منه الرقيق والمنسوجات إلى برقة ثم مصر وهو أكثر الطرق سهولة .

(ب) طريق غدامس تادمكة ثم مالي، وهذا الطريق يرتبط ويتصل بعدد من الدروب القادمة من القيروان بتونس عبر ورجلة وقسطنطينة بالجزائر، حيث يشكل مسارا واحدا حتى يصل إلى تنبكت، وهذا الطريق كان يستخدم في القرن ٨هـ/ ١٤م .

(ج) طريق ورجلة تادمكة جاو وهو قديم يتميز بتجارة الذهب .

(د) طريق درعة إلى غانة ويمر وسط قبائل صنهاجة .

(هـ) طريق تامدولت أودغست غانة .

(و) طريق سجلماسة توات السودان الغربي، وهو من أقدم الطرق يختص بحمل الذهب ويمر بتغازة مركز الملح، وهو الطريق الذي احتكره العرب والبربر. لقد تأثرت الطرق الغربية والقادمة من المغرب إلى جني وتنبكت وجاو بالغزو المغربي بسبب ما فرضته حكومة مراكش من إجراءات وبسبب الاحتكار التام للقوافل المغربية، مما جعل الطرق الوسطى المدن تحل محلها . انظر: جيمس ويللارد : مرجع سابق ، ص ١٥٧ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٨٧ ، ٣٩٧ ؛ فيج. جي. دي: مرجع سابق ، ص٦٨ ؛ أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص١٦٦ ؛ محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، إشراف نقولا زيادة ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، المكتبة الوطنية ببغداد ١٩٨٢م ، ص٤٦٠ ؛ إبراهيم حركات : مرجع=

المعابر الرئيسة حيث استخدمها التجار لنقل تجارتهم خارج الإقليم إلى مناطق التوزيع، حتى أنهم وصلوا إلى بلاد الإيبو كما مارسوا التجارة مع الشعوب الوثنية القاطنة بينهم وبين المحيط الأطلسي، والتي تسكن حاليا ليبريا وساحل العاج الغربي[1].

لقد كانت التجارة الصحراوية والتي تقودها عناصر بشرية من غير الهوسا مكملة للتجارة الجنوبية، التي كان الهوسا يدرونها، وذلك ربما كان سر نجاح الهوسا، فقد استفادوا من العناصر الفاعلة في التجارة فلم يكن لهم عداوة مع أحد، كما أن فاعلية الشعوب المجاورة لهم في تفعيل مراكزهم كان له دور إيجابي، فالطوراق مثلا دخلوا المنافسة بحكم تكوين القاعدة التجارية أغاديس التي هي متاخمة للهوسا [2] فهي تقع على أقصر طريق مؤدية إلى فزان، التي ترتبط بطرق أخرى قادمة من القيروان مرورا بورقلة، ومن تادمكة إلى طرابلس، مرورا بغدامس وطريق جبل نفوسة إلى فزان ثم إلى أغاديس التي شاركت في تجارة الذهب والملح وتربية إبل عبور الصحراء [3].

ومن أجل توضيح تلك الشبكة من الطرق والدروب التي لها علاقة مباشرة بإمارات الهوسا لابد من تقسيمها إلى قسمين :

أولا : طرق الشمال وارتباطها بالمراكز الصحراوية الوسطى

إن الطرق الرئيسة التي تربط الشمال بالجنوب تندرج تحت أربعة طرق رئيسة، هي: طريق سجلماسة [4] إلى ولاته، والتي تتجه إلى السنغال وأعالي نهر النيجر وهي الطرق التي

=سابق ، ص ٢٨-٣٠ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق ، ص١٨٠ ؛ محمد بن شريفة : من أعلام التواصل بين المغرب وبلاد السودان ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، المغرب ، ١٩٩٩م ، ص١٦٠ .

(١) فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٩٦ .

(٢) بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٣٨ .

(٣) م . أبتيبول: مرجع سابق، جـ٥ ، ص٣١٤ ؛ بوفيل: مرجع سابق ، ص٣٩١ ؛ إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٣٣ ؛ محمد عمر مروان : الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، ليبيا ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٣-٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٦ .

(٤) لقد حلت مدينة آقا بدلا من سجلماسة وأصبحت مدينة مشهورة تمر بها الطرق إلى الصحراء، فالمسافة بين مراكش إلى كابارا عن طريق مركالا تبلغ ٢٤٦٠كم ، بينما مسافة طريق آقا كانت=

تخصصت في تجارة الذهب . والطريق الآخر يبدأ من قورينة وله اتصال بالإسكندرية ويمر بوداي [1]عبر بالكفرة حيث يتصل بشبكة من الطرق التي تتجه إلى غدامس وفزان ومن ثم السودان الغربي . وهناك طريق طرابلس كانو عبر الأير وغات [2]وغدامس، وهذا الطريق هو الأهم لإمارات الهوسا ومسافته تقدر من طرابلس إلى غدامس خمسة عشر يوماً يضاف إليها أيام الراحة، ومن غات إلى كانو يستغرق ٥٦ يوما فاجمالي المسافة من طرابلس إلى كانو يبلغ طولها ٢٤٠٠ كم تستغرق من ثمانية أشهر إلى خمسة عشر شهراً . والطريق الذي يبدأ من طرابلس على ساحل البحر المتوسط ويصل إلى برنو وبحيرة تشاد، حيث يمر بزويلة

=٢٣٣٨كم وهي الطرق التي استخدمها الجيش المغربي لعبور الصحراء لدخول صنغي . انظر : محمد الغربي : مرجع سابق ، ص ٤٦٠ ، ٤٦٤ .

(١) دولة وداي وقد ظهرت في منطقة شرق وشمال بحيرة تشاد، حيث يعتقد أنها كانت واقعة تحت حكم التنجور في الفترة الواقعة بين القرنين (١٤/ ١٦م) وهي تضم الزعاوة وبعض من سكان دار فور، وقد أقام التنجور مدينة كدم أو كتم بالقرب من أبشة لتكون عاصمة، ثم وصل إليها داعية إسلامي هو: عبد الكريم جامع والذي يلقب جودة، لنشر الإسلام حيث ساعدته القبائل العربية . وقد كان لهذه الدولة دور في تجارة الصحراء ، وكانت لها علاقة عبر فترات تاريخية متعددة مع دول الجوار وكانت لها طرق تربطها بتلك الدول كطريق أبشة جالو بنغازي ، وطريق أبشة طرابلس عبر فزان، وطريق أبشة القاهرة ، وطريق أبشة برنو، وطريق أبشة دار فور ، كما تم افتتاح طريق تجاري مباشر ولكنه في فترة متأخرة جدا في القرن التاسع عشر من وداي إلى البحر المتوسط في عهد عبد الكريم صابون ملك وداي الذي حكم (١٨٠٣-١٨١٣م) . انظر : ناجتيخال: مصدر سابق ، ص٥٨٣ ؛ سعيد عبد الرحمن الحنديري : الممالك الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١، مركز جهاد الليبيين، طرابلس ، ٢٠٠٠م ، ص٢٠٨-٢١٨ ؛ تيرنس والاس : تجارة القوافل بين ليبيا ومصر ودور عبدالله الكحال ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين ، ع١ ، ليبيا ، ١٩٨١م ، ص٨٩ ؛ كرم كمال الدين الصاوي: دراسة نقدية تحليلية لمصادر التاريخ الاقتصادي لمنطقة غرب إفريقيا في القرنين ١٤-١٥م ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، ٢٠٠٤م ، ص٥١ .

(٢) كان هناك طريق مباشر من غات يتجه إلى جبال الهوغار، ثم يصل إلى أدرار ثم يرتبط بطريق آخر مؤدي إلى توات ثم إلى أكيدال، ثم بورم ثم بامبا ثم تنبكت ونهر النيجر وتبلغ مسافتها نحو ١٣٠٠ ميل، كما احتوت غات على طريقين آخرين هما الطريق الذي يصل إلى أغاديس ومنها إلى سوكوتو ، والطريق الذي يمر بزندر إلى كانو عبر الأير، وهو الذي تسلكه القوافل الكبيرة بالرغم من صعوبته ، وتلك الطرق كانت تسيطر عليها قبائل الطوارق العدائية بطبعها . انظر : أرفين فون باري: ١٨٤٦-١٨٧٧م ورحلته إلى غات وبلاد الأير ، ترجمة عماد الدين غانم ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا ، ١٩٩٥م ، ص ١٢١؛ جيمس ويللارد : مرجع سابق ، ص ١٥٤-١٦٠ ؛ أ. ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص١٧٠.

والقطرون وتجرهي وواحات كاوار وأجادم وبيلما[1] وكان يختص بتجارة الملح والحرير الخام، والمنتجات الأوروبية التى تأتي من الإسكندرية وطرابلس ، ولم يكن يتجه إلى الهوسا ولكن الطرق الداخلية بين الهوسا وبرنو كانت تفي بالغرض فالسلع القادمة من هذا الطريق تجد طريقها إلى الهوسا عبر ممرات داخلية أخرى[2]. لقد كان الطريق المباشر والأساسي والذي يربط الشمال بالجنوب [3] هو الطريق الذي يبدأ من طرابلس إلى Ife في

---

(١) كانت تخرج القوافل التي تعرف باسم Azlai من أغاديس في فصل الخريف شهر أكتوبر، وتتجه إلى مدينة بيلما عاصمة إقليم كاوار، وتمر بمركز فيكي في نفس الإقليم وبعد خمسة أيام تلتقي مع قافلة قادمة من داماجارام، ثم تواصلان السفر إلى بيلما بعد ثلاثة أيام، و مسافته تزيد عن ألف ميل باتجاه الجنوب ، وعندما تصل إلى بيلما تتزود بالملح، والذي ينقل إلى أسواق الهوسا في كانو وكاتسينا ، وتلك القوافل في العادة تكون منظمة وتحت قيادة أحد الأشخاص المكلفين من الحاكم في أغاديس وتتجه إلى الجنوب محملة بالملح والطعام والماء والعلف ومعها الحراس . ويرى البعض من المؤرخين أن عدد الجمال في القافلة الواحدة وصل إلى عشرين ألف جمل . انظر : بوفيل : مرجع سابق ، ص ٣٩٣ ؛ جيمس ويللارد : مرجع سابق ، ص ١٥٧ .

(٢) بوفيل : مرجع سابق ، ص ٣٩٥ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق ، ص١٧ – ١٨ ؛ سلفاتور بونو: تجارة طرابلس عبر الصحراء في العقد الأول من القرن العشرين ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين، ع١ ، ليبيا ١٩٨١م، ص٨١-٨٢؛ حسن المدني علي: مرجع سابق ، ص١٠١ ؛ Mervyn Hiskett:op.cit, pp66-78 .

(٣) طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى والتي تصل إلى الهوسا وبرنو تسلك الطرق والتفرعات والشبكات الصحراوية التي تربط الجنوب الإفريقي بالشمال، عبر الصحراء إلى بلاد السودان ، فطريق طرابلس برنو من أسهل الطرق حيث يتوفر به الماء ويتمتع بالأمن ، ويسمى بطريق الجرمنت ويتفرع إلى فرعين الأول: إلى بيلما واقاد ثم ماو وكوكا عاصمة برنو . والثاني : يتجه إلى مدينة أبشة في الشرق من دولة وداي، وهذا الطريق سلكه الرحالة الأجانب لاكتشاف عمق الصحراء مثل هنري بارث ، وناجتخال . وتستغرق الرحلة خلاله من طرابلس إلى برنو ستة أشهر . أما طريق وداي يبدأ من طرابلس ويمر على الساحل إلى سرت، ثم الجفرة وزلة، ثم الكفرة ثم وداي وهو طويل حيث يلتقي بفرع آخر قادم من بنغازي ثم يتجهان إلى جالو ثم الكفرة، ويكملان الطريق وصولا إلى برنو . أما الطريق الغربي طريق طرابلس تنبكت وهو يبدأ من طرابلس ويصل إلى سناون، ثم غدامس، ثم يدخل الأراضي الجزائرية عند ثماسين والبيوض حتى يلتقي بطريق قسطنطينة المؤدية إلى تنبكت . وهناك طريق آخر وهو الطريق الشرقي يتجه شرقا من طرابلس إلى بنغازي ثم الجغبوب إلى سيوة والأقصر بصحراء مصر الغربية، ثم يصل إلى وداي . انظر : رجب نصر الأبيض : طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي ، مركز=

بلاد الهوسا، حيث يمر عبر فزان إلى الأير، ثم عبر الهوسا إلى منطقة التقاء نهر النيجر والبنوي ، إن هذا الطريق كان موجودا قبل القرن الرابع عشر وكان يمر بأراضي الإقليم، ولكن المصادر لم تذكر المراكز التجارية في إقليم الهوسا نظرا لأنها كانت مراكز داخلية ، وفي هذا الصدد تؤكد الدراسات أن بلاد الهوسا ارتبطت في عصر الانفتاح في كانو أيام الساركن محمد رمفا بهذا الطريق الذي وصلت منه شخصيات وهجرات من شمال إفريقيا ومصر تتحدث اللغة العربية ، كما تم اكتشاف سلع وبضائع ساحلية في مواقع حضارية في إقليم الهوسا، مثل الزجاج وأواني الفخار، وبعض الأسلحة وغيرها، جلبت في وقت مبكر عبر هذا الطريق ، لهذا يرى البعض من المؤرخين إن فترة النصف الثاني من القرن الخامس عشر تعتبر فترة مهمة فقد شهدت تطوراً شاملاً في إمارات الهوسا، كما شهدت ظهور المراكز التجارية الكبيرة التي حلت محل تلك القديمة في السودان الغربي(١).

لقد تم ربط طرق التجارة الخارجية الطويلة بطرق أخرى متوسطة، تسلكها القوافل عبر المراكز التجارية الشمالية أو الوسطى وصولا إلى طرابلس ومصر، وفي هذا الصدد لعب الوكلاء دوراً مهماً من خلال إقامتهم في كانو، فقد عملوا على تأمين حصولهم على السلع والبضائع وهؤلاء الوكلاء كانوا على معرفة تامة بتلك الطرق والدروب الصحراوية المؤدية إلى برنو وأقصى السودان الغربي، كما أنهم استخدموا درب الأربعين للوصول إلى الجنوب المصري (٢). فقد أكدت تقارير ودراسات وجود مجموعات من التجار المقيمين في كانو

=جهاد الليبيين ، طرابلس، ليبيا ، ٢٠٠٩م ، ص ١٦١ ، ١٦٧ ؛ يحيى بوعزيز : طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، معهد البحوث الدراسات العربية ، بغداد ، ١٩٨٤م ، ص١٢٩ ، ١٦٤ .

(1) Mervyn Hiskett :op.cit, pp 78- 82 ; Y . B . Usman :op.cit, pp 11-12 .

(٢) يعتقد عدد من المؤرخين أن طريقاً مباشراً كان يبدأ من تنبكت ويمر بولاته، ثم يتجه إلى القاهرة غير تلك الطرق المعروفة، فلم تتحدث عنه المصادر فهو طريق طويل المسافة نشأ بعد القرن السادس عشر بسبب الاضطرابات في البحر المتوسط ومناطق الطوارق، فكان هذا الطريق يستخدم للحجاج والتجار، ويعتقد أن العالم عبد الرحمن سقين المغربي عبر منه إلى القاهرة بعد أن كان مقيماً في كانو وكاتسينا . كما يبدو أن تعطل درب الأربعين والذي يربط السودان الغربي باسيوط عن طريق دار فور أدى إلى استخدام ذلك الطريق الطويل . انظر : محمد بن شريفة : مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجيريا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ص ١٣ ؛ تيرنس والاس : مرجع سابق ، ص٩٠ .

قادمين من القاهرة منذ سنوات طويلة وكان لهم أسلوب حياة خاص بهم ، يمتلكون الإصطبلات لتربية الحيوانات، كما يمتلكون الأراضي ويدرون تجارة كبيرة[1].

يبدو أن هناك تعطلا وانقطاعا في الطرق التي تتجه مباشرة من الشمال عبر الصحراء إلى المراكز التجارية في السودان الغربي، لذلك تم التركيز على نوعية خاصة من السلع، فقد جمع العاج والبهارات من قبل الوكلاء في Gambla وأرسلت إلى تمبكت ومنها إلى الشرق، حيث كانو وكاتسينا ، ويبدو أن معرفة التجار والوكلاء للمنطقة جعلتهم يبحثون عن أقصر الطرق وأكثرها مباشرة، فكانت طرق تنبكت كانو بحيرة تشاد والتي تنقل منها البضائع بعد ذلك إلى مصر وطرابلس، كما أوجد الوكلاء طرقاً مباشرة إلى مكان إنتاج السلع في ليبيريا الحالية حيث تجمع البضائع عند منطقة التقاء النيجر وبنوي وترسل إلى كانو، ثم ترسل إلى طرابلس عبر فزان[2].

لقد كان التواصل عبر تلك الطرق من الهوسا إلى مصر وطرابلس واضحاً وكبيراً، حيث يدلل على ذلك من خلال وجود تلك الأصناف والسلع والبضائع في أسواق الإسكندرية، حيث يعتقد أن أغلب المنتوجات كانت تجلب عبر طرابلس. ولكن هل هذا الطريق المباشر من الإسكندرية إلى طرابلس إلى فزان ثم كانو حتى ملتق النيجر والبنوي كان يعمل في القرن ٨هـ/ ١٤م؟ لقد أكدت بعض الدراسات أن هذا الطريق كان موجوداً ويعمل بشكل جيد نظراً لوجود عناصر تجارية نشطة تعمل على نقل مثل تلك المواد ، كما أن طريق برنو عبر وداي إلى الجنوب المصري ثم إلى الواحات كان يعمل بشكل جزئي لتأمين وصول تلك البضائع[3].

ثانيا : الطرق الجنوبية والشرقية

لقد تعامل تجار الهوسا منذ وقت مبكر مع الشعوب الوثنية التي تقع جنوب الإقليم، والتي تنتج السلع الأساسية لتجارة الصحراء، فقد وجد تواصل مع الأشانتي الذين يوفرون الكولا فمن المحتمل أن الطريق بينهما كان يعمل بشكل جيد خلال القرن

---

(1) Mervyn Hiskett :op.cit,pp 66-68 .

(٢) الطيب عبد الرحيم محمد : مرجع سابق ، ص٣٢٥ ؛ Ibid : pp 73 , 75 , 79

(٣) ناجتيخال: مصدر سابق ، ص٢٠٦ ؛ إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٣٢ ؛ حسين سيد عبدالله: مرجع سابق ، ص٨١ ؛ Mervyn Hiskett :op.cit,pp 64 ,72 .

٩هـ/ ١٥م في عهد الساركن يعقوب حاكم كانو سنة ٨٥٦-٨٦٨هـ/ ١٤٥٢-١٤٦٣م [١] كما تواصل الهوسا مع سلاجا Salaga شمال غانة الحالية عبر دروب داخلية لشراء الكولا والعبيد وبيع الخيل والسيوف وأنواع من العطور التي تصل من الصحراء الكبرى [٢].

لقد برز دور كاتسينا من خلال علاقاتها وتواصلها مع جيرانها ، فقد أقامت الطرق الداخلية التي تربط التجمعات الإسلامية التي ظهرت بالقرب من داهومي في Djougou والتي كانت تعمل في تجارة الكولا من مناطق فولتا، حيث تم ربطها بالمراكز التجارية الكبرى بالإمارة [٣].

كما برزت زاريا كمركز تجاري استفاد من تحول خطوط التجارة بعد سقوط صنغي من خلال تواصلها عبر شبكات من الطرق الداخلية في الجنوب [٤] ، حيث استقر بها التجار الأجانب و شكلت هي الأخرى جزءاً من الثقافة العامة التجارية لتجارة الهوسا في القرن١٠هـ/ ١٦م [٥].

أما كانو فقد ارتبط نشاطها بالقرن٩هـ/ ١٥م باعتبارها مدينة تجارية دعمت بفعل المهاجرين والتجار الأجانب، والمستقرين، وارتبطت بالطرق الصحراوية بالشمال، وأصبحت سوقاً يتم فيه جمع الذهب من منطقة فولتا ومن Zamfara ثم يعاد بيعه لتجار فزان ثم مصر، وكانت مرتبطة بطرق موصلة إلى الغرب إلى تنبكت وجاو، وطرق أخرى مرتبطة بالجنوب إلى نهر البنوي ، كما ارتبطت كانو بمجموعة من الطرق التجارية التي

---

(١) بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٢٢ .

(٢) المرجع نفسه : ص٣٩٦ .

(3) Mervyn Hiskett :op.cit,pp 70 – 75 .

(٤) لقد وصل تجار الهوسا إلى مناطق الجنوب الشرقي منهم عبر طرق كان أهمها الطريق الذي يمر بأراضي بوشي وأدماوا مصدر الرقيق، وهناك طريق آخر يمتد نحو الجنوب إلى آيللورين ثم بلاد اليوروبا. ويبدو أن سبب هذا الاندفاع نحو الجنوب تلك المنافسة بينهم وبين تجار الماندي الذين عرفوا ومهدوا تلك الطرق التجارية عبر غانة الجديدة . انظر : فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٩٨ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق ، ص١٨٠ .

(5) Mervyn Hiskett :op.cit,pp 73 , 77-80.

تحصل من خلالها على النحاس[1] الأحمر والأصفر القادم من مناطق الوثنيين عبر Ife ، كما كان النحاس يصل إليها عن طريق ممرات داخلية وليس عبر طريق Mandingo الغربية، فقد كانت الكميات القادمة من تاكدا غير كافية لتغطية حاجة الإمارة ، كما كانت هناك شبكة من الطرق الأخرى التي تربطها بالشرق عبر برنو ، لذا كانت من أهم المراكز التجارية لتجارة الصحراء ومحور مهم وأساسي لعب دوراً كبيراً في التبادل والتجارة الخارجية[2].

كما أثبتت بعض الدراسات وجود روابط تجارية قوية بين الهوسا والبرنو، وبين الهوسا ومنطقة منحى النيجر عند التقاء نهر بنوي والنيجر بداية من سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م وبمرور الوقت تبلورت تلك الروابط وأصبحت قوية ففي سنة ٨٢٤-٨٢٥هـ/ ١٤٢١-١٤٢٢م تنافست إمارات الهوسا على تأمين تلك المناطق بالغزو العسكري من أجل الحصول على الكولا والرقيق[3].

أما الطرق والعلاقات التجارية مع برنو في الشرق، ففي سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م ثم فتح الطريق التجاري إلى برنو في الشرق، وفي الغرب افتتح طريق عبر Borgu في حوض فولتا المتوسط ، وطريق غوانجا كانو برنو في عهد الساركن عبدالله بورجا[4] سنة ٨٤١-

(١) تجارة معدن النحاس قديمة فقد كان ينتج في بعض المناطق بالقرب من الصحراء ومناطق الجنوب، والوثني، ولكنّ جزءا مهما من النحاس الذي كان يدخل إمارات الهوسا كان يجلب من تاكدا كما اكتشف عن طريق الدراسات الحفرية مواقع غربي منطقة الأير تؤكد وجود صناعات وأفران لصهر هذا المعدن، كما اكتشفت سبائك نحاسية قادمة من الشمال والساحل وجدت في إمارات الهوسا منذ القرن ١٢م ، كما أن دراسات أخرى أجريت سنة ١٩٥٤م على تاكدا أكدت أن كمية النحاس المنتجة في تلك المناجم لم تكن بالقدر الكبير، مما اضطر الهوسا للبحث عن مصادر جديدة للمعدن في الجنوب . انظر : ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٩٧-٦٩٨ ؛ ؛ Ibid : pp 73-76 .

(٢) حسين سيد عبدالله : مرجع سابق ، ص٨١ ؛ Ibid : pp 66 , 78 .

(3) M . Hiskett :op.cit, pp 69 -77 .

(٤) لقد شجع الساركن عبدالله بروجا على تأسيس المستوطنات التي جلب إليها الرقيق بواسطة الغزو، ففي عهد تأسس مركز Shira الذي يقع في الطريق بين كانو وبرنو حيث دخل سكانه الإسلام سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م مما جعلهم يشاركون بفاعلية في تجارة المسافات الطويلة مع Habe الهوسا وبرنو . وقد ساعدهم موقعهم في ذلك، كما أن بلادهم تحتوي على مناجم لمعدن الحديد لهذا ظهرت لديهم صناعات متطورة من صهر وتصنيع الأدوات من هذا الخام . انظر :
Palmer :op.cit, pp109- 110 ;M.Hiskett:op.cit, pp 80-83 .

٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م حاكم كانو، وقد ارتبط كلٌ من الطريقين بتجارة الذهب من Akan التي كانت تفتقر إليها برنو مما جعل تلك الطرق تشجع على زيادة حجم التبادل والتواصل بين المنطقتين كما ساعد ذلك التواصل وجود عناصر فاعلة من الونقارة ذات الخبرة الكبيرة في تجارة الذهب . كما تم ربط تلك التجارة بالممرات عبر طرق تؤدي إلى أرض الكورارافا عبر زاريا وBenue وعند نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م تم تأمين أغلب الطرق إلى برنو (١).

إن خلاصة القول حول الطرق والتي كانت داخلية أو خارجية، وفي كل الاتجاهات بالنسبة للهوسا كانت تعبر عن مقدار الرواج والانتشار لتجارة الصحراء، فأهمية الموقع لعبت دوراً مهماً كما أن عامل سقوط صنغي ساهم بشكل مباشر في تزعمهم للتجارة الصحراوية المرتبطة بالجنوب، ولكن العامل الأكثر أهمية كان يقع على العنصر البشري الهوساوي الذي استفاد من خبرات الآخرين وكون لنفسه نمط وأسلوب تجاري سيطر على السودان الغربي .

(جـ) الروابط والعلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة

إذا كانت السياسات العامة لبعض الإمارات في إقليم الهوسا تسعى لتوفير محطات آمنة لتجارة القوافل عبر الصحراء، فإن تلك الشبكات من الطرق كانت تخضع لسيطرة بعض القبائل والتي هي الأخرى حاولت الاستفادة من عوائد التجارة الصحراوية، حيث لم ينظر إلى العداء السياسي بالقدر الذي نظر فيه إلى المردود المادي المحقق، مما جعل نوعاً من العلاقات الاقتصادية المصلحية التنافسية تنشأ، فمع حلول القرن٩هـ/ ١٥م، صارت المنافسة قوية بين الهوسا والبرنو (٢) على خط التجارة القادم من فزان إلى السودان

---

(١) د. لايا : مرجع سابق، ٥٠٨ ؛ Palmer:op.cit, pp109 – 110;M. Hiskett:op.cit, pp 69 -77

(٢) لقد تعرضت كانو لسياسة عدوانية من قبل البرنو فقد قامت الأخيرة بشن حروب على كانو الأولى سنة٩٠٤-٩١٤هـ/ ١٤٩٩-١٥٠٩م في عهد الساركن عبدالله بن محمد رمفا ولكنها لم تنجح . والثانية في عهد الساكن محمد كزوكي ٩١٤-٩٧٢هـ/ ١٥٠٩-١٥٦٥م، كان هو الآخر فاشلا . والثالثة عهد الساركن Kumbari ١١٤٣-١١٥٦هـ/ ١٧٣١-١٧٤٣م حيث قدم على ماي برنو إلى كانو معلن الحرب عليها ولكن تم الصلح بواسطة شيوخ الدين . انظر :

Palmer :op.cit, pp112-113 , 124-125.

الغربي حيث استطاعت البرنو مد سيطرتها إلى بيلما المنتجة للملح، ودجادو بل وصلت إلى فزان نفسها وأقامت علاقات تجارية مع المغرب الإسلامي ومصر مباشرة [1] كما أنها حاولت السيطرة على كانو باعتبارها مركزاً مهماً لتصدير الذهب القادم من الجنوب . لم تكن سياسة الهوسا الخارجية باتجاه البرنو وصنغي هجومية توسعية في البداية، وإنما كانت دفاعية إلى حد كبير، وهذا القول لا ينطبق على مناطق الجنوب الوثنية عند ملتقى نهر النيجر وبنوي التي استخدمت الهوسا فيها سياسة التوسع تارة وإنشاء العلاقات التجارية بواسطة التجار تارة أخرى .

لقد كان تركيز إمارات الهوسا ينصب على الجنوب باعتباره مكان تصريف واردات الشمال ومصدر الصادرات، وخصوصا الذهب والرقيق منتج تلك المناطق ، فقد رأى ياجي ساركن كانو ضرورة تأمين جنوب كانو والاستيلاء على سانتولو التي هي مفتاح الجنوب، فقد كان فيها صناعاً وحرفيين ومعدن الحديد وصناعة الفؤوس والأجراس والسيوف، وقد نجح في ذلك حيث استطاع فرض ضريبة على تلك المناطق مقدارها ١٠٠ عبد مما جعله يستحق لقب قاهر المرتفعات الصخرية ومفرق الجماعات وسيد المدينة[2].

لقد كانت العلاقات مع الدول المجاورة لإمارات الهوسا تحكمها معايير مختلفة، فهي بين الحربية في الجنوب والدفاعية في الشرق والغرب وبين السلمية والجاذبة للمهاجرين[3] في عمومها وهذا ربما سر نجاح الهوسا في إدارة وتوازن العناصر التجارة الصحراوية في ظل حروب وأطماع من كل الاتجاهات .

---

(١) فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٧٢ .

(2) Palmer :op.cit, pp104 - 106 .

(٣) لقد شهد إقليم الهوسا هجرات كثيرة أهمها قدوم الونقارة من مالي حاملين معهم الدين، وطرق التجارة في عهد الساركن ياجي حاكم كانو سنة ٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م كما شاهد الإقليم في عهد الساركن عبدالله بورجا ٨٤١-٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م دخول الفولاني من برنو ثم جاء الإسبيناوه إلى غوبير وتداول الملح في أرض الهوسا، كما بدأ التجار من Gwanja في القدوم إلى كاتسينا وجاء البربر بأعداد كبيرة مع وصول مهاجرين من العرب حيث استقروا في كانو وكاتسينا كما شهدت كانو قدوم الأشراف من المدينة المنورة في عهد محمد رمفا . انظر :
Palmer :op.cit, pp104-105 , 111-112 .

العلاقات مع مملكة صنغي :

لم تذكر المصادر المعاصرة لمملكة صنغي [1] أي غزو قام به حكام تلك المملكة لإقليم الهوسا، ولكن بعض من المؤرخين يدفعون بفرضية ذلك الغزو ويعتمدون في ذلك على ما ساقه الحسن الوزان الذي يرى أن علاقة صنغي بالهوسا مبنية على الطمع فيما تمتلكه تلك الإمارات من خيرات، وفي هذا الإطار يرى أن سكان كانو كانوا محترمين وتجار أغنياء دخلوا في حرب مع صنغي نتج عنها عقد معاهدة تقضي بدفع الضرائب والتي تصل إلى ثلثي إيرادات الدولة سنويا، تحصل بواسطة النواب الخاصين بالأسكيا والمقيمين في كانو [2].

كما يرى المؤرخ إبراهيم طرخان أن الأسكيا محمد الكبير سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٤م قد غزاها، وتكرر ذلك الغزو، مما جعل ساركن كانو يخضع ويدفع الضرائب للأسكيا بل وصل به الأمر إلى ترك نواب له للقيام بتلك المهمة ، وهذا القول لا تدعمه المصادر التاريخية [3]، فالمؤكد أن صنغي حاولت فرض سيطرتها على أغاديس [4] عاصمة

---

(١) يرى البعض من المؤرخين أن صنغي توسعت حتى وصل نفوذها إلى شمال نيجيريا فهاجمت كاتسينا وغوبير وكانو وزاريا وخضعت لها سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وهذا أدى إلى ظهور الثقافة الإسلامية حيث صارت تلك الإمارات مراكز وعواصم تجارية كبيرة . انظر : مرحبا القرشي : مخطوطة فتح الحنان المنان ، ورقة ٣٢ ؛ د. لايا : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(٢) وصف إفريقيا : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٧٣ .

(٣)يرى مهدي آدامو أن دولة صنغي والتي تقع في الجنوب من إمارات الهوسا لم تتوسع في تلك المناطق، ولم يصل الأمر بينهما إلى درجة الغزو، فتلك الأحداث لم يذكرها إلا ابن الوزان ولم ترد عند غيره ، لهذا يري أن احتمالية الغزو ضعيفة و لا يوجد ما يؤكدها ، ولكن إبراهيم طرخان يؤكد ذلك الغزو ويرى أن إقليم الهوسا وقع تحت سيطرة صنغي وكان يدار من خلال نواب حيث كان يعين لها نائب كان تحت سلطة نائب دندي Dendi وهي نيابة كبيرة تمتد نحو الجنوب بالقرب من ملتقي نهر النيجر ونهر بنوي وحدودها الشمالية تصل إلى فزان حيث تضم معظم بلاد الهوسا . ويرى أيضا أن تلك السيطرة كان مردها الحصول على خيرات إقليم الهوسا، والتي كانت توفر المنتوجات الزراعية كالأرز والقمح والقطن والبطيخ والماشية والمعادن والذهب والملح، كما أنها كانت تحتوي على أسواق كبيرة يرتادها التجار من كل الأماكن. انظر : مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص٢٨٦ ؛ إبراهيم طرخان : دراسات إفريقية ، ص ٥٣ ، ٥٦ .

(٤) مدينة أغاديس تمتعت بموقع إستراتيجي، ففي أواخر القرن الخامس عشر أصبحت مركزاً تبادلياً مهماً بين الشمال والجنوب، حيث كانت على مفترق الطرق بين محاور القوافل التي تربط مالي بفزان ومصر ودول الهوسا بواحات توات، مما جعلها هدفاً لأطماع دولة صنغي التي غزتها سنة ١٥٠٠ -١٥١٥م.=

الطوارق والمنفذ الحيوي لتجارة الصحراء، فقد دفع حكام أغاديس الضرائب للأسكيا محمد[1].

لقد كانت صنغي تحاول تثبيت دعائم المملكة التي ورثتها عن مالي من خلال إحكام السيطرة على تنبكت وجني ولا توجد إشارة تاريخية يمكن الركون إليها لتأكيد غزو إمارات الهوسا[2]، ولكن المرجح وجود أطماع لغزو تلك الإمارات كانت قائمة خصوصا وإنها أصبحت مراكز تنافس مراكزها التجارية، يضاف إلى ذلك حركة التجار والباعة من جني وتنبكت في أواخر القرن٩هـ/ ١٥م الذين يرتادون أسواق الهوسا من أجل التبادل وشراء ما ينقصهم . أما اجتماعيا فإن الهجرات لجماعات كثيرة كانت مقيمة في مقاطعات صنغي دخلت إلى الهوسا واستقرت فيها جالبة معها أنماطاً حياتية جديدة ساهمت في تفعيل الروابط التجارية والاجتماعية .

وبحلول القرن ١٠هـ/ ١٦م وبعد انهيار صنغي[3] شهدت إمارات الهوسا فترة من الانتعاش حيث استقر بها التجار بحكم تخلصها من منافسة صنغي، مما جعلها تحصل على

=لقد عملت المدينة على تأمين القوافل مما جعلها في وقت قصير معبراً لكل القوافل القادمة من الشمال تقريبا ، لقد تحدث عنها الحسن الوزان خلال زيارته لها فيذكر أن سكانها من التجار الأجانب ويستخدمون العبيد في تصريف تجارتهم وهم لحراسة القوافل المتجهة إلى كانو والبرنو بسبب وجود قبائل الصحراء التي تهاجم التجار دائما، لهذا يأخذ التجار معهم الاسلحة والعبيد ويستخدمون السيوف والرماح والسهام ويستخدمون البنادق النارية، وعندما يصل التجار إلى المدينة التجارية يستخدمون العبيد في أعمال أخرى. كما استفادت المدينة من عوائد الضرائب المفروضة على البضائع الأجنبية التي تجلبها القوافل . انظر : الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٧١-١٧٢ ؛ مارمول كربخال: مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٢٠٧ ؛ بوبي كادو : مزجع سابق ، ص ٥٨.

(١) إبراهيم طرخان : دراسات في تاريخ إفريقية الإسلامية ، ص٣٠-٣١.

(٢) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق ، ص٦١ .

(٣) بعد سقوط صنغي على يد المغاربة في نهاية القرن١٠هـ/ ١٦م شهدت أغاديس انقراضاً شبة كلي لتجارة القوافل مع جاو ، كما أنها دخلت في صراع ضد كبي ، وجوبير والطوارق. كما أصيبت المدينة بالوباء سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م وسنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م ثم حصل بها فيضان سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م . ويرى البعض من المؤرخين المدافعين عن الغزو المغربي للسودان الغربي أن له إيجابيات كثيرة، فمن خلاله تدفق التجار المغاربة على صنغي لجلب ونقل البضائع حيث يلاحظ تحول=

الاستقلالية التامة من خلال التوسع وتأمين الحدود، وإنشاء الطرق والمعابر الداخلية لربط تجارة الشمال عبر الصحراء بالعمق الوثني [1].

لقد كان القرن ٩هـ/ ١٥م فترة مهمة في تاريخ شعب الهوسا الاقتصادي حيث عمل حكام الإمارات بفعل تغيير ميزان القوة الاقتصادية إلى إقليم الهوسا، على تأمين التجارة والطرق التجارية فقد اتجهت معظم الطرق القادمة من الشمال عبر الصحراء إلى الهوسا وصارت المراكز التجارية في كانو وكاتسينا مقصد تجار مصر والمغرب الإسلامي. ولكن حالة من التنافس [2] ومحاولة فرض الزعامة والسيطرة من قبل تلك الإمارات كانت سمة

=المبادلة إلى المعاملة النقدية، كما تم إدخال الموازين إليها وهذا أدى إلى ازدهار الأسواق المركزية التي تم تنظيمها ، وفي هذا الإطار يقدمون إحصائيات تبين نسبة الاحتكار الكلي لتجارة تلك المناطق المتوجهة إلى المغرب، حيث وصل عدد القوافل سنويا إلى ٤٠٠ قافلة تذهب وتأتي من السودان وإليه، حيث وصل مجموع جمالها إلى ١٤٠ ألف جمل ، محملة بـ ٢٢،٤٠٠ طن من البضائع ، ويقدر آخر عدد القوافل سنويا من صنغي إلى المغرب بعدد ٤٦٢ قافلة ، وتتكون كل قافلة من ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ تاجر يستعملون ٨٠٠ بعير وهذا يؤكد مقدار الاحتكار لتلك التجارة إن صدقت تلك الأرقام . كما أنه خلق منافسة مع الهوسا فصارت المراكز في الهوسا تكرس كل جهودها للعمل على تأمين الخطوط التجارية الوسطى الذاهبة إلى طرابلس ومصر. انظر: محمد الغربي : مرجع سابق، ص٧١، ٤٢٨- ٤٢٩، ٤٤٤ ؛ انظر: بوبي كادو : مرجع سابق ، ص٥٩ ؛ إبراهيم طرخان : دراسات في تاريخ إفريقية الإسلامية ، ص ٤٣-٤٤ .

(١) مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ، ص٣٨١ ، ٣٨٨ .

(٢) لقد شهد إقليم الهوسا ظهور نزاع على الزعامة الاقتصادية بين كاتسينا وكانو، حيث حدث صدام في عهد محمد رمفا ٨٦٨-٩٠٥هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م استمر زمناً طويلا كما حدث صراع آخر سنة ٩٧٣-٩٨١هـ/ ١٥٦٥-١٥٧٣م حيث هزمت كانو، مما جعل الساركن محمد Shashere ٩٨١-٩٩٠هـ/ ١٥٧٣-١٥٨٢م يقود حملة ضد كاتسينا التي يحكمها محمد واري ٩٨٣-٩٩٦هـ/ ١٥٧٥-١٥٨٧م حيث تم هزيمة كانو ونشأت على إثرها حرب أهلية في كانو . كما نشبت حرب بين كانو وغوبير سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م استمرت سجالاً بين الطرفين مدة طويلة وكذلك كانت هناك حروب بين كانو وزاريا، وكانو وبرنو، وكانو والكورارافا ، وكاتسينا وكبي وغيرها من الصراعات التي كانت حول فرض الزعامة الاقتصادية وتأمين الطرق التجارية للمحافظة على تجارة الشمال عبر الصحراء. انظر: Palmer :op.cit, p107,115 ؛ د.لايا: مرجع سابق، ص٥٠٩، ٥١٥، ٥١٢ ؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية ،ص١٠٨ .

تلك الفترة، كما أدى ذلك الصراع إلى ظهور كيانات سياسية أخرى منافسة(1) كان أشهرها إمارة كبي والتى تعتبر من إمارات الهوسا غير الأصلية .

لقد نتج عن ذلك الصراع حالة من عدم الاستقرار السياسي الذي رافقته محاولة تأمين استمرار التجارة الصحراوية، فكان نصيب إمارة كاتسينا أفضل من غيرها من الإمارات باعتبارها البوابة الشمالية، فقد شهدت هجرات كثيرة من البولا، والبربر والونقارة، والطوارق، وازدهرت المدينة بسوقها الكبير الذي يتردد عليه التجار والقوافل من بلاد العرب، والبربر وبرنو وصنغى(2).

وفى هذا الإطار يتحدث الحسن الوزان عن مملكة وانكرة وهي متاخمة لزمفارا من جهة الجنوب الشرقي، ويعتقد أنها بجانب كاتسينا فهي ليست ونكري التي في بلاد مالي أرض الذهب، بل هي مركز نشأ في إقليم الهوسا في القرن ٧هـ/ ١٣م وقد ضمتها كاتسينا إليها . وهذا المركز كان تجارياً ومهماً، استفاد سكانه من الضرائب التي تفرض على التجارة والسلع، فقد كانت كبيرة جدا لدرجة أنهم لا يخرجون إلى أي مكان بل التجارة تأتيهم إلى بلادهم مما جعلهم أغنياء ، كما أن تلك المنطقة كانت مجاورة لمناطق إنتاج الذهب، و يؤكد الحسن الوزان أن السكان لا يخرجون من مدينتهم إلى الشرق أو الغرب بسبب وجود الأسكيا في صنغي، ووجود البرنو، ولكنهم يقومون بالتجارة مع جيرانهم في مناطق الذهب في الجنوب، وهي مناطق وعرة لا تستطيع الدواب عبورها مما يجعلهم يستخدمون العبيد في حمل تلك البضائع، على رؤوسهم، حيث يستحدمون القرع للحمل حيث

---

(1) لقد أدت التغيرات السياسية في السودان الغربي فى القرنين ٩-١٠هـ/ ١٥-١٦م إلى انتقال التجارة إلى إقليم الهوسا وإلى ظهور إمارة كبي، وهي من إمارات الهوسا غير الأصلية كقوة عسكرية حيث هزمت برنو سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م وحاولت السيطرة على مدينة أغاديس، مما جعلها تتوسع في أراضي إمارة جوبير التي نقلت عاصمتها من أزبين إلى برنين لالي في قلب منطقة غولبين حيث تأسست سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وظل الحكام مقيمين بها حتى سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م عندما شن عليهم الطوارق هجوماً مما جعلهم يتجهون إلى منطقة غولبي في الجنوب وهذا قادهم إلى دخول حرب مع كاتسينا التي كانت تعمل على تأمين الطريق التجاري الذي يأتي من تيساوا إلى أزبين مما جعل الصراع مستمراً طيلة فترة قيام الإمارتين. انظر: د. لايا: مرجع سابق، ص ٥١٤ ؛ مهد آدامو: مرجع سابق ، ص٢٨٥.

(2) آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص ٧٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ، ص ٩٠ .

يستطيع العبد حمل ١٠٠ رطل فوق رأسه، ويسير مسافة عشرة أميال، وهناك من يقطع المسافة مرتين في اليوم الواحد، كما أنهم استخدموا الحراس لحراسة تلك التجارة[1].

كما توسعت كاتسينا على حساب جيرانها وكان عداؤها الأكبر موجهاً إلى إمارة كانو التي كانت في حرب شبه مستمرة مع البرنو، وهي القوة المناوئة لكل إمارات الهوسا، فهي من الناحية الشرقية طرف ثانٍ قوي ورئيس[2] وفي الجنوب مشارك فاعل في تجارة الصحراء فهي كانت تمتلك الطرق والعلاقات الجيدة مع دول الشمال، كما أنها تمتلك المراكز التجارية التي تعمل بكل جد من أجل استقطاب تلك التجارة، ولكن مخزونها من الذهب والمعادن كان قليلاً بالمقارنة بما تمتلكه إمارات الهوسا، لهذا دخلت في حروب كان الطرف الأساسي فيها إمارة كانو، التي كانت لها سياسة تختلف عن البرنو، فلم تكن عدائية بالقدر الذي كانت فيه دفاعية، فقد قام الساركن عبد الله بورجا بفتح الطريق التجاري من كانو إلى برنو، مما أدى إلى رواج تجارة الإبل والملح في كانو، وبلاد الهوسا حيث شهدت قدوم التجار من البرنو والبربر[3].

---

(١) الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص١٧٤ – ١٧٥.

(٢) في الواقع كانت تجارة الصحراء في آخر عهود ازدهارها ففي سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م تمكن البرتغاليون من تأسيس ميناء على الساحل الجنوبي للقارة في ساحل الذهب، فكسروا بذلك الاحتكار التجاري لتجارة الذهب والرقيق التي كانت تدار من خلال الصحراء الكبرى، فأصبحوا منذ وقت مبكر طرف ثالث أقوى من جميع الأطراف الأخرى. كما أن ظهور المراكز التجارية في أقصى الجنوب وبالقرب من المحيط الأطلسي عجل من القضاء على التجارة الصحراوية، فقد ظهرت مدينة إيكو التي أصبح اسمها لاغوس نظرا لكونها تقع على جزيرة أسسها جماعة نزحت من قرية إشيري، وبعضهم من مدينة أوتا وآخرون منهم من مدينة بنين. لقد شاركت هذه المدينة في التجارة الخارجية الجديدة عبر المحيط الأطلسي حيث دخلها البرتغال سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م والإنجليز سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م فصار التجار يقصدونها للتجارة والحصول على المنتوجات الأوروبية في مقابل السلع الإفريقية كالذهب، والرقيق، والعاج، وزيت النخيل. انظر: آدم عبدالله الألوري: مرجع سابق، ص ٨٣، ٩١؛ مهدي رزق الله أحمد: مرجع سابق، ص٨٣.

(٣) مهدي آدامو: مرجع سابق، ص ٢٨٥؛ حسين سيد عبدالله: مرجع سابق، ص٨٢؛ فيج. جي. دي: مرجع سابق، ص٤٦؛ Palmer :op.cit, p109

العلاقات مع البرنو:

لقد شهدت العلاقات الخارجية لإقليم الهوسا من ناحية الشرق مع البرنو تواصلاً تجارياً كبيراً وذلك راجع للخطوط التجارية التي تربط البرنو بالشمال وخصوصا مصر[1]، كما أن سيطرة البرنو على مناجم الملح في بيلما [2] جعلها تسيطر على سلعة ضرورية كان إقليم الهوسا بأمس الحاجة لها، خصوصا أن منجم تغازي وقع تحت سيطرة المغاربة ولم يعد يلبي حاجات الهوسا بسبب ضعف التعامل التجاري بين الهوسا والمغاربة في صنغي.

لم تكن العلاقة بين الهوسا والبرنو عدائية بالنسبة للتجارة والتجار، فقد كانت القوافل القادمة من الشمال والتجار والصناع والمهاجرين في حركة مستمرة بين الجانبين [3] يضاف

---

(١) علاقات برنو بمصر والشمال الإفريقي كانت منذ زمن مبكر قبل القرن الحادي عشر خصوصا مع مصر بحكم وقوعها على طريق الحج، كما أن التبادل بين برنو ومصر كان كبير الحجم، فقد استبدلت الخيول بالمصنوعات المصرية والرقيق بالذهب. فقد كان عنصر الكانوري هو من أغلب سكان برنو وقد تخصصوا في تجارة الرقيق حيث حصلوا عليه من خلال الأسر والإغارة على مناطق الوثنيين، كما عملوا على تصدير العاج والجلود. والبرنو وبحكم علاقاتها التجارية مع مصر حيث استفادت كثيراً فقد تطورت صناعاتها وخصوصا الأسلحة. ويعتبر عهد الماي أدريس ألوما حاكم البرنو ذروة التواصل واتساع العلاقات بين البرنو وشمال إفريقيا. كما أن للبرنو علاقات تجارية مع جيرانهم البربر سكان الصحراء، حيث يذكر الحسن الوزان عملية استبدال الخيول بالرقيق التي كانت رائجة في البرنو فمقابل كل فرس ما بين ١٥ إلى ٢٠ عبداً، حيث كانت تستخدم الخيول في قنص العبيد، وعملية التبادل تلك كانت تحتاج لفترات من الوقت فقد يمكث التجار في انتظار الرقيق مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، وقد وجد ابن الوزان تجار مستائين من المدة الطويلة التي يقضونها في انتظار ثمن البضاعة التي تباع لحكام برنو. انظر: الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص١٧٦-١٧٧؛ آدم عبدالله الألوري: مرجع سابق، ص٦٦؛ إبراهيم طراخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص١٦٥، ١٦٧، ١٧٠-١٧١، ١٧٤.

(٢) لقد حاولت البرنو التوسع في المجال الصحراوي للسيطرة على المنافذ والطرق، مما جعلها تسيطر على مناجم بيلما التي شهدت رواجاً كبيراً بعد سيطرة المغاربة على صنغي ومنجم تغازي، فقد ذكر البعض أن القوافل التي كانت ترتاد بيلما وصل عدد جمالها إلى ٤٠ ألف جمل تحمل الملح إلى كانو وتعود محملة بالأقمشة والمنسوجات للطوارق وسكان الصحراء. كما أن البرنو حاولت السيطرة وإخضاع فزان المركز التجاري المهم فقد كانت المسافة بين أرض البرنو وفزان سبعمائة ميل وتحتاج الرحلة لقطعها إلى أربعين يوماً. انظر: جيمس ويللارد: مرجع سابق، ص١٧٦؛ ع. ف. لايون: مرجع سابق، ص٩٠.

(٣) كلابرتون: مصدر سابق، جـ٢، ص١٥٩.

إلى ذلك أن إقليم الهوسا وخصوصا كانو كانت ملجأ آمن لكل الهاربين من البرنو، فقد دخل كانو الأمير العظيم Dagachi وهو من أمراء البرنو بسبب الحروب الأهلية سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م مع جنوده وكامل أسلحتهم، فكان مرحباً به في كانو من قبل الساركن Kanajeji Dauda ٨٢٤-٨٤١هـ/ ١٤٢١-١٤٣٨م الذي كان منشغلاً بحربه ضد زاريا، مما جعل الأمير يقوم بتسيير شؤون كانو لمدة خمسة شهور [1].

وإذا كانت علاقة كانو وإمارات الهوسا قبل سقوط صنغي تصنف بالدفاعية مع الكيانات الكبيرة المجاورة، فإنها اختلفت بعد ذلك، فبسبب تأمين الخطوط التجارية والاستفادة من التجارة الصحراوية، قامت كانو بإعداد حملة على البرنو بعد انتصارها على كاتسينا قادها الساركن Mohamma Kisoki ٩١٥-٩٧٣هـ/ ١٥٠٩-١٥٦٥م الذي دخل مدينة نغورو في برنو بشكل مباغت حيث غنم جياداً وملابس ثم انسحب منها [2].

لقد كانت العلاقات السياسية بين البرنو وكانو على خلاف دائم بسبب إصرار البرنو على ضم إمارات الهوسا، مما جعل حالة من الصراع والحروب تسود بينهما، الذى وصل في كثير من الأحيان لفرض جزية لبرنو كانت تدفعها كانو، وكاتسينا، وصلت إلى مائة عبد سنويا، ولقد تأزم الموقف كثيراً عندما تولى الماي أدريس الووما الحكم في البرنو سنة ٩٧٢-١٠٠٥هـ/ ١٥٦٤-١٥٩٦م والذي كان عازماً على السيطرة على كانو. كما أن الأوضاع العامة وظهور أطراف جديدة في المنافسة على التجارة الصحراوية والمراكز الداخلية، جعل الأوضاع تسير في طرق مختلفة، فقد اضطرت كانو وتحت تهديد الكوارارفا التي غزت كانو، وأجبرت السكان على الهرب إلى دورا لعقد معاهدة سلام مع كاتسينا سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م. كما أن ظهور أغاديس كمنافس على التجارة الصحراوية محل تاكيدا زاد الضغط على إمارات الهوسا حيث استفادت كاتسينا كثيراً من تلك الأوضاع وحسنت موقفها التجاري، وزادت فرص استفادتها من تجارة الصحراء باعتبارها منتهى الطريق التجاري القادم من الشمال [3].

---

(١) إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ١٠٧-١٠٨، ١٦٨؛ Palmer :op.cit, p109 .

(٢) د. لايا: مرجع سابق، ص٥٠٩؛ Ibid : p113 .

(٣) المرجع نفسه: ص ٥١٠؛ مهدي آدامو: مرجع سابق، ص ٢٨٥ .

لقد تداخلت العلاقات والروابط التجارية بين البرنو والهوسا ومصر[1] بشكل كبير، فقد كانت الطرق المؤدية من برنو إلى مصر تقابلها طرق مرتبطة بالهوسا، التي أصبحت المركز الرئيس للسودان الغربي ، فكل المعابر والطرق التجارية المؤدية إلى الحج ومكة كانت تمر عبر مصر، كما أن بضائع البحر المتوسط والمنتوجات الأوروبية كانت تدخل برنو من مصر ثم الهوسا، حيث يتم استبدالها بالثيران التي تربى في إقليم الهوسا والذهب والرقيق[2].

إن التأثير التجاري الصحراوي كان كبيراً وواسعاً فالقوافل كانت تجوب الصحراء وهي تعبر عن مدى الترابط بين السودان بكل دولة، ومصر فالعلاقة كانت بينهما وثيقة[3]. ولم تكن العلاقات بين مصر وسائر بلاد السودان تجارية مصلحية فقط، بل تعدت ذلك بكثير لدرجة إن سكان غوبير كانوا يفخرون بأنهم من أصول قبطية مصرية[4] فقد كان

(١) لقد استفادت البرنو من خطوط التجارة عبر الصحراء، كما كان لها علاقات تجارية مع بلاد النوبة ودار فور، التي كانت تتعامل مع الأسواق المصرية بشكل مباشر، كما أنها استخدمت خطوط مباشرة للوصول إلى الإسكندرية والقاهرة عبر تبستي ومرزق وبرقة . وفي هذا الشأن يذكر ابن الوزان المركز التجاري الذي كان موجودا بالقرب من برنو في الغرب، والذي يطلق عليه اسم كاوكا حيث يصف حدوده ويقول : إنها تمتد شرقا إلى حدود نوبيا الواقعة على النيل، وتنتهي جنوبا بالصحراء التي تتاخم النيل وتسير شمالا إلى صحراء سرت وتخوم مصر، حيث يبلغ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ٥٠٠ ميل يزورها التجار الأغنياء، وسكانها يعملون بالتجارة ويستبدلون الرقيق بالخيل المجلوبة من مصر . لقد بالغ الحسن الوزان في ذلك الوصف وفي حدودها ، فهذه الدولة لم تكن إلا دولة البولالا التي تعرف باسم كاوكا وهي على علاقة جيدة بمصر، حيث يذكر إن تجار مصر يقصدون بلاط حاكمها بسبب سخائه الزائد، بل لم يقف الأمر عند ذلك فقد وفد إلى تلك الدولة الفقراء من القاهرة حاملين معهم بعض الهدايا حيث، يضاعف لهم العطاء ويذكر قصة فقير جاء من القاهرة من دمياط وقدم للسلطان هدية عبارة عن فرس، وسيف تركي وزردا، وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض السكاكين يقدر ثمنها في القاهرة بخمسين مثقالاً فأعطاه الملك مقابل ذلك خمسة عبيد، وخمسة جمال، وخمسمائة مثقالاً من سكة البلاد بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل. انظر: الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٧٧-١٧٨ ؛ حسين سيد عبدالله : مرجع سابق ، ص٨١ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٥٩ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص ٩٠ – ٥١ .

(٣) بوفيل : مرجع سابق ، ص١٧٢ .

(4) Palmer :op.cit, p 96 .

قدر ومكانة مصر كبيرة خصوصا في إقليم الهوسا حيث تواصل الحكام في كاتسينا وكانو مع التجار والعلماء، ومراسلات جلال الدين السيوطي خير دليل على ذلك .

أما عن علاقات الهوسا بالمراكز الصحراوية الشمالية فقد كانت تدار بواسطة الآخرين، فقد كانت نسبة كبيرة من التجارة الخارجية والعلاقات التجارية لإقليم الهوسا تدار من خلال الصحراء والمراكز الموجودة كأغاديس، وغات، وغدامس، وتوات، وفزان ومرزق [1]وهي مراكز يسكنها الطوارق والبربر، فقد كانت بعض قبائل الطوارق والتي تسكن غات اعتادت على غزو بلاد السودان التي يغتنمون منها العبيد والثروات ، كما كان لهم دور مهم في التبادل وتربية الإبل والجمال المستخدمة في التنقل حيث كانت تستأجر من قبل تجار غدامس وتوات . أما عن أسواقها فقد كانت كبيرة ويقصدها التجار، حيث تقام في فصل الربيع بالنسبة للقادمين من الشمال والجنوب وتبقى مستمرة للأهالي على مدار العام . كما ساهمت معهم قبائل التيبو والتيدا في عملية الوسيط التجاري بين برنو، وغدامس وفزان وأسواق الهوسا في كانو وكاتسينا [2].

---

(١) مدينة مرزق وهي عاصمة فزان وسوق للعبيد كبير ومشهور يرتاده تجار بنغازي ومصر، حيث جنوا من وراء تلك التجارة أرباحاً كبيرة ، وأهمية فزان تأتي في كونها محطة لتجار السودان الغربي فقد كانت بضائع الشمال تتدفق اليها من تونس وطرابلس ومصر، ومن ثم تنقل بواسطة القوافل إلى الأقاليم الصحراوية وتعود محملة بالبضائع من تلك الأقاليم، وقد زادت أهميتها بسبب الاضطرابات والأوضاع المتغيرة في السودان الغربي عقب سقوط صنغي، فهي تبعد عن أغاديس مسيرة ستة وثلاثين يوماً في فصل الصيف ، أما في فصل الشتاء فتزيد المدة إلى خمسة وأربعين يوما . أما الطريق منها إلى كاتسينا وكانو فقد كانت الأقرب والأفضل من بين كل الطرق المستخدمة في الصحراء. أما عن تاريخها السياسي المتعلق ببعض إمارات الهوسا فإنها قد تعرضت لحملة من طرابلس سنة ٩٨٤ -٩٨٥هـ/ ١٥٧٦-١٥٧٧م لإخضاعها، ولكنها لم تنجح حيث هرب ابن حاكمها وولي عهدها الناصر ابن المنتصر إلى إمارة كاتسينا حيث استطاع الأهالي قتل الحامية وتخليص المدينة من حكم طرابلس التي كانت تحت سيطرة العثمانيين سنة ٩٨٩-٩٩٠هـ/ ١٥٨١-١٥٨٢م، حيث عاد الناصر وحكم فزان في سنة ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م وكان لهذه الحادثة دور مهم في دعم التجارة والعلاقات بشكل كبير . انظر : كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢، ص١١٦ ؛ ناجتيجال : مصدر سابق ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، ٣٠٦ ؛ جيمس ويللارد: مرجع سابق ، ص٥ ؛ ع . ف . لايون : مرجع سابق ، ص ٩٤ ؛ رجب نصير الأبيض : مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨م ، ص٢٩- ٥٥ ، ١٧٣، ٢٣٩ .

(٢) كلابرتون : مصدر سابق ، ص١١٦ ، ٢١٦ ؛ ع . ف . لايون : مرجع سابق ، ص ٨٥ ، ٨٩ .

العلاقات مع الممالك الجنوبية الوثنية :

لقد نجح الهوسا في التواصل مع الشعوب المجاورة[1] لهم خصوصا في مناطق الجنوب حيث استطاعوا تكوين شبكات تجارية كبيرة عبر السافانا للوصول إلى الذهب والرقيق والكولا، التي تستبدل بالمنتوجات المحلية والقادمة عبر الصحراء، فقد كانت سلع الجنوب هي المواد الأساسية في تجارة الصحراء . ولكن التواصل لم يكن في مجمله سلمي عبر التجارة والتجار وإنما كان في بعض مراحلة توسعي عن طريق الحروب، فقنص الرقيق كان يحتاج لغارات على القرى والقبائل الوثنية ، وفي هذا الإطار تذكر الدراسة توسع كانو في أراضي الكوارارفا في عهد الساركن Kanajeji سنة ٧٩٢-٨١٢هـ/ ١٣٩٠-١٤١٠م والتي على ما يبدو أنها حققت مكاسب لكانو فقد دفع جزية كان مقداها ٢٠٠عبد، ويرى البعض أنها لم تكن جزية وإنما كانت هدية، ولكن الأحداث بعد ذلك تؤكد استمرار دفعها ، فقد كان الساركن يبعث بفرسانه كلما تأخروا في دفعها[2].

لقد استمرت الحروب والغارات، كما استمرت العمليات التجارية من قبل التجار الذين كانوا يستبدلون الخيول بالرقيق والمصنوعات والأقمشة بالذهب والكولا وغيرها

---

(١) لقد سبق التعريف ببعض الشعوب المجاورة للهوسا فيما سبق وبالرغم من ذلك فقد وجب التنويه هنا إلى الدور الذي قام به تجار الديولا في فتح المعابر، والدروب في مناطق الأشانتي بالجنوب وبعض مناطق بحيرة تشاد، والضفاف الوسطى لنهر بنوي، حيث يعش الكوارارفا الجوكون، ومناطق بوشي جنوب الإقليم، كما إنهم كونوا في الشرق علاقات واسعة مع الداهومي والتوجو وغانا الحديثة . كما ساهمت جماعات الماندي في بناء مستعمرات تجارية تتحدث لغة الماندي، دخلت المناطق الشرقية حتى وصلت إلى حوض نهر الفولتا وصلوا إلى الحدود الغربية من بلاد الهوسا الواقعة في منطقة بوسا وتحصلوا على دعم كبير حيث دخلوا إلى الهوسا وبخاصة كانو وكاتسينا ، كما اهتم الهوسا واستفادوا من التجار الذين يعرفون باسم فاتاوسي، أي التاجر بنمط التجارة الخارجية التي تجلب الثراء، وهي المبادلة بين مناطق السافانا والمناطق الصحراوية في الشمال . كما استفاد الهوسا من تجار الأزبيناوه الذين يحملون الملح إلى غوبير، وكذلك تجار غوانجا الذين يقومون برحلات إلى كاتسينا . كما استفاد الهوسا من العرب والفولاني وغيرهم في طرق التعامل التجاري، مما جعلهم يفرضون نمطهم التجاري الذي صار هو الغالب والمتحكم في تجارة الصحراء . انظر : مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص ١٨٢ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ . د. لايا : مرجع سابق ، ص ٥٣٠ ، ٥٣٦ ؛ فيج . جي . دي : مرجع سابق ، ص٨٨.

(٢) مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩ ؛ . Palmer :op.cit, pp107

من العمليات التجارية في أراضي الكوارارفا، التي صارت قوة عسكرية دخلت مجال المنافسة مع إمارات الهوسا، حول سلع الجنوب والشمال .

إن عموم القول حول التواصل وعلاقات الهوسا بالدول المجاورة والتواصل مع القوة الاقتصادية الفاعلة في التجارة الصحراوية، كان كبير الحجم ، فقد استفاد الهوسا من موقعهم الذي كان يربط منتصف الطريق التجاري الشرقي والغربي بين البرنو وصنغي، والمحور التجاري بين الشمال والجنوب، الذي يقود إلى إمارات الموسي، ومملكة بنين، وسلطنة مسينا، وأراضي اليوربا بل والأكثر من ذلك فقد دفع البعض بأن تجار الهوسا وصلوا إلى إقليم آتاغر المتصل بالمحيط الأطلسي، والذي ترسوا فيه سفن النصاري[1].

(د) الصادرات والواردات

إن المخاطر والصعوبات التي كان يتجشم عناءها التجار العابرون للصحراء تدل على أهمية ذلك النوع من التجارة ، فقد كانت تعوض تلك المخاطر بما يحصلون عليه من ثروات تفوق الخيال من الذهب، والرقيق، فالأسعار بين الشمال والجنوب لا تقارن، ولا يمكن تصورها على اعتبار أن السودان الغربي لم يكن يعتمد في نشاطه التجاري على التعامل النقدي[2] وقيمة الأشياء كانت تقدر حسب الاتفاق وبما يراه التجار، حيث تتم عملية المبادلة مضاف عليها مخاطر الطريق عبر الصحراء، علاوة على أنها قادمة من الشمال، حتى وإن كانت سلعاً غير ذات قيمة، فتهافت الأسواق في السودان الغربي على السلع الشمالية تجعل منها ذات قيمة عالية تستبدل بالذهب والبشر .

---

(١) كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص٢٦٢ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص٩٠-٩١ ؛ محمد الغربي : مرجع سابق ، ص٧٢- ٧٣ . مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص ٢٩٩ .

(٢) لقد كانت المعاملات التجارية بما يخص كثير من الأصناف تتم عن طريق الشراء بالصدف الأصفر الذي كان يجلب من الشرق عن طريق القاهرة، وكان يستعمل كنقود وقيمته حسب ما يرى البعض هي كل أربع مائة صدفة تعادل قيمتها أوقية واحدة ، وكل ست قطع من بعض مسكوكات أهل تنبكت وجاو الذهبية مع ثلثي قطعة أخرى تزن أونساً واحدا، وفي زمن الحسن الوزان كانت تساوي ٤٠٠ ودعة مثقال واحد من الذهب، وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال . انظر : الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٦٧ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

لقد لعبت الأسواق الإقليمية المركزية في إمارات الهوسا دوراً كبيراً في تحديد نوعية السلع المنتجة، أو المستوردة المرغوبة، حيث تقوم بدور التجميع والتبادل، وهي تقام على طرق القوافل التجارية الداخلية . لهذا يمكن القول إن تجار الهوسا [1] كانوا أذكياء في تصنيف نوعية السلع على حسب مكان إنتاجها محلياً، فقد كانت مناطق الشمال والشمال الشرقي في باجي، وفاهاي، وبيرنين وزمفارا، توفر القطن والنيلة والماشية . أما مناطق الجنوب في كياوا، ومانا، وتوشووار، وباراغو تستقبل الحبوب وخيوط الغزل والأقمشة والرقيق [2].

أما على مستوى التجارة الخارجية، فإن التصنيف العام للسلع المتاجر فيها كان منقسماً إلى قسمين الأول : احتياجات الدول الكبرى في الشمال من الذهب والرقيق والعاج والتي تستبدل مقابل الودع والملح . والثاني : احتياجات السكان في الإقليم من أقمشة وملابس والكولا ومعادن وحلي وأدوات مختلفة[3] إن هذا التصنيف يوضح معادلة التجارة

---

(١) لقد كانت البداية الفعلية لتجارة الهوسا عبر الصحراء في القرن(٩هـ/ ١٥م) حيث كانت العملية مرتبطة بتطور كانو وكاتسينا، والتنافس بينهما لجذب التجارة الخارجية، فقد عملت الإمارتان على اتباع سياسة اقتصادية واضحة المعالم تسعى من أجل تحقيق الآتي : أولاً : توزيع المنتوجات المحلية من القطن والنيلة والجلد على مراكز التصنيع، والتوسع في مجال إنتاج المواد الفلاحية ومسك الزباد . ثانياً : التركيز على التبادل التجاري وجذب منتوجات إفريقيا الشمالية وسلع أوروبا والتي تدور حول المصنوعات المعدنية والأسلحة والحلي والزجاج والثياب الفاخرة . ثالثاً : العمل على توفير منتوجات الصحراء من معادن، وملح، ونطرون وشب . رابعاً : التوسع وإقامة العلاقات مع المناطق الجنوبية من بلاد الهوسا، التي توفر الرقيق وجوز الكولا التي تجلب من شمال غانا الحالية، وهذا يتطلب أيضا العمل على فتح الطرق الآمنة كالطريق الرئيسي من غوانجا إلى بلاد الهوسا عبر زاريا وبورغو ، كما أن مناطق الجنوب تعتبر سوقاً لتصريف البضائع والمواد الزراعية . خامساً : عمل الحكام على ضمان الأمان للقوافل الخارجية في مقابل الضرائب . سادساً : نشاط التجار والوكلاء وعملهم على تأمين كل السلع والبضائع مما استوجب عليهم توفير المخازن الكبيرة في المدن الرئيسة لتخزين البضائع والسلع . لقد نتج عن ذلك التنظيم وتلك الخطوات نتائج إيجابية، جعل معادلة التجارة الصحراوية تتوازن، فقد كانت تجار شمال إفريقيا ومصر مسيطرين على الشمال والصحراء، وتجار الهوسا يسيطرون على تجارة الجنوب . انظر : بوفيل : مرجع سابق، ٢٤٩ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق ، ص ٣٠٢ ؛ د. لايا : مرجع سابق ، ص ٥٣٣ .

(٢) د. لايا : مرجع سابق ، ص٥٣١-٥٣٣ .

(٣) أ.ج . هوبكنز : مرجع سابق ، ص١٦١ .

الخارجية للهوسا فهي تبادلية بين بلدن المغرب الإسلامي والبحر المتوسط، وأقصى الجنوب الوثني ما بعد ملتقى نهر النيجر وبنوي الذي يصل إلى المناطق القريبة من المحيط الأطلسي، فلم تقتصر العملية على ما تنتجه أراضي الهوسا بالقدر الذي كان يعبر عن إيجاد أسواق داخلية لتصريف منتجاتهم الزراعية والحيوانية التي لا تدخل فى سلع الشمال واستبدالها بما يمكن تصديره عبر الصحراء .

لقد كانت معظم الواردات هي نفسها الصادرات، فواردات دول الجنوب يصدر الحجم الأكبر منها للشمال، وواردات الشمال هي نفسها صادرات الهوسا إلى الجنوب، فالعملية مجرد حلقات مرتبطة بعضها ببعض، والجزء المهم الذي قام به الهوسا وتحملوا فيها العبء الأكبر هو الوصول إلى ملتقى نهر النيجر وبنوي وما بعده وإلى بلاد اليوروبا وبوشي، للقيام بعملية التبادل والحصول على الكولا، والكبريت، والنحاس، والذهب، والرقيق، مقابل الجلود المدبوغة والمنسوجات والأنعام ، حيث كانت تنظم لذلك القوافل الصغيرة، والكبيرة، والتي تعتمد على العبيد في نقل السلع فوق رؤوسهم، بسبب صعوبة الطرق ووعورتها، كما رافقهم أثناء ذلك الحراس الذين يحملون الأسلحة المختلفة لحمايتهم من اللصوص، والحيوانات الضارية [1].

لقد كانت أسواق إمارات الهوسا وخصوصا كانو، وكاتسينا تحتوي على سلع الشمال بشكل كبير، فقد جلب التجار العرب، والبربر والطوارق المنتوجات المصرية من منسوجات صوفية مطرزة بالذهب، وحريرية والودع ، كما إنهم تاجروا في الجلود المدبوغة من المغرب، والملح من تغازي، والنحاس ومن تاكدا وغيرها من المواد كالحلي والسيوف والرماح [2].

وتذكر بعض المصادر أسواق كاتسينا التي تصنع فيها الجلد والوسائد الصفراء والحمراء وسروج الخيل وجلود الثيران والتي تنقل إلى فزان وطرابلس ، بواسطة التجار القادمين من غدامس وتوات والذين يجلبون الحرير الخام والقطن والملابس الصوفية والخرز البيضاوي الشكل والعقود الجاهزة والمرجان الذي تصنع منه السبح و العقود

(١) كلابرتون : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٢٨ ؛ آدم عبدالله الألوري : مرجع سابق ، ص٩٠-٩١ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٣ ؛ المرجع نفسه : ص ٩٠ – ٩١ .

وإبر الخياطة والأقمشة الحريرية زاهية الألوان والأقمشة الحمراء، والقدور النحاسية المطلية بالقصدير والأباريق النحاسية والسجاجيد، والمرقوم، والقفاطين الجاهزة، والخيول والأساور الزجاجية، والهدايا الصغيرة، والكتب التي تجلب من طرابلس ومصر، ومواد الصباغة والسكر التي تجلب من سوسة في جنوب المغرب ، كما جلب الملح المادة الأهم من بيلما شرق بحيرة تشاد، وتغازي ومواد أخرى ، حيث تتم عملية مبادلتها بسلع الهوسا القادمة من الجنوب، وهنا يلاحظ دور الوكلاء المتخصصين في التجارة الخارجية، حيث يشترون من الأسواق الداخلية والبعيدة عن المراكز في الإمارات، البضائع المطلوبة ويقومون بنقلها إلى بلاد الطوارق وتنبكت، حيث يلتقون بالتجار من الشمال وتتم المبادلة بالذهب والرقيق الذي هو عملة ونقود أهل السودان[1].

في مقابل تلك الواردات كان الطلب متزايداً على صادرات إمارات الهوسا من الذهب والرقيق والأقمشة والنيلة والطيب والزباد في تونس ومصر وطرابلس ومراكش[2] التي كانت مشاركة في تجارة البحر المتوسط [3]. لقد كانت الصادارات تنحصر في جلود الضأن والماعز والقرب وجلود النعام في وقت متأخر، وبعض من العسل والبهارات وسن الفيل والأكياس الجلدية والمصنوعات الخشبية والذهب والأحذية، فقد برع صناع جوبير في صناعة

---

(١) المصدر السابق : جـ٢ ، ص٢١٦ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص ٢٤٦-٢٤٧ ؛ ع . ف . لايون : مرجع سابق ، ص٩٩ – ١٠٠؛ جيمس ويللارد: مرجع سابق ، ص١٦٥ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٢) لقد تضاءلت نسبة التجارة مع المغرب بعد سيطرتهم على صنغي، وكادت الطرق التجارية بين أغاديس وتنبكت وجاو تقفل بسبب حركة الطوارق وضياع الأمن إلا إن بعض المغاربة يدافعون بالقول إن تجارة المغرب كانت واسعة مع بلاد الهوسا، فقد كانت البضائع المغربية تصل إلى أسواق الهوسا، وهي تحتوي على معدن النحاس والمصنوعات النحاسية التي كانت تصنع في فاس ومراكش، والأدوات والأقفال وأدوات الخيول، والمحاريث والسلاسل والمصنوعات الزجاجية والفضية والحريرية، والعطور والأصباغ والحلي والملح، والقمح مقابل الجلود والخيول والودع والصمغ، ولكن بعض من المؤرخين يرى أن تجارة الهوسا مع المغرب انحسرت في استبدال الخيول بالذهب والرقيق فقط . انظر: بوفيل: مرجع سابق، ص٢٥٥ ؛ محمد الغربي: مرجع سابق، ص٤٤٥-٤٤٦؛ مهدي آدامو: مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) ناجتيخال : مصدر سابق، ص٢٤٧-٢٤٨ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق، ص ١٨١ .

الأحذية التي كانت تصدر إلى تنبكت وجاو، حيث كانت تلك السلع التجارية ينقلها تجار فزان إلى مصر، كما قام سكان الواحات في أوجلة وسيوة بتلك العملية التبادلية [1].

لقد لعبت الطرق والمعابر دوراً مهماً في نمو حجم التبادل التجاري بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، وهذا دون شك زاد من الصادرات والواردات وتنوعها ، فقد استفاد الهوسا من خبرة الشعوب التجارية التي سبقتهم في هذا المجال .

لقد قدمت التجارة الخارجية نموذجاً من نماذج التواصل بين الهوسا كإمارات مستقلة وجيرانهم من الشعوب، بل إن طموحهم كتجار فاق حدود إقليمهم من خلال تواصلهم مع مصر وطرابلس، والشعوب المجاورة للمحيط الأطلسي جنوبا . فبالرغم من عجزهم عن التوحد في إطار دولة واحدة إلا أنهم نجحوا بشكل منفرد في إدارة عناصر التجارة الصحراوية، التي كانت تسعى صنغي والبرنو إلى احتكارها واحتكار محطاتها التجارية. لقد شهد منتصف القرن ٩هـ/ ١٥م نمو المراكز التجارية في الهوسا، ومع بداية القرن ١٠هـ/ ١٦م توفرت لهم عناصر القيادة والسيطرة بفعل سقوط صنغي، مما سارع في اتساع تلك المركز التجارية المقامة أصلا على خطوط التجارة الصحراوية، وبفعل نشاط التجار والوكلاء والممثلين لهم في الحكومة المركزية تم تمهيد الطرق الجنوبية والشرقية، وتوفير الحماية لها ولكل التجار، مما جعلهم يتحكمون في نصف المعادلة التجارية بل أصبحوا الطرف الأقوى بين كل الأطراف المشاركة في تلك العملية .

إن ذلك الزخم التجاري ترك تراثاً اقتصادياً كبيراً، استفاد منه السودان الغربي والأوسط زمناً طويلاً، بل إن آثاره مازالت موجودة حتى اليوم من خلال طرق البيع والمعاملات التجارية والحسابات، والمصطلحات المستخدمة ، ولكن إلى أي مدى استفاد المجتمع الهوساوي من ذلك التواصل والثراء الاقتصادي التجاري؟ وهل أثرت التجارة على حياة الناس الاجتماعية، وطرق معيشتهم؟ لمعرفة تلك الآثار السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشها ذلك المجتمع الاقتصادي وجب طرحها فى الفصل التالي .

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص١٧٠-١٧١ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق ، جـ ٣، ص ٢٠٦ ؛ بوفيل : مرجع سابق ، ص٢٤٦-٢٤٧ ، ٢٥٤ ؛ ع . ف . لايون : مرجع سابق ، ص ١٠١ – ١٠٢ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق ، ص١٨٣؛ رجب نصر الأبيض : مرجع سابق ، ص ١٩١-١٩٣ .

الفصل الرابع

أثر الحياة الاقتصادية على المجتمع الهوساوي

أولاً: المصالح الاقتصادية والصراع بين الإمارات.

ثانياً: أثر الحياة الاقتصادية على الحياة الاجتماعية.

ثالثاً: الحياة الاقتصادية وأثرها على الحياة الثقافية:

(أ) أثر الأوضاع السياسية والاقتصادية في نشر الثقافة الإسلامية في الإمارات.

(ب) العلماء في إقليم الهوسا:

(١) العلماء القادمون من خارج الإقليم.

(٢) علماء إمارات الهوسا وإنتاجهم العلمي.

(٣) دور العلماء في المجتمع الهوساوي.

(جـ) التعليم وطرقه ومؤسساته.

(د) تأثير الحياة الاقتصادية على لغة الهوسا.

أثر الحياة الاقتصادية على المجتمع الهوساوي

إن عملية حصر كل الآثار الناتجة والمترتبة على الحياة الاقتصادية في إمارات الهوسا والتي أعادت صياغة العلاقات الاجتماعية من الأهمية بمكان، ولكن ليس من السهل الإلمام بها، ولكن الكتاب سوف يختم فصوله بعرض أهم الجوانب التي أثرت فيها وشكلتها الحياة الاقتصادية سياسيا، واجتماعيا، وثقافيا، فقد كان للعوامل الجغرافية والسياسية دور كبير في جعل إمارات الهوسا تبرز كقوة اقتصادية تتحكم في جزء مهم من التجارة الصحراوية، فإقليم الهوسا اعتمد على التنوع في الموارد، لهذا كان هدفاً لكثير من القوة السياسية في المنطقة، كما أنه كان موطناً لأقوام زنجية منتمية إلى أصول شتى، ولهم مهن مختلفة، كالزراعة، والتجارة، ولديهم صناع مهرة، وأصحاب حرف كثيرة يعيشون في قرى ومدن مسورة، حيث كان إقليمهم على قدر كبير من جذب للتجار والمهاجرين، بسبب حسن تعاملهم وحبهم للإسلام[1]، والمصالحة ونبذهم للعدوانية، لهذا فإن الحديث عن الثقافة والمؤثرات الإسلامية يرتبط بشكل مباشر بالتجارة والمهاجرين[2].

---

(١) قضية الإسلام ودخوله للإمارات لم يحسم بعد، بسبب عدم وجود تاريخ ثابت يحدد الفترة التي دخل فيها، ولكن حوليات كانو تذكر إشارات كثيرة تؤكد وجود صراع ديني بين الوثنيين والمهاجرين والسلالة الحاكمة منذ وقت مبكر على أنهم أصحاب معتقد جديد غير واضح، فقد ذكرت الحوليات في عهد الساركن Waris Son Of Bagoda ٤٤٥-٤٨٨هـ/ ١٠٦٣-١٠٩٥م أسماء بعض المقربين والقادة الذين يحملون اسماً ذا طابع عربي إسلامي كعبد الله، أما في عهد الساركن جوجو بن جيجماسو ٦٤٥-٦٨٩هـ/ ١٢٤٧-١٢٩٠م استطاع السيطرة على الوثنيين الكفار، وعرف سر عبادتهم بفضل ذكائه وحسن معرفته، فما هى أصل عقيدة الساركن ؟ وفى عهد نفس الساركن قرر الوثنيون محاربته بعد أن قرر محاربتهم، مما جعل قادة الوثنيين يجتمعوا، فبلغ عددهم ٤٠ شخصاً يمثلون الفئات الاجتماعية للمجتمع وتم هزيمتهم. في عهد الساركنTsamia ٧٠٦-٧٤٣هـ/ ١٣٠٧-١٣٤٣م تم أداء شعائر عقيدة جديدة تسمى Tichibiri لأول مرة، ولم تذكر الحوليات طبيعتها ونوعها وطقوسها، ولكنها ليست وثنية كما يبدو، وعندما عزم هذا الساركن على خوض الحرب ضدهم قال في عموم كلامه: إنه عازم على الوصول إلى مكان تقديم القرابين يوم الخميس إن شاء الله، وسوف يدمر ويقطع الشجرة المقدسة، وعندما دمر ذلك المكان المقدس والبيت المخصص له والصنم قال: الحمد لله، فماذا تعني تلك العبارات التي لا يستخدمها إلا المسلمون . كما أن الساركن عثمانو Osumanu ٧٤٣-٧٥٠هـ/ ١٣٤٣-١٣٤٩م الذي جاء بعده مباشرة أطلق عليه اسم عثمانو، وهي من الأسماء الإسلامية . انظر Palmer :op.cit, pp 100-104 .

(٢) الحسن الوزان: مصدر سابق ، ص ١٧١-١٧٤ ؛ مارمول كربخال : مصدر سابق، جـ٣، ص٢٠٥-٢٠٨ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٢٣٧ .

لقد كانت لتلك الفترة والتي تكونت فيها إمارات الهوسا، وأدت ذلك الدور التجاري أهمية بالغة على المجتمع الذي كان بطبيعته رعوياً، وزراعياً، فقد عرف بفضل التجارة الإسلام وتغيرت فيه أنماط كثيرة، وعادات وتقاليد، كما شهد هجرات كبيرة لشعوب مختلفة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، وشهد أيضا تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية أدت لمتغيرات ثقافية مهمة، فعلى الصعيد المادي تحسنت العمارة، وطراز المباني، واستخدمت الموسيقى والآلات الموسيقية في الاحتفالات والمناسبات، كما استخدمت في المراسم السلطانية أغاني المدح والأشعار التي تمجد الحكام، وتروي قصص حروبهم وانتصاراتهم، لهذا صارت لغة الهوسا [1] اللغة الأكثر استخداما في السودان الغربي، بفعل استخدامها في المعاملات التجارية [2]. ولكن فى نفس الوقت فقد كان للتجارة الخارجية تأثير سلبى على المجتمع فى كونها أدت إلى صراعات وحروب بين الإمارات من أجل السيطرة على طرق التجارة والحصول على سلع الجنوب .

أولاً : المصالح الاقتصادية والصراع بين الإمارات

لقد كانت السمة البارزة للعلاقات السياسية بين الإمارات، ذلك الصراع العسكري والحربي الذي قادته كانو وكاتسينا وزاريا وغوبير وذلك من أجل فرض سيطرتها على أكبر قدر من الأراضي والمدن والقرى والطرق التجارية .

---

(١) لقد تأخر العرب في دخول إقليم الهوسا، مما جعل قضية انتشار اللغة العربية يشار إليها بالضعيفة، بالرغم من أن الدين الإسلامي مرتبط باللغة العربية، ولكن الهوسا استخدموا التعابير العامية والدارجة من اللغة العربية، كما استخدموا لغتهم بدلا من العربية، فقد طورت وأضيفت لها أحرف أبجدية ومصطلحات من العربية بحيث تحل محلها، وهذا التأثير لم يكن بفضل العرب وإنما بفضل التجارة ووصول الإسلام . انظر : الأمين أبومنقا محمد : أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها في نشأة وتطور أدب الهوسا، ص ١٣٦ ؛ أحمد الشكري : الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م نموذج بلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠١٠م، ص٢٤٥ ؛

M . Hiskett : The Historical Background to Naturrization of Arabic Loan Words in Hausa, pp21-25 .

(٢) د . لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٣٩ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١٥٩ ؛ عبد العزيز راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا دراسة تاريخية، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، العدد ٦، الخرطوم، السودان، ١٩٩٠م، ص ٤٤-٤٩ .

ولفهم طبيعة الصراع السياسي والعسكري بين الإمارات لابد من تتبع بعض الحروب الشهيرة بين الإمارات، خصوصا تلك التي وقعت بين كانو وكاتسيبنا وزاريا وغوبير، فقد بدأ التوسع الفعلي في كانو في عهد الساركن يوسا Yusa سنة ٥٣٠-٥٩٠هـ/ ١١٣٦-١١٩٤م، حيث خرج بجيشه وحاصر Farinrua – Gurmai وأجبر الناس على دفع الجزية له [١]، وفي عهد الساركن ناجوجي Naguji سنة٥٩٠-٦٤٥هـ/ ١١٩٤-١٢٤٧م، خرج للغزو ومهاجمة سانتولو ولكنه فشل بعد حصار دام سنتين، وعندما عاد وجد الوثنيين في حالة ثورة، حيث قام بمحاربتهم وقتل قاداتهم، مما جعل البقية تطيعه، حيث طلب منهم معرفة أسرار عبادتهم [٢]. وفي عهد ساركن كانو كاناجيجى Kanajeji سنة ٧٩٢-٨١٢هـ/ ١٣٩٠-١٤١٠م شن الحرب على زاريا ولكنه هزم، وكان يتردد بين رجال زاريا إن كانو لا شيء، حيث طلب منه إعادة دين آبائه وأجداده واتباع السحر كي يهزم زاريا، وقد فعل واستطاع الانتصار. حيث فر السكان وقتل أعداداً كبيرة منهم، بعد أن دخل مدينتهم وقدم له الناس مقداراً كبيراً من الجزية، واستقر بها ثمانية شهور. كما خرج الساركن ياجي المعروف بعلي ٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م، إلى سانتولو Sontula مفتاح الجنوب التي تعني لكانو عمقاً إستراتيجياً لتأمين السلع من الجنوب لتجارة الصحراء . كما كان نفس الساركن منشغلاً بالحرب ضد زاريا، وفي عهده غزت أمينة ساركن زاريا كل المدن المجاورة لها حتى أرض الكورارافا ومن خلال ذلك دخلت منتجات الغرب للهوسا بعد ذلك الغزو [٣].

وفي عهد الساركن محمد رمفا كانت أطول حرب مع كاتسينا، حيث استمرت إحدى عشرة سنة بدون أن تحسم إلى أي طرف، كما أنه في عهد الساركن عبد الله بن محمد رمفا حارب كاتسينا، ولكن لم يحقق انتصاراً كبيراً، وفي نفس الفترة جاء ماي برنو لمحاربة كانو التي لم تكن مستعدة، حيث خرج الساركن ونجح المعلمون في عقد صلح بينهما عاد على أثرها حكام برنو إلى مملكتهم [٤]. في عهد الساركن أبيبكر كادو بن رمفا ٩٧٣-

---

(1) Palmer. H . R :op.cit, pp 101 ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٦٨

(2) Ibid : p107 .

(3) Ibid : pp104-108؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص ٥٠-٥٢

(٤) الحسن الوزان : مصدر سابق، جـ٢، ص١٧٣ ؛ أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٥٧٦-٥٧٩؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص ٥٢-٥٣ . Palmer:op.cit, p112 .

٩٨٠هـ/ ١٥٦٥-١٥٧٣م أساء أهل كاتسينا إلى أهل كانو وحاربوهم[1] حتى وصلوا إلى بوابة كانو، وقهر رجال الساركن وتخلى عن الحكم[2].

لقد كانت كلفة تلك الحروب[3] كبيرة بالنسبة لكل الإمارات، فقد استنفذت قوتها، وخلقت حالة من الصراع المستمر الذي منع الإمارات من التوحد، كما أن تلك الحروب مات فيها خلق كثير وخصوصا من الصالحين والسياسيين[4].

لقد عمل حكام الإمارات على بناء إطار سياسي يخدم تلك النزعة العدائية والتوسعية، ويخدم مصلحتهم الحربية، فقد كان البناء السياسي ينسجم مع البناء الاجتماعي بدرجة ما،

---

(١) وفي عهد الساركن محمد Nazaki حاكم كانو سنة ١٠٢٧-١٠٣٢هـ/ ١٦١٨-١٦٢٣م أرسل لعقد صلح مع كاتسينا، ولكنها رفضت وقادت حرباً ضد كانو ولكنها هزمت،وفي عهد الساركن Kutumbi ١٠٣٢-١٠٤٨هـ/ ١٦٢٣-١٦٤٨م حاكم كانو ذهب للحرب على كاتسينا، وحقق انتصاراً وحصل على غنائم كثيرة . كما أن الساركن Alhaji ١١٥٦-١١٦٦هـ/ ١٧٤٣-١٧٥٣م خاض حرباً على إمارة غوبير التي طلبت عقد صلح، ولكن ساركن كانو رفض فجاءت غوبير في العام التالي وقاتله أهل كانو الذين استخدموا السحر في تلك الحرب .

أما في عهد الساركنKumbari حاكم كانو سنة١١٤٣-١١٥٦هـ/ ١٧٣١-١٧٤٣م، كانت هناك حرب تدور بين كانو وغوبير، كما شهد عهد الساركن محمد Alwali ١١٩٥-١٢٢٢هـ/ ١٧٨١-١٨٠٧م آخر حكام كانو من الهوسا نهاية تلك الإمارة، حيث طارده الفولاني إلى زاريا والتي طردته هي الأخرى، مما جعله يذهب إلى رانو، وهناك لحق به الفولاني وقتلوه . انظر: Palmer. H. R:op.icit, pp 117-119 ,124- 127 ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٦٨ .

(2) Palmer :op.cit, pp 114-115 .

(٣) لقد خاضت كانو وهي الأقوى بين الإمارات حروباً كثيرة من أجل السيطرة على الأراضي والطرق التجارية والسلع والغنائم، فقد غزت إمارة رانو التي كانت تتاخمها من جهة الجنوب في عهد الساركن ياجي بن تسامينا، تم السيطرة عليها وطرد حاكمها، ويعتقد أنها ظلت تابعة لها و تحت سيطرتها مدة طويلة، كما خاضت كانو حرباً ضد الكورارافا التي تقع على الضفاف الوسط لنهر بنوي أحد فروع نهر النيجر، ففي عهد الساركن ياجي قام بحملة للسيطرة على أراضيهم، حيث دفعت الكورارافا الجزية، ولكنها توقفت عن دفع الجزية في عهد الساركن Kanajeji ٧٩٢-٨١٢هـ/ ١٣٩٠-١٤١٠م، حيث أصبحت العلاقات بين الكورارارفا وكانو علاقات تجارية تبادلية بدلاً من حربية وعسكرية. انظر: حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص ٥٢-٥٤؛ Palmer :op.cit, pp 107 – 108

(٤) عبد القادر بن المصطفى : المخطوط السابقة، ورقة ١١ .

وصار المجلس الاستشاري الذي أسسه محمد رمفا، حيث يضم كبار موظفي الدولة وحكام المدن وبعض أعضاء الأسرة الحاكمة القديمة [1] والأمراء، وأبناء الحكام السابقين، والذي أطلق عليه Tara-ta Kano تارا - تا كانو أى تسعة كانو، وبالرغم من وجود ذلك المجلس الاستشاري إلا أن الساركن كان يمثل الحاكم الفعلي، بعد أن انتزع كل الصلاحيات والسلطة من يد كبير الكهنة وصار يمارس سلطته من خلال ثلاث مجموعات من الموظفين [2] على رأسهم أعضاء الأسرة الحاكمة، والموظفون العموميون، وحكام المدن

(١) ارتبط النظام السياسي بالمنظومة الاجتماعية والاقتصادية، من خلال مكونات المجلس الاستشاري لحاملي الألقاب التقليدية والذين كان لهم صوت قوي في اختيار الساركن، ومعهم حكام الأراضي، والبارزين وقيادات الجيش، وزعماء الطوائف الدينية . لقد وجد قبل عصر محمد كوري في كاتسينا مستوطنات وقرى يحكمها رؤساء القبائل والمذاهب الدينية والحرف وكان هؤلاء يمثلون السلالات الحاكمة لفترات طويلة من خلال النسيج الاجتماعي المسيطرين عليه. كما أن وجود المراكز الدينية القديمة باعتبارها مهيمنة على العقائد في المجتمع، ودور الأم والأرض والظواهر الطبيعية ومذهب عبادة الأجداد، والزعيم الاجتماعي الذي يتسلم السلطة هو الذي يملك مراكز العبادة ويحق له السيطرة عليها، كما تم تدعيم العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية من خلال الزواج، وما قام به كوري من جذب للعناصر الوثنية المشكلة للمجتمع في كاتسينا، حيث قربهم وترك لهم حرية ممارسة الطقوس الخاصة بهم. انظر :

Y . B . Usman :op.cit, pp 12 -21 .

(٢) من أهم الموظفين الذين تدار من خلالهم شؤون الدولة في بعض الإمارات أولا : أعيان البلاط، والذين يتولون شؤون القصر والمدينة، ففي كاتسينا وكانو كان أهم موظف غالاديما، وهو بمثابة نائب الساركن. أما آجيا فهو أمين الخزانة وتوراكي وشانتالي، فهما من أجل المراسم السلطانية، وماداواكي هو الموظف المسؤول عن الاصطبلات السلطانية. ثانياً: ممثلو أصحاب الحرف من حدادين ونساجين وصباغين، ودباغين، وبنائين، وجزارين، وصيادين، فقد كان لكل حرفة ممثل ونقيب مسؤول عن مصالح بني حرفته، وعن العلاقة بينهم وبين الدولة وهم مسؤولون عن العلاقات بين أصحاب المهن والدولة، من حيث الحقوق والواجبات، وتقديم وحدات في الجيش. كما يسمح للغرباء بوجود ممثلين لهم، فمثلاً في إمارة غوبير كان هناك ساركن آربين يتولى العلاقات مع الطوارق المقيمين وساركن فولاني الذي يتولى شؤون الفولاني في كانو وكاتسينا. وعندما دخل الإسلام أصبح للمسلمين ممثلون لهم عند الساركن من الفقهاء والمعلمين مالاماي. كما سمح نظام الساركن المتكامل والمتطور للعامة والرقيق من إمكانية شغل أعلى المناصب إذا اعتبروا أهلاً للثقة، لهذا أصبح الخصيان يشكلون جزءاً جوهريا في الدولة. انظر: د. لايا: مرجع سابق، م٥، ص ٥١٩-٥٣٠؛ حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص ٦٨-٧٠؛ Palmer: op.cit, pp. 107,109,112, 120

والمناطق، وكان وريث عرشه يتم اختياره من الأمراء عن طريق مجلس انتخابي، وقد عرفت كاتسينا هذا المجلس الاستشاري وكان هذا المجلس يتألف من أربعة أعضاء [1].

لقد ساعد انتقال السلطة من الكاهن المحلي إلى نظام الساركن على انتشار الإسلام بحكم تغير هرم السلطة الوثني، فقد شهدت الإمارات تطوراً ملحوظاً في الجانب السياسي والذي كان يتفق بشكل كبير مع التحولات الاقتصادية، فقد شهد المجتمع انتقالاً واضحاً من البداوة والرعي إلى الاستقرار وتكوين المدن، التي شهدت أنواعاً جديدة من الأنشطة الاقتصادية، والتي لم تكن معروفة، كما أن نظام الساركن بشكل عام حاول تقاليد النظم السياسية المجاورة له، فقد تأثر بحكام برنو وصنغي وبالرؤية الإسلامية في تلك المناطق، حيث كان له أثر إيجابي على الهوسا وجعل حكامها [2] في حالة تقليد لما هو سائد في المنطقة من محاكاة للثقافة العربية الإسلامية [3]، حيث خاطبهم العلماء من مصر، وتوات والمغرب، وقدموا لهم النصائح، فصار الساركن يخرج للجلوس مع الرعية، وينظر في أحوالهم، ويتحدث معهم، مما نزع عنه صفة التقديس، كما أن مشاركة النساء وأميرات القصر والمحضيات في الحياة السياسية جعل ذلك النظام مرناً إلى حد كبير [4].

إن البناء السياسي العام وما نتج عنه من صراعات و سياسات توسعية في الإمارات القوية كان يخدم مصلحة العلاقات الاقتصادية والتجارية، بحكم أنه كان يعمل على

---

(١) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص ٦٧ ؛ د . لايا : مرجع سابق، م٥ ، ص٥١٨ - ٥١٩ .

(٢) وجود الماي على غازي في برنو سنة ٨٧٥-٩٠٩هـ/ ١٤٧٠-١٥٠٣م ومحمد رمفا في كانو ٨٦٨-٩٠٥هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م و الساركنKanta في كبي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ووجود محمد كوري في كاتسينا، يمثل فترة ذروة الازدهار الثقافي في إمارات الهوسا، فالمناخ العام في المنطقة كان يدور حول انتشار الإسلام والاهتمام بالعلماء واستقطابهم، فقد نجحت كانو وكاتسينا في ذلك من خلال قدوم المغيلي الذي كان له دور بارز ووصيته لساركن كانو توضح ذلك، كما أن خليفة محمد كوري في كاتسينا إبراهيم سوار ٩٠١-٩٠٣هـ/ ١٤٩٥-١٤٩٧م نال اهتمام العالم المصري السيوطي، حيث أرسل له رسالة ينصحه فيها باتباع الإسلام وقواعده، كما كان في كاتسينا العالم ومستشار الساركن القاضي محمد بن التازختي الذي كان يدعو إلى اتباع الفضائل من خلال إقامة الصلاة وأركان الدين، وترغيب الناس في الزواج بدلاً من ارتكاب المعاصي. انظر:

. Y.B.Usman :op.cit, pp20-23,24-25.

(3) Y.B.Usman :op.cit, pp 19-24 .

(4) Ibid : pp21,23-25 .

توسيع الأراضي وجلب كثير من السلع بواسطة الغزو، كما أنه عمل على تأمين الطرق والممرات التجارية، والتي قدمت منها الهجرات والمؤثرات الإسلامية والعربية . إن حقيقة تلك الصراعات وبالرغم من أنها لم تسفر عن نتائج كبيرة، إلا أنها لم تقف أمام تفاعل الحياة الاقتصادية، ولم تكن عقبة في وجه التجارة، فقد كان الساركن يحصل على الضرائب من وراء كل الأنشطة المقامة من خلال نوابه ونقباء المهن ورؤساء العشائر والقرى، ويستخدمها في إعداد جيوشه وتطوير نظامه السياسي الداخلي المبني على أساس طبقي مهني له أبعاد اجتماعية مكمل لبعضه البعض . وهكذا كان للتطور الاقتصادي تأثير كبير على الأوضاع السياسية للمجتمع الهوساوي .

ثانياً : أثر الحياة الاقتصادية على الحياة الاجتماعية

لقد كانت الحياة الاجتماعية في إقليم الهوسا شديدة الارتباط بالحياة الاقتصادية، باعتبار أن الاقتصادي كان يقوم على ما ينتج وما يستبدل فيما بين المجتمعات الرعوية، والزراعية، والحرفية أى أنه اقتصاد إنتاجي تبادلي، يعتمد على الأسرة وما تملكه من أرض وخبرات مهنية وأياد عاملة من نفس الأسر الممتدة وما تملكه من رقيق .

إن المتغيرات الاقتصادية وانتقال المجتمع من طور إلى آخر كان دون شك يعتمد على حيوية الأسر ومدى تقبلها للأوضاع الجديدة المتداخله، والتي ترتبط بالسياسة والاقتصاد والمؤثرات الخارجية، من هجرة وتجارة عبر الصحراء . وللحديث عن آثار الحياة الاقتصادية على المجتمع لابد من معرفة الأوضاع العامة والتركيبة الاجتماعية، والعادات والتقاليد للمجتمع، فقد كان مجتمع ما قبل الإسلام في الإمارات[1] وثنياً يتحكم فيه رؤوساء العشائر والكهنة والسحرة باعتبارهم الطبقة الأولى، وطاعتهم واجبة على الجميع

(١) لقد رأى بعض من المؤرخين أن سكان الإمارات من قبائل الهوسا هم من أرقى القبائل الإفريقية، بحكم حضارتهم وتقاليدهم، وثقافتهم، ولغتهم التي هي الأشهر في غرب إفريقيا، فهي تستخدم بسبب خفتها على اللسان والضبط في الأذهان، ولكن أهم ما يميز الهوسا عن غيرهم من الشعوب كثرة السفر، وتحمل الغرباء من المهاجرين وتعايشهم معهم، كما أن الهوسا وصفوا بسعة الصدر، وخفة النفس، والعزيمة والهمة، وإتقان الصناعة . ولكن ما يؤخذ عنهم: الخوف المفرط من الحكام، والخضوع الفاحش للأمراء، والتجمد على التقاليد الموروثة من الأسلاف. انظر: آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص١٢٦ .

الذين يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي[1]. ولكن دخول المهاجرين بعضهم كانوا تجاراً والبعض الآخر رعاة مثلما دخل الونقارة إلى كانو فى عهد الساركن ياجي سنة ٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م، كما قدم الإسبناوة إلى غوبير، وتجار الغونجا إلى كاتسينا والبربر بأعداد كبيرة، وكذلك قدم العرب الذين استقروا بكانو وكاتسينا ودخول الكانوري والفولاني[2] أحدث تغييراً كبيراً في المجتمع الذي كان غالبيته من الهوسا، حيث استقروا بالمدن، وكان ارتباطهم بالهوسا عن طريق الزواج، ومزاولة الأنشطة الاقتصادية النوعية كالحرف الصناعية والتجارة[3]، فقد نقل هؤلاء الإسلام وعادات وتقاليد جديدة لم يكن يعرفها المجتمع، كما أنهم صاروا من ضمن النسيج الاجتماعي للهوسا .

ومن الملاحظ هنا بالرغم من الهجرات الكثيرة إلى إمارات الهوسا فإن الأصل الإثني للهوسا لم يكن له مغزى اجتماعي كبير أي: إن الهوسا وبعد دخول الإسلام الذي حاول أتباعه القضاء على المعتقدات الوثنية للجماعات الإثنية فلم يمانعوا في ذلك، ولم يكن مجتمعهم منغلقاً رافضاً لذلك التغير، مما جعلهم يقبلون الهجرات ويندمجون معهم[4].

كان للوضعية السياسية والاقتصادية دور كبير فى تحديد طبقات المجتمع الهوساوي، حيث كان الهوسا هم العنصر الغالب، فقد تكون المجتمع على أساس وحسب العناصر البشرية المكونة والمهاجرة إليه[5]، فالمجتمع في مجمله ضم طبقتين[6] الأولى: تضم الحكام

---

(1) Palmer .H.R op.cit,: pp 95-96 .

(٢) دور الفولاني القادمين من مالي في نشر الإسلام، وهما مجموعتان: الأولى سكنت المدن، واختلطت بالسكان الأصليين وتصاهرت معهم مجموعة تسمى Fulanin Gida المقيمين، وهم مسلمون، ولديهم علماء يدرسون الدين، والمجموعة الثانية: تسكن الأرياف وتربي الأنعام وهم رحل يعرفون بـ Fulanin Daji لم يكن لهم اختلاط كبير بالسكان. انظر: شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٣٨.

(3) Palmer :op.cit, pp104-105,111 ؛ Y . B . Usman :op.cit, pp57-58

حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص ٨٥ .

(٤) د . لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٣٥ .

(٥) جون بادن : مرجع سابق، جـ١ ، ص٩٢ ؛ Y.B. Usman :op.cit, pp54 .

(٦) إن عموم تقسيم المجتمع في الهوسا يتكون من طبقتين تضم الأولى: الحكام ورؤساء المقاطعات والأمراء. والثانية: تضم عامة الشعب الذين أطلق عليهم التالاكاوا، ثم ظهرت طبقة الهابي Habe، أيام حكم الفولاني وهم غير المتكلمين بالهوسا، ولكن خصوصية بعض الإمارات كانت واضحة في كون التقسيم وتصنيف المجتمع يخضع للمهنة ونوعيتها ففي زاريا وكاتسينا مثلا كان يقسم=

والأسرة الحاكمة، وكبار الموظفين، والمستشارين، والقادة، وهم الذين بيدهم أمور الدولة السياسية والاقتصادية، كما أنهم يأتون في قمة الهرم الاجتماعي، حيث ظهر عليهم البذخ والثراء، من خلال بناء القصور واستخدام العبيد والخصيان. أما الطبقة الثانية: فهي طبقة المحكومين وتضم ثلاث فئات: علماء الدين الذين ترافق وجودهم بوجود الدين الإسلامي كدين رسمي للإمارات في منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م حيث تولوا المناصب الدينية كالإمامة، والقضاء، والخطبة، والوعظ، وفئة التجار ثم طبقة العامة من الفلاحين والرعاة والصناع[1].

لقد كانت طبقة العامة قاعدة المجتمع في إمارات الهوسا، وهي الأهم اقتصاديا باعتبارها أوجدت لنفسها انسجامًا اجتماعيًا يرتب بحسب الانتماء، وصلة القرابة، ونوعية النشاط الاقتصادي الواحد للمجموعات المختلفة، أما الأغنياء والأثرياء وهي الفئة التي تربعت على قمة الهرم الاجتماعي، فهم من ذوي المصالح الواحدة، لهذا سخر الزواج والمصاهرة كصفة اجتماعية لزيادة الترابط فيما بينهم، ويعتبر الساركن عبد الله بورجا Burja ٨٤١-٨٥٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٢م وهو أول ساركن يتزوج من بنات أتباعه . لقد كانت تلك الفئة تسمى ماسو ساراوتا، وتضم جميع من يمتلكون الثروة، ولهم علاقات وثيقة بالسلطة السياسية، وبطبيعة الحال كان الساركن على رأسها يأتي من بعده النبلاء وهم من الأمراء والأسر التي تحكم المدن والمقاطعات ومن يليهم من ممثلي مختلف

=المجتمع على أساس حرفي، فكبار التجار وخصوصا المشتغلين بالتجارة الخارجية يأتون في أول الترتيب في فئة المحكومين، يليهم أرباب الحرف والذين هم أيضا يقسمون على حسب المهنة على اعتبار أن هناك مهناً مهمة أفضل من المهن الأخرى، فالنساجون والصناع وصغار التجار والمزارعون هم أفضل حالاً من الرعاة والحدادين وهؤلاء أفضل حالاً من السحرة والجزارين الذين يصنفون في أسفل السلم . انظر : عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص١٩٧ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٣٢ .

(١) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص ٨٩ ؛ Palmer:op.cit, pp105 ؛ دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٣١؛ منى محمد عادل سيد: الحياة الاجتماعية والثقافية في إمارات الهوسا، ص٢٨-٤٠ .

الجنسيات والحرف، ثم يأتي الموظفون الذين يعينهم الساركن في المرتبة الثانية وهم من أصول مختلفة من العبيد(١) والعامة(٢).

أما فيما يتعلق بخصوص البنية الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي عند الهوسا، فإن الروابط كانت منحصرة في البنية العشائرية الأبوية(٣) والتي تجمع جميع المنحدرين من أب واحد هي

---

(١) لقد حصلت الإمارات على العبيد من مصادر مختلفة كالجزية التي تؤخذ من القبائل الوثنية، ومن الهدايا التي تقدم للساركن والأمراء، ومن الغزو والحروب التي تقوم بها الإمارات على بعضها البعض، أو على مناطق الوثنيين . كما أن اهتمام الساركن والطبقة الحاكمة بالتجارة في الرقيق، وجلبهم للعمل في المدن والمزارع وتكوين القرى الجديدة كان له دور كبير في زيادة عدد الرقيق، فقد تم توطين الرقيق على أساس اقتصادي إلا أن تلك القرى أصبحت مجتمعات اجتماعية مترابطة، تعتمد على الزواج والمصاهرة في علاقاتها، فقد استطاع بعض الحكام في كانو مثلاً من تكوين وتأسيس أكثر من ٢١ قرية بفضل الرقيق المجلوبين أثناء الغزوات، حيث وصل عدد سكان تلك القرى إلى ما يقارب من ٢١،٠٠٠عبد مقسمين بين الذكور والإناث. انظر: Palmer:op.cit, pp106؛ حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص٩٠؛ د. لايا: مرجع سابق، م٥، ص٥٣٨ .

(٢) د . لايا: مرجع سابق، م٥، ص ٥٣٧؛ Palmer :op.cit, pp109-110 .

(٣) الأسرة والعائلة عند الهوسا ذات مدلول اجتماعي واسع، فهي تعني الترابط التام بين كل أفراد المجموعة الواحدة، فقد صارت العائلة هي الأم عند الهوسا وفادو هي الخلية الأساسية، والأسرة في تكوينها تشمل الإخوان والأعمام والعمات والخالات وأبناء وبنات الأخ والأخت، فهم يمثلون مجموع الأقارب الذين لديهم نفس الأجداد، وهي رابطة دم تعزز بالمصاهرة، والتحالف عن طريق علاقات الأمومة، كما ترتبط العائلة برباط آخر وهو وحدة العبادة، ووحدة الطوطم الذي يشترك فيه كل أفراد العشيرة، لهذا فإن رجال العشيرة الواحدة المكونة من مجموع الأسر يتحلون دائما بروح العصبية خصوصاً في حالات الثأر والقتل، أن أساس العلاقات داخل العائلة والأسرة الواحدة يقوم على احترام الأكبر سنا ورعاية الأصغر سنا وحمايته، فالأكبر نموذج يقتدى به. والزواج الواحد من نفس العائلة يحافظ على الترابط وزيادة العاطفة مع الأقارب ويزيد درجة القرابة، فالزوجة يجب أن تحترم إخوان زوجها والأخوات وأبناء العم والخال والخالة، فكبار العائلة كلهم عندها آباء يجب احترامهم والتعامل معهم. أما بخصوص أسماء الأقارب ودرجة قرابتهم في المجتمع الهوساوي فإنها تحمل مفاهيم واسعة ومختلفة إلى حد ما، فلفظ أب داما غرام لا يدل على الأب الحقيقي بل لفظ يستخدم للدلالة عن إخوان وأبناء عم الأب والأم، ولفظ أم يدل على الأم الحقيقية وعلى أخواتها وأبناء عمومتها وبنات عم الزوج، أما لفظ رافا فيعني الخال، ولفظ إنا يعني الخالة، أما العمة عند الهوسا تسمى بابا، ولفظ أخ عندهم لا يدل فقط على الإخوة الذين بينهم =

المسيطرة، كما أن وجود العشيرة المرتبطة عن طريق الأم كان يعبر عن مفهوم اجتماعي تقليدي حافظ عليه المجتمع حتى بوجود الإسلام، يضاف إليها وجود العشيرة المرتبطة بالرضاعة، فالتواصل بين الأفراد عن طريق الرضاعة له مدلول اجتماعي عميق يعبر عن صيغ الترابط المتعددة، ويؤكد دور الأسرة فى المجتمع الهوساوي، فقد كان دور المجموعات والسلالات العرقية والترابط الأسرى ومجموعة الأقارب هو روح ذلك المجتمع، فالأسرة الواحدة عند الهوسا تمتد لثلاثة أجيال أو أربعة، حيث تتواصل الأسر وتتماسك بفضل الانتساب إلى الجد الواحد، الذي يصنع رابطة قوية فيما بينهم . والأسرة عند الهوسا تجتمع في مكان واحد وقرية واحدة، متكاملة يحيط بها سور من أغصان القصب، هو بمثابة الحد غير مسموح لأحد باختراقه، كما أنه يوفر الحماية لكل أفراد الأسرة، لقد أنتج الانفتاح والتواصل مع السلالات والعائلات الكبيرة داخل المجتمع أجيالاً عديدة عن طريق الزواج بين أكبر تلك السلالات كـ Habe الهوسا والفولاني Fulbe [(1)].

كان النظام الاقتصادي والإنتاجي في الهوسا يعتمد على الأسرة كوحدة اجتماعية وذلك من خلال أفرادها، حيث يتم إنتاج ما يلزمها في البداية بشكل كامل، ولكن بفضل تطور المهن والحرف انتقل المجتمع الهوساوي من مجتمع أسري إلى مجتمع منظم يستخدم الرقيق والخصيان حيث أصبحوا نوعاً من الممتلكات يتم استخدامهم في المهن المختلفة، وهم أيضا سلعة قابلة للبيع والشراء خصوصا الذين يجلبون من الحروب والغزو، فهم ليس لديهم أدنى حقوق، فقد زادت أعدادهم بشكل كبير وأصبحوا ضمن طبقات العامة، مما جعل الهوسا تفرق بين الرقيق وتعطي بعضم شيئاً من الحقوق كتولي المناصب

=رباط الدم بل أيضا على الإخوة من الرحم وعلى أبناء العمومة، بينما يشمل لفظ الأبناء في الوقت ذاته أبناء الشخص الذين من صلبه وأبناء إخوانه، وأخواته، وأصدقائه . إن هذا الامتداد الأسري والتمسك بكل الأقارب تعززه الروابط والعلاقات الاجتماعية الأسرية حيث يظهر ذلك التضامن والترابط في حالات كثيرة: منها حفلات الزواج، أو العقيقة أو الختان، ومساعدة الأباء الكبار في السن على استغلال أرضهم، وكذلك في زراعة الأرض، وبناء المساكن الجديدة، كما يظهر التضامن أيضا في حالة البحث عن سارق أو عن حيوان ضائع أو أداء الدين. دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٢٩-١٣٠ .

(١) دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٢٩ ؛ Y.B. Usman :op.cit, pp 62-63 .

الكبيرة، وتملك الأراضي خصوصا Bayi وهم ما ينتج عن زواج الأرقاء، فقد عين لهم الحكام ساركنا خاصاً بهم يعرف بـ Sarkin Bayil مهمته حصرهم والنظر في شؤونهم، لم يكن النظام الاجتماعي الخاص بالعبيد مرتبطاً بالنظام الإقطاعي في الهوسا بسبب عدم معرفتهم له، كما أن الإنتاج والنظام الاقتصادي عند الهوسا كان لغرض الاستهلاك مقابل ضرائب عينية تدفع للدولة، فالناس يحاولون تلبية حاجاتهم الأساسية دون السيطرة على وسائل الإنتاج[1].

لقد عاشت تلك الأسر في مجتمعات حضرية في المدن، وأخرى ريفية في القرى، حيث كانت تقسم إلى مجتمع الرعاة المتخصصين في الرعي والتنقل، ومجتمع المزارعين الحضر المقيمين في إمارات الجنوب في المدن، فالمراكز والتجمعات السكانية عادة ما تكون متفاوتة الكثافة والعدد، فهي من الكَفْرِ الصغير غرين غونا إلى المدن الكبيرة بيرني المحاطة عادة بسور مرورا بالقرى غاري، وتتكون من أسر حيث تقسم تلك القرى إلى أحياء متعددة لكل منها زعيم غالباً ما يكون الأكبر في السن في سلالة الأسرة، وعملية اختيار وتحديد إنشاء القرية يتحكم فيها نوع النشاط الاقتصادي، لقد تميزت المجتمعات الحضرية بوجود التدرج الطبقي الذي تحكمه المكانة والثراء ونوع الحرفة التي يزاولها السكان[2]، أما الريف فإن امتلاك الأرض وحجمها بالنسبة للأسرة هو أساس المنظومة الاجتماعية والاقتصادية كما أن الحرف كانت تلعب دوراً مهماً في تحديد مكانة الشخص الاجتماعية، حيث كانت المجموعات الحرفية تنظم نفسها تحت قيادة رئيس للمهنة، وهو القائم على شؤونها وهو المسؤول عنها أمام الساركن[3].

إن وجود التمركز السكاني الموزع بين القرى والأرياف كمجتمعات ريفية، من ناحية والمدن التي تمثل المجتمعات الحضرية من ناحية أخرى، ضمن التنوع بين مكونات المجتمع الهوساوي، فقد تحكمت الأنشطة الاقتصادية في توزيع السكان بشكل طبقي، وظهر الاختلاف بين أهمية الريف والمدينة، من حيث نوعية النشاط القائم وتغير المفاهيم،

---

(١) ب . دياين : مرجع سابق، م٥، ص٤٦-٤٩ ؛ د . لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٣٥ - ٥٣٦ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٣٢ .

(٢) دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٢٥-١٢٦، ١٣١ .

(3) Y . B . Usman :op.cit, pp60-62 .

فالمراكز وعواصم الإمارات كانت تدين بالإسلام على عكس الريف، الذي حُفظت فيه الطقوس والعبادات الوثنية، كما أن المراكز والمدن كانت تعتمد على التدرج الهرمي لأعمار السكان بين كبار السن، والبالغين والشباب والأطفال، فأهمية البالغين في المراكز الحضرية تعني قوى عاملة ودفاعية كبيرة، مما جعل تلك المراكز تشهد حركة عمرانية غير موجودة في الأرياف، كما أنهم مارسوا الاحتفالات الاجتماعية والدينية ومواسم الحصاد الجماعية، دون النظر إلى أصل الأفراد، وأصبحت العادات والتقاليد (١) الإسلامية هي الروابط الرئيسة في المجتمع(٢).

لم تختلف العادات والتقاليد كثيرًا بين سكان الريف والمدن على اعتبار أن الثقافة والتراث الهوساوي واحد، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن حياتهم وطرق إعداد الطعام والملابس لا تختلف كثيراً عن الشعوب المجاورة في مالي، وصنغي وبرنو، من حيث الاهتمام بالاحتفالات الدينية والأعياد والمناسبات(٣)، ومع ذلك فإن ثقافة الهوسا التي كانت تشمل العادات والتقاليد كانت تحمل طقوساً وثنية (٤)

---

(١) لم يكن هناك تميز كبير بين أهل الريف والمدن فيما يخص الاحتفالات الاجتماعية والرقص في المواسم المختلفة، والتي عادة ما تنشأ حولها خلافات ومنافسة ومشاكل كثيرة خصوصا عندما يتعلق الأمر بمغازلة النساء، فقد قتل ابن أحد الأمراء ومعه ابن الساركن Tsagarana سنة١٠٧٨-١٠٧٩هـ/ ١٧٦٧-١٧٦٨م في كاتسينا ابن تاجر غني بسبب شجار على فتاة، حيث طلب الناس من العلماء إنزال أقصى العقوبة عليهما، ولكن الساركن رفض ذلك، وللخروج من هذا المأزق استطاع المعلم Yandoto إصدار فتوى تقضي بدفع دية أو فدية. انظر: Y.B.Usman:p56-58

(2) Y . B . Usman :op.cit, pp54-55 .

(٣) حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٩١ .

(٤) يرى عثمان بن فودي أن من العادات السيئة عند الهوسا ذبح الأنعام، والمشي على شعورها، واتباع طقوس وثنية وشيء من السحر، كما أن اختلاط النساء والرجال في الأسواق والطرق كان شائعاً، وكذلك عدم الاحتجاب أمام أقارب الزوج، وكشف عورات الإماء في الأفراح، وصدقات الميت، وكذلك اجتماع الرجال والنساء للرقص والعناء، ومن عاداتهم أيضا جمع الصبيان في الصحراء في مكان منعزل لتعليمهم الرجولة، وكذلك عادات التشاؤم من الطيور، واستخدام السحر والاستفسار من الأزلام .

لقد كان المجتمع الهوساوي يحتوي على عادات كثيرة تغير بعضها بوجود الإسلام وبقي البعض الآخر، والتي من أهمها : عادة التراب فوق الرأس، وعادة ضرب الطبول والمزامير في الحرب،=

حتى بوجود الإسلام[1]، لقد كان التأثير الإسلامي في مجتمعات الهوسا متفاوتاً، ففكرة الموت على حسب العقائد الوثنية القديمة كانت موجودة، كما أن مراسم الزواج والدفن[2] كانت تحتوي على طقوس وثنية، ولكن الهوسا إلى جانب ذلك تأثروا بالإسلام فالاحتفالات عند ولادة مولود جديد مثلاً كانت تقوم على ذبح خروف للطفل من قبل الأب ويطلق عليه اسم يختاره، وعند دخول الإسلام دخلت طقوس جديدة، أعان على هذه الطقوس الحالة الاقتصادية للأسرة، فتسمية الطفل لا تكون إلا في اليوم السابع من ميلاده في الصباح الباكر بحضور الأم والطفل وعدد من الأقارب، حيث يحضر حلاق

=وشرب الخمر، وعادة السورو، وهي مقدار التحكم في النفس، وقوة الاحتمال بضرب الشاب من قبل مجموعة تحيط به بالسياط، وهو يحمل إناء لا يسقط أثناء الضرب وإن سقط يبقى مثاراً للسخرية طوال عمره، كما وجدت عادات عند نساء الوثنيين، حيث يحلقن رؤوسهن، وقد منعها الإسلام واستبدلت بلف الشعر بعمامة، وعادة العري التي حاربها العلماء، وطالبوا الناس بستر العورة وارتداء الملابس خصوصا للنساء، كما استخدمت الطلاسم وشرب محلول أسود بعد غسل آيات قرآنية مكتوبة على الألواح الخشبية، وكذلك الرجوع إلى الكهانة والتنجيم والخلط بينها وبين الإسلام . وعادة السحر ودفن التعاويذ السحرية في أساسات البيوت والقصور فقد كانت متفشية بشكل كبير، وعادة شق الخدود ورسم الندب والخطوط على الوجه وهي لتمييز أبناء القبيلة الواحدة ومازالت تستخدم إلى اليوم حيث يرسم الهوسا خطين على الخد الأيسر بجانب الفم، كما أنهم يستخدمون النار لرسم الوشم الجماعي للقبيلة الذي نهى عنها الإسلام وحاربها العلماء . انظر : عثمان بن محمد فودي : نور الألباب، ورقة ١٥-٢٠ ؛ Palme : pp120-121 ؛ آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص١٢٢،١١-١٢٤ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٣٦-١٣٧؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٢٠٣ .

(١) جون بادن : مرجع سابق، ص١١١ .

(٢) الدفن عند الهوسا يأتي مباشرة بعد الموت، وغالبا ما يكون في المكان الذي مات فيه الشخص، وفترة الحداد وهي مدة تقبل العزاء ثلاثة أيام، حيث يجرى استقبال الناس ويحضرون لزيارة القبر، وتوزيع الصدقات، ومن الملاحظ هنا أنه ليس هناك أراضي مقابر مخصصة يدفن فيها الناس، فالشخص يدفن في منزله، وفي هذ الإطار تذكر حوليات كانو أن الساركن Bugaya الذي حكم سنة ٧٨٧-٧٩١هـ/ ١٣٨٥-١٣٩٠م وعند وفاته كان أول من تم دفنه بالطريقة الإسلامية، فقد تم تغسيله، وتكفينه ودفنه، حيث لم يكن الدفن معروفاً وهو لا يوجد في عادات الهوسا.انظر: Palmer :op.cit, p107 ؛ كلابرتون: مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٩-١٧٠؛جون بادن:مرجع سابق،جـ١، ص١٦١ .

الشعر، ويحلق شعر الطفل، ثم توزع ثمار الكولا على الحضور وتقرأ سورة الفاتحة وبعض من سور القرآن من قبل الفقية المكلف بتسمية الطفل للاسم الذي اختاره الأب، وغالباً ما يكون اسم الجد، أو قريب، أو صديق مقرب، وحفل المولد يستمر يوما كاملاً توزع فيه حلويات مصنوعة من الحبوب(١).

لقد دلت العادات والتقاليد والاحتفالات والألعاب(٢) في المجتمع الهوساوي على تنوع ثقافي كبير كان منسجماً مع الحياة الاقتصادية، بل يسخر لتفعيل تلك الحياة، وخصوصا الألعاب التي كانت تقام بعد كل موسم زراعة أو حصاد، كما أن العادات والتقاليد والأعراف كانت بمثابة القانون المتفق عليه، والذي لا يجوز تجاوزه، فقد حرص

---

(١) دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٣٣ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٨.

(٢) من بين العادات التي لم يتخلص منها المجتمع ظاهرة انتشار عادة السحر Kafin Gori، وهو سحر خاص يدفن في أساسات البيوت والقصور والأسوار للحماية، واستمرار عقيدة Iskoki ممارسة علاج نفسي بالسحر والقوة الخارقة، ولها علاقة بالصخور والأشجار يزورها الناس في أوقات محددة، أما الألعاب فقد كانت هي الأخرى متنوعة وكثيرة وهي تقام في مواسم معينة يشارك فيها الجميع، كما حرص الساركن على إقامتها ففي عهد الساركن محمد Kukuna حاكم كانو١٠٦٢-١٠٧٠هـ/ ١٦٥٢-١٦٦٠م أقام أهل Maguzawa احتفالاً استمر ٢١ يوماً، لعبوا فيه لعبة يبدو أنها كانت تمارس بشكل كبير، حيث كانوا يقومون بضرب رؤوس بعضهم البعض بالحديد، ولم تكن هي الرياضة الوحيدة الخطيرة التي كان يقوم بها الهوسا، فقد اشتهروا بمصارعة الهوسا، وهي قتال وعراك بين رجلين حتى يموت أحدهما وكانت تمارس بحضور المتفرجين في الأسواق، وبدعوة من الأغنياء مقابل المال، ولها طقوس خاصة ويقوم بإدارتها متعهد ومنظم يختار الزمان والمكان ويجني الأموال من الحضور، وكانت تقوم في حلبة خاصة يجتمع حولها الناس، معهم أصحاب الطبول الذين يدقون عليها، ومن ثم يدخل أحد المصارعين إلى الحلبة شبه عاري، عدا قطعة من الجلد حول وسطه ينظر للخصم حيث يسير في الحلبة ويعرض عضلاته ويردد: أنا الأشد وإني قادر على قتل كل من يعارض، ويشجعه الناس ثم يترك الحلبة للآخر، حيث يقوم بنفس الحركات، ثم تبدأ المصارعة والتشابك بالأيدي وبالركلات تحت البطن والأفخاذ، وعندما يتعانقان يتم الفصل بينهما، وفي المقابل كانت هناك الألعاب تنظم في المناسبات الاجتماعية وهي من العادات القديمة هدفها زيادة الترابط الاجتماعي بين أبناء القرية الواحدة فمثلاً عادة الشباب في مدينة Dayi في كاتسينا والتي تقوم على الرقص حول شجرة أثناء موسم الحصاد ومواسم الزواج. انظر: Palmer :op.cit, p120؛ كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٦٦-١٦٧؛ Y . B . Usman :op.cit, pp57-59.

على تنفيذه الزعماء والشيوخ والحكام فمثلا بموجب تلك العادات والأعراف والتقاليد المنقولة من الأسلاف، القاتل واللص والخائن يقتل، والزاني تؤخذ منه غرامة معينة بقدر ثلث المهر، وتسلم للزوج، أما المدين يرهن ولده عند الدائن ليستغله حتى يدفع ما عليه، ومن بين تلك الأعراف الهوساوية أيضا أن المزارع يقدم لمالك الأرض قدراً مما يزرعه، والميراث كله يستولي عليه الأخ الأصغر، والظالم يؤدي دية، أو يخضع لعقوبات جسدية، كالضرب بالعصا، أو الجلد بالحبال المبللة، أو يتعرض للربط في الشمس، أو السجن، ثم أضيف القسم على القرآن الكريم، وأداء اليمن بعد دخول الإسلام، لقد كان يقوم على تنفيذ تلك الأحكام القاضي هو كبير العائلة، ويخضع للساركن الذي يعتبر قاضي القضاة، وهذه التبعية وتلك الأحكام مازال يُعمل بها حتى الآن بين أمراء الهوسا في كانو وكاتسينا، أما القضاء الإسلامي في بلاد الهوسا فإن القاضي في البداية كان يختار من بين العلماء والفقهاء المشهورين بالورع والتقوى ثم صارت بعد ذلك هذه المناصب تورث[1].

إن من أهم القضايا التي يجب أن تطرح عند الحديث عن الحياة الاجتماعية في الهوسا قضية خصوصية تكون الأسرة من خلال الزواج، ودور المرأة في تلك العملية على اعتبار أنها تدير العمليات الاقتصادية الخاصة بالأسرة وعليها يقع العبء الأكبر، فهي تعمل في البيت وعليها حصد المحصول وعصر الزيت، وصنع الخزف، وغزل الصوف والقطن وحياكة الملابس كما أنها تتاجر في السوق وتربي الأطفال، لهذا فإن مفهوم الزواج عند الهوسا يحمل معنى مختلفاً عن المفهوم العام، فقد رأى بعض من المؤرخين أن الزواج ما هو إلا وسيلة من وسائل الاستعباد من جانب الزوج للزوجة، والزوج في نفس الوقت عبد لصهره، حيث يحمل عنه عبء تبعات كثيرة في المراسم والأعياد والمناسبات، لهذا يشترطون الكفاءة في الزوج فهو الظهر والسند[2].

وبالرغم من ذلك فالزواج رابطة ومرحلة من مراحل الرجولة التامة بالنسبة للرجال، كما أنه لربط العلاقات الأسرية، فالزواج في الجماعة الواحدة يعزز العصبية ويمنحها ترابطاً أكبر، ولكن الهوساويين كانوا منفتحين ومرحبين بالمهاجرين، فهم يزوجون الغرباء وأصدقاءهم، بالرغم من أنهم لا ينتمون إليهم بصلة دم[3].

---

(١) آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص١٣٢-١٣٣؛ دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٣٦-١٣٧.

(٢) آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص١١٨؛ منى محمد عادل سيد: مرجع سابق، ورقة ٤٥.

(٣) سمير عزت إبراهيم: مرجع سابق، ص١٣٧-١٣٨؛ دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٣٤.

والراجح أن الزواج عند الهوسا كان يحمل مفهوماً واسعاً للتحالف والتكامل بين العائلات المشتركة في نفس المهنة أو المعتقد، وهو أيضا يعبر عن النسب الواحد الذي تمثله الأم باعتبارها ذات مكانة مميزة ودور مهم، وإلى جانب الزوجة الأم، كان الرجال يتخذون المحضيات التي لم يكن لهن دور في بيت الزوج إلا إنجاب الأطفال الذين يتساوون مع أبناء الزوجة، كما ضمنت لهم عاداتهم تعدد الزوجات(1)، فيسمح للرجال من الطبقات المتوسطة والغنية بكثرة الزوجات لبضع عشرات، أما الحكام فإلى بضع مئات، والغرض من تعدد الزوجات كان من أجل إنجاب الأطفال والتباهي بهم لأنهم قوة اقتصادية في المستقبل، فقد وصل أبناء الرجل الواحد إلى ١٠٠ طفل، لقد كانت الزوجة الأولى عند العامة تحمل لقب ربة البيت ولها السلطة على البقية، وهن فى شغل مستمر طوال النهار وأجراء من الليل بحكم كثرة أعمالهن، أما زوجات الحكام فوضعهن يختلف، حيث يتمتعن بحرية كاملة ويقضين أوقاتهن في فراغ ولهو نتيجة للوضع الاقتصادي الجيد لهؤلاء الحكام(2).

---

(١) الزواج للمرة الأولى عند الهوسا يكون عادة في سن السابعة عشرة عند الرجال، والرابعة عشرة عند النساء، حيث يبدأ بالخطبة ثم القبول، حيث يتم الاتفاق على قيمة المهر والتي دائما ما تكون عينية، والمهر شرط ملزم عند الزواج الأول ففي كاتسينا مثلاً تبدأ أسرة العريس في إرسال الهدايا والتي عادة ماتكون ثمار الكولا إلى بيت العروس، ثم يقدم العريس هدية لعروسه تسمى Zance، وهي مكونة من بعض الحلي وأدوات الزينة، وبعد فترة من الزمن يعقد القران حيث يحضر الفقهاء والشهود، ويعين أحدهم لقراءة الفاتحة في ساحة كبيرة بالقرب من منزل العروس والتي تكون جاهزة حيث تلبس لباساً أبيض، وتضع بعضاً من الحلي وتصبغ لها النساء أقدامها ويديها هي والعريس بالحناء، ثم تتجه إلى مكان الحفل الذي يعلو فيه الغناء ويكثر فيه الراقصون، فهو حفل كبير توزع فيه المأكولات وثمار الكولا، وعند المساء تذهب الزوجة إلى منزل زوجها يرافقها عدد كبير من الأصدقاء والعبيد، حاملين الهدايا من اللحم والملح والعسل والقمح والملابس، ثم ينفصل العروسان بعد العرس عن الناس مدة من الزمن . أما الزواج الثاني وخصوصا من مطلقة فإنه بسيط جداً ولا يدفع فيه مهر بل يكتفي الزوج بدفع صداق . انظر : كلابرتون : مصدر سابق، ص١٦٩-١٧٠ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١١٨ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٣٤ ؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٨؛ سمير عزت إبراهيم : مرجع سابق، ص١٣٧-١٤٢ .

(1) palmer :op.cit, p99 .

آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١١٩ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١، ص١١٠-١١١ .

لقد كان للمرأة[1] بكل أدوارها الاجتماعية أهمية بالغة في المجتمع الهوساوي، حيث مثلت عماد الأسرة والعائل الأكبر لها اقتصاديا، فقدرتها على الإنتاج فاقت التصور بحكم مزاولتها كل الأنشطة الاقتصادية في الإقليم، كما أن العادات الإفريقية عموما، كانت تقف ضدها فالرجال في نفس المجتمع لا يقومون بأعمال كثيرة وواجباتهم تقتصر على الزواج وإنجاب الأطفال الذين يعملون مع أمهاتهم في الحقول، ورعي القطعان والبيع في الأسواق، فمجتمع الرجال في الهوسا يفرض عليهم الكسل وتناول الكولا تحت الأشجار طوال النهار، كما أنه يقيدهم بعادات وأعراف تمنعهم من العمل في الحقول والمراعي، فهم يميلون للتجارة حتى وإن كانت خاسرة .

كانت الحياة الاجتماعية بتنوعها في إقليم الهوسا لا يمكن طرح كل جوانبها في هذا العنصر، على اعتبارها متنوعة، وقضاياها[2] شائكة، تحتاج لدراسات مستقلة، ولكن ما

---

(١) دور المرأة في المجتمع كان كبيراً جداً بل إنه محوري تماماً، فقد تشرف الأبناء بالانتساب لأمهاتهم، وذكر جل الحكام في الإمارات وإلى جانبهم أمهاتهم اللائي لعبن دوراً بارزاً في تثبيت دعائم حكم الإمارة، كما أن أخت الساركن كانت لها دور سياسي تمارسه من خلال شكله التقليدي القديم، فقد استخدمت غوبير دور الأميرات بشكل كبير في تسيير كثير من الأمور، ويكفي أن تشير الدراسة إلى دور الساركن أمينة ساركن زاريا، التي حكمت وحاربت ووسعت إمارتها بشكل عجز عنه كثير من الحكام، ولكن تلك الصورة المشرفة لنساء الطبقة الحاكمة كانت على النقيض تماما في نساء العامة اللائي كن في شغل وعمل مضن ومستمر طوال الحياة، وكانت تمارس عليهن صنوف كثيرة من الظلم أولها: الطاعة العمياء والمطلقة للزوج . وثانيها: العمل في جميع المجالات دون كلل. وثالثها: إنجاب الأطفال دون توقف . ورابعها: تعدد الزوجات وإلزام الزوجة الأولى بالطبخ للجميع . وخامسها : الزواج منهن بعد موت أزواجهن مباشرة دون شهور العدة بوجود الإسلام وحتى إن كانت تحمل طفلاً . فهن مجرد سلعة تشترى وتباع، ورقيق يستخدم دون مقابل، وأثناء تلك الحياة القاسية تضرب النساء وتعذب وتقتل في حالة الخيانة، وتطلق في حالة العقم وعندها ينظر إليها المجتمع كمطلقة Gwauro نظرة فيها كثير من الامتهان والاحتقار فذلك الوضع غير مرغوب فيه. انظر : أبو عبد الله المصطفى بن حماد بن عثمان الغلاوي : العمل المشكور فى جمع نوازل التكرور، جـ٥، ورقة ٣١-٣٥، ٤٢ ؛ Palmer:op.cit, p99,107 ؛ دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٣٤؛ د. لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٢٠.

(٢) من بين القضايا التي لها علاقة بالحياة الاقتصادية وتعد ضمن الإطار الاجتماعي، النهوض المعماري والبناء، فقد شهد الإقليم حركة بناء للحصون والقلاع والأسوار، وهي تحتاج لقوى عاملة، وأموال تدخل في إطار حركة الرواج وتحسن الأوضاع المالية للإمارات، وهذا أثر مهم يحسب للحياة=

طرح هنا قُدم على أساس علاقته الوثيقة بالحياة الاقتصادية، فقد كانت كثير من المدن والقرى أقيمت على أساس اقتصادي بفعل حيوية وترابط الأسر الاجتماعية الإنتاجية، والتي كان يحكم ترابطها نوعية النشاط الاقتصادي الذي ورثته عن الأجداد والآباء، ولكنها تخلت عنه بفعل العوامل الطبيعية أو بسبب ظروف خارجة عن قدرتها، مما اضطرها لتغيير ذلك النشاط، والنتيجة بطبيعة الحال قادتهم للانضمام لمجموعات أخرى، تمارس نشاطاً مختلفاً، وفي هذا أثر كبير على تلك الجماعات التي غيرت أنماط وسلوك وعادات حياتها، والسبب يرجع إلى العامل الاقتصادي .

إن هذا القول تؤكده مجموعة الفولاني الرعوية التي استطاعت تغيير نشاطها الاقتصادي حيث اشتغل البعض منهم في الزراعة والحرف المهنية، والبعض الآخر سلك طريق العلم والتعلم فصار عدد كبير منهم قضاة وفقهاء وشيوخاً، وهذا مكنهم خلال فترة زمنية محددة من قيادة حركة إصلاح ديني أطاحت بحكام الهوسا وإماراتهم فيما بعد القرن ١٣هـ/ ١٩م .

=الاقتصادية، ولكن ذلك النهوض لم يشمل مساكن الرعية والتي كانت مجرد أكواخ من القش دائرية أو هرمية أو مربعة، أو مكعبة، فهي بدائية الشكل مازال الهوسا يسكنون فيها حتى الآن أما فيما يتعلق بالملابس، فقد كانت من الجلود ثم صارت تصنع من القطن والقماش، بسبب حركة التجارة وقدوم التجار الذين جلبوا ملابس راقية وفاخرة، كالسراويل الفضفاضة والملابس المطرزة بالفضة، ومن النسيج المستورد كما استخدموا القلنسوة والشاشية، كما استخدموا الأحذية التي تنتجها جوبير وكانو، وهي نوعان: الصنادل المصنوعة من سعف النخيل أو لوحة الكوميفورا الإفريقية والذى يسمى بالهوسا ضاسي Commiphora Afrcana، والأحذية الجلدية التي كانت تشبه أحذية الرومان وهي من الجلد، أما ملابس النساء فهن يلبسن الوزرة الكبيرة المنسوجة من القطن المحلي والمصبوغة بالأزرق النيلي . ويرى البعض أن لديهن قمصان النوم والفساتين، والخمار، وهي مصنوعات محلية، أما فيما يتعلق بالأطفال، فقد كانت ملابسهم ما يستر عورتهم وفي كثير من الأحيان يتركون بدون ملابس، وهم من أبناء الفقراء، حيث مازالت هذه العادة موجودة بكثرة حتى الآن . أما الإثاث فإنه بسيط جدا يعتمد على ما يصنعه الحرفيون من الطين والجلد والحديد والخشب والمنازل لا تحتوي على قطع كثيرة منه، فهي تفرش بالرمل والحصائر والجلود . انظر: الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص ١٧١ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١١٢ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٢٨؛ ب . ديابن: مرجع سابق، م٥، ص٥٣، ٥٦ .

ثالثاً : الحياة الاقتصادية وأثرها على الحياة الثقافية :

لقد نشأت الثقافة الإسلامية والعربية في إمارات الهوسا بفضل التجارة، وهي من الآثار والنتائج كاملة الوضوح جملة وتفصيلاً، حيث يرد عامل ازدهارها إلى الحياة الاقتصادية، فبفضل التجار والعلماء والمهاجرين والحكام، حيث انتشرت تلك الثقافة وأصبحت ثقافة المجتمع الأولى والتي استطاعت استيعاب كل العادات والتقاليد، وجعلتها في إطار ثقافة محلية إسلامية الملامح والجوهر .

إن دخول الإسلام كثقافة جديدة للمجتمع الهوساوي كان يسير جنباً إلى جنب مع العادات والتقاليد والأعراف المحلية، مما جعل الإسلام المختلط Mixed Islam ينشأ بين السكان، فقد اندمج الإسلام مع الديانات المحلية الإفريقية والطقوس الروحية المحلية[1]، ولم يعتبر الأفارقة الدين الإسلامي دينا غريبا، فقد اعتنقت المراكز الرئيسة الإسلام، أما القرى والأرياف فظلت على دينها التقليدي، تستخدم السحر والطقوس والشعوذة لمدة طويلة[2]، وربما مرد ذلك يرجع لعدم وجود الدعاة والمتخصصين في نشر الدين، فقد أدخل الإسلام عن طريق التجار والمهاجرين من الأفارقة المحليين من مالي وبرنو، كما أن العلماء في البداية تركوا الوضع على ما هو عليه في المرحلة الأولى، بسبب قلة العلماء وصعوبة التواصل والتخاطب والفهم العميق للدين من قبل العامة .

---

(١) بسبب هذه الثقافة المحلية اتهم الهوسا بأنهم غير مسلمين وأن دينهم فاسد فهو اسم فقط، وهذا الحكم أطلقه أصحاب حركة الإصلاح الديني من الفولاني فيما بعد، كما أنهم طرحوا وسجلوا ما كان يمارسه الهوسا من عادات وتقاليد محلية، فقد ذكر محمد بلو الكثير منها حيث يرى أن سكان الهوسا وعامتهم غير مهتمين بقراءة القرآن وتجويده وحفظه، ولم تزل العامة هكذا حتى قام الجهاد، كما أنهم يمارسون العادات الوثنية فيذبحون الحيوانات، ويرشون الدماء على أبواب منازلهم ولهم بيوت خاصة بطقوس السحر والكهانة، ولهم أسياد ومناسبات وثنية يحضرونها، ويسمون ذلك عادة البلد، لم يعمل حكامهم على إبطال تلك العادات، مازالت أصنام آبائهم وأجدادهم موجودة، ويقدمون لها النذور، ومرد ذلك أن الإسلام جاء به التجار والمسافرون، أما الحكام فهم يقرون بالتوحيد ويقيمون العبادات دون تفريق ما كان عليه أجدادهم الأولون . محمد بلو بن عثمان فودي : إنفاق الميسور، ص٥٦ – ٥٧ ؛ أحمد بللو : مرجع سابق، ص٤٤ .

(٢) مصطفى حجازي : الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، ص ٧٤ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٢٥٨ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٩٦ .

يرجع الفضل إلى التجارة والعامل الاقتصادي في دخول الإسلام إلى إمارات الهوسا فالارتباط كان وثيقا بين التجارة والهجرات[1] الجماعية والفردية التي قام بها العلماء، وبين الإسلام والثقافة الإسلامية التي نشأت على أثرها، فقد ازدهر الأدب والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الهوسا أوائل القرن ٧هـ/ ١٣م حتى أواخر القرن ١٣هـ/ ١٩م، حيث تأثر الهوسا بالثقافة الإسلامية بشكل كبير، كما ساعد تلك الحركة العلمية والثقافية على زيادة الروابط الاجتماعية في كونها كانت تشمل الجميع دون تخصيص، كما أنها أسهمت إسهاماً كبيراً في ترابط الإمارات مع الدول المحيطة، فقد كانت غالبية العلماء في كانو من برنو، أما كاتسينا فإنهم من مالي وصنغي، ثم دخل علماء الشمال من مصر، وطرابلس، والمغرب[2].

(أ) أثر الأوضاع السياسية والاقتصادية في نشر الثقافة الإسلامية في الإمارات :

أسهم الحكام إسهاماً فاعلاً في إثراء وتشجيع الحركة الثقافية في إمارات الهوسا بفضل الازدهار الاقتصادي، حيث قربوا وأغدقوا على العلماء، كما أنهم شجعوا الهجرات وقدوم العلماء ورحلات الحجاج وخصوصا في الفترة ما بين القرنين ٩-١٠هـ/ ١٥-١٦م التي شهدت قدوماً لكثير من الجماعات حاملة معها أنماطاً وطرقاً جديدة استفاد منها الإقليم ،

---

(١) لقد ارتبط الإسلام وحركة الثقافة العربية بالهجرات الجماعية لمجموعات تجارية أو رعوية، قام بها الأفارقة كان الغرض منها البحث عن موارد ومصادر العيش، كما ارتبط بالهجرات الفردية التي قام بها العلماء مع بداية القرن ١٥م حيث دخل عدد كبير من العلماء إلى إمارات الهوسا، كما أن بعض الأشخاص الذين لم تذكر المصادر أسماءهم دخلوا إلى الإمارات وفي صحبتهم كتب مهمة، كالعالم الذي قدم من مصر في القرن ١٥م إلى كانو وهو أول من أدخل مختصر خليل في الفقه المالكي، كما أن الهجرات الجماعية كان لها دور فعال كهجرة الونغارة إلى كانو في عهد الساركن ياجي في نشر الإسلام والثقافة العربية، وكذلك يشار إلى الفولاني سنة ١٤٥٢-١٤٦٣م الذين دخلوا كانو في عهد الساركن يعقوب حيث جلبوا كتب التوحيد بعد ما كان يدرس القرآن فقط، كما أن قدوم الأشراف من مكة لكانو زمن الساركن محمد رمفا كان بالغ الأثر حيث جلبوا عدداً كبيراً من الكتب، وأسهموا في بناء المساجد والمآذن، مما ساعد على زيادة عدد المتعلمين، كما أنهم كانوا مستشارين له، فقد عين Fariنائباً للساركن ومشرفاً على أمور الدين في كانو . انظر : Palmer:op.cit, pp111-112 ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٩٠ ؛ أ . م . كاني : مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص١٦ ؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٣٦٧ .

(٢) آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٣٤ ؛ د . لايا : مرجع سابق ، م٥، ص٥٤٣ .

كما يرد لهم الفضل في إدخال أعداد كبيرة من الكتب الإسلامية[1] والتي لم تكن معروفة قبلهم، ككتب التوحيد واللغة، حيث كان الناس لا يعرفون إلا القرآن، ففي عهد محمد رمفا أدخل أحد الشيوخ القادمين من مصر إلى كانو مختصراً في الفقه المالكي لخليل بن إسحاق الجندي ت ٧٧٦هـ/ ١٣٦٥م، وعندما سمع الشيخ عبد الرحمن زيتي كبير الونغارة في كانو ذهب ليستمع له، ولما حضر الشيخ أكرمه المصري، وقرأ عليه، مما أعجبه، حيث أمر تلاميذه بنسخ ذلك الكتاب، وفي عهد الساركن محمد كيسوكى Kisoki سنة ٩١٤-٩٧٢هـ/ ١٥٠٩-١٥٦٥م حاكم كانو جاء الشيخ تونس بكتاب الشفا، للقاضي عياض، كما قدم الشيخ عبد السلام من المغرب بالمدونة والجامع الصغير[2].

---

(١) إن أهم الكتب والتي كانت تدرس في السودان الغربي، دخلت إلى إقليم الهوسا في أوقات مختلفة بداية من أواخر القرن الرابع عشر الميلادى إلى القرن السادس عشر الميلادي، الذي شهد حركة ثقافية كبيرة أسهم فيها الحكام المحليون، بفعل نشاطهم واستقبالهم للعلماء من كل الأقاليم المجاورة، وتلك الكتب يأتي على رأسها المدونة وهي مدونة سحنون في الفقة المالكي، وهي آراء بعض الفقهاء في هذا المذهب، جامع المدونة عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون، أصله من الشام، كذلك برزت أهمية كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى لمؤلفه القاضي أبي الفضل عياض بن موسي بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي وهو من الأندلس ولد بسبتة المغربية وتوفي سنة ٥٤٤هـ . ثم الرسالة وهي مختصر في الفقه المالكي مؤلفها أبو محمد عبد الله أبو عبيدة بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني النفزاوي ولد سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م في تونس وأقام بالقيروان ت ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م بمدينة فاس المغربية، ألف الرسالة سنة ٣٧٢هـ، ثم يأتي المختصر وهو مختصر للشيخ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين ت٨١٨هـ/ ١٤١٥م أما الموطأ فمؤلفه أبو عبد الله بن أنس بن أبي عامر بن عمرو، وكذلك كتاب الألفية وهو ألفية ابن مالك في علم النحو مؤلفها محمد بن عبد الله بن مالك بدر الدين الشافعي الأندلسي ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، هي في النحو والمعاني والبيان وهي مكونة من ألف وواحد بيت من الشعر التعليمي، وكذلك اشتهرت مجموعة من الكتب أهمها ألفية السيوطي والصحيحان البخاري وصحيح مسلم، وقطر الندى شرح ابن هشام، وشذرات الذهب، وفي السير والتاريخ، سيرة ابن هشام، كما درست كتب في التفسير والتهذيب والمدخل والآجرومية والعشماوية ومقامات الحريري والقصائد العشر وزجر المغيلي في المنطق. انظر: أبو الفضل عياض اليحصبي : الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جـ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص١؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٦٧٠- ٦٨٩ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٦٥؛ أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٤-٣٥ .

(2) Palmer :op.cit, pp112-113؛
أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٤؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٦٤ .

في الربع الأخير من القرن ٩هـ/ ١٥م شهدت بعض إمارات الهوسا تحولات مهمة بفعل الحركة العلمية والثقافية التي قادها الحكام، والذين كانوا يدعون ويفتخرون بأنهم من بيوت عربية إسلامية جاءوا عن طريق الهجرات إلى الإقليم، مثل الساركن محمد رمفا[1] ٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م في كانو والساركن محمد كوري صاحب كاتسينا والساركن محمد رابو حاكم زاريا الذي دخل الإسلام فكان أول ساركن مسلم لهذه الإمارة، حيث اهتموا بإقامة الشعائر الدينية، وحاربوا الوثنية وحاولوا إضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية، من خلال الاهتمام بالعلماء خصوصا القادمين من خارج الإقليم، مثل العالم محمد بن عبد عبد الكريم المغيلي، الذي قدم من توات ونزل في كانو وكاتسينا وكان له أثر كبير في تأكيد ونشر الثقافة الإسلامية[2]. والجدير بالذكر أن هؤلاء الدعاة وضعوا تنظيمات اقتصادية جديدة تتفق ومبادىء الشرع الإسلامى الذي انتشر فى هذه الإمارات .

لقد قرَّب الحكام العلماء بالرغم من أنهم من العامة، وكانوا يستمعون لنصائحهم، فقد ذكرت حوليات كانو أن الساركن عمر Umaru ٨١٢-٨٢٤هـ/ ١٤١٠-١٤٢١م كان من الأتقياء وله أصدقاء من العلماء منهم الشيخ جورداموس Dan Gurdamus، وصديق أبي بكر الفقيه الزاهد الذي غادر كانو قبل تولي هذا الساركن إلى برنو، وبعد أحد عشر عاماً عاد فوجد الساركن في السلطة، مما جعله ينصحه بترك السلطة، ويتوب ويندم على ما قدم، ويزهد في الدنيا وتنازل عن العرش[3].

---

(١) تذكر حوليات كانو هذا الساركن والذي حكم كانو ٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م واهتماماته والأعمال التي قام بها في مجال إثراء الحركة الثقافية والعلمية، كما أنه أسهم إسهاماً فاعلاً في بناء المساجد وتشجيع العلماء وتقريبهم منه واستماعه لنصائحهم، كما أنه أول ساركن يستخدم الخصيان في شؤون ومناصب الدولة الرفيعة، وهو صاحب ومؤلف الأعمال الإبداعية الاثنى عشر التي لم تتحدث عن خصوصيتها وماهيتها . انظر Palmer.H.R :op.cit, pp111-112 ؛ عبد الرحمن زكي : مرجع سابق، ص٨٩ .

(٢) أ. م . كاني: مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص١٧ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٥ ؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٩٧؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٩٦ .

(3) Palmer :op.cit, pp 108-109؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٣٩٣-٣٩٤

كما أن هناك حكاماً عرفوا بحبهم للعلم فقد كان الساركن أبوبكر حاكم كانو أول ساركن يقرأ كتاب الشفا في منزله، وهو أول من دفع الأمراء لتعلم القرآن الكريم، كان شديد الحرص على تعليم أولاده القرآن حتى أتقنوا قراءته، وكان له طقس خاص في ذلك حيث يبدأ القراءة من منتصف شهر شعبان في كل صباح بعد شروق الشمس، حيث يجتمع الأمراء ويخرج الساركن بعد صلاة الفجر، وكان له سبعة أبناء يقرأ كل منهم جزءاً من القرآن، ثم يلي ذلك قراءة الجامع الصغير[1].

كما أن بعض الحكام[2] كان يفضل صحبة وصداقة العلماء خصوصا من درس وتعلم معهم ففي عهد الساركن Bawa باو بن محمد١٠٧٠-١٠٨١هـ/ ١٦٦٠-١٦٧٠م كان له صديق يدعى علي ديكو يلازمه بحكم دراستهم معا، حيث كان علي يؤدي الصلاة الصبح في منزل الساركن ولا يعود لبيته إلا بعد صلاة العشاء، وكان هذا الساركن يقدر ويحترم العلماء كثيراً، مما جعله يبني لهم مدرسة عرفت باسم بوغاشن كسكي Pugachin Kaiski، وفي عصره جاء إلى كانو شخص اسمه عبدالله، وكان طالب القرآن مع أصدقائه، وكان له صوت جذاب عند القراءة سكن بالقرب من منزل علي ديكو، وفي إحدى المرات كان عبد الله يعطي درساً للناس في المسجد، بعد صلاة العشاء، حيث صادف وجود على صاحب الساركن هناك، فسأل عنه فقيل له: إن اسمه عبد الله الغريب، فأخذه للساركن، حيث قرأ له جزءاً من القرآن، مما جعل الساركن يبني له بيتاً بالقرب من البوابة، وكان عليه أن يقرأ له كل ليلة، وأثناء شهر رمضان كما كان يقدم للساركن خطباً ومواعظ أثناء السهرة، وعندما مات المؤذن في كانو Dan Lowan عين الساركن عبدالله في مكانه[3].

---

(1) Palmer.H.R :op.cit, pp 114-115 .

(٢) تذكر حوليات كانو فى وقت متأخر عن زمن الدراسة الكثير من المواقف التي تؤكد عزم الحكام على نشر الثقافة الإسلامية، من خلال تقليد العرب في لباسهم وطرق معيشتهم، كما فعل الساركن Babba Zaki ١١٨٢-١١٩٠ه/ ١٧٦٨-١٧٧٦م، كما أنهم حرصوا على مرافقة نخبة من العلماء والتجار حتى في غزواتهم، فقي عهد الساركن Dadi ١٦٧٠-١٧٠٣م وأثناء حربه ضد الكورارافا رافقه عدد ٩٩ معلماً، كما أنه استمع لهم في كثير من الحالات عندما منعوه من الحرب . انظر :
Palmer.H.R :op,cit, pp122-123,126 .

(3) Ibid : pp 121-122؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٤٠٠

وفي مقابل تلك المعاملة[1] كان هناك حكام يضيقون على العلماء ويفرضون عليهم الضرائب كما فعل الساركن Kumbari، ففي عهده تم جمع الجزية حتى من المعلمين، مما جعل العزب وكثيراً من العلماء، يغادرون كانو إلى كاتسينا بسبب سوء المعاملة تلك[2].

(ب) العلماء في إقليم الهوسا:

إن جزءاً كبيراً من الفضل في إثراء الحركة الثقافية[3] في إقليم الهوسا يرد لمجهودات العلماء القادمين من خارج الإقليم، فقد كان جهدهم كبيراً في نشر الإسلام والثقافة

---

(١) لقد وصف بعض الحكام بأوصاف الطيبة والحلم، وحسن الأخلاق، التي يتمتع بها العلماء، الذين كانت ألقابهم مبجلة وعالية المنزلة، فالساركن Yaji ١١٦-١١٨٢هـ/ ١٧٥٣-١٧٦٨م وهو حاكم عادل وطيب وذو أخلاق كريمة وأوصاف معتدلة، لذلك أطلقت عليه زوجاته اسم معلم Lafia، كما حرص الحكام على تقديم الهدايا للعلماء تقرباً منهم، فقد وصف الساركن الحاجي١١٥٦-١١٦٦هـ/ ١٧٤٣-١٧٥٣م، بأنه قدم الهدايا للمعلمين لدرجة، أن أحدا لم يقدمها لهم من قبله. انظر: Palmer :op.cit, pp 125-126 .

(2) Ibid : pp 124-125 .

(٣) إن الثقافة الإفريقية متشابكة مع العادات والتقاليد المحلية بشكل كبير، ومفهومها عموما عندما عرفها بعض المؤرخين في حالة الهوسا، بأنها حالة من النضوج الفكري في الشؤون كلها، في الدين والأدب والاجتماع ونحو ذلك، ولكن التعريف يضيق عندما يطرح في إطار الثقافة الإسلامية، فهي فرعان يختص الأول: بالدين، فالثقافة الدينية عندما طرحت في إقليم الهوسا على يد قادة حركة الإصلاح الديني كان يقصد بها تطهير الدين من الأساطير والمعتقدات الخرافية، وتقوم في المقام الأول على تكفير كل أهل السودان الغربي، وهذا راجع للاختلاف في المفاهيم الإيمانية، فمثلا بعض قبائل الهوسا كانوا يستعطفون الأرواح خلال طقوسهم الدينية وبمفاهيم يتم من خلالها استئذان الله في ذلك، كما أنهم قاموا بتغيير وتحريف أسماء الملائكة والجن والقرآن، كما أنهم قاموا بأدوار كثيرة في ممارسة بعض العقائد والطقوس القديمة التي أوجدوا لها صيغاً جديدة من خلال الإسلام، فقد كانت العجائز أو العريفات لهن دور بارز في ذلك، فالعريفة تكسب نوعاً من القدسية فيشار إليها بالأم، حيث يقام على قبرها طقوس خاصة بها. أما الفرع الثاني: من مفهوم الثقافة والمتعلق بالآداب، فهو كل ما انطبع بالفكر من آثار الشعر والخطابة والكتابة الناضجة. لقد كانت ثقافة الهوسا تعتمد في نقلها على الرواية الشفوية الذي ينقل بواسطة الشعراء، فقد استعمل الشعر عند الهوسا والأغاني باعتبارها جزءاً من العملية السياسية وجزءاً لا يتجزأ من المنظومة التقليدية. وقد استخدام الشعر بلغة الهوسا للتوثيق، والشعراء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: مغنو القصور، الذين يطلق عليهم=

الإسلامية، كما يرد الفضل أيضا إلى الهجرات التي جاءت للإقليم من كل الأقاليم المجاورة والتي جلبت معها الدين الإسلامي والكتب، كما أنها عملت على تأكيد المبادئ الإسلامية في المجتمع، من خلال تولي المناصب الدينية داخل تلك الإمارات كما فعل دعاة الونقارة[1] في كانو الذين جاءوا بالإسلام والتجارة[2].

كما كان لقدوم وإقامة المهاجرين والمعلمين والدارسين أثر إيجابي في تحويل المدن في إمارات الهوسا إلى مراكز إسلامية، فقد وفد على كاتسينا في عصر ازدهار الثقافة الإسلامية في الفترة ما بين القرنين ٩- ١٠هـ/ ١٥-١٦م علماء ومعلمون أقاموا فيها، وما زالت أماكن إقامتهم موجودة فيها إلى الآن فهي تسمى بعنبر صنغي، وعنبر الآسبيين، وعنبر مالي، حيث كان يقيم المعلمون[3].

=Makadin Fada، والمغنون الشعبيون Makadin Jama ، والمغنون الفلاحون Makadin Noma . المغنون الشعبيون عادة ما يوجدون في المناطق الحضرية وهم يغنون لرجال المال والأعمال وللحرفيين، ويرتبطون بعدد كبير من المهن والحرف. أما الغناء فهو يقام بعد صلاة العشاء وما بعد الظهيرة، وفي رمضان حيث يستخدم الطبول . انظر : آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص١٠٠-١-١ ؛ محمد المنصور، فاطمة الحراق : مصطلح فولاني في بلاد المغرب، ص ٣٧-٣٩ ؛ جون بادن : مرجع سابق، جـ١ ، ص٧٢-٧٣ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٨٨ .

(١) إن وصول الونقارة إلى كانو له أهمية كبيرة في نشر الإسلام، فقد رأى البعض أن عددهم كان ٣٦٣٦ فيهم العالم والقارئ وكانوا بقيادة عبد الرحمن زيتي ورحب بهم في كانو، حيث أسهموا في بناء المساجد والخلاوي القرآنية، وإقامة شعائر الدين من خلال تقسيم المهام الإسلامية فيما بين كبارهم، حيث تولى عبد الرحمن القضاء، وغردامس إمامة المصلين، وحمد المؤذن، وأرتا المشرف على ذبح الحيوانات بالطرق الشرعية . انظر : آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٨٢؛ شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٤٠ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٣ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٣٩٢ .

(٢) آدم بن محمد العطار : المخطوطة السابقة، ورقة ٢٠ ؛ A . Mohammed And M . B . Khan : From Cradle To Grave : The contribution Of The Ulama to Education In Nigeria , Kano Studies , v2 , No2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981 , pp77-80

آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٧٩-٨٠ ؛ مهدي آدامو : مرجع سابق، ص٢٩٥ .

(3) A . M . K . Kani : The Rise and Infuence Of Scholars in Hausaland Before 1804 , pp66 . أحمد بللو : مرجع سابق، ص٨٣

(١) العلماء القادمون من خارج الإقليم :

نالت إمارات الهوسا في القرن ٩-١٠هـ/ ١٥-١٦م اهتماماً من بعض العلماء المسلمين، فقد استأثر العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي بالنصيب الأكبر من ذلك الاهتمام، حيث دخل إقليم الهوسا، وأقام في كانو وكاتسينا وكان له دور كبير في دعم الإسلام والثقافة الإسلامية، حيث أسهم في بناء المساجد والخلاوي، ولعل أشهرها مسجد غوبارو Gobarau في كاتسينا الذي بني سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م وهو على نفس نمط مساجد أغاديس، وجاو وجني، كما أنه قام بالتدريس والوعظ، ولم يكتفِ بذلك، بل شارك في الحياة السياسية حيث تولى القضاء في كاتسينا، وحاول من خلال حكام كانو وكاتسينا تكوين دول إسلامية ذات قواعد راسخة بواسطة الأسس الإسلامية في المعاملات، وتكوين المجتمع، وقد بدا ذلك واضحا من خلال إشارته على الحكام تكوين المجالس الاستشارية، والتي تضم القاضي والإمام، وبعض رجال السلطة، وأعطى الشرعية التامة بموجب الدين للساركن باتخاذ كافة الوسائل من أجل درء المفاسد الدينية والدنيوية، وإقامة الحدود الشرعية، وتلك الرؤية أوضحها من خلال وصيته[1] التى وضعها تحت عنوان فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام واستخدام الشريعة في رد الناس عن

---

(١) دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٠٢ ؛ أ .م. كاني: مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص١٨؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٨٠ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٦ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٤١- ٤٢.

- إن الدور الذي اضطلع به المغيلي في إمارات الهوسا كان كبيراً، فقد أسهم في وضع أساس المدارس الدينية، كما إنه جلس للتدريس في كانو وكاتسينا، بالرغم من أن زمن دخوله لم يضبط بعد، إلا أن ما تركه من أثر على تلك المناطق تدل على الجهد الكبير وحسن المعاملة التي قابله بها حكام المنطقة، فقد استمعوا له ونفذوا تعليماته بكل دقة، فقد قام ماجي إبراهيم ساركن كاتسينا بدعوة الناس لتسجيل زواجهم في عقود شرعية وفق الشريعة الإسلامية . إن من بين الوثائق المهمة والتي اهتم بها المؤرخون وصية المغيلي في أصول الاجتهاد والقياس، وهي وصية ترك المغيلي لعبد الله محمد بن يعقوب ساركن كانو والتي اكتشفت في كاتسينا سنة ١٩٣٠م، وهي تحمل عنواناً فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام واستخدام الشريعة في رد الناس عن المفاسد . انظر :.المغيلي : فيما يجوز للحكام من ردع الناس عن الحرام، ورقة ٣-٧ ؛ عثمان بن فودي : تنبيه الإخوان على أرض السودان، ص٩ ؛ آدم بن محمد العطار : مخطوط سابق، ص٢٠ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص ١٣٣-١٣٥؛ بوفيل : مرجع سابق، ص٢٤١ ؛ الأمين أبو منقا محمد : دراسات إفريقية أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها ونشأة وتطور أدب الهوسا، ص١٣٧ .

المفاسد، حيث أجاز للحاكم استخدام الضرب والحبس والقتل من أجل إعلاء الدين، كما أعطاه الحق في مراقبة السلوك العام، ومنع الناس من الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم، ومنع الكفار من إظهار ذلك للمسلمين في الأسواق والأماكن العامة، وقد رتبت تلك الوصية في فصول كان أهمها : فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته واختيار الموظفين والقائمين على شؤون الناس من أمناء ومحاسبين، واستخدام المحتسب لكشف الأخطاء في البيع والشراء، واستخدام الشرطة والقضاء، كما دعا إلى استخدام الشرع في الميراث وتحديد الضوابط الشرعية له، وتوزيع الأموال والإرث بالتساوي بين الأبناء . ثم ذكر فيما يجب على الحكام من عدل في الأحكام واتباع مبادئ الدين الإسلامي واستخدام القضاة للفصل بين الناس والشهود، وإقامة الحدود على المتجاوزين فى الشرع . كما خصص جزءاً منها للحديث عن الأموال الحلال وجمع الزكاة وصرفها على مصارفها، كما أنه أشار للغنائم وكيفية صرفها، ثم تحدث عن ضرورة منع الرشوة وأخذها من قبل القائمين على شؤون الناس والدولة، إقامة الحدود على السارقين والزنا، وتحريم المكس والضرائب الحرام. وختم وصيته بالحديث عن العلماء وضرورة التوسيع والإنفاق عليهم من خلال مصارف أموال الدولة[1].

لقد شهدت فترة دخول المغيلي إلى إقليم الهوسا ازدهاراً وتواصلاً كبيراً بين المراكز في الإمارات والأقاليم المجاورة، فقوافل الحجاج كانت تنطلق من تلك المراكز وعبر الطرق التجارية التي تحولت إلى إقليم الهوسا متجهة إلى مكة عبر طرابلس ومصر، وهذا جعل أعداداً كبيرة من الدارسين والمعلمين والعلماء من العرب والبربر، ومن تنبكت وجني وبرنو، ينزلون في تلك المراكز، بل صارت الإمارات محط اهتمام الكثير من العلماء الكبار في العالم الإسلامي من أمثال العلامة المصري جلال الدين السيوطي[2] سنة ٨٤٨-٩١١هـ/

(١) المغيلي: فيما يجوز للحكام من ردع الناس عن الحرام، ورقة ٣-٧؛ عثمان بن فودي: تنبيه الإخوان على أرض السودان، ص٩؛ آدم بن محمد العطار: المخطوطة السابقة، ص٢٠؛ أحمد العلمي حمدان: مرجع سابق، ص٨٩-١٠٧ .

(٢) نالت إمارات الهوسا اهتمام العلامة المصري جلال الدين السيوطي، حيث يرى بعض من المؤرخين أنه في سنة ١٤٧٣م قام بزيارة كانو وكاتسينا وأغاديس، وبالرغم من أن هذا القول ضعيف حيث لم تؤكده المصادر فإن هذا العالم كان على اطلاع كبير بأوضاع تلك الإمارات، حيث راسل صاحب كاتسينا الساركن إبراهيم وتناول في تلك الرسالة الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وقدم النصح=

١٤٤٥-١٥٠٥م، والعالم أحمد بابا التنبكتي الذي دافع وخصص جانباً من علمه لمحاربة بيع الرقيق المجلوب من إمارات الهوسا، على اعتبار أنهم مسلمون، ولا يجوز بيعهم[1].

لقد عمل الوافدين على إدخال النظم والطرق التعليمية إلى الهوسا بمراحله المتنوعة، حيث كانت لها دور مهم في ترابط المجتمع، كما أن الدارسين والعلماء كان بعضهم مرتبطاً بالحكام، حيث قدموا لهم النصائح، وفرع منهم آخر كان مبتعداً عنهم، يعمل على تحسين دراسته، ونشر الدين بين الناس في الأرياف والقرى بعيداً عن الحكام، وخوفاً من الوقوع في الخطأ[2].

كانت الآثار الإيجابية واضحةً من خلال تدفق أعداد كبيرة من العلماء والدارسين على إقليم الهوسا، فقد كان التيار الديني والثقافة الإسلامية في نمو متزايد بواسطة هؤلاء، ففي عهد الساركن محمد كزوكي ٩١٤-٩٧٢هـ/١٥٠٩-١٥٦٥م جاء إلى كانو الشيخ Tunus الذي جلب معه كتاب الشفا للقاضي عياض إلى الهوسا، حيث بنى له الساركن مسجداً وأصبح له أتباعاً . كما وفد أيضا Dan Goron Duma إلى كانو، وقد خصص له الساركن مكاناً لإقامته . ثم جاء الشيخ عبد السلام الذي جلب معه المدونة والجامع الصغير والسمرقندي، وفي العام التالي جاء Tubi من زاريا للتعليم في كانو. ثم جاء إلى كانو ثلاثة علماء من برنو وهم Karaski وMagumi و Kabi، وكانوا جميعا إخوة، حيث أقام واحد منهم في كوفان Fada بعد أن عرض عليهم الساركن القضاء، فرفض أحدهم

=للحكام في اتباع الشرع الإسلامي، وقد كان ملماً بشكل كبير بأوضاع الهوسا عن طريق الحجاج وطلاب العلم المقيمين في مصر، والمثل الذي ضربه عن غوبير عند مرض أحدهم، حيث كان يضحي بعبد أو أمة من أجل شفائه خير دليل على معرفة العادات والتقاليد المنافية للشرع عند ذلك العالم . انظر : عثمان بن فودي : تنبيه الإخوان على أرض السودان، ص٩ ؛ مرحبا القرشي : فتح الحنان المنان في أخبار السودان، ورقة ٢ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص ٩٨، ١٣٦-١٣٧ ؛ أ. م . كاني : مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص٢٠-٢١ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٠٣ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٧ .

(١) أحمد بابا التنبكتي : معراج الصعود، ص ٣٥-٥٢ ٥٨ ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص ٨٠ -٨٢ ؛ محمد الغربي : مرجع سابق، ص٥١٤ ؛ أبو بكر مقيا : مرجع سابق، ص٢٠٦ .

(2) A . Mohammed And M . B . Khan :op.cit, pp 84-85 .

وقبل الآخر، كما زاد عدد العلماء القادمين للهوسا، ففي عهد الساركن أبوبكر Abubakr حاكم كانو ٩٧٣-٩٨٠هـ/ ١٥٦٥-١٥٧٣م، زاد عدد المتعلمين، وجاء المعلم شريف Tamma، Gesu ، Wuri إلى الهوسا من Lagoni، والبعض الآخر جاءوا من باغرمي، حيث نزلوا في كانو وكاتسينا، ثم استقروا في غوديا، حيث تزوج الساركن محمد زكي ٩٩٠-١٠٢٧هـ/ ١٥٨٢-١٦١٨م إحدى بنات العالم Tamma [1].

وصل إلى كانو في الفترة ما بين ٩١٠-٩٢٦هـ/ ١٥٠٤- ١٥١٩م الرحالة العالم عبدالرحمن سقين المغربي[2] تلميذ ابن غازي المؤرخ قادماً من مصر، ودرس بها وكان رفيقه العالم مخلوف بن على بن صالح البلبالي[3] ت ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م حيث كانا نشيطين في التعليم

---

(1) Palmer H . R :op.cit, p 113-117

د . لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٤١ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٣٩٧ .

(٢) وهو الحاج الرحالة الخطيب أبو محمد عبد الرحمن بن على بن أحمد القصري الفاسي السفياني العاصمي ت ٩٥٦هـ المعروف بسقين ولقب سقين أمازيغي يعني إسكين، أي صاحب البشرة المائلة للسواد أو الأسمر، دامت رحلته إلى بلاد السودان ومصر والحجاز خمس عشرة سنة تقريباً من سنة ٩٠٩-٩٢٤هـ/ ١٥٠٣-١٥١٨م، حيث أقام في إقليم الهوسا، ثم ذهب إلى مصر برفقة العالم محمود ابن عمر بن محمد أقيت، والتقى بالعالم القلقشندي، وشيخ الإسلام ابن حجر، ثم عاد إلى بلاد السودان ودخل مدينة كانو حيث جلس مع حكامها على الفراش الرفيعة، ووصلوه بالصلات الجزيلة، وتولى القضاء فيها، وأعطي جوارة أبكار وله أولاد هناك، وكانت له نوازل حول كثير من القضايا، كما كانت له علاقة وثيقة بالفقيه العالم العاقب الأنضمي، والعالم محمد بن أحمد التازختي، ثم عاد إلى وطنه وصل إلى فاس ٩٢٤هـ . انظر: بشير أحمد الفلاني: المخطوطة السابقة، ورقة١٦ ؛ محمد بن شريفة : مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجيريا خلال القرنين ١٥-١٦م، .ص ٦-٧، ١٢-١٥ ؛ محمد بن شريفة : من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، ص١٤٨-١٥٥، ١٦٠-١٦١؛ محمد الغربي : مرجع سابق، ص٥١٦ .

(٣) مخلوف البلبالي أصله من إحدى الواحات القريبة من توات، كان يشتغل بالتجارة ثم تركها، حيث رحل إلى ولاتة، حيث اشتغل بالعلم عن كبر سنه تتلمذ على يد الشيخ عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، ثم رحل إلى المغرب ودرس عند الشيخ ابن غازي، ثم عاد ودخل كانو وكاتسينا، وقام بالتدريس ثم ذهب إلى تنبكت ومنها إلى مراكش. انظر : أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٦٠٨ ؛ السعدي : مصدر سابق، ص٣٩ ؛ محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي : فتح الشكور في تراجم علماء التكرور، تحقيق الهادي المبروك الدالي، دار الكتب الوطنية، بنغازى، ليبيا، ٢٠٠٢م، ١٥١ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٧١١ ؛ محمد الغربي : مرجع سابق، ص ٥١٧ .

في كانو وكاتسينا، وكان لهما دور كبير في التدريس وتعليم أصول الدين[1]، كما دخل إقليم الهوسا العالم العاقب ابن عبد الله الأنضمي المسوفي ت ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، وهو من أهل أغاديس حيث درس هناك، وجاء أيضا العالم أحمد بن عمر أقيت ت٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م هو جد أحمد بابا التنبكتي، حيث سكن كانو وكاتسينا ودرس بهما، وكانت زيارته قبل تولى الأسكيا محمد الكبير الحكم في صنغي سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م[2].

كما دخل كانو الشيخ العالم أبوعبد الله محمد بن مهدي الزناتي زمن محمد رمفا ٨٦٧-٩٠٤هـ/ ١٤٦٣-١٤٩٩م[3]،كما دخل كاتسينا العالم محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي الذي عرف باسم Aida أحمد أصله من تازاخت من منطقة ولاتة Walata، وكان فقيها متكلماً، ومحدثاً حضر دروساً كثيرة للمغيلي، ثم رحل إلى الشرق سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م وحصل على إجازات من علماء مصر ومكة، ثم عاد إلى السودان الغربي واستقر بكاتسينا، حيث عينه الساركن قاضياً في حوالي ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م، كما استطاع تأسيس مدرسة لتعليم القرآن والفقه[4].

كما دخل إقليم الهوسا علماء من فزان لم يضبط تاريخ دخولهم، والمرجح أنهم دخلوا خلال القرن ١٠هـ/ ١٦م وما بعده، فقد كان أشهرهم الشيخ رمضان بن أحمد الفزاني الذي استوطن زنفرا، ثم زاريا وكانت له مؤلفات منها نظم على رواة البخاري، والجوهرة في ذم علم النجوم . كما دخل طلاب العلم من زاريا إلى كانو للتعلم منهم الطالب توبي، كما قصد طلاب العلم من الهوسا برنو حيث نزلوا في الخلاوي القرآنية التي كانت منتشرة في جميع أجزاء برنو، كما قصدوا أغاديس والتي هي مركز مهم لعبور الحجاج والعلماء

---

(١) محمد بن شريفة: مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجيريا خلال القرنين ١٥-١٦م، ص٦-٧، ١١-١٥؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٩٣ .

(٢) أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص١٣٧-١٣٨، ٣٥٣ ؛ السعدي : مصدر سابق، ص٣٧ ؛ محمد بن شريفة : من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، ص ١٦١ ؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٩٣ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٤١ .

(٣) آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٨٢ ؛ منى محمد عادل سيد : مرجع سابق، ورقة ٨٨ .

(٤) السعدي : مصدر سابق، ص ٣٩-٤٠ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٤٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد: مرجع سابق، ص٧٢٤ ؛ عبد الرحمن زكي: مرجع سابق ص١١٥ ؛ . دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١٠٤.

وهي من أهم المراكز العلمية التي وجدت فيها المكتبات، حيث كانت تضم كتباً كثيرة استفاد منها طلاب إقليم الهوسا والمجاورون لها[1].

لقد أصبحت عواصم الهوسا مراكز علمية بفعل حركة الرواج، والتنقل الكبيرة للعلماء والتجار التي شهدتها، حيث صارت كاتسينا ثاني مدينة علمية بعد تنبكت، والناس عبر قرون عديدة كانوا يفدون إليها من كل أنحاء غرب إفريقيا لتلقي العلم على يد علمائها وعلماء الهوسا، وتحسين معرفتهم وزيادتها على يد معلمي كاتسينا، وعلماء الهوسا الذين استفادوا من ذلك الزحم، فقد ظهر عدد كبير من العلماء المحليين الذين قادوا ونشروا الثقافة الإسلامية بلغتهم[2]. والراجح أن العلماء الذين وفدوا إلى إمارات الهوسا قد شجعهم تحسن الأحوال الاقتصادية فى تلك الإمارات لذلك نالوا أعطيات الحكام .

(٢) علماء إمارات الهوسا وإنتاجهم العلمي :

أدت ما نالته إمارات الهوسا من رواج تجاري، وانتقال للمهاجرين والعلماء والدارسين، إليها إلى ظهور نخبة من المعلمين المسلمين، مارسوا تأثيراً ملحوظاً في كل المجالات، حيث أصبح الإسلام الرابط الرئيس للبنية الاجتماعية، وأصبح للمعلمين دور مهم في حياة الناس، فمن أهمهم عبد الله محمد بن مسنة بن غوما بن محمد بن عبدالله بن نوح البرناوي الكاتسيناوي١٠٠٤-١٠٧٨هـ/ ١٥٩٥-١٦٦٧م المعروف Dan Masani[3] والذي عاش في منطقة Masanawa في كاتسينا، وقد أخذ عن شيخه

---

(١) محمد بلو بن عثمان فودي : إنفاق الميسور، ص ٧٥ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٥٩ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٣٩٨، ٧١٥ ؛ أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٢٢-٢٧،٢٣ .

(٢) أحمد بللو : مرجع سابق، ص٨٢ .

(٣) لقد كان العالم دان مسنة نحوياً ولغوياً عاش في زمن الساركن محمد جان هازو ١٠٨٢-١٠٩٦هـ/ ١٦٧١-١٦٨٤م في كاتسينا، وكان يدعو الناس لصد غارات الكوارارافا الوثنيين، مما جعل الساركن يزوره في بيته، ويمنحه لقباً رفيعاً ويشكره على ما قام به من جهود منحه حق منح الماوي والملاذ لمن يريد ذلك من الناس، وصار مستشاراً للساركن، ولكنه رفض في نفس الوقت تولي منصب Sarauta في الحكومة المركزية، وهو منصب ظل خاصاً بالمعلمين الأقوياء الذين يؤثرون=

العلم محمد الكاتسيناوي بن الصباغ[1] المعروف Dan Marina حيث لعبا دوراً مهماً في إثراء الحياة الفكرية والعلمية، فقد كانا على تواصل مع العالم محمد بن أحمد التازختي المعروفDan Takum [2] . والجدير بالذكر أن ثمار ما قدمه العلماء الذين وفدوا على إمارات الهوسا قد ظهرت بعد الفترة الزمنية للدراسة ويرجع ذلك إلى تأخر انتشار

=على الحكام . أما العالم Dan Marina، فقد وصفه صاحب إنقاق الميسور بأنه دهليز العلم، ولد في العاصمة كاتسينا وكان معلماً بمدارسها، وقد أخذ عنه دان مسنة وكثير من علماء الهوسا، وتكريما له أطلق اسمه على شارع من شوارع كاتسينا الآن، على اعتبار أنه علم من أعلام الثقافة الهوساوية الإسلامية. انظر: محمد بلو عثمان : مصدر سابق، ص٧٥ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص ١٠٨-١٠٩ ؛ Y .B Usman : PP25-27 .

(١) ولد دان مرينا Dan Marina ابن الصباغ في كاتسينا، وكان له الفضل في النهضة الثقافية في إمارات الهوسا، فقد ترك مجموعة من الأعمال أهمها: كتب شرح الوصايا، والعشرينيات لأبي زيد عبد الرحمن أبي سعيد أحمد الفزاري، وكتب قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وله أيضا مجزرة الفتيان على طفي نور الله بالعصيان، وهي قصيدة من أجل استنهاض همم الشباب، وله أيضا قصيدة في مدح أفعال الماي على بن عمر ١٦٤٤-١٦٨٤م حاكم برنو على الكورارافا، وعلى أنه حاكم مسلم، توفي سنة ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م . أما العالم عبد الله بن مسنة، ويرسم لقبه على أشكال منها مسني، مانساني، وتعني: ابن العالم، ولد أيضا في كاتسينا من أبوين من برنو، وهذا دليل واضح على التواصل وحرية التنقل أمام العلماء والدارسين والتجار بين الهوسا والأقاليم المجاورة، وقد كان لهذا العالم عدد كبير من المؤلفات اللغوية والفقهية كان أهمها: عين الخلاص في تلاوة سورة الإخلاص، وأزهار الربا في أخبار يوبى، وذكرة إنفاق الميسور، وبزوغ الشمسية في شرح العشماوية، وفتح المرام، وهي منظومة ليس فيها حرف منقوط، والنفحة العنبرية في حل الألفاظ العشرية، وتزيين العصا بقرب العصا . انظر : محمد بلو بن عثمان فودي : إنفاق الميسور، ص٧٥ ؛ د. لايا : دول الهوسا : مرجع سابق، م٥ ص٥٤٤ ؛ دجيبو ملام حماني : مرجع سابق، ص١٤٧ ؛ مصطفى حجازي: الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، ص ٧٥ ؛ . Y.B. Usman :op.cit, pp 33-35

(٢) محمد بلو بن عثمان: إنفاق الميسور، ص٧٥؛ البرتلي : مصدر سابق، ص١٣٦-١٣٧؛ مهدي رزق الله أحمد: مرجع سابق، ص٤١٧؛ عبد الرحمن زكي: مرجع سابق، ص١٧٥؛
Y.B.Usman:op .cit,pp27-28.

الإسلام رسميا إلى منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م، ومن المعلوم أن التكوين الثقافي وظهور علماء محليين[1] يحتاج إلى قرون وهذا ما حدث في إمارات الهوسا[2].

---

(١) كما ظهر بعد ذلك العالم محمد بن محمد الكاتسيناوي الفولاني، حيث هاجر من كاتسينا من أجل طلب العلم، فدخل برنو وتتلمذ على يد الشيخ محمد كرعك، وأخذ عنه علوم الأسرار والرمل والحساب، حيث أقام بها خمسة أشهر، ثم رحل سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م للحج، كما دخل مصر، التي استقر وتعلم فيها، وقد برع في المنطق وله العديد من المؤلفات، مثل الدرة المنظومة، بهجة الآفاق وإيضاح اللبس، والإغلاق في علم الحرف والأوفاق، ومنح القدوس، كما برع في علم النحو، وله مؤلفات من أهمها: بلوغ الأرب من كلام العرب، توفي في القاهرة سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م، وقد ترجم له العالم المصري عبد الرحمن الجبرتي . انظر : محمد بلو: مصدر سابق، ص٧٥ ؛ أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٤٢ – ٤٥؛ أ.م. كاني مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص٢١-٢٢؛ دجيبو ملام حماني: مرجع سابق، ص١١١ .

(٢) ومن علماء الهوسا البارزين الإمام العالم العلامة الفهامة فريد دهره، ووحيد عصره، عبد الله سكا الفلاني البعاوي رحل إلى أغاديس، ثم إلى فزان، وأخذ العلم عن ابن غانم، والشيخ البكري، ثم رجع إلى بلاده، حيث أخذ عنه علماء كثر، منهم محمد البعاوي، والقاضي موسى غادو السوداني، وله مع الشيخ البكري مناظرات حول عادات سكان الهوسا التي وصفت بالجاهلية، حيث يرى الشيخ البكري، تكفير ما يفعله الناس، والشيخ عبد الله يرى عكس ذلك. ويرد لقب هذا العالم في بعض الكتب، سكة، سك، وثقة، Sikka، والدراسة اعتمدت على ما ورد عند محمد بلو، عاش هذا العالم في كانو، وكان له عدد من المؤلفات والقصائد من أهمها: قصيدة العطية للمعطي، وهي منظومة بالعربية وضع فيها الشعائر الإسلامية والعبادات، والمظاهر الإسلامية كالحج والجهاد، والإدارة العامة، كما ناقش بعض المسائل الدينية في العقيدة كالتقشف والزهد، وهو أول من بنى البحور العربية في نظم الشعر الهوساوي .

لقد ذكرت حوليات كانو أسماء كثير من العلماء والمعلمين والأشراف العرب، الذين نزلوا بكانو في عهد الساركن Babba Zaki ١١٨٢-١١٩٠هـ/ ١٧٦٨-١٧٧٦م، دون أن تذكر مجال علمهم وهم المعلم عباس، Alkali Makam ، Limanin Kano ، Aburauf وأبنائه، Dan Mallam والشريف حسين، والشريف حماد، والشريف ذهب . كما تذكر وثيقة أخرى عدداً كبيراً من قبور الصالحين والعلماء، الذين أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية في كانو، فقد تحولت قبورهم إلى مزارات يتردد عليها الناس، كقبر سيدي الشيخ عبد الله الثقة، ومحمد زهر، والذي يقع مزاره في الجنوب من كانو، وأيضا قبر الشيخ محمد صاحب الستين، ومحمد ميأدو، والشيخ محمد=

لقد كان وضع العلماء في الإمارات متبايناً ومنقسماً لفريقيين بالنسبة لقربهم من الحكام أو بعدهم عنهم، فالفريق الأول : كان موالياً للساركن وله علاقة وثيقة به، وهم لا يحركون ساكناً إزاء ما يظهر من سلوك منافٍ للدين، أما الفريق الثاني: فقد كان يفضل الابتعاد عن الحكام خوفاً من المال الحرام، ومن مجاملة الساركن على حساب الدين، كما أن بيوت الحكام كانت تضم أصحاب العقائد المختلفة، ومستخدمي السحر والشعوذة، كما يضم كثيراً من النساء والمحضيات، والعبيد والخصيان، والمستشارين السياسيين، والتجار الذين كانوا على خلاف مع العلماء، مما جعلهم ينتشرون في القرى والأرياف للتدريس أو أن بعضهم ينعزل في مكان خاص به للتدريس والتعبد[1].

=الحصاد، والشيخ محمد الحبال، المعروف بابن سرندال، ومنهم أيضا الشيخ محمد الذي يلقب بالله طيا، والشيخ أبوبكر الكنوي، والحاج إبراهيم، والشيخ محمد المحمود المغربي الفندكي، وغيرهم كثير. كما ذكر عدداً آخر من العلماء الذين تنقلوا بين المراكز الهوساوية، وعلموا أو تعلموا، منهم الشيخ عمر بن أبي بكر التورودي، وأصله من كب، كان فقهياً جليلاً وعالماً، وأيضا العالم الشيخ على جب وهو من العلماء الكبار، وله كتب وشروح مهمة، وكما يطلق عليه شيخ العامة والخاصة، فقد أخذ عنه العلامة المحقق أحمد بن غارو، وأخذ عنه جبريل بن عمر، وغيرهم، من العلماء، ومنهم أيضا محمد بن الحاج عبد الرحمن البرناوي، الذي استقر في كاتسينا، في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وكان شاعراً زاهداً، ومنهم محمد بن محمد ت١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م من كاتسينا له عدة بحوث في المنطق، وقواعد اللغة، والتنجيم، ومنهم محمد مود بن محمد، الذي ترك مؤلفات إسلامية في الفقه، والأحكام والشعر، وله كتاب صرف العنان، نظم فيه قصيدة تحتوي على ٢١٢ بيتاً، ومنهم الشيخ الفقيه محمد المنقوري، نقل مختصر خليل، وكان متصدر المدرسين، أخذ عنه القضاة والعلماء، ومنهم شيخ شيوخ الإسلام جبريل بن عمر وهو هوساوي الأصل سكن أغاديس، حيث كان نفوذه كبيراً في غوبير، وقد حارب العادات والتقاليد الوثنية، وهو من زرع فكرة الإصلاح عند عثمان بن فودي وأخيه عبد الله .
انظر: آدم بن محمد العطار: المخطوطة السابقة، ورقة ٤٦-٤٧؛ محمد بلو بن عثمان : مصدر سابق، ص٧٦،٧٣-٨٠ ؛ Palmer :op.cit, P126 ؛ آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص ٧٩-٨٠ ؛ مصطفى حجازي : الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، ص٤٧-٧٥ ؛ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ؛ ص٤٢٢ - ٤٢٧ .

(١) أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٥٣-٥٤؛ Y .B Usman :op.cit, pp27-28

إن هذا العدد الكبير من العلماء والدارسين والحركة العلمية والثقافية التي شهدها الإقليم دون شك تؤكد المقدار الرفيع الذي وصلت إليه الثقافة الإسلامية في بعض الإمارات، كما يرد إليه الفضل في نشوء حركة الإصلاح الديني التي حدثت فيما بعد، ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا، هو: كيف تم وصف ذلك المجتمع بالكفر المطلق بوجود ذلك العدد من العلماء، ألم يكن لهم تأثير ولو جزئياً على العادات والتقاليد؟ أم أن حركة الإصلاح الديني طمست كل ذلك التراث من أجل فرض سيطرتها، وقدمت تلك الحجة للسيطرة على السلطة والتمتع بما كانت عليه الإمارات؟ إذا كانت الأوضاع الاقتصادية وثروات الإمارات قد شجعت على وفود العلماء وظهور متعلمين فقد كان لهؤلاء دور كبير فى المجتمع الهوساوي .

(٣) دور العلماء في المجتمع الهوساوي :

لقد لعب العلماء دوراً مهماً شمل جميع جوانب الحياة في المجتمع الهوساوي، فإلى جانب مهمة نشر الدين بين الناس ومحاربة العادات والتقاليد الوثنية، تولى العلماء مهاما أخرى منها مهمة القضاء والفصل بين الناس، ومهمة العمل بالمساجد وما يتعلق بها من صلاة وخطب ودروس، ومهمة متولِّي الشرع الذي يقوم بالأعمال الشرعية من حصر للتركات والأملاك بعد موت الأشخاص، ومهمة الكاتب، وكذلك شاهد القاضي هم العلماء الذين يُوقِّعون مع القاضي على الوثائق والأحكام المهمة، كما تولى العلماء مهاما أخرى منها ليمانين سيكي وهي تعليم أفراد الأسرة الحاكمة ودان كودو ودان دوبال، وهما مستشارا الشؤون الدينية للساركن[1].

كما أدى العلماء في إقليم الهوسا دوراً مهماً في مساندة الحكام وتقديم النصائح لهم، بل تعدى الأمر ذلك، فقد رافقوا الحكام في غزواتهم، ففي عهد الساركن محمد Shashere ٩٨٠-٩٩٠هـ/ ١٥٧٣-١٥٨٢م حاكم كانو، وعند قيامه بالحرب ضد كاتسينا طلب من القاضي أن يبعث معه أحداً من تلاميذه لتلك الحرب، فكلف القاضي شخصاً اسمه موسى، حيث جعله الساركن قاضياً للجيش، كما أن العلماء دافعوا عن الإمارات عن طريق التفاوض مع المعتدين وتوصلوا معهم لعقد سلام، مما جنب الناس الحرب والاقتتال، وفي هذا الإطار

---

(١) مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٥٢١-٥٢٩ ؛ د. لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٤٢ .

تذكر حوليات كانو[1] مواقف كثيرة شارك فيها العلماء بشكل فاعل في إيقاف تلك الحروب، ودرء خطرها عن العباد[2].

كانت استفادة الحكام من العلماء كبيرة والعكس صحيح، فالمناصب[3] التي تولاها أكثرهم كانت بفعل اختيار الساركن في البداية، وهذا جعلهم يحسبون على الطبقة الحاكمة، حيث كان الحكام والأغنياء يغدقون عليهم بالهدايا والعطايا، أما الجزء الآخر من العلماء والذين كانوا بعيدين عن السياسة والعطايا كان مصدر رزقهم يأتي من خلال تدريسهم، وما يمنحه الدارسون لهم من طعام أو مقابل مادي بسيط، كما أن جزءاً منهم شارك التجار في تجارتهم، مما حسن أوضاعهم وجعلهم قادرين على الإنفاق، كما أن

---

(١) لقد أسهم العلماء في الدفاع عن مدنهم عند هزيمة الساركن ومحاصرتها من قبل العدو، ففي عهد الساركن محمد زكي ٩٩٠-١٠٢٧هـ/ ١٥٨٢-١٦١٨م هزمت كانو أمام كاتسينا، وهاجمتها قبائل الكورارافا، مما جعل عدداً كبيراً من أهلها يخرجون منها، وكادت الكورارافا تدخل كانو، ولكن وجود المعلمين منعهم من ذلك، في نفس ذلك العام عانت كانو من مجاعة استمرت ١١ سنة، مما جعل الساركن يدعو المعلمين ورجال العلم والمستشارين، وطلب منهم إيجاد حل، حيث أشار عليه الشيخ أبوبكر المغربي بمجموعة من التدابير، مما كان لها أثر إيجابي وبفضل نصائحه للساركن، هزمت كاتسينا في السنة التي تليها، مما جعل الساركن يكرم الشيخ . وفي المقابل كان علماء كاتسينا يقومون بنفس الدور، فقد تم محاصرة كاتسينا من قبل ساركن كانو Kutumbi ١٦٢٣-١٦٤٨م، وعندما ضيق الخناق على المدينة تدخل العلماء وتم إبرام معاهدة سلام، كان أشهر العلماء الذين قاموا بذلك الجهد الشيخ Shehu Ataman Bawa والمعلم Liman Yadoiga . كما أن كانو وعندما كانت في حرب ضد حاكم غوبير الساركن Soba، جاء إلى كانو حاكم برنو لغرض غزوها، وكان موقفها ضعيفاً، ولكن تدخل المعلمون والشيوخ أنقذوا المدينة فبفضل جهود الشيخ طاهر والشيخ Bundua تم عودة الماي إلى برنو دون قتل. انظر : Y . B ؛ Palmer :op.cit, pp116-117 , 120 , 123-124 . Usman :op.cit, pp25-27 , 33-34 .

(2) Palmer :op.cit, p115-116 .

(٣) المناصب القضائية في الإمارات كان يتولاها الأكثر علماً أو من يختاره الساركن، ولكن تلك المهمة صارت من المناصب التي تورث في الأسرة الواحدة وعبر أجيال طويلة، وهذا القول ينطبق على العلم والتجارة، وحقيقة الأمر كما تراها الدراسة أن التجارة والثقافة الإسلامية ومؤثراتها، كانت تمثلها أسرة محددة تحتكر ذلك الزخم دون مشاركة بقية المجتمع، والدليل أن اللغة العربية وانتقال المجتمع من الوثنية إلى الإسلام لم تتم حتى الآن، كما أن الفقر والجهل وانتشار العادات والتقاليد والسحر والتعاويذ، ما زالت تضرب أطنابها في المجتمعات السودانية التي مر على دخول الإسلام إليها مئات السنين . كلابرتون : مصدر سابق، جـ٢، ص١٤٥ .

بعضهم كان يرافق القوافل بحكم التفاؤل بها، ومعرفتهم للعربية، والكتابة، والإمامة، والفصل بين المتنازعين في الطريق[1].

(جـ) التعليم وطرقه ومؤسساته :

في البداية ارتكزت العملية التعليمية على تعليم القرآن وبعض العبادات من خلال المساجد التي حرص الدعاة والوعاظ من المهاجرين كالونقارة على إقامتها، ثم أصبحت العملية أكثر تنظيماً بفضل زيادة عدد المعلمين والدارسين، ودخول الكتب الإسلامية إلى إقليم الهوسا[2]، كما صار للتعليم دور وتقاليد خاصة به في الهوسا، وذلك لارتفاع مكانة العلماء والدراسة، اهتمام علماء المسلمين بهم، مما أدى إلى ظهور المراكز التعليمية والمدارس في كانو وكاتسينا وزاريا، التي يشتغل بها العلماء، ويرتادها الطلاب والراغبون في الذهاب للحج، وهذا أدى إلى انتقال الدارسين للحصول على التعليم والمعرفة، كما انتقل العلماء المحليون بين تلك المراكز لزيادة معرفتهم واطلاعهم، وأيضا قدم المعلمون والمتعلمون من المغرب، وبرنو، وتنبكت، وجني، وجاو، الذين أقاموا في المراكز والمدن التجارية، مما أدى إلى ظهور المدارس القرآنية إلى جانب المساجد في كاتسينا وكانو التي أصبحت تعج بالعلماء والدارسين[3].

كان ارتباط انتشار الإسلام بفاعلية الدارسين والمعلمين للعلوم الإسلامية، وهذا أبرز دور العلماء والمتعلمين الذين أصبحوا يتمتعون بمكانة كبيرة، فقد استخدمت الألفاظ والألقاب[4] الخاصة بالمدرسين والدارسين للدلالة على منزلة اجتماعية وسياسية رفيعة،

---

(١) د . لايا : مرجع سابق، م٥، ص٥٤٢ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص ٩٧، ٦٠٥-٦٠٦؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص٢٢٥ .

(٢) حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص٩٢، ٩٤ ؛ عبد العزيز راشد العبيدي: مرجع سابق، ص٤٣ .

(3) Mohammed And M. B. Khan :op.cit, pp 80-84 ؛ شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٤٧

(٤) استخدم الهوسا الألقاب الخاصة بالعلماء ضمن إطارها المتخصص والدقيق، فقد فرقوا بين تلك الألقاب وكان لكل منها مفهوم خاص، فالمدرس هو من يقوم بعملية التدريس، ولقب فقيه أو فكي عند الهوسا يعني المدرك والفاهم، أما العالم فهو الملم بأحكام الشريعة، والمحدث هو المتخصص في دراسة الحديث والمحدث العارف للأسانيد والعلل وأسماء الرجال والجرح والتعديل، أما الحافظ فهو يطلق على كبار علماء الحديث، حيث يطلق على من حفظ أربعمائة حديث، ويرى البعض أنه=

فقد استخدم الهوسا لقب العالم على من كان شاملا في علمه، ولقب المعلم على من تخصص في علم بعينه . كما استخدموا لقب شيخ Shahu ، Modibbo ، Fodiye أو Fudi وAlufas وهى للتعبير عن نفس المعنى، وللدلالة على من يشتغلون بالعملية التعليمية، كما استخدم كلمة الحاج، بالرغم من أنها لقب لمن يذهب للحج إلى مكة إلا أنها عند الهوسا ارتبط بالدارسين من التجار[1].

لقد كان هدف التعليم في البداية معرفة القراءة والكتابة، حيث كانتا مرتبطتين بتعلم القرآن في المساجد[2] التي يدرس فيها الصغار، كما يتعلمون العبادات والعقائد، ثم

=من زاد عن عشرة آلاف حديث، أما لقب شيخ أو شيخو أو شيهو عند الهوسا، فهو يعني وصول العالم إلى مرحلة كبيرة من العلم والمعرفة، ومن بين الألقاب التي كانت تستخدم بشكل واسع عند الهوسا لقب مالم أو مالوما ويعني المعلم، أما لقب ألفا أو الفع فهو اختصار لكلمة الفاهم أو الفقيه، ويطلق على من تعلم العلم والآداب وقد شاع استخدامه في صنغي، أما لقب قوني فهو يطلق على من حفظ وكتب القرآن عن ظهر قلب، في البرنو، كما استخدم الهوسا الألقاب الأخرى في وقت متأخر كان أهمها: سيدي أو سيدنا أو السيد حيث يطلق على أصحاب الكرامات من الصوفية، والأستاذ الذي يستخدم لكبار العلماء والصفوة، والإمام الذي لم يكن يطلق على الشخص الذي يتولى إمامة الصلاة فقط، بل أصبح لقباً من الألقاب الرفيعة التي تطلق على عظماء العلماء . انظر : مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٧٧-٧٨، ٥١١ — ٥١٧ .

(1) Ibid : pp 79 – 83 .

(٢) المسيج أو المسيد أو الدهليز، وهو تحريف لكلمة مسجد العربية باللغة المحلية عند الهوسا والبرنو، وهو في البداية للصلاة وللذكر، ويجلس فيه المعلمون لتحفيظ القرآن، وهو صغير يقام في القرى، وإلى جانب ذلك الدور، كان مكاناً للتشاور، حيث يجتمع فيه كبار السن والعقلاء لفض المنازعات والخصومات، كما نزل فيه الضيوف وعابري السبيل . وهو عبارة عن أرض فضاء تحاط بالبروش المصنوعة من سعف النخيل، أو البوص، أو القش، وأغصان الأشجار، أما في المدن فتبنى بالطوب وفي أحد جوانبه غرف لإيواء الطلاب من القرى البعيدة يعيشون فيه للتعلم، حيث يقدم لهم الناس الطعام .

ثم استخدم الهوسا الكُتاب والزوايا، والكُتاب تعرف عند الهوسا بالمدارس التي يذهب إليها الأطفال لتعلم القرآن، وكانت بجوار المساجد، وقد تكون بعيدة عنها ويشرف عليها قارئ قرآن حافظ، ويشترك أكثر من حافظ في الكُتاب الواحد وهي في أغلب الأحيان من تأسيس العلماء والأغنياء، ففي عهد الساركن أبي بكر بن رمفا حاكم كانو سنة ٩٧٣-٩٨٠هـ/ ١٥٩٥-١٥٧٣م أقام كتاباً لتعليم القرآن وسماه جورون بوجاشي، كما تحولت بيوت بعض الحكام لمكان لتعليم القرآن والعبادات. إن استخدام تقاليد إنشاء المدارس بجانب المسجد كانا يمثلان أهم البنيات الهيكلية=

يتحولون لتعلم الصناعات والحرف والتجارة، ولكن وبعد مُضي فترة من الزمن على دخول الإسلام ازدهرت الحركة التعليمية في الهوسا خصوصاً في أواخر القرن ٩- ١١هـ/ ١٥-١٧م حيث اهتموا بالتخصص في علوم الدين والفقه والحديث، واللغة العربية والشعر والفلسفة، والتوحيد، وبقية فروع الثقافة العربية، كما اهتم بعضهم بالعلوم الرياضية كعلم الحساب، الذي كان محتكراً على بعض العلماء، ويحرم على العامة إلا بمقابل كبير، لأنه يستخدم في علم الفلك، والتنجيم، والرمل والسحر، وقد برع الهوسا في هذا العلم حيث ابتكروا طرقاً ورموزاً للأعداد ولجدول الضرب عن طريق تحويلها إلى حروف بدلاً من أرقام[1].

سارت المساجد ودور العلماء في الهوسا جنباً إلى جنب من أجل نشر الثقافة الإسلامية، فالبرنامج التعليمي لم يكن يخضع لزمن محدد لبدء الدراسة أو الانتهاء منها، فهى تخضع للمعلم وظروفه المعيشية، فهو يذهب لزراعة أرضه التي يعيش من ريعها، ويجلس للتدريس على حسب ما يناسب وقته وظروفه، وكذلك الأمر بالنسبة للمعلمين الذين يعملون بالتجارة، أما المعلمون الذين وجدوا رعاية الحكام والأغنياء من خلال انتشار عادة تقديم الهدايا للمعلمين، فقد كان برنامجهم التعليمي أكثر انتظاماً، ووقت التدريس يكون طوال النهار ماعدا أوقات الصلاة، وبعضهم كان يدرس في الليل، حيث يجلب الطلاب الحطب في النهار لإشعاله[2].

=المؤهلة لنشر الثقافة الإسلامية، فقد ذكر كلابرتون المساجد الكثيرة في بلاد الهوسا وخصوصا كانو، ولكن تأخر قدوم العناصر العربية أدى إلى ضعف عملية التعريب والترجمة على المستوى الشعبي، مما استوجب تفعيل دور لغة الهوسا التى أصبحت لغة التجارة والعلم في الإقليم . انظر : كلابرتون : مصدر سابق، ص١٣٤ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق ص٢٧٥، ٢٨٦،٢٨١-٢٨٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص٢٢٥؛ فضل كلود الدكو : العلماء الأفارقة ودورهم الحضاري في غرب إفريقيا، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد ١، منظمة المؤتمر الإسلامي، النيجر، ١٩٩٥م، ص٦٥ ؛ أحمد الشكري : الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م نموذج بلاد السودان، ص ٢١٤ .

(١) آدم عبد الله الألوري : مرجع سابق، ص٩٣- ٩٤ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص٢٢٥ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٦١ .

(٢) فضل كلود الدكو: مرجع سابق، ص٦٧-٦٨ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٦١٥؛ Palmer.H.R:op.cit, p117 .

كانت الأساليب والطرق المستخدمة في التدريس عند الهوسا مجرد محاولة تقليد واتباع ما كان يتبع في مكة خصوصا لمن زارها وحج إليها، ومحاولة تقليد طريقة التدريس في الأزهر الشريف بمصر، وجامعة القرويين بفاس[1]، والأساليب تتمحور في أسلوب التلقين والتكرار، الذي يعتمد على الحفظ، وأسلوب الكتابة، وأسلوب العرض، حيث تسرد الأحاديث الشريفة عن طريق الدارسين، والتي يحفظونها عن ظهر قلب، ويتتبع الشيخ لما يقرؤه الطلاب ثم يقوم بشرح مقاصد ذلك الحديث[2].

جعلت صعوبة اللغة العربية على اللسان الهوساوي المعلمين والدارسين يستخدمون لغة الهوسا في العلم والحلقات الدراسية، ويرجع ذلك لتأخر وصول العرب والطرق الصوفية[*] إلى الهوسا[3].

---

(١) هذه الأساليب كان أغلبها مغربياً، حيث كان العلماء يستخدمون الخط المغربي في الكتب، كما استخدموا الكتب المغربية في المناهج، والتي كانت تدخل عن طريق مالي وصنغي وبرنو، مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجروم، وشرح المكودي على ألفية بن مالك، والمرشد المعين، لابن عاشر الفاسي، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري، وجامع المعيار للونشريسي، وشرح الحسن الصغير الفاسي على المدونة، وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام، لمحمد بين عبد القادر الفاسي، ومطالع المسرات في شرح دلائل الخيرات، للمهدي الفاسي بالإضافة لما تركه محمد بن عبد الكريم المغيلي. إن تلك المناهج الخصبة دفعت علماء الهوسا إلى كتابة الحواشي والهوامش عليها في محاولة منهم لمحاكاة الثقافة العربية الإسلامية . انظر : فضل كلود الدكو: مرجع سابق، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٦١٥-٦١٦ .

(٣) مصطفى حجازي : الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، ص٧٧ .

(*) لقد تأخرت الصوفية في الدخول للإقليم، فهي مرحلة من الزهد والفهم العميق للدين وغيابها عن الهوسا أدى إلى وجود شوائب وعادات وتقاليد وطقوس وثنية، ويعتقد أن محمد بن عبد الكريم المغيلي هو من أدخل فرعًا من القادرية وهو فرع البكائية، ومؤسسها سيدي أحمد البكائي الذي عاش في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. أما التيجانية والتي أسسها أحمد التيجاني ١١٥٠-١٢٣٠هـ/ ١٧٣٧-١٨١٥م فهو أحمد بن محمد بن المختار بن سليم التيجاني ولد في قرية بن ماضي بالقرب من مدينة الأغواط في الجزائر انتقل للتعليم بالمغرب في سنة ١١٨٦هـ/ ١٧٧٣م وذهب للحج ثم القاهرة ثم عاد إلى المغرب، فقد انتشرت في السودان الغربي بشكل واضح بعد القرن الثامن عشر ميلادي، وفي بداية القرن التاسع عشر وصلت بعض الطرق إلى كانو سنة ١٨٨٣م والتي تعرف في الهوسا بالسمانية، وذلك بسبب نشاط مشايخ شمال إذ بنيا منهم الحاج محمد سجايا=

أسهمت المراحل التعليمية والزخم الذي شهده الإقليم في انتشار العلم والثقافة الإسلامية بين طبقات المتعلمين والأسر التي اهتمت بتعليم أبنائها، فقد شهدت إمارات الهوسا قبل قيام حركة الإصلاح الديني ظهور المعاهد[1] الدينية المتخصصة التي مهدت الأرضية للفولاني وجعلتهم ينظرون لحركة تجديد استقوا علومها وأصولها من علماء الهوسا الذين كانوا يعملون على نشر الإسلام ومحاربة العقائد الوثنية بطرق الدعوة واللين.

(د) تأثير الحياة الاقتصادية على لغة الهوسا :

تعد لغة الهوسا من أفصح وأسهل اللغات الإفريقية بعد العربية، وهي من أكثر اللغات انتشاراً بعد العربية والسواحيلية في السودان الغربي والأوسط، فهي Lingua Franca أي لغة المعاملات التجارية حيث تكتب بحروف عربية[2]، وهي فرع من

=الغدامسي الذي أسس زاوية في بيته في كانو . انظر : محمد بلو بن عثمان فودي : مصدر سابق، ص٨٢ ؛ عبد الرحمن زكي : مرجع سابق، ص١١٢- ١١٥ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص٤٣ ص٤٤-٤٥ ؛ عمار هلال : الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، منشورات دار الثقافة والسياحة، الجزائر، ١٩٨٤م، ص١١٨-١٢٧ ؛ عبد القادر زبادية : دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء، مرجع سابق، ص٢٢٩ -٢٣٥ ؛ أحمد الشكري : الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م نموذج بلاد السودان، ص٢٥١ ؛ أ. م. كاني : مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، ص٢٢ .

(١) يعتقد البعض أن الحركة العلمية في كاتسينا كانت أكثر نضجاً، حيث تم إنشاء مراكز علمية مهمة كمعهد الحنبلية، الذي يعتقد أن الشيخ محمد غيغما وأصله من مالي هو الذي أسسه، ثم تولى محمد دن التدريس به، كما وجد معهد درما وقد تأسس قبل ظهور حركة الإصلاح الديني، حيث أنشأه الشيخ أبوبكر الذي يجمع بين علوم اللغة والدين، وهناك معهد السوق القديمة، الذي أنشأه الشيخ بلادن محمد بن عثمان بن يحيي بن محمد البكري حوالي ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، كما شاركت زاريا في إثراء الثقافة الإسلامية، حيث عرفت بها مجموعة من المدارس منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، كان من أقدمها مدرسة حارة جوما، ومعهد أم كوفا، حيث كان نشاط تلك المؤسسات في البداية نشر مبادئ الدين الإسلامي وإمامة المسلمين في الصلاة، ولكن في فترات متأخرة أصبح دورها نشر العلم والثقافة الإسلامية . انظر : مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص٤١١-٤١٥ .

(٢) آدم بن محمد العطار : المخطوطة السابقة، ورقة ٢ ؛ حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق، ص١١٦ ؛ شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٣٦ ؛ مرجع عبد الفتاح مقلد : أثر اللغة العربية في الشعب الفلاني، مجلة الفيصل، دار الفيصل، السنة ٦، ١٩٨٢م، ص٧٩ .

اللغات الإفريقية الآسيوية السامية، انتقلت واستخدمت بفعل التجارة والهجرات الكثيرة إلى إقليم الهوسا[1].

ويُقسَّم اللسان الهوساوي إلى قسمين: لسان أهل الحضر في المدن الكبيرة مثل كانو وكاتسينا، حيث كان لسان أهل كانو أخف في النطق وأحضر في استيفاء المعنى، أما لسان البدو من سكان الأرياف والقرى فهو أوفر من حيث المفردات الأصلية، وأقرب للغة القديمة التي لم تتأثر بالعربية، ولغة الهوسا تنطق وتكتب وهي تخضع لقواعد قريبة من العربية، وتعتبر لغة الحكام والأمراء بالدرجة الأولى، ولكن دخول التجارة والإسلام أثر فيها كثيراً، فقد صارت تكتب بحروف عربية فتسمى الهوسا الأعجمية[2].

لقد ظهر أثر التجارة والإسلام بشكل واضح من خلال لغة الهوسا، فبعد اتصال طويل بين اللغة العربية والهوسا تم استيعاب عدد هائل من الكلمات العربية والألفاظ والعبارات والمصطلحات الخاصة بالدين والتجارة في لغة الهوسا[3].

لقد كان ارتباط اللغة العربية بانتشار الإسلام واعتناقه في الهوسا، وهم ينظرون إلى اللغة والإسلام من ناحية، والتجارة من ناحية أخرى، وجهين لعملة واحدة، وهذا حتَّم عليهم تعلم العربية بحد أدنى، من أجل أداء الصلاة والدعاء، كما أن التجار كانوا ملزمين بمعرفة أصناف وأنواع البضائع، وطرق المعاملة، ولكن العربية كانت صعبة الاستخدام على الهوسا بفعل أن هناك حروفاً[4] أساسية لا يستطيع الهوساوي نطقها بشكل سليم، مما

(١) بوفيل: مرجع سابق، ص١٠٧، ٣٦٥.

(٢) آدم بن محمد العطار: المخطوطة السابقة، ورقة ٢-٣؛ آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص١٣١، ١٤٣-١٤٤؛ د. لايا: مرجع سابق، م٥ ص٥٤٣.

(٣) شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص١٨-١٩؛ حسين سيد عبد الله: مرجع سابق، ص٩٤، ٩٧؛ الأمين أبو منقا محمد: دراسات إفريقية أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها ونشأة وتطور أدب الهوسا، ص١٤٠.

(٤) الحروف العربية المشتركة بين العربية ولغة الهوسا، عددها سبعة عشر حرفاً، وهي لا تسبب مشكلة في النطق وهي: أ ب ت ج د ر ز س ش ك ل م ن هـ و لا ي، أما الحروف التي يقع فيها الخطأ ويصعب عليهم نطقها فهي أربعة هي: ط غ ف ق، والحروف العربية التي لا توجد في لغة الهوسا هي ثمانية ث ح خ ذ ص ظ ع ض. ويبدو أن الهوسا أوجدوا البديل عن اللغة العربية الفصحى، فقد انتشرت العربية الدارجة على لسان عرب الشوا وهي دارجة سودانية دخلت إلى الإقليم عن طريق هذه القبيلة التي كانت تسكن الحدود الشرقية للبرنو بجوار بحيرة تشاد. انظر: شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٦٧، ١٩٠.

جعل اللغة العربية هى لغة التأليف والكتابة والعلم، وليست لغة التخاطب، فالمناقشات والشروح والمجادلات العلمية كانت تتم بلغة الهوسا[1].

وبالرغم من تلك الصعوبات فإن اللغة العربية شكلت تأثيراً كبيراً في لغة الهوسا، وما كان يُجرى على لسان الهوسا من العربية كثير يبدأ بما يتعلق بأركان الدين الإسلامي، وأيام الأسبوع، والأسماء، والآداب، والصفات، والمهن كالقاضي والمفتي، وأسماء بعض الطعام والمزروعات وأدوات النسيج، والخياطة، والملابس والأرقام الحسابية من العشرين إلى التسعين، والتوقيت، والمقاييس، وما يتعلق بالمعاملات التجارية، والموازين[2].

لقد كان لاستخدام الكتابة[3] بأحرف أعجمية هوساوية أثر على اللغة العربية والتي كانت تضرب بعمق في لغة الهوسا، وهذا أدى في نهاية المطاف إلى إهمال اللغة العربية والخط الهوساوي، واستعيض عنها بالذاكرة، والحفظ، ونقل التراث والعلم عبرها، مما فسح المجال أمام الرواية الشفوية لتحل محل الكتابة، كما أن محاولات من التغييب والطمس مورست من أجل القضاء على تلك المؤثرات العربية في لغة الهوسا، عندما استبدلت حروف الكتابة باللغة الإنجليزية[4].

---

(١) أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٥ ؛ الأمين أبو منقا محمد : دراسات إفريقية أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها ونشأة وتطور أدب الهوسا، ص١٣٦؛ شيخو أحمد سعيد: مرجع سابق، ص٦٦ ؛ مهدي رزق الله أحمد : مرجع سابق، ص١٨٠ -١٨٣ .

(٢) آدم بن محمد العطار : مخطوط سابق، ورقة ٣، ١٤ ؛ شيخو أحمد سعيد : مرجع سابق، ص٦٠ ؛ حسين سيد عبد الله : مرجع سابق، ص٩٧ ؛ الأمين أبو منقا محمد : دراسات إفريقية أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها ونشأة وتطور أدب الهوسا، ص١٤٠ .

(٣) قلة تداول الورق، وغلاء ثمنه، في إقليم الهوسا ساعد على ترك الكتابة والاعتماد على الحفظ، فالورق كان يمثل قيمة مرجعية في التعاملات التجارية، ولم تتحدث المصادر التي تناولت التجارة عبر الصحراء عن تجارة الورق الكاغد كسلعة أساسية ضمن المواد المتبادلة من الشمال إلى الجنوب قبل القرن ١٨م . أحمد الشكري : الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨نموذج بلاد السودان، ص٢٤٢ .

(٤) أحمد الشكري : مرجع سابق، ص٢٥١ ؛ مصطفى حجازي السيد : الأثر العربي في قصص الهوسا، ص١١٢ .

إن مجمل القول حول الآثار الاقتصادية على حياة المجتمع الهوساوي كان كبيراً جداً، فقد صاغ الاقتصاد بأنشطته المختلفة كل مجالات الحياة، بل أسهم في إنشاء مجتمعات مستقرة متمدنة إلى حد كبير، والمقارنة مع ما كانت عليه، كما أنه أعاد تنظيم العلاقات الاجتماعية بين السكان وأسهم في نشر الدين الإسلامي والثقافة المحلية التي انبثقت عنه، فلولا التجار وحركة التجارة والمهاجرون التجار لما ظهرت تلك الأنماط، ولما نمت تلك المجتمعات، لقد كان الأثر واضحاً وجلياً من خلال محاولات الحكام تقليد العرب والمسلمين، وحرصهم على جذب التجار والعلماء، مما أدى إلى ذيوع صيت تلك الإمارات، فتقاطر عليها العلماء والدارسون، كما نالت جزءاً كبيراً من اهتمامات علماء كبار، كعبد الرحمن السيوطي، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي .

والمرجح أن ذلك التواصل التجاري والعلمي مع أغلب الشعوب الإسلامية في المنطقة خلق حالة من الثقافة التي قادها علماء وافدون ومحليون كان قدرهم وعلمهم يعادل كبار العلماء المسلمين، فمهدوا بذلك العقول والشعوب لحركة إصلاح ديني، قادتها إحدى القبائل التي عاشت في ظل وكنف الهوسا، حيث تعلم أبناؤها من فيض علمائها، فحصدوا ما زرعته الهوسا عبر قرون .

الخاتمة

في ختام هذا الكتاب والذي تناول انتشار الإسلام وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إمارات الهوسا في الفترة بين القرنين ٨-١٠هـ/ ١٤-١٦م، وما كان فيها من حراك وتطور نسبي ملحوظ، بفعل دخول هجرات، وعادات وسلوكيات وأنماط، نقلت المجتمع من طور البداوة والترحال، إلى مجتمع زراعي وحرفي وتجاري مستقر، حيث سعى جاهداً لتكوين قاعدة حضارية وثقافية ذات صبغة إسلامية محلية، فقد خلص الكتاب لمجموعة من النتائج كان أهمها :

لقد كان للموقع الإستراتيجي والمهم لبعض الإمارات، دوراً مهماً في تواصلهم مع جيرانهم، حيث كانت الطرق والممرات، دروباً ومسالك للهجرات والتجار الذين تدفقوا بشكل كبير، وهم يمتلكون الخبرة والمعرفة في إدارة الموارد، التي كانت أرض الهوسا تزخر بها، مما كان له الأثر البالغ في تطور الأنشطة الاقتصادية والمجتمع، الذي صار يضم عناصر بشرية متنوعة .

ادعت السلالات الحاكمة فى إمارات الهوسا الأصل العربى واعتمدت فى ذلك على تاريخ أسطورى شفوي، وقد احترمت شعوب الهوسا هذا الادعاء وأصبح جزءا من تراثه الذي لا يرقى إليه الشك .

تعددت الآراء حول أصل شعوب الهوسا، والغموض الذي يلف تفاصيل تركيبتهم، جعلهم يصنفون من ضمن نسيج المجتمع الإفريقي داخل الإقليم، وهم يتمتعون بخصوصيات تكوين تقبل الآخرين وتتصاهر معهم دون وجود عوائق . فأصلهم من سكان الإقليم الأصليين اختلطوا مع الهجرات الوافدة من الشمال والغرب والشرق .

يعتمد تأسيس الإمارات الأصلية على الأسطورة، ولكن الحقائق الثابتة تنم عن حسن تدبير ووعي كبير من المؤسسين في اختيار أماكن قيام تلك الإمارات، فقد كان النمط السائد يعتمد على المدن الحرفية المركزية، وحولها القرى الزراعية والرعوية الإنتاجية .

ساهم تنوع التضاريس والمناخ بشكل كبير في تعدد الأنشطة الاقتصادية، فقد وفر ذلك الطعام، والمواد الخام الأولية التي قامت عليها الحرف والصناعات المحلية .

تطور النظام الزراعي الذي كان يعتمد على الأسرة، كوحدة اجتماعية إنتاجية عبرت عن عصب اقتصاد الكفاف، الذي كان متبعاً، وما رفقه من تبادل سلعي داخلي يلبي حاجات الناس أولاً، فهو لم يكن تجاري مادي في كل الأحوال .

كان تنوع الحرف والصناعات منسجماً ومتفقاً مع العامل الاجتماعي ومتفق مع سياسة كل إمارة بحكم الضوابط التي فرضها الساركن والتي تنفذ عن طرق الرؤساء وزعماء الحرف والعشائر، فقد اسست عشرات القرى الحرفية المتكاملة بواسطة العبيد المجلوبين من المناطق الوثنية .

لقد كانت التجارة الداخلية تمثل ذروة النمو الاقتصادي، فهي تقوم على المبادلة والمقايضة إلى جانب استخدام الودع والذهب والعبيد، وكانت العامل الرئيس لجذب ونجاح التجارة الصحراوية .

لقد كان سر نجاح حكام الهوسا وتجارهم، يكمن في تأمين وإنشاء شبكة من الخطوط والممرات التجارية داخل العمق الوثني، الذي كان المصدر الرئيس للبضائع والسلع المطلوبة في الشمال عبر الصحراء .

أوضح الكتاب أهمية دور العنصر البشري الهوساوي في إدارة التجارة الداخلية والخارجية، من خلال فرض أنماطهم وأسلوبهم في المعاملات التجارية، مما ساعد على انتشار لغتهم وطرق معاملاتهم في السودان الغربي والأوسط .

بيّن الكتاب الآثار التي صبغتها الحياة الاقتصادية على المجتمع، عموما فإن سمة التصارع السياسي والتنافس على تحقيق المكاسب والسلع كان بارزاً بين الإمارات، وكان هو الغالب، حيث منعهم ذلك من التوحد في إطار سياسي واحد، ولكن نظام الساركن في كل إمارة طور نفسه، وصار ذا هيكلية واضحة، يدعم التجارة والتجار، ويحصل منهم على عوائد ضريبية تغطى نفقات الحروب المرتفعة.

بفعل العامل الاقتصادي وحركة الرواج التجاري، شهد الإقليم حالة من التطور الواضح بين مكوناته الأساسية، فقد طوع العامل الاجتماعي لصالح الحياة الاقتصادية، وصار المجتمع مقسماً على حسب الحرفة والملكية .

أكد المؤلف أن الفضل يرجع كاملاً للتجارة والتجار والمهاجرين والعلماء، في إدخال الإسلام، الذي صار دين عواصم الإمارات الرئيس،أما القرى والأرياف، فقد حُفظت فيها المعتقدات القديمة، بالرغم من جهد العلماء المحليين ومحاربتهم لتلك الظواهر .

لقد ساهمت حركة الهجرة والتجارة في ظهور علماء محليين، أثروا الثقافة الإسلامية في تلك المناطق بما تركوه من تراث إسلامي باللغة العربية ولغة الهوسا، كما كان لهم الفضل في نشر العلم والتعليم بين الناس من خلال استخدام كتب الفقه والأدب، وغيرها من العلوم الإسلامية، مما ساعد على تمهيد الأرضية أمام قادة حركة الإصلاح الديني فيما بعد.

لقد كان للنساء دور عقائدي واجتماعي واقتصادي محوري، في المجتمع الهوساوي، فقد كن العائل الأول للأسرة، ومشاركتهن في كل الأنشطة الاقتصادية، خير دليل على ذلك، كما كن عامل ربط اجتماعي من خلال المصاهرة والنسب حتى مع الغرباء، مما جعل المجتمع الهوساوي مجتمعا مفتوحا ومتداخلا مع غيره من الأجناس .

دخلت لغة الهوسا الكثير من المصطلحات الاقتصادية الزراعية والحرفية والتجارية ذات الأصل العربي، وكانت اللغة الهوساوية فى عصر ازدهار الإسلام وقبل الاستعمار الأوروبي تكتب بالحروف العربية .

وأخيراً فإن هذا الكتاب لا يدعي الكمال فالكمال لله وحده، فما قدمه لا يتعدى كونه جمع شذرات هذا الموضوع المتفرق بين المصادر والمراجع، وحاول تحليله وتقديمه ليكن في كتاب واحدة يُسهل على الباحثين والدارسين والمثقفين الاطلاع عليه، فما هذه الورقات إلا نذر يسير من فيض تراث الهوسا الذي غيب وراء الأساطير، وطمست أغلب وثائقه بفعل المستفيدين .

والله الموفق

المؤلف

الملاحق

أولاً: الجداول

ثانياً: الخرائط

ثالثاً: الصور

أولاً: الجداول

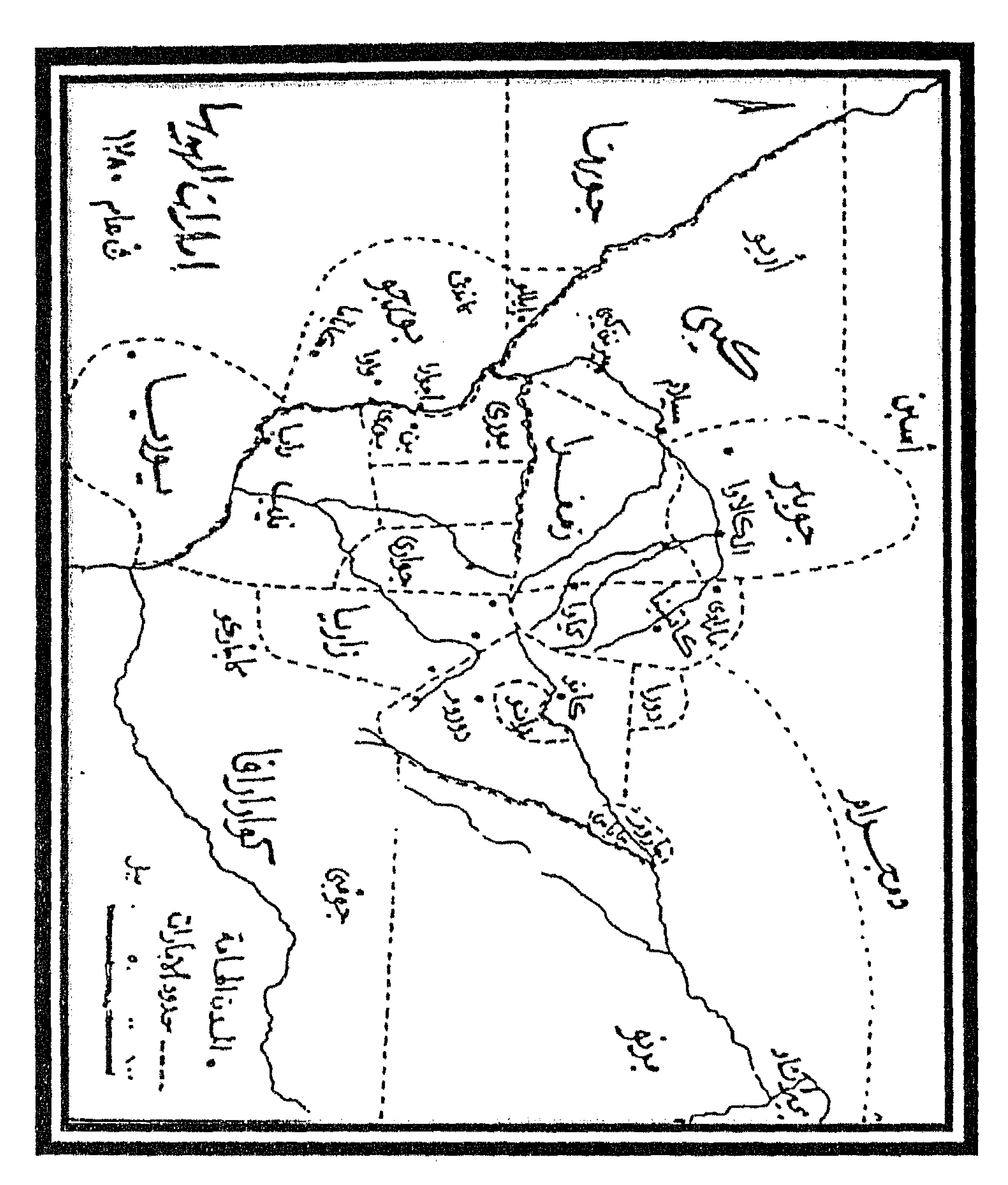
جدول يوضح أهم حكام كانو حسب ماورد عند Palmer في حوليات كانو وعددهم ٤٨ ساركناً

اسم الساركن	بالعربي	تاريخ تولي الحكم	تاريخ ترك الحكم
Bagoda Son of Bauwo	باغودا بن باو	٣٨٩هـ/ ٩٩٩م	٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م
Warisi Son of Bagoda	واريي بن باغودا	٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م	٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م
Gijimasu Son of Warisi	جيجماسو بن واويسي	٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م	٥٢٨هـ/ ١١٣٤م
Nawata And Gwata	التوأم: ناواتا وجاواتا	٥٢٨هـ/ ١١٣٤م	٥٣٠هـ/ ١١٣٦م
Yusa or Tsaraki Son of Gijimasu	يوسا أو تساركي بن جيجماسو	٥٣٠هـ/ ١١٣٦م	٥٩٠هـ/ ١١٩٤م
Naguji son of Tsarki	ناجوجي بن تساراكي	٥٩٠هـ/ ١١٩٤م	٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م
Gugua Son of Gijimasu	جوجوا بن جيجماسو	٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م	٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م
Shekkarau son of Tsarki	شيكاراو بن تساراكي	٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م	٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م
Tsamia son of Shekarau	تساميا بن شيكاراو	٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م	٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م
Osumanu Zamnagawa son of Shekkarau	عثمان زامناجاوا بن شيكاراو	٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م	٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م
Yaji son of Tsania	ياجي بن تساميا	٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م	٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م
Bugaya son of Tsamia	بوجايا بن تساميا	٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م	٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م
Kanajeji son of Yaji	كاناجيجي بن ياجي	٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م	٨١٢هـ/ ١٤١٠م
Umaru son of Kanajeji	عمر بن كاناجيجي	٨١٢هـ/ ١٤١٠م	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م
Dauda son of Kanajeji	داود بن كاناجيجي	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	٨٤١هـ/ ١٤٣٨م
Abdulahi Burja son of Kanajeji	عبد الله بورجا بن كاناجيجي	٨٤١هـ/ ١٤٣٨م	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م
Dakauta son of Abdulahi Burja	داكوتا بن عبد الله بورجا	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	لا يوجد
Atuma son of Dakauta	اتوما بن داكوتا	لا يوجد	لا يوجد
Yakubu son of Abdulahi Burja	يعقوب بن عبد الله بورجا	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م
Mohamma Rimfa son of Yakubu	محمد ريمفا بن يعقوب	٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م	٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م
Abdulahi son of Mohamma Rimfa	عبدالله بن محمد ريمفا	٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م	٩١٤هـ/ ١٥٠٩م
Mohamma Kisoki son of Abdulahi	محمد كاسوكي بن عبدالله	٩١٤هـ/ ١٥٠٩م	٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م
Yakufu son of Kisoki	يعقوف بن كاسوكي	٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م	٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م

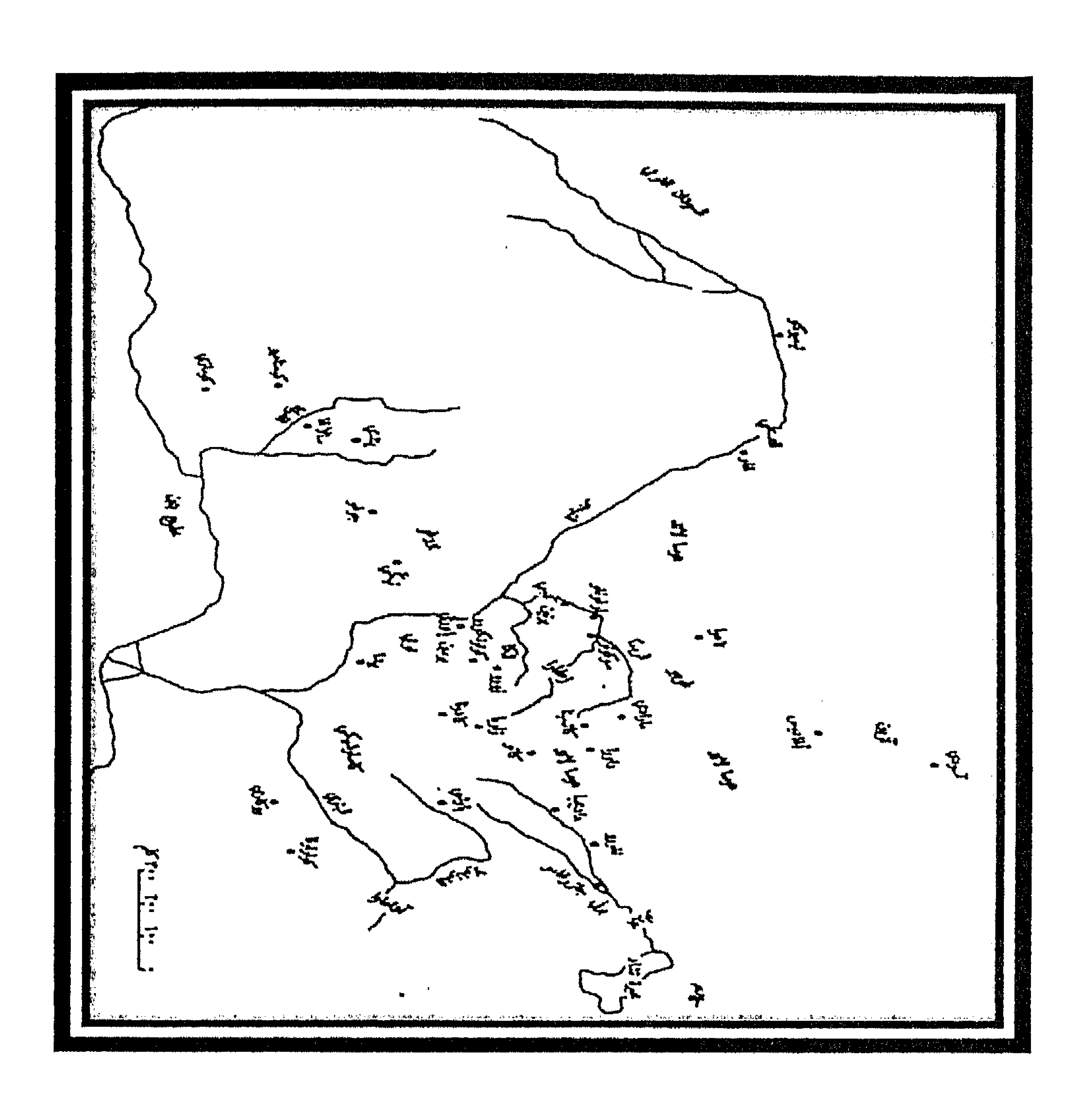
Dauda Abasama son of Yakufu	داود اباساما بن يعقوف	٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م	لا يوجد
Abubakr Kado son of Rimfa	أبوبكر كادو بن رمفا	٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م	٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م
Mohamma Shashere son of Yakufu	محمد	٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م	٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م
Mohamma Zaki son of Kisoki	محمد زاكي بن كاسوكي	٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م	١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م
Mohamma Nazaki son of Zaki	محمد نازاكي بن زاكي	١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م	١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م
Kutumbi son of Mohamma Nazaki	كيتيمبي بن محمد نازاكي	١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م	١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م
Al Hajji son of Kutumbi	الحاج بن كيتمبي	١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م	١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م
Shekkarau son of Al Haji		١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م	١٠٦١هـ/ ١٦٥١م
Kukuna son of Al Haji	كيكينا بن الحاج	١٠٦١هـ/ ١٦٥١م	١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م
Soyaki son of Shekkarau	سوياكي بن	١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م	لا يوجد
Mohamma Kukuna (Restored)	محمد بن كيكينا	١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م	١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م
Bawa son of Mohamma Kukuna	باو بن محمد كيكينا	١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م	١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م
Dadi son of Bawa	ديدا بن باو	١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م	١١١٤هـ/ ١٧٠٣م
Mohamma Sharefa son of Dadi	محمد شاريفا بن ديدا	١١١٤هـ/ ١٧٠٣م	١١٤٣هـ/ ١٧٣١م
Kumbari son of Sharefa	كيمبارا بن شاريفا	١١٤٣هـ/ ١٧٣١م	١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م
Alhaji Kabe son of Kumbari	الحاج كابا بن	١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م	١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م
Yaji son of Dadi	ياجي بن ديدا	١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م	١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م
Babba Zaki son of Yaji	بابا زاكي بن ياجي	١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م	١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م
Dauda Abasama son of Yaji	داود	١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م	١١٩٥هـ/ ١٧٨١م
Mohamma Alwali son of Yaji	محمد الوالي	١١٩٥هـ/ ١٧٨١م	١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م
Sulimanu son of Abahama	سليمان بن أباهاما	١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م	١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م
Ibrahim Dabo son of Mohamadu	إبراهيم ديبو بن محمد	١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م	١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م
Osumanu son of Dabo	عثمان بن ديبو	١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م	١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م
Abdulaha son of Dabo	عبد الله بن ديبو	١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م	١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م
Mohammed Belo son of Ibrahim Dabo	محمد بلو إبراهيم ديبو	١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م	١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م

Palmer .R.H. op.cit , pp 92-132 .

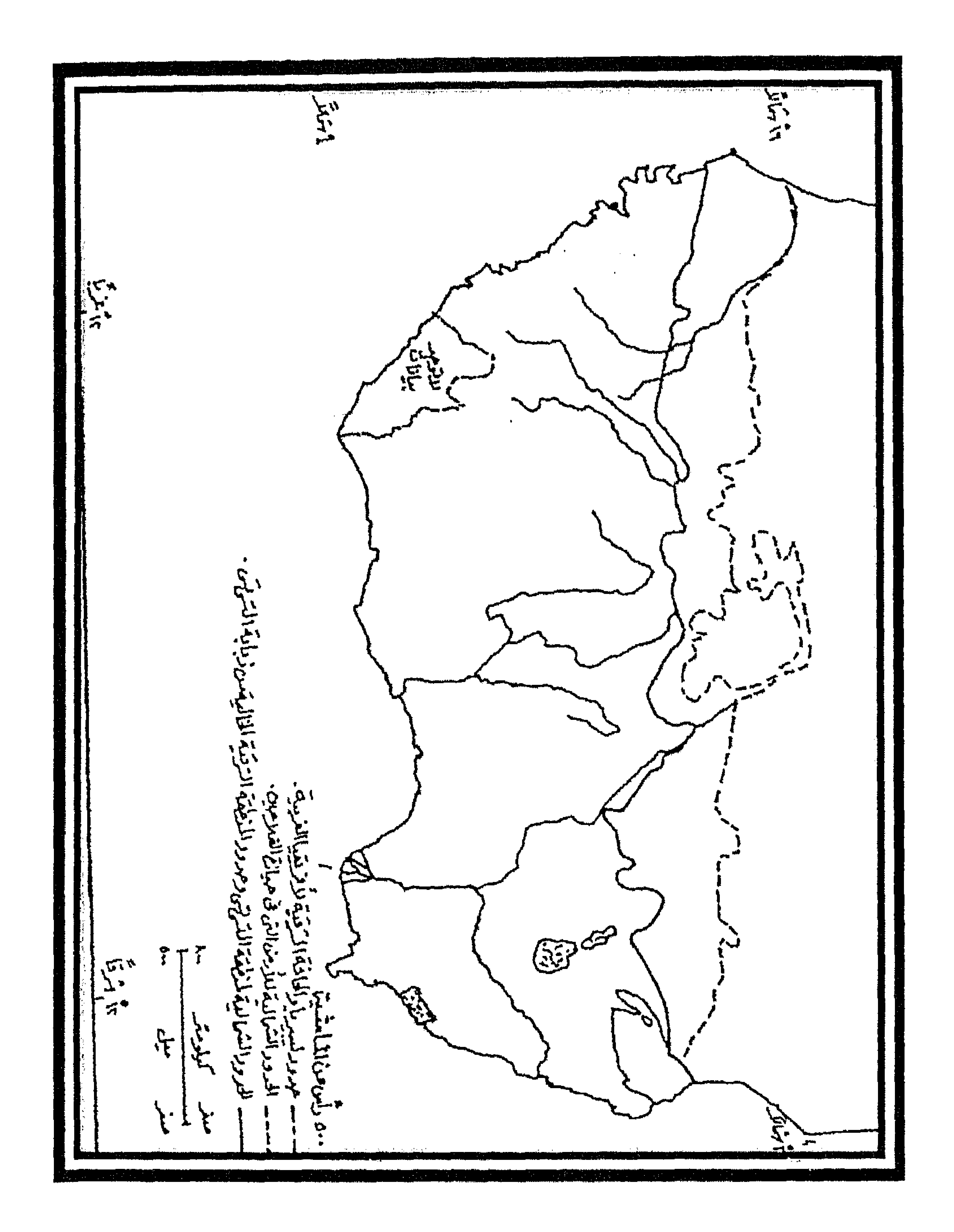
ثانياً: الخرائط



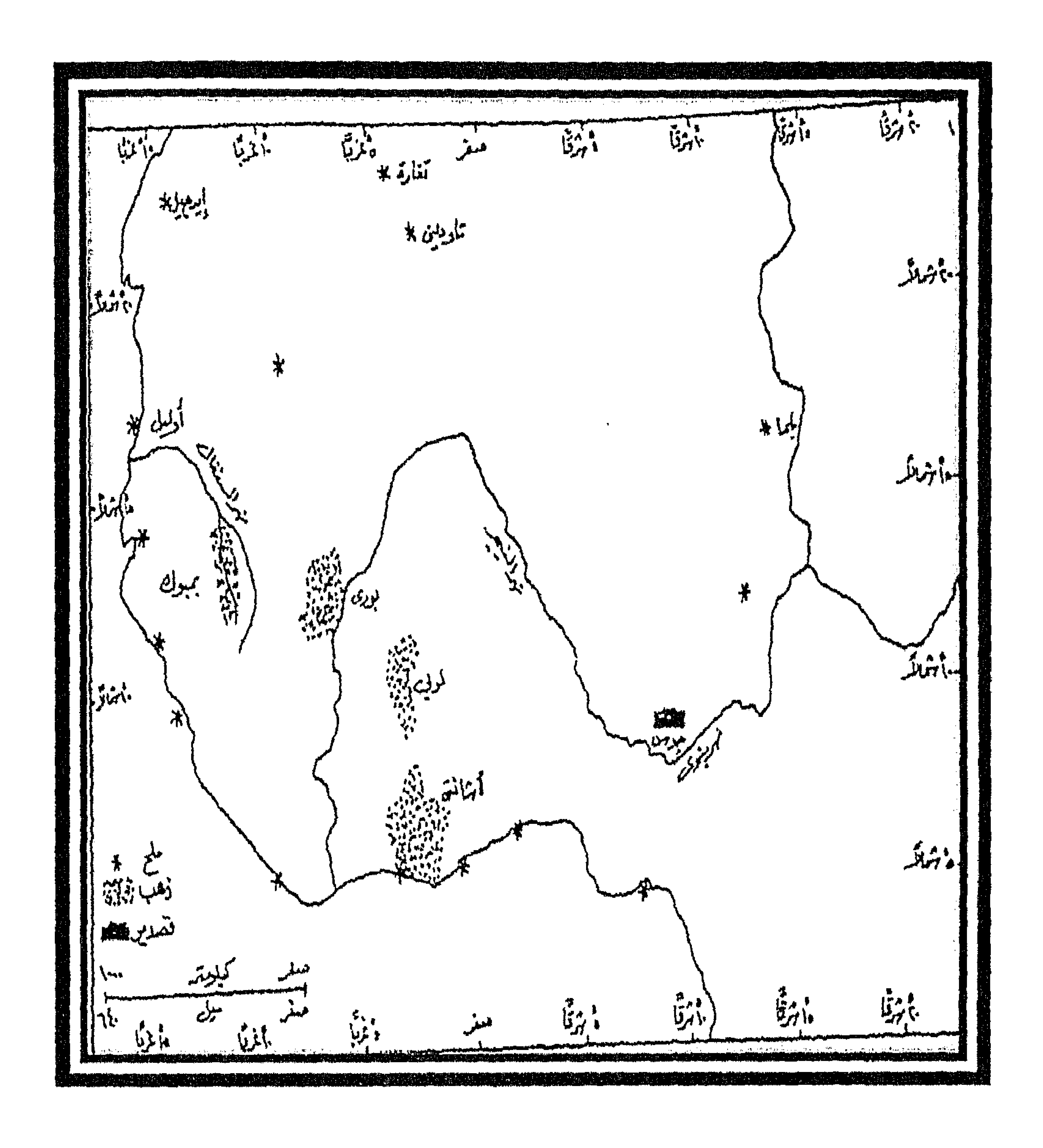
خريطة رقم (١) موقع وتوزيع إمارات الهوسا والدول المجاورة . نقلا عن الطيب عبد الرحيم محمد : الفلاته في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان، ص ٣١٧ .



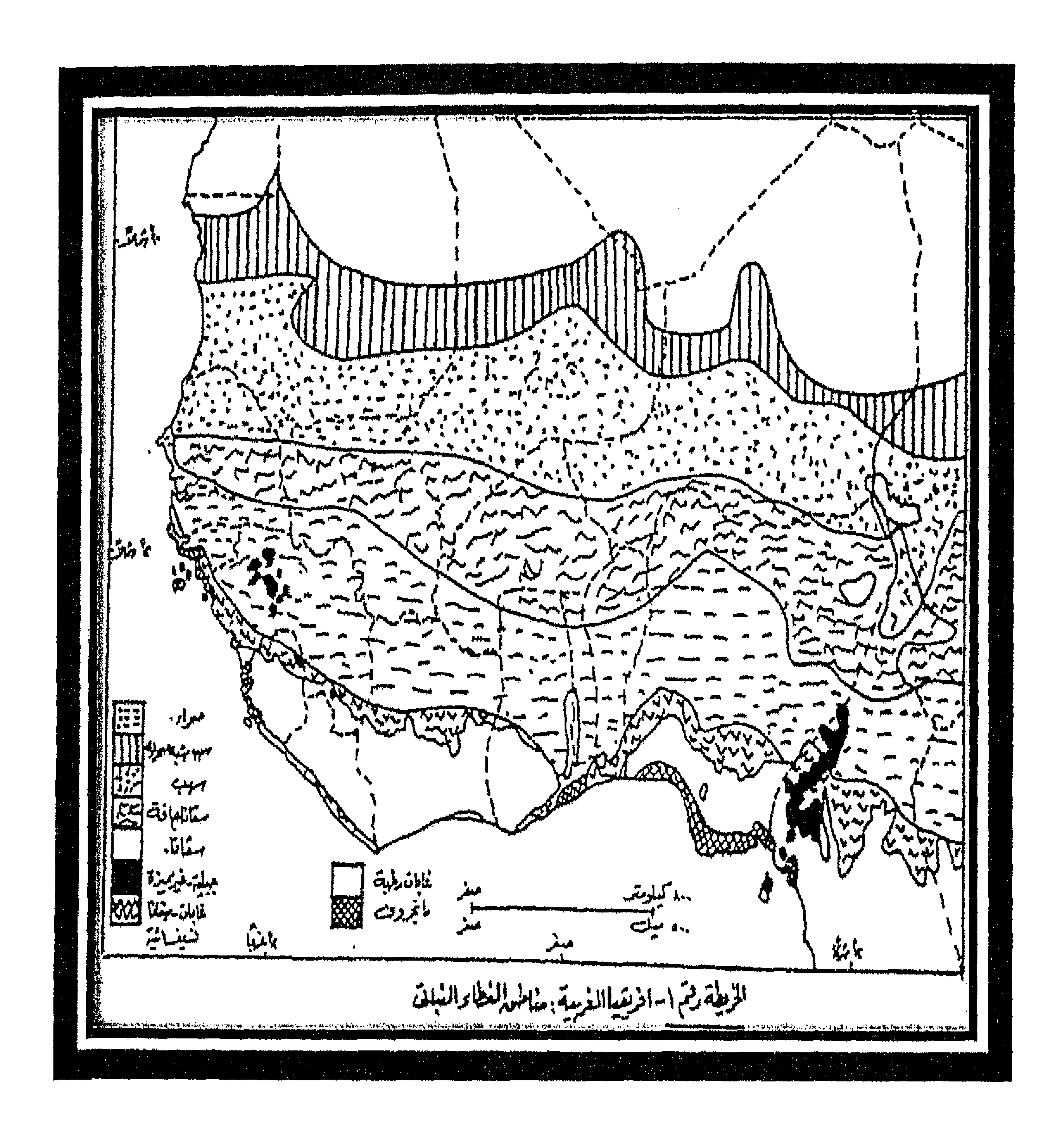
خريطة رقم (٢) توزيع إمارات الهوسا داخل الإقليم والشعوب المجاورة .
نقلا عن مهدي آدامو : مرجع سابق، جـ٤، ص٢٩١.



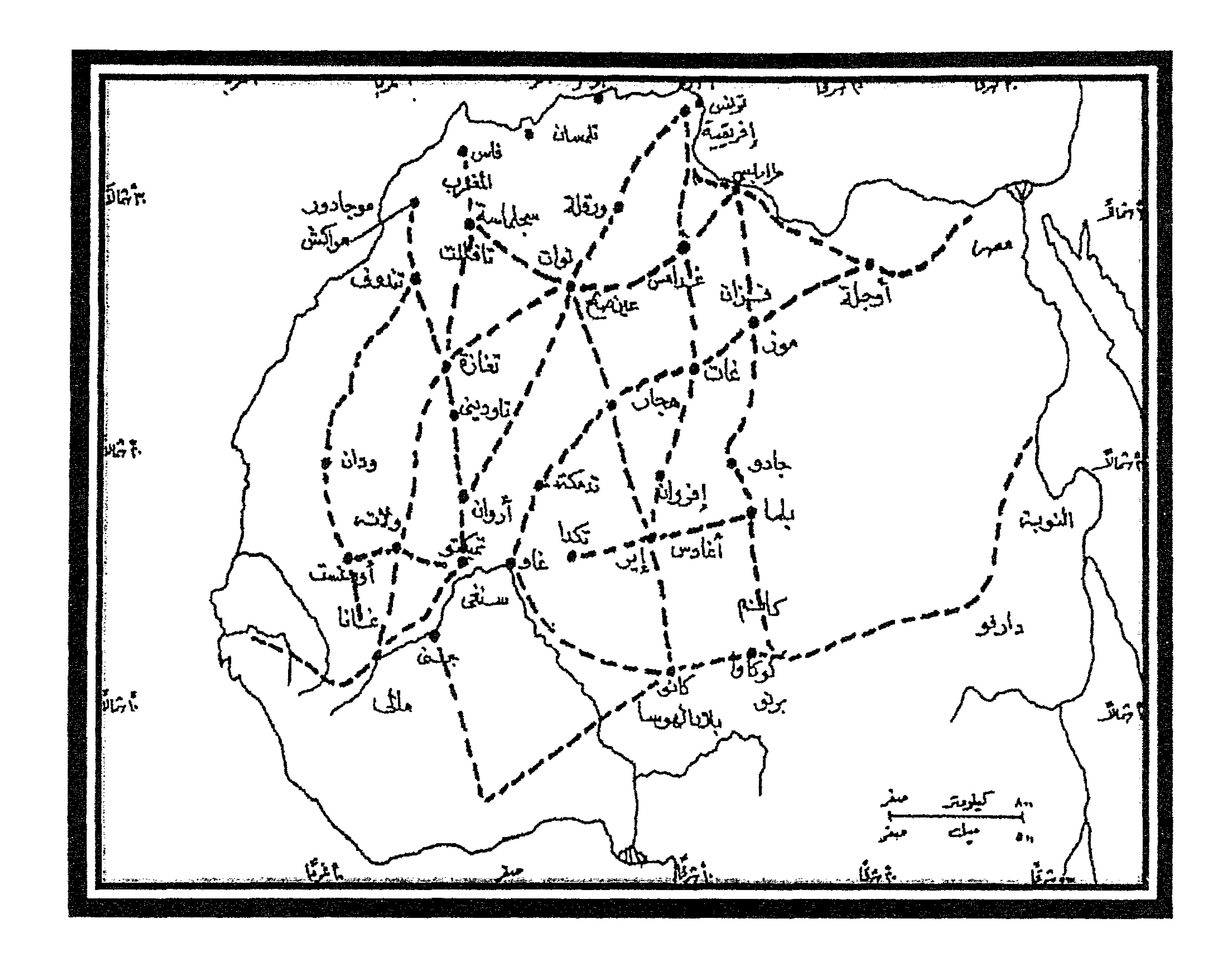
خريطة رقم(٣) توزيع المراعي في السودان الغربي في الفترة ما بين القرنين ١٠ - ١٦م نقلا عن أ.ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص٧٨ .



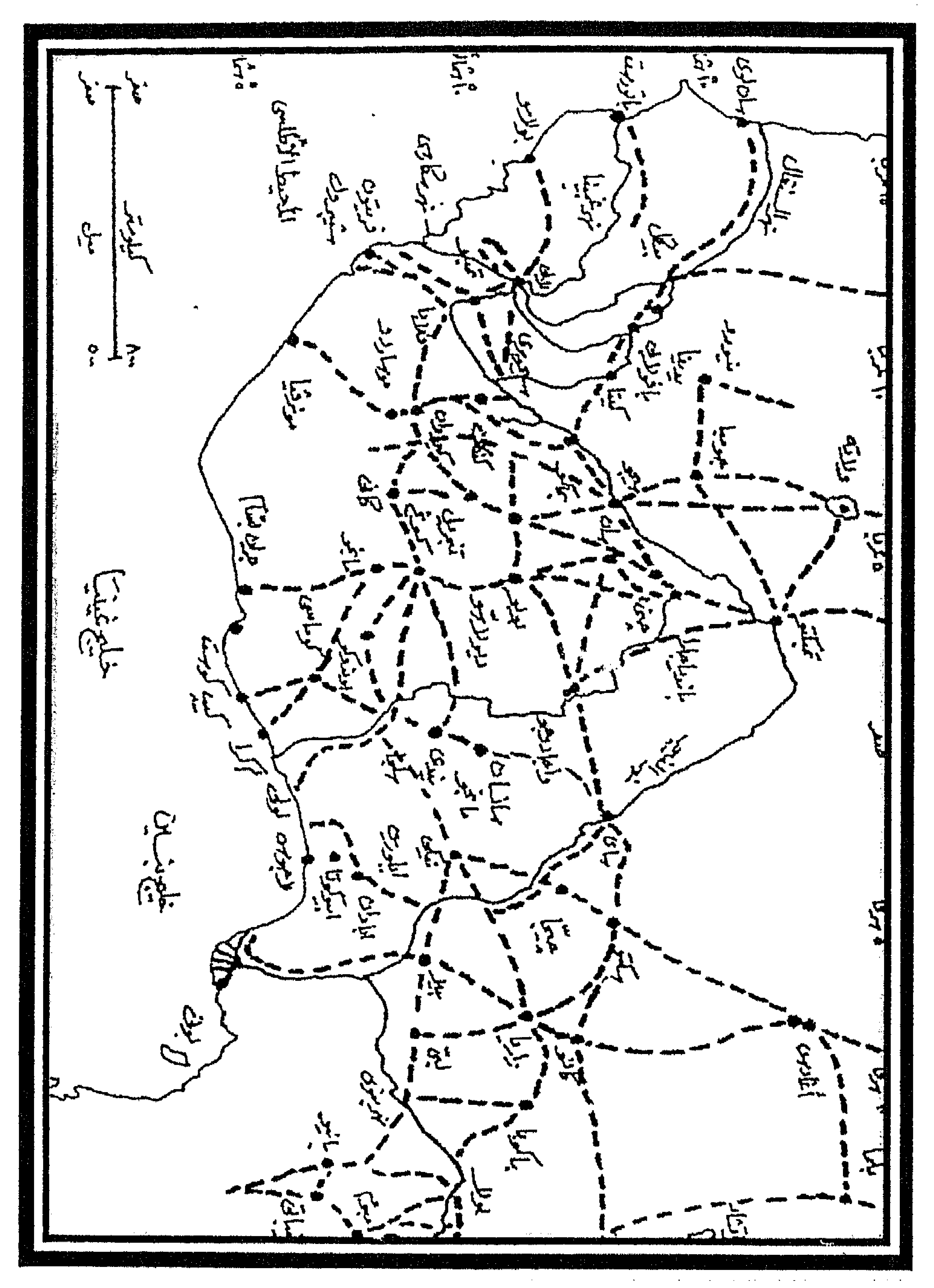
خريطة رقم (٤) توضح مناطق توزيع المعادن في السودان الغربي نقلا عن أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص ٨٨ .



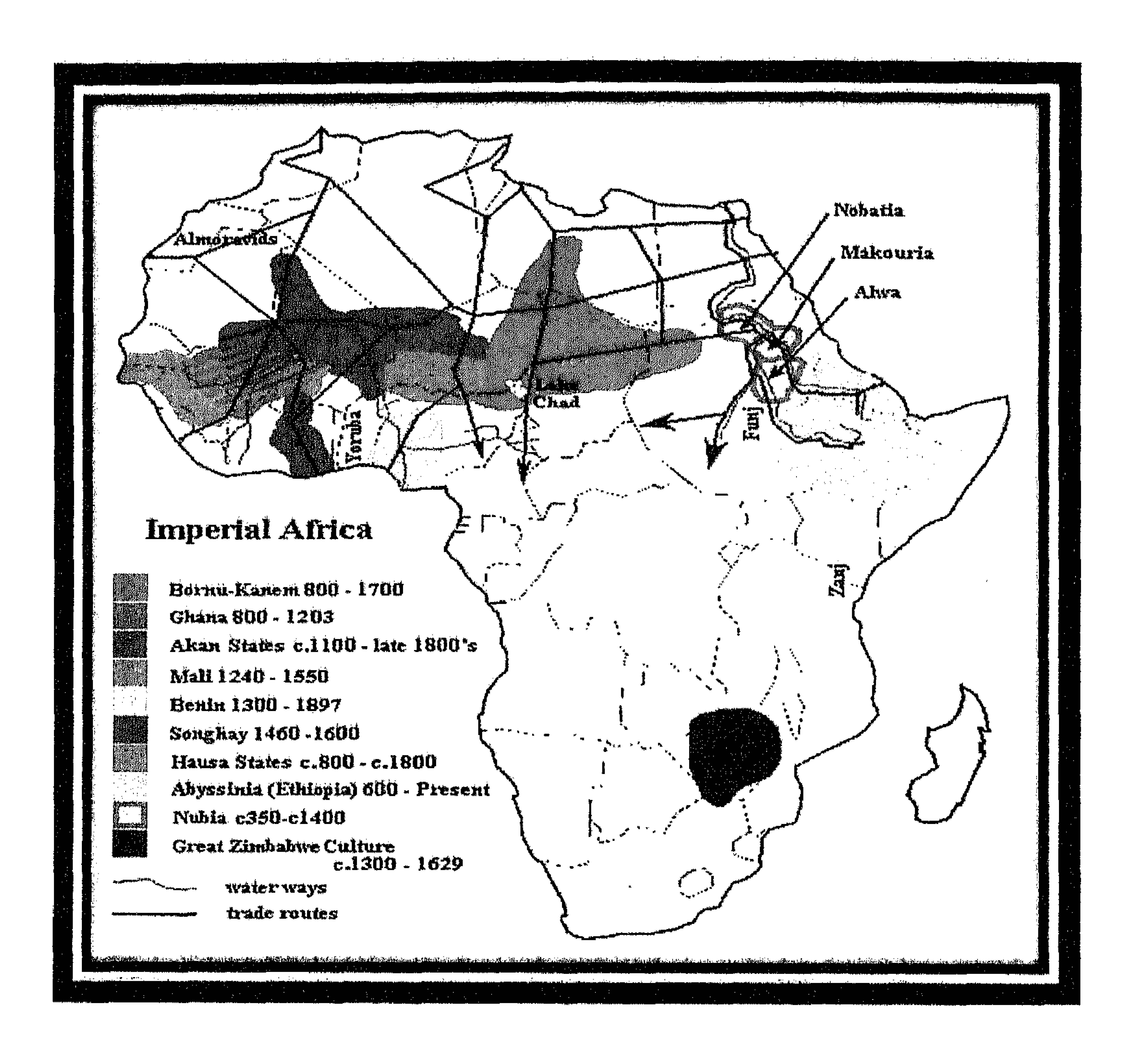
خريطة رقم(٥) توضح الغطاء النباتي في غرب إفريقيا، نقلا عن أ.ج. هوبكنز: مرجع سابق ص٢٣ .



خريطة رقم (٦) توضح الطرق الصحراوية . نقلا عن أ .ج .هوبكنز: مرجع سابق، ص ١٦٧ .



خريطة رقم (٧) شبكة الطرق التي تغطي جنوب الصحراء وصولا إلى المحيط الأطلسي . نقلا عن أ . ج . هوبكنز : مرجع سابق، ص ١١٦ .



خريطة رقم (٨) توضح الممالك والدول الإفريقية في السودان الغربي، ومناطق نفوذها وأهم الطرق التي تربطه بعضها ببعض عبر فترات مختلفة .

نقلا عن : ما رغريت شيني : الممالك القديمة الإفريقية، المكتبة الأمريكية، نيويورك، ١٩٧٠م ؛ صموئيل كاسيلا : أطلس تاريخ إفريقيا : ماكميلان، نيويورك، ١٩٩٨م .

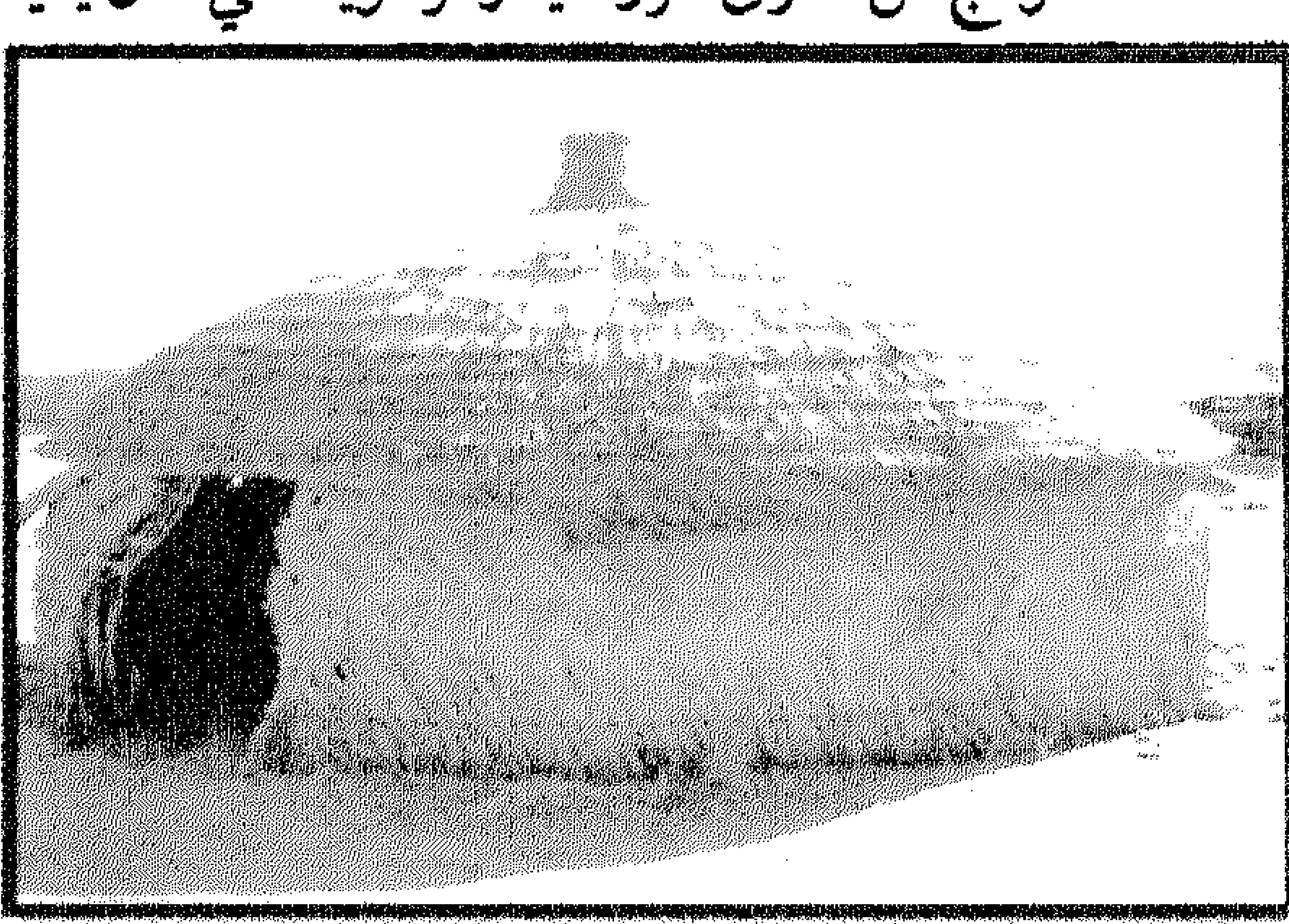
ثالثاً: الصور

رسم توضيحي لبعض قري الهوسا الزراعية تظهر فيها أشكال البيوت والحقول من حولها . وهي لوحة قديمة . تصوير المؤلف .

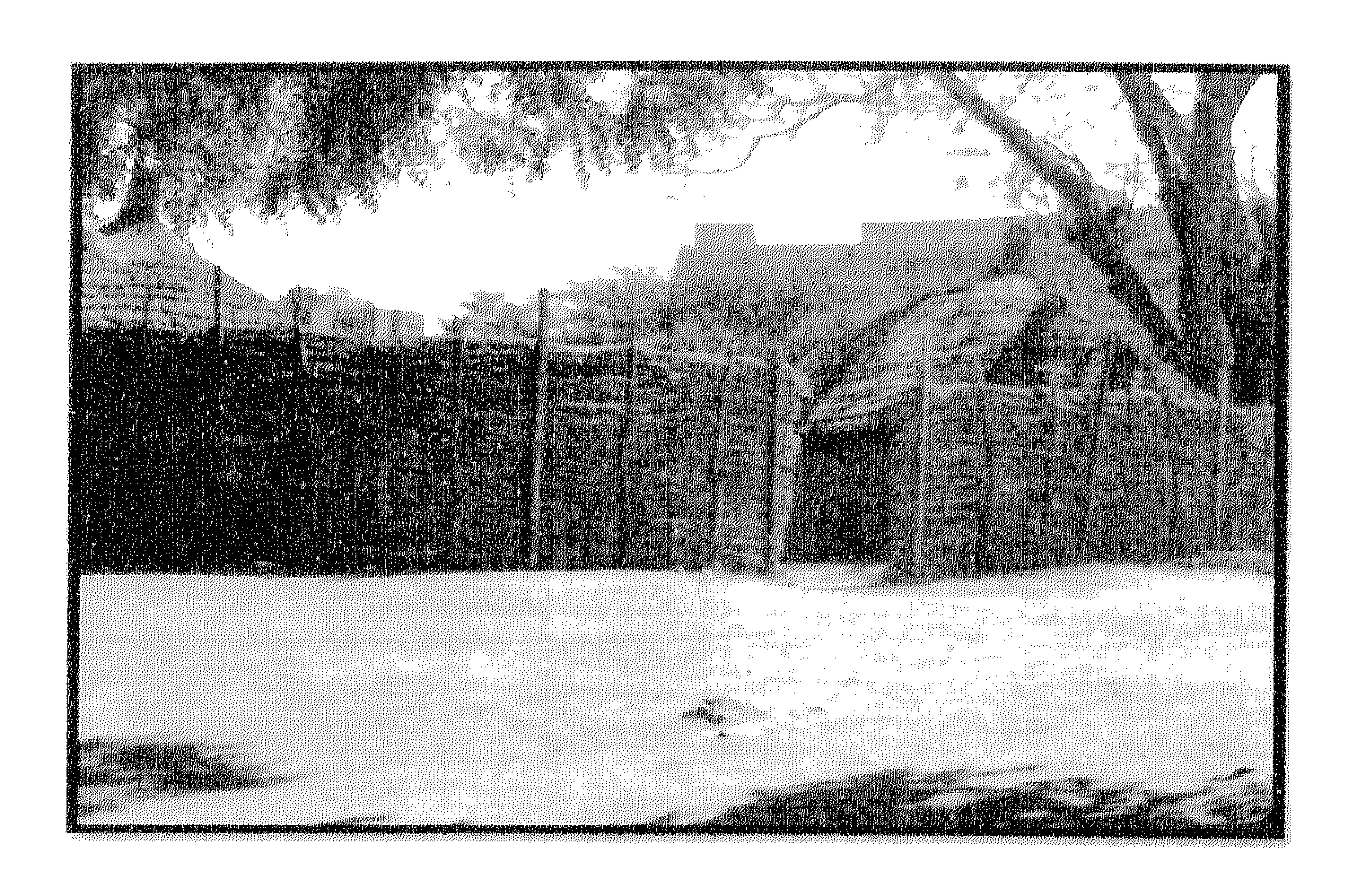




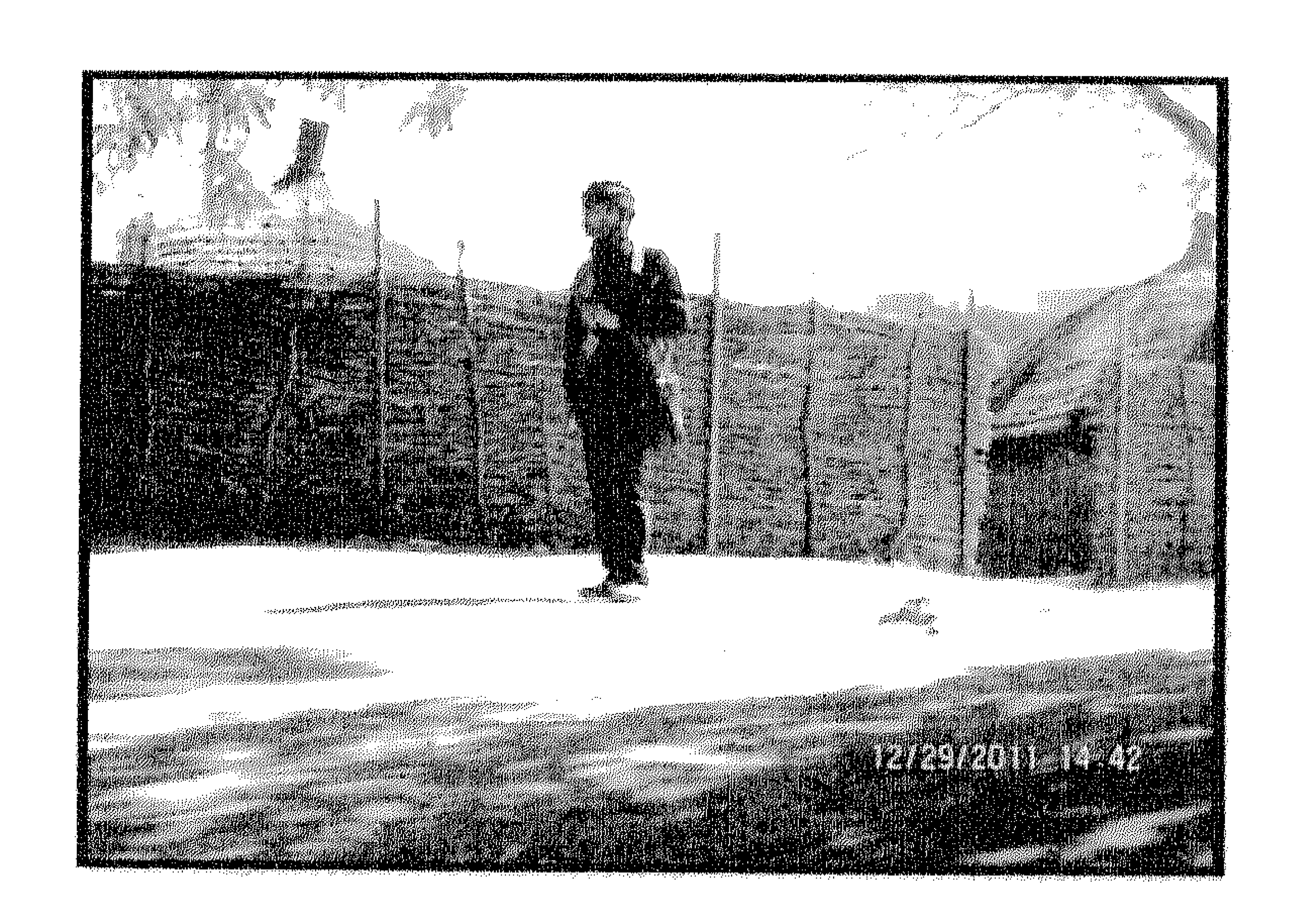
نموذج من القرى الزراعية والرعوية التي كان يعيش فيها الهوسا تصوير المؤلف



نموذج للبيوت المصنوعة من القش وأغصان الأشجار في إقليم الهوسا . تصوير المؤلف .

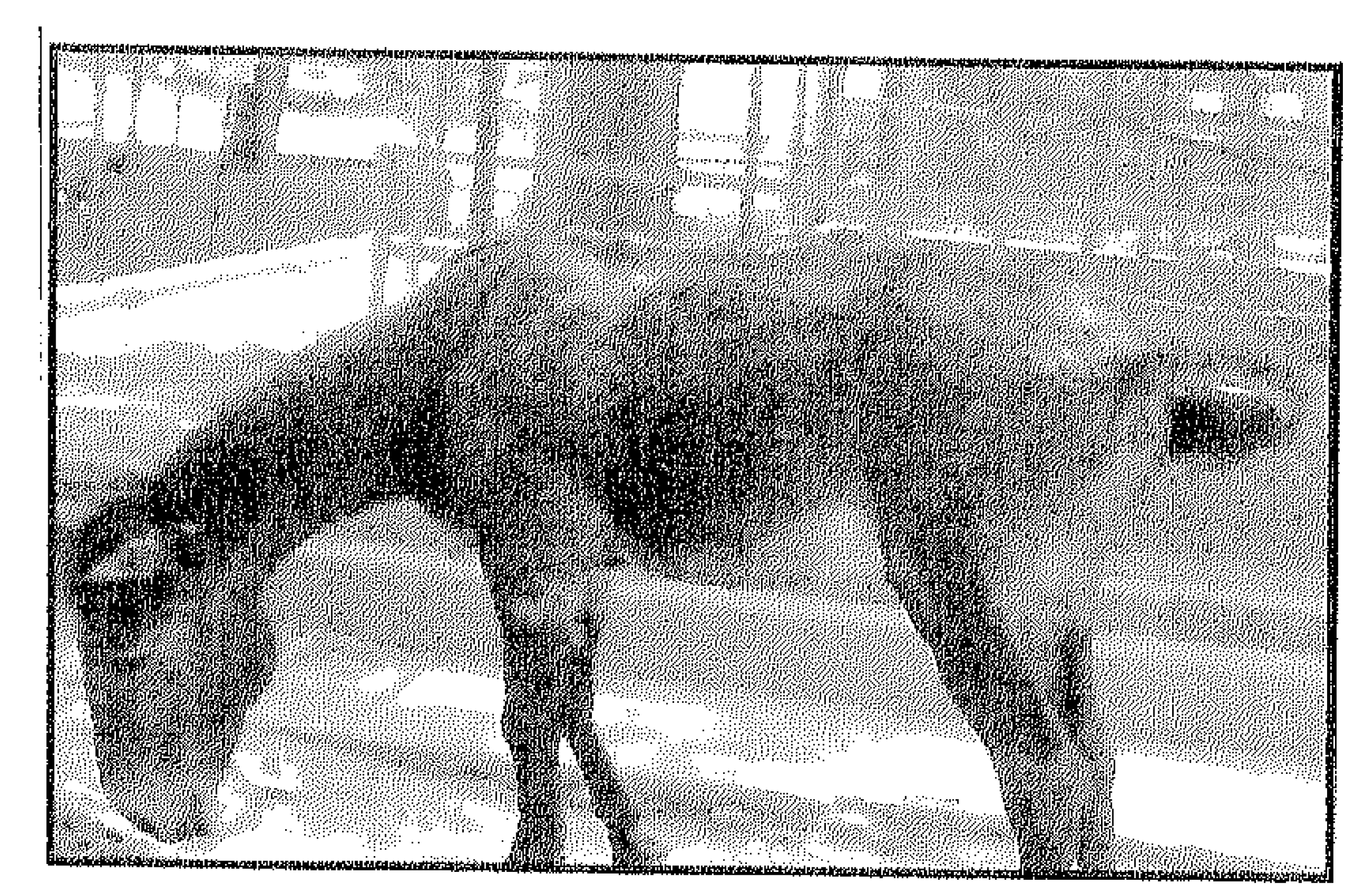


السور الذي يحمي القرية من الحيوانات المفترسة واللصوص وله عدد من المداخل والمخارج .
تصوير المؤلف .



المؤلف أمام إحدى القرى بالنيجر .

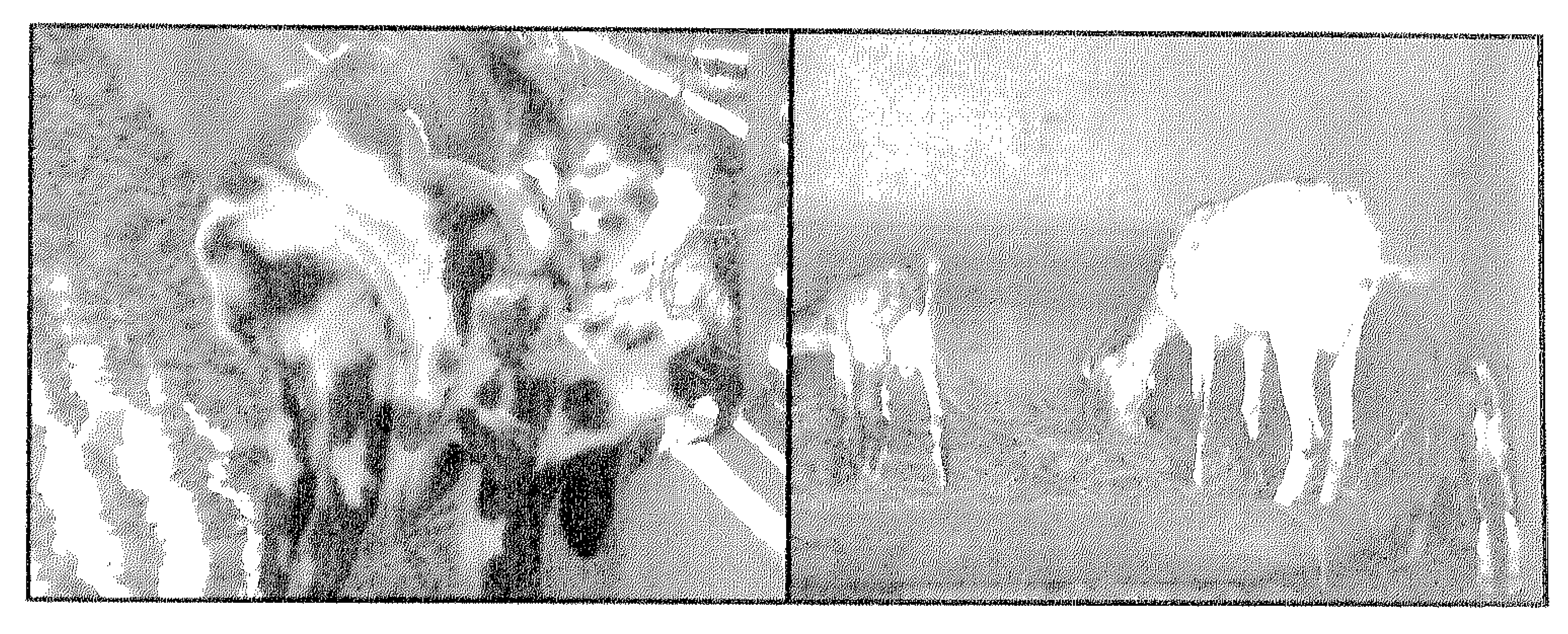
صور بعض الحيوانات الموجودة في جنوب النيجر وشمال نيجيريا موطن الهوسا الأصلي. تصوير المؤلف .



البغال : وهي نموذج للتهجين بين الحيوانات فهو قوي البنية ويتحمل نقل الأثقال .



طير النعام : الذي كان ريشه من أهم المواد التجارية .



الماعز المحلي : صغير الحجم وله قدرة كبيرة على التكاثر . ذكر الماعز وهو صغير الحجم وكان كثير الاستخدام حيث يقدم كقربان في المعتقدات القديمة .



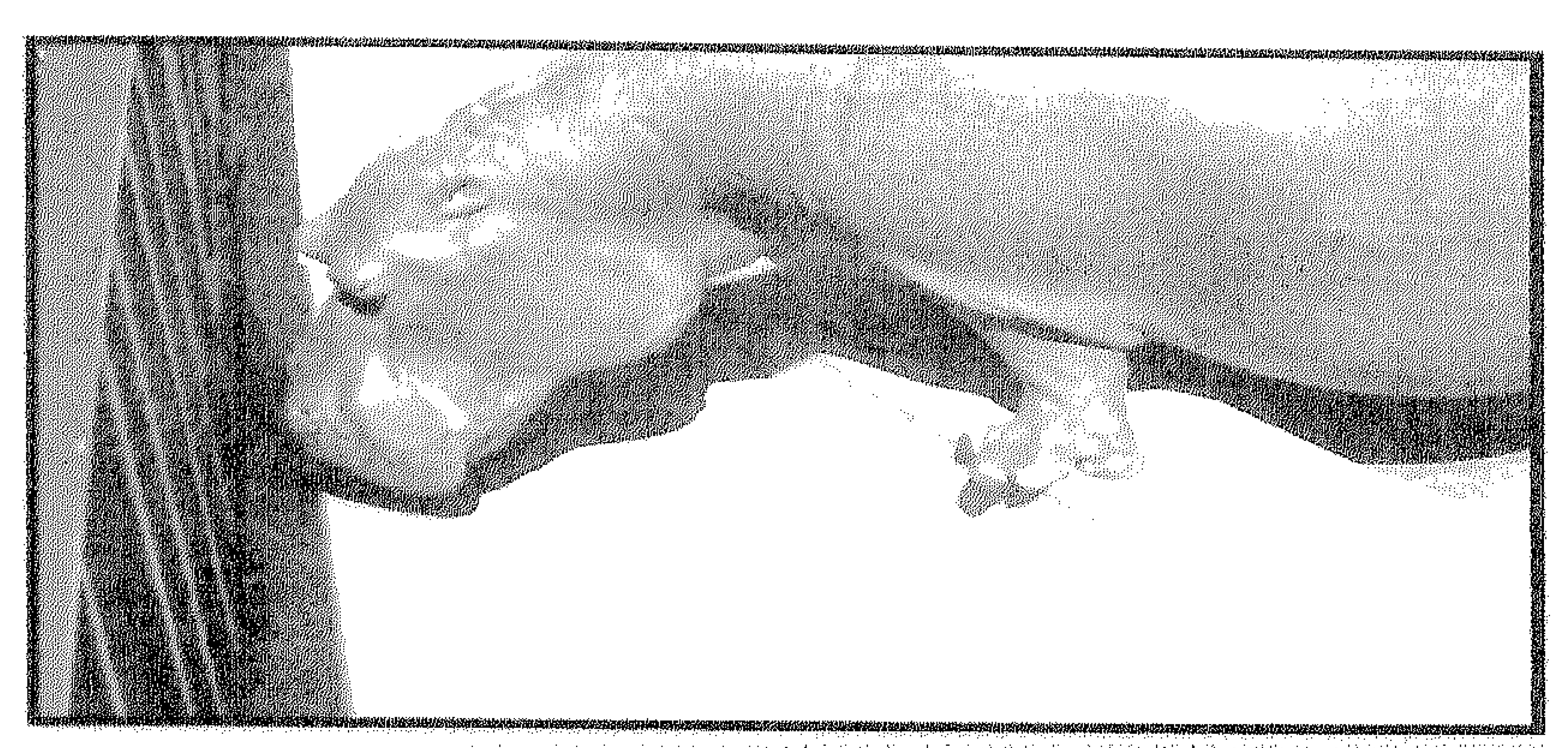
ذكر الغنم: ويسمى الكبش فهو يختلف عن ضأن الشمال الإفريقي حيث يسمى بالمحلي (التيهري)



الغزال : وهو كثير الانتشار في الاقليم حيث يقتنصه البعض ويربيه البعض الآخر



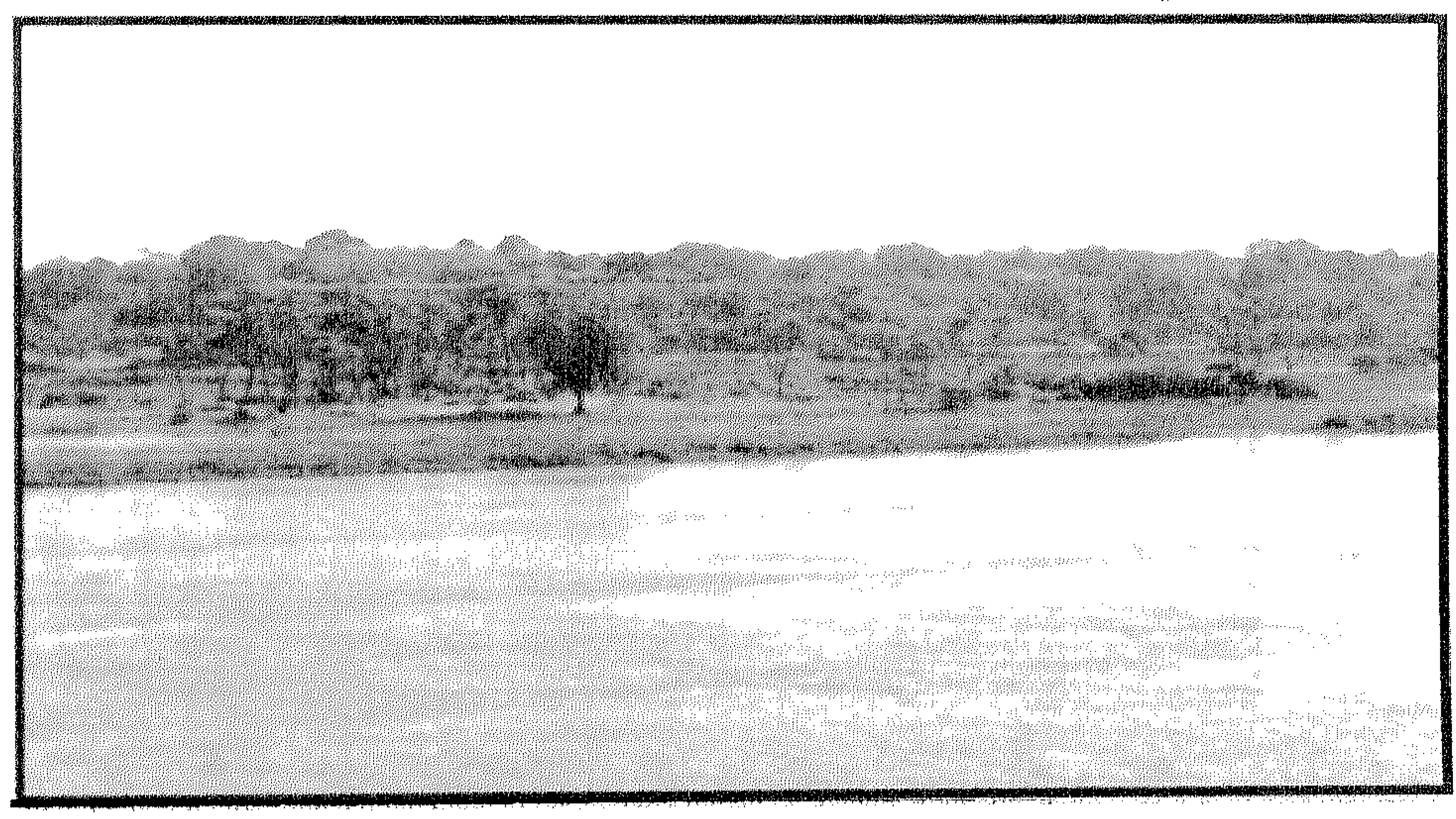
التمساح : وهو من أخطر الحيوانات النهرية، يستخدم جلده بشكل ضيق في الإقليم بسبب صعوبة صيده بالطرق التقليدية.



فرس النهر : هو الآخر من أخطر الحيوانات النهرية يصيده البعض فهو موجود في الإقليم وقد تحدث عنه كلابرتون في رحلته إلى كانو حيث حاول اصطياده ولكنه لم يفلح .



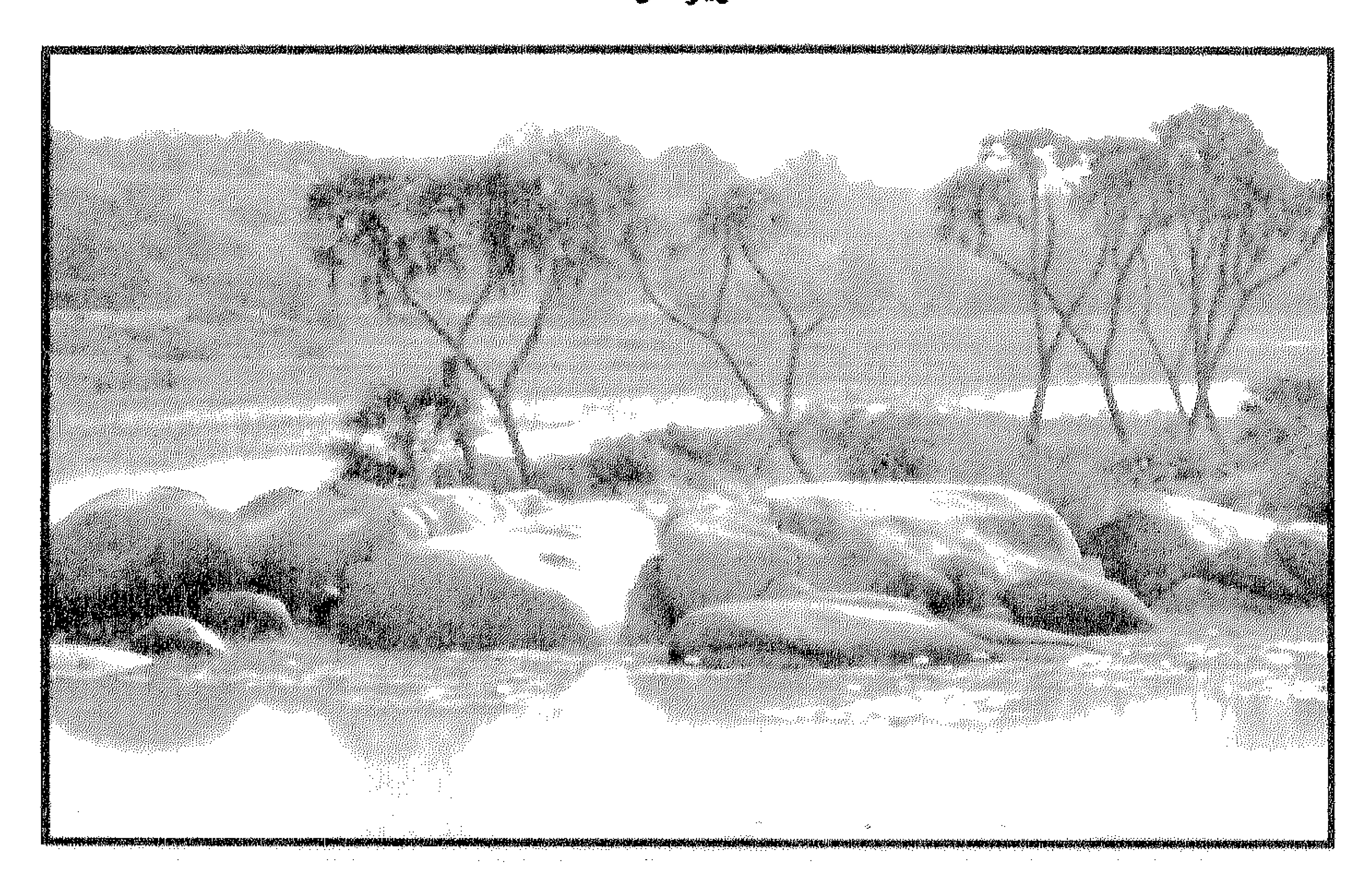
النسر الإفريقي : كان يصطاد لتدريبه . الصقر : هو الآخر كان يدرب .



نهر النيجر: وانسياب المياه فيه بشكل يشبه الزيت كما وصفة الرحالة الأوروبيون. تصوير المؤلف.



الملاحة بالقوارب الخشبية الصغيرة في نهر النيجر ونقل نبات النيلة المخمر في النهر .
تصوير المؤلف



بعض الصخور الكبيرة التي تعوق حركة الملاحة في النهر . تصوير المؤلف .



بعض المناطق الزراعية حول النهر . تصوير المؤلف.



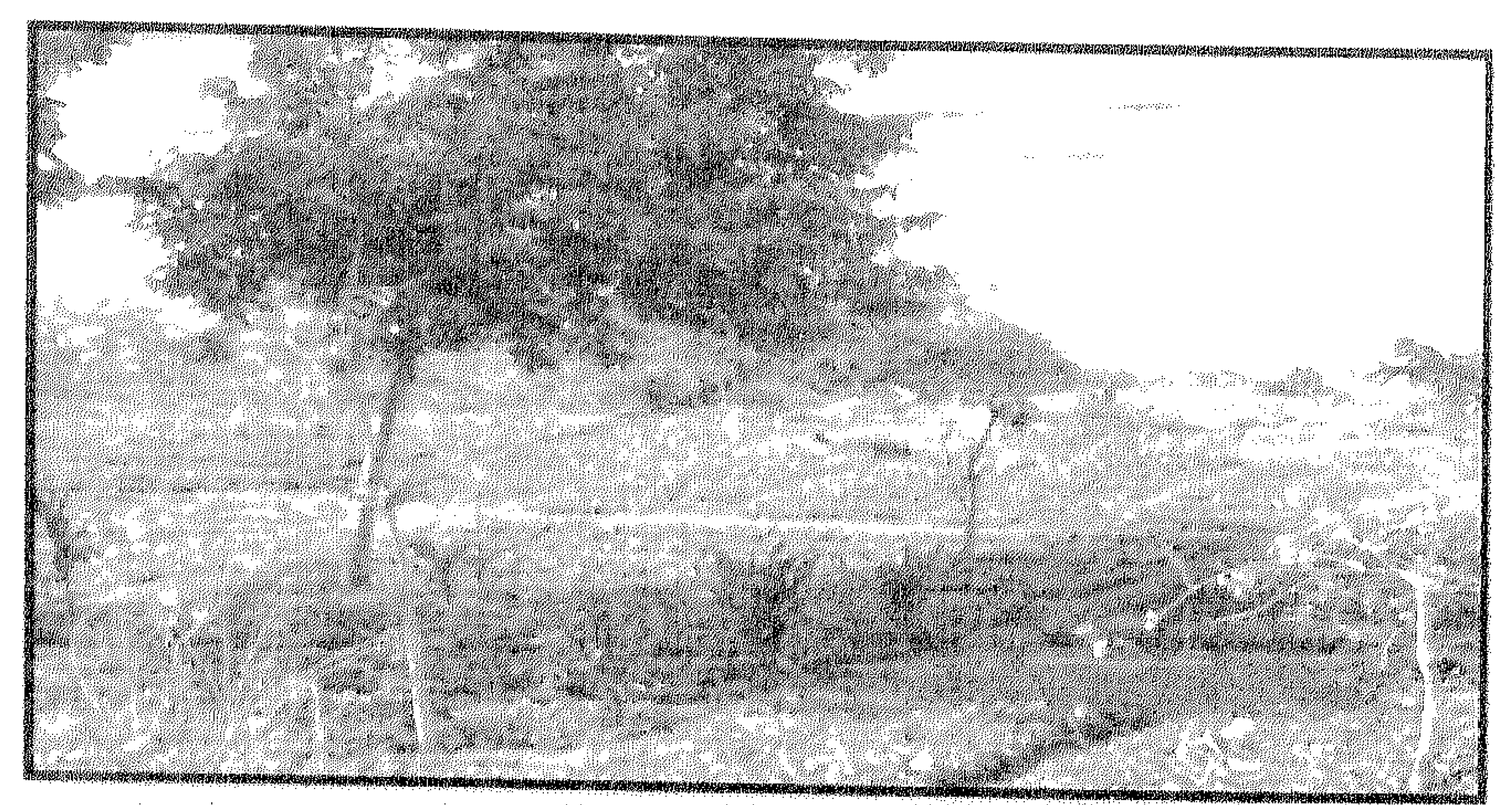
الغابات والمزارع و النهر . تصوير المؤلف .



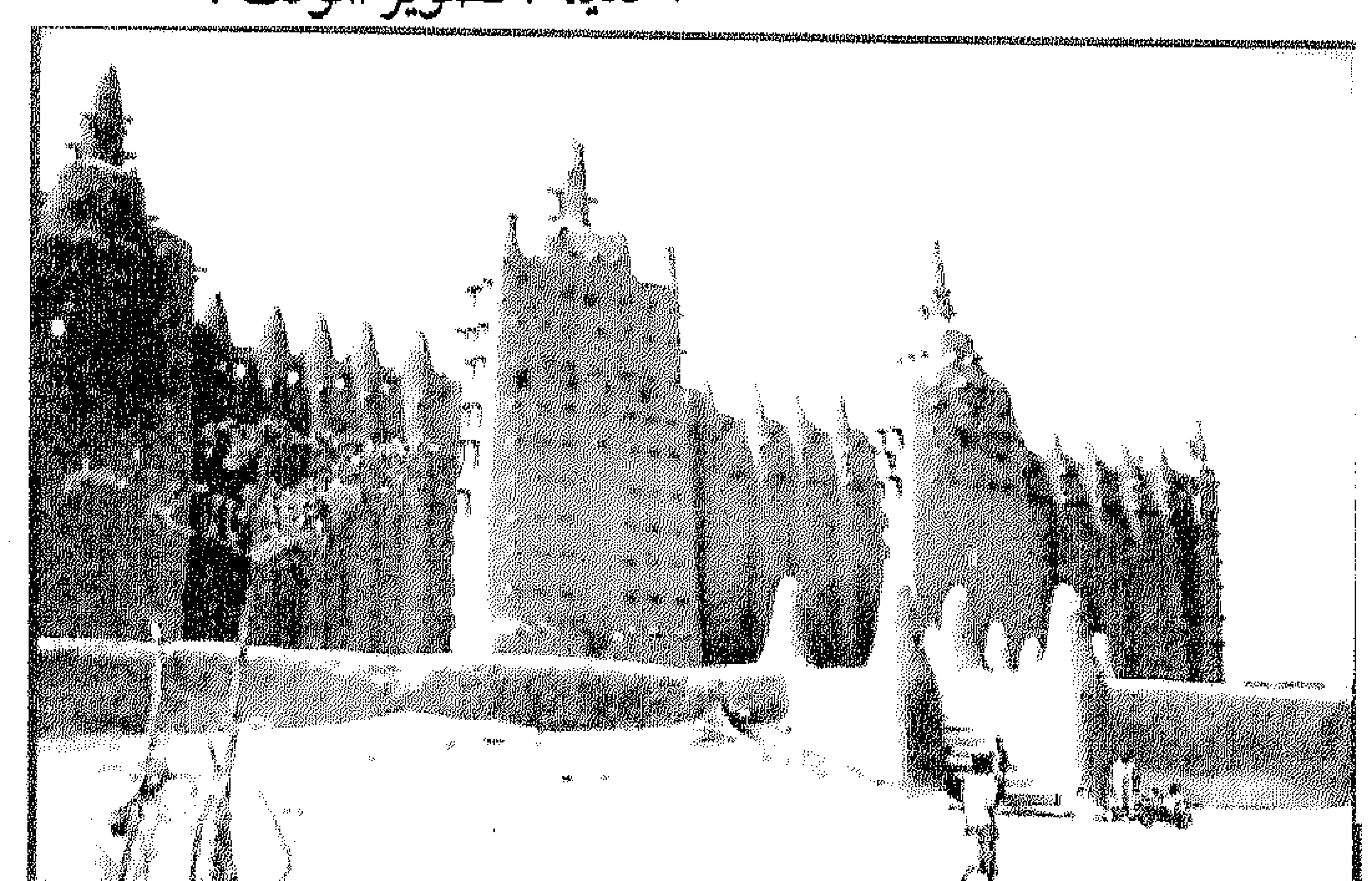
بعض المناطق الزراعية حول النهر . تصوير المؤلف .



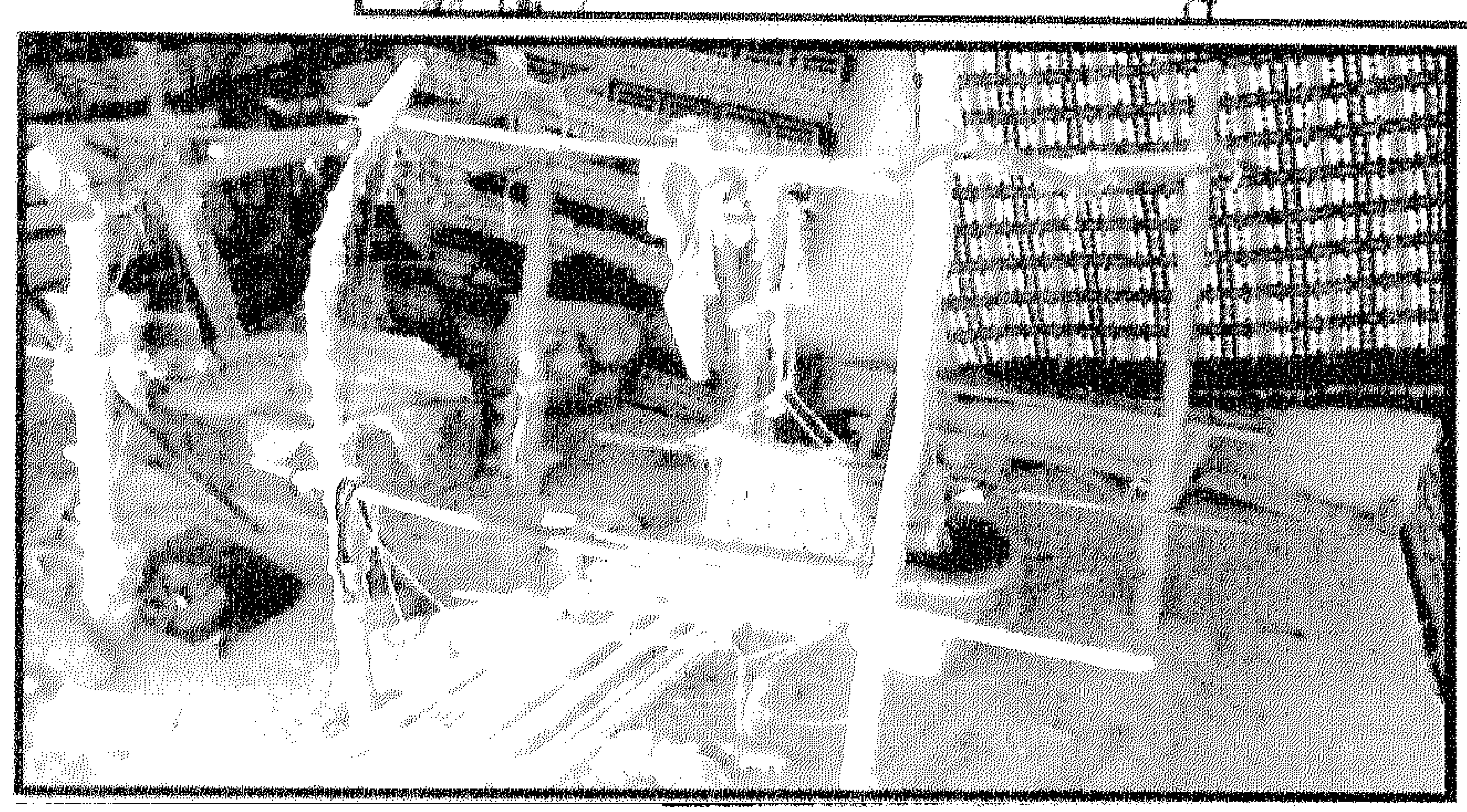
زراعة الخضراوات حول النهر . تصوير المؤلف .



الحقول الخاصة الصغيرة حول نهر النيجر والتي تعتمد على مجهود الفلاحين دون استخدام التقنية الحديثة . تصوير المؤلف .

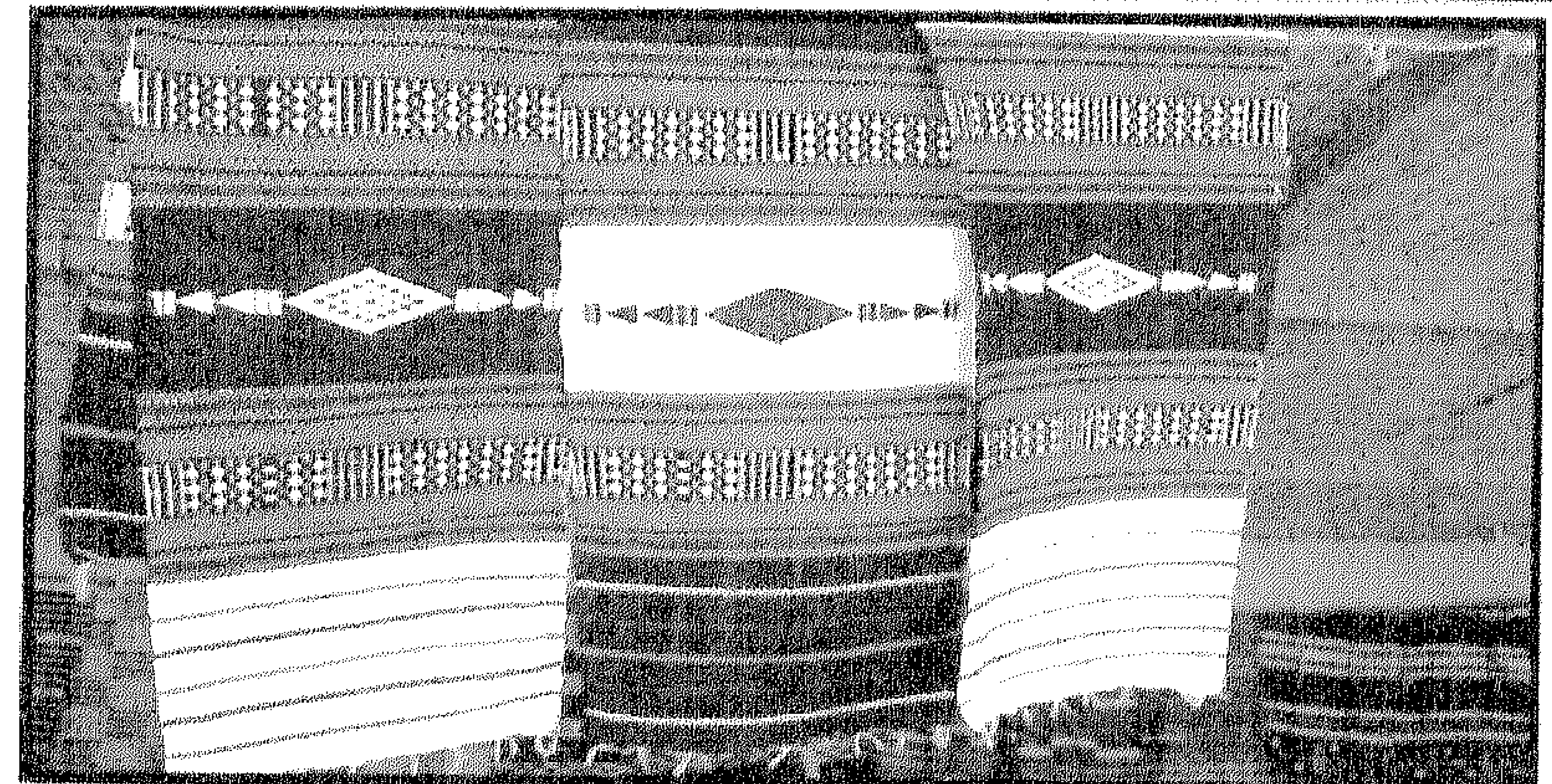


جامع جني الكبير



النول المحلي لنسج المنسوجات الصوفية وهو بدائي الصنع مازال يستخدم حتى اليوم في إقليم الهوسا (تصوير المؤلف النيجر ٢٠١١م).





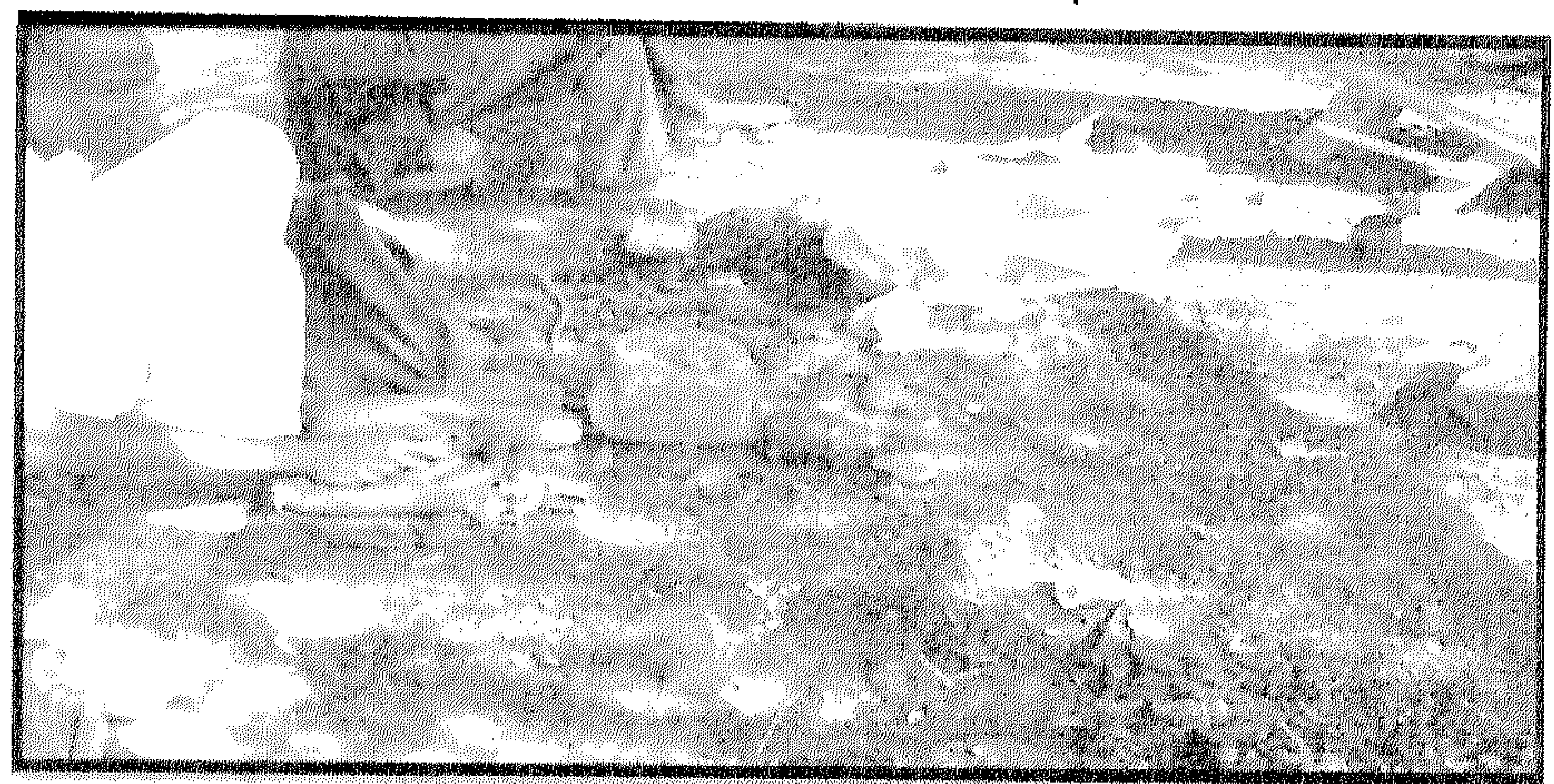
نوع من القماش المصنوع من الصوف والوبر محلي وهو من صنع الهوسا . تصوير المؤلف .



حرفة صناعة أواني القرع المشهورة في السودان الغربي .



حرفة الحدادين : واستخدام المعدات البدائية مازالت موجودة بشكل كبير . تصوير المؤلف .



استخدام الكير ذو المنفاخ المصنوع من الجلد مازال مستخدماً كما هو من مئات السنين .



بعض الأسواق واشتراك النساء والرجال في البيع والشراء

استخدام المعادن كالذهب والنحاس والحديد كعملات متداولة في أسواق السودان الغربي وهي بأشكال مختلفة .



المؤلف أمام مكتبة المخطوطات بالنيجر .

د . أيوب ومحمد شيخو من جمهورية النيجر.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات .

أحمد بابير الأرواني:

(١) جواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط بمعهد الدراسات الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم١٠٦ .

آدم بن محمد العطار (ت١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م) :

(٢) الإعلان بتاريخ كنو، مخطوط بالمكتبة المركزية، جامعة بايرو، نيجيريا، رقم ٤٥٣ .

بشير أحمد الفلاني :

(٣) نظم الجمان في أخبار التكرور وبني فلان، مخطوط بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، رقم ١٢٢، النيجر .

عبد القادر بن المصطفى مالم تفا :

(٤) بعض أخبار هذه البلاد الحوسية السودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها ونتفا من نوادر علمائها، مخطوط معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٤١٥ .

عثمان بن محمد بن فودي (ت ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م) :

(٥) تنبيه الأخوان على أرض السودان، مخطوط بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، رقم ٢٦٥، نيامي، النيجر .

الغلاوي (أبو عبد الله المصطفي بن أحمد بن عثمان) :

(٦) العمل المشكور في جمع نوازل التكرور، مخطوطة بمعهد أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية، تمبكتو، مالي، رقم ١٠٣١ .

مجهول :

(٧)تاريخ أكدز والطوارق، مخطوط، معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر،رقم ١٢٠

مجهول :

(٨) تاريخ سلطان دور وإمارات الهوسا السبع، مخطوط، معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٥٢١ .

مجهول :

(٩) تاريخ أرباب كنو، مخطوط بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، رقم ٣٦٦٣ .

محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) :

(١٠) فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، مخطوط بالمركز الثقافي بمدينة صكتو نيجيريا، رقم ٣٦٤ .

محمد مرحبا القرشي :

(١١) فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوط، معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، رقم ١٨٠ .

ثانياً : المصادر

الأدريسي (أبو عبدالله محمد ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) :

(١) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مطبعة بريل، مدينة ليدن، ١٨٩٢م .

الاصطخري (أبوالقاسم إبراهيم بن محمد الفاسي، ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) :

(٢)المسالك والممالك، تحقيق، محمد صابر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١م .

بابا (أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت التنبكتي، ت١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م) :

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م .

(٤) معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق فاطمة الحراق، وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٠م .

البرتلي (محمد أبي بكر الصديق، ت ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م) :

(٥) فتح الشكور في ترجمة علماء التكرور، تحقيق الهادي المبروك الدالي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٢م .

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي، ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) :

(٦) رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م .

البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م) :

(٧) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د، ت) .

التنبكتي (أحمد بن القاضي) :

(٨) مصطلح فولاني في بلاد المغرب، تحقيق، محمد منصور، فاطمة الحراق، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٠ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) :

(٩) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، جـ ٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م .

دنهام، كلابرتون، أودني :

(١٠) رحلة لاستكشاف إفريقيا، ترجمة عبدالله عبد الرازق إبراهيم، مراجعة شوقي عطا الله الجمل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م .

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر، ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) :

(١١) الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١م .

السعدي (عبدالرحمان بن عبدالله بن عمران بن عامر، ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) :

(١٢) تاريخ السودان، نشره هوداس، مطبعة أنجي، باريس، ١٩٨١م .

صادق مؤيد العظم :

(١٣) رحلة في الصحراء الكبرى بإفريقيا، ترجمة عبد الكريم أبوشويرب، مراجعة صلاح الدين السوري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، ١٩٩٨م .

العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيي، ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٧م) :

(١٤) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م .

(١٥) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، حمزة أحمد عباس، جـ٤، أبوظبي، الإمارات العربية، ٢٠٠٢م .

عياض (أبي الفضل عياض اليحصبي ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) :

(١٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جـ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د . ت) .

فودي (محمد بلو بن عثمان فودي، ت١٢٣٢-١٨١٨م) :

(١٧) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق، بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٦م .

القزويني (زكريا بن محمد محمود، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) :

(١٨) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د، ت .

كربخال، مارمول (ت منتصف القرن ١١هـ/ ١٨م):

(١٩) إفريقيا، ترجمة، محمد حجي وآخرون، جـ٣، دار المعرفة للنشر، الرباط، المغرب، ١٩٨٩م .

كعت (محمود بن المتوكل الكرمني، ت١٠٠٢ه/ ١٥٩٣م) :

(٢٠) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، مطبعة بردين، انجي باريس، ١٩٣٠م .

موسي كمر :

(٢١) أكثر الراغبين، تحقيق، أحمد الشكرى، خديم إمباكي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠٠٣م.

مجهول :

(٢٢) تاريخ سانتاكروز أكادير، تحقيق أحمد صابر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط المغرب، ١٩٩٤م.

ابن مريم (أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أحمد، ت ١٠٢٠هـ/ ١٦١٦م) :

(٢٣) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن شنب، مطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٠٨م .

المغيلي (محمد بن عبد الكريم، ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) :

(٢٤) أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق، عبد القادر زبايدية، مطبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤ .

(٢٥) تحقيق رسالة للمغيلي في أمور السلطنة، تحقيق، أحمد العلمى حمدان، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد خاص ٥، المغرب، ١٩٨٩م .

(٢٦) مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م .

ناختيجال جوستاف :

(٢٧) الصحراء وبلاد السودان، ترجمة عبد القادر مصطفى المحيشي، مراجعة صلاح الدين حسن السوري، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٧م .

الوزان (الحسن بن محمد ت٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) :

(٢٨) وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ط٢، جـ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م .

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة

أ . ج . هوبكنز :

(١) التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، تقديم محمد عبد الغني سعودي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م .

إبراهيم على طرخان (دكتور) :

(٢) دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م .

(٣) إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م .

أحمد الشرباصي (دكتور) :

(٤) المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، القاهرة، ١٩٨٠م .

أحمد الشكري (دكتور) :

(٥) الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، أبوظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٩م .

(٦) الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م نموذج بلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ٢٠١٠م .

أحمد بللو :

(٧) سيرتي الذاتية، ترجمة صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٣م .

أحمد محمد كاني (دكتور) :

(٨) الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م .

آدم عبدالله الألوري :

(٩) موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م .

أرفين فون باري :

(١٠) ١٨٤٦-١٨٧٧م ورحتلة إلى غات وبلاد الأير، ترجمة عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، ١٩٩٥م .

إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر :

(١١) تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ط٤، جـ٢، مكتبات العبيكان، الرياض، السعودية ٢٠٠٦م .

إيفر :

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أير، المجلد ٥، القاهرة، ١٩٣٣م .

ب . كيبريه :

(١٣) من البحيرات العاجية إلى نهر الفولتا، تاريخ إفريقيا العام، جـ٤، اليونسكو، لبنان، ١٩٨٨م .

ب . ديانين :

(١٤) البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إفريقيا خلال هذه الفترة، تاريخ إفريقيا العام، إشراف ب . أ . أغوث، جـ٥، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٧م .

ب . واي . أنداه :

(١٥) غرب إفريقيا قبل القرن السابع، تاريخ إفريقيا العام، المشرف، جمال مختار، المجلد ٢، اليونسكو، ١٩٨٥م .

بوفيل :

(١٦) روبن هاليت، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة، الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، ط٢، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٨م .

جميلة أمحمد التكتيك(دكتور) :

(١٧) مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، مركز جهاد الليبيين، ليبيا، ١٩٩٨م .

جوان جوزيف :

(١٨) الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصرية، مصر، ١٩٨٤م .

جون بادن :

(١٩) أحمد بللو " القيم والقيادة في نيجيريا "، ترجمة صبري محمد حسن، جـ٢، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م .

جيمس ويللارد :

(٢٠) الصحراء الكبري، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٧م .

حسن إبراهيم حسن (دكتور) :

(٢١) انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م .

حسن المدني على (دكتور) :

(٢٢) علاقة ليبيا ببلدان ما وراء الصحراء في عهد يوسف باشا القرمانلي، المركز الوطني للمخطوطات والدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٩م .

خالد أوشن(دكتور) :

(٢٣) المقاييس والمكاييل والموازين وطرق المعاملات التجارية القديمة في غرب إفريقيا، أكادير، المغرب، ٢٠٠٣م.

دجيبو ملام حماني :

(٢٤) الحضارة الإسلامية في النيجر، ترجمة محمد وقيدي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٤م .

د . لايا :

(٢٥) دول الهوسا، تاريخ إفريقيا العام، المشرف ب . أ . أوغوث، جـ٥، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٧م .

دونالدو برنر :

(٢٦) تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ٢٠٠١م.

رجب نصر الأبيض (دكتور) :

(٢٧) طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن ١٩، مركزجهاد الليبيين، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٩م .

(٢٨) مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٨م .

زاكاري مايكوريها (دكتور) :

(٢٩) الحضارة الإسلامية في النيجر، ترجمة، محمد وقيدي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ١٩٩٤م .

س . ج . سليجمان :

(٣٠) السلالات البشرية في إفريقيا، ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربي، القاهرة، (د.ت) .

سعيد محمد القشاط (دكتور) :

(٣١) عرب الصحراء الكبرى التوارق، الدار العربية للموسوعات، ط٤، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م .

شيخو أحمد سعيد غلادنثي (دكتور) :

(٣٢) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط٣، النهار للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٨م .

الطيب عبد الرحيم محمد :

(٣٣) الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٤م .

ع . ف . لايون :

(٣٤) مداخل الصحراء، ترجمة الهادي أبولقمة، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، ١٩٩٣م .

عبد الحكيم العفيفي (دكتور) :

(٣٥) موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، مكتبة الكتاب، مدينة نصر، مصر، ٢٠٠٠م .

عبد الرحمن المودن، محمد حجي(دكتور) :

(٣٦) المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، ندوة دولية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٥ .

عبد الرحمن زكي (دكتور) :

(٣٧) الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة، ١٩٧٠م .

عبد القادر زبادية (دكتور) :

(٣٨) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م .

(٣٩) دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠١٠م .

عبدالله عبد الرازق إبراهيم (دكتور):

(٤٠) الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م .

عطية مخزوم الفيتوري (دكتور) :

(٤١) دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٨م .

عمار هلال (دكتور) :

(٤٢) الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، منشورات دار الثقافة والسياحة، الجزائر، ١٩٨٤م .

فضل كلود الدكو (دكتور) :

(٤٣) العلماء الأفارقة ودورهم الحضاري في غرب أفريقيا، منظمة المؤتمر الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالنيجر، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، ع ١، ١٩٩٥م .

فيج . جي . دي :

(٤٤) تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م .

م . أبيتبول :

(٤٥) نهاية إمبراطورية الصنغاي، تاريخ إفريقيا العام، إشراف ب . أ . أغوث، جـ٥، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٧م .

م . بوسنانسكي :

(٤٦) مقدمة لإفريقيا المجاورة للصحراء في عصر ما قبل التاريخ المتأخر، تاريخ إفريقيا العام، المشرف العام جمال مختار، جـ٢، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٧م .

محمد الغربي (دكتور) :

(٤٧) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، إشراف نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر المكتبة الوطنية ببغداد ١٩٨٢م .

محمد الفندي وآخرون :

(٤٨) دائرة المعارف الإسلامية، مادة السودان ،المجلد ١٢، القاهرة، ١٩٣٣م .

محمد بن شريفة (دكتور) :

(٤٩)مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجيريا خلال القرنين ١٥ - ١٦م، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٣م .

(٥٠) من أعلام التواصل بين المغرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، ١٩٩٩م .

محمد رزوق (دكتور) :

(٥١) دراسات في تاريخ المغرب، دار إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩١م .

محمد عمر مروان (دكتور) :

(٥٢) الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٩م .

محمد عوض محمد (دكتور) :

(٥٣) الشعوب والسلالات الإفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م .

محمد فاضل باري، سعيد إبراهيم كريدية :

(٥٤) المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العملية، بيروت، ٢٠٠٧م .

مصطفي على بسيوني أبوشعيشع (دكتور) :

(٥٥) برنو في عهد الأسرة الكانمية ١٨١٤- ١٩٦٩م، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٩٨٤م.

مهدي آدامو (دكتور) :

(٥٦) الهوسا وجيرانهم بالسودان الوسط، تاريخ إفريقيا العام، جـ ٤، اليونيسكو، لبنان، ١٩٩٤م .

مهدي رزق الله أحمد (دكتور) :

(٥٧) حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، السعودية، ١٩٩٨م.

هوبير ديشان :

(٥٨) الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، مراجعة محمد عبدالله دراز، تقديم مصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م .

رابعاً : الدوريات العملية

أ . م . كاني (دكتور) :

(١) مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، العدد ١، ١٩٨١م .

إبراهيم حركات (دكتور) :

(٢) دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الثالثة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨١م.

إبراهيم طرخان(دكتور) :

(٣) دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية قبل عصر الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الاداب، م ٨، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨١م .

أبوبكر مقيا (دكتور) :

(٤) دعوة الإمام المغيلي العلمية والإسلامية في السودان الغربي في اواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية في المنطقة، مجلة علمية محكمة، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد ٧، ١٩٩٢م .

أحمد الشكري (دكتور) :

(٥) رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان، مجلة المنهل، عدد خاص ٥٩، القسم الأول، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢م .

الأمين أبو منقا محمد(دكتور) :

(٦) أثر الإسلام واللغة العربية وآدابها في نشأة وتطور أدب الهوسا، مجلة دراسات إفريقية، العدد ٨، مركز البحوث والترجمة، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، السودان، ١٩٩١م .

تيرنس والاس : (دكتور)

(٧) تجارة القوافل بين ليبيا ومصر ودور عبدالله الكحال، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، ع١، ليبيا، ١٩٨١م .

حسين سيد عبدالله(دكتور) :

(٨) دولة كانو الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م، نشرة محكمة يصدرها معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، رقم ٤٧، ١٩٩٧م .

سعيد عبد الرحمن الحنديري : (دكتور)

(٩) الممالك الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد، مجلة البحوث التاريخية، ع١، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ٢٠٠٠م .

سلفاتور بونو :

(١٠)تجارة طرابلس عبر الصحراء في العقد الأول من القرن العشرين، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، ع١، ليبيا، ١٩٨١م .

سمير عزت إبراهيم(دكتور) :

(١١) الزواج الهوساوي، مجلة آفاق أفريقية، م١، العدد ١٣، القاهرة، ٢٠٠١م .

عبد العزيز راشد العبيدي :

(١٢) وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا دراسة تاريخية، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، العدد ٦، الخرطوم، السودان، ١٩٩٠م .

كرم كمال الدين الصاوي باز (دكتور):

(١٣) تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان وبلاد المغرب في الفترة من (ق٣-٥هـ/ ٩-١١م) ندوة التواصل العربي الإفريقي عبر الصحراء الكبرى، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.

(١٤) نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في الفترة من ق٨-١٠هـ/ ١٤-١٦م، ندوة الصحراء والإنسان، دوز، تونس، ٢٠٠٣م .

(١٥) دراسة نقدية تحليلية لمصادر التاريخ الاقتصادي لمنطقة غرب إفريقيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦م.

محمد الميري :

(١٦) الإسلام في مالي، مجلة تراث الشعب، العدد ٩، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣م .

مرجع عبد الفتاح مقلد :

(١٧) أثر اللغة العربية في الشعب الفلاني، مجلة الفيصل دار الفيصل، السنة ٦، ١٩٨٢م .

مصطفى حجازي(دكتور) :

(١٨) الإسلام ونشأة الكتابة في بلاد الهوسا، مجلة مجمع اللغة العربية، المشرف مهدي علام، جـ٦١، ١٩٨٧م .

يحي بوعزيز :

(١٩) طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر بغداد معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٤م .

خامساً : الرسائل العلمية

جاجوا حسين :

(١) دور غدامس التجاري ما بين طرابلس والسودان الأوسط والعرب خلال ١٨٥٠-١٨٨١م، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة غير منشور، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، ١٩٨١م .

دجيبو سايبو :

(٢) تاريخ السودان في نظر ابن بطوطة وابن خلدون، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، ٢٠٠١م .

محمد السنوسي العمراوي :

(٣) نظام الحكم والإدارة بمملكة صنغي في عهد الأساكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠١١م .

مفتاح يونس الرباصي :

(٤) العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو من القرن السابع إلى العاشر الهجريين / الثالث عشر - السادس عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥م .

منى محمد عادل سيد :

(٥) الحياة الاجتماعية والثقافية في إمارات الهوسا (القرن ٨ - ١٠ هـ / ١٤ - ١٦ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٩م .

(1) **Abdullah Smith** :

The Early States Of The Central Sudan , History Of West Africa , Edited by Ajayi and Crowder , vol I , 1971 .

(2) **A . M. Kani :**

The Rise and Influence of Scholars in Hausaland Before 1804 , Kano Studies , V2 , no 2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981 .

(3) **A . Mohammed And M . B . Khan :**

From Cradle To Grave : The contribution Of The Ulama to Education In Nigeria , Kano Studies , v2 , No2 , Bayero University , Kano , Nigeria 1981 .

(4) **Heinrich Barth's :**

Briefe Aus Tunesien 1845-1846 , Beit Hikme , 1987 .

(5) **Palmer .H.R :**

Sudanese Memoirs , Frak Cass and CO. LTD , Londo ,vol3 , 1967 .

(6) **Saad Abubakar :**

Amina of Zazzau Exploits and Impact in the Savana Region of Nigeria , Kano Studies , V2 , no 2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981.

(7) **Samuel N. NWABARA** :

The Fulani conquest and rule of the Hausa Kingdom of Northern

Nigeria (1804-1900) In: Journal de la Société des Africanistes. 1963, tome 33 fascicule 2.

(8) **Leo –Africanvs** :

Muslimandchiefs in West Africa "Astudy of Islamin the Middle Volta Basin in thepre " Colonial Period , oxford,1968 .

(9) **Lewis .I.M:**

Islam in Tropical Africa , Oxford 1969 .

(10) **Mervyn Hiskett** :

Reflections on The Location of Place Names on The 10-16 Century Map of Hausaland and Their Relation to Fataucl Routes , Kano Studies , V2 , no 2 , Bayero University , Kano , Nigeria , 1981 .

(11) **Smith.M.G :**

Government in Zazzau 1800 – 1950 , London , 1960 .

(12) The Beginning Of Hausa Ciety AD1000-1500 in The Dtudir ,Landon 1964 .

(13) **M . Hiskett :**

The Historical Background to Naturrization of Arabic Loan Words in Hausa , African Laguage Studies , VI , 1965 .

(14) **R . S . Soper :**

" The Stone Age in Northern Nigeria " , JHSN ,111 , 2 , 1965 .

(15) **Samuel . N . :**

The Fulani conquest and rule of the Hausa Kingdom of Northern Nigeria (1804-1900) In: Journal de la Société des Africanistes. 1963, tome 33 fascicule 2. pp. 231-242

(16) **Polly Hill** :

Ruyal hausa auiylage and setting , Cambidge at theuniversity , Press , 1972 .

(17) **Yusufu Bala Usman :**

The Transformation Of Katsina : (1400 – 1883) , Ahmadu Bello University Press LTD , Nigeria , 1978 .

(18) **Umknown Outher :**

The Kano Chronicle Edited, By Palmer,H . R .,J . R . A . I , vol , 38 (Jan -1908) .

٢٠١٣/١٤٥٤٩	رقم الإيداع
978-977-10-2891-8	I.S.B.N الترقيم الدولي

هذا الكتاب

يطرح قضايا مهمة حول انتشار الإسلام في إمارات الهوسا السبع الأصلية Hasas Bokai بالنيجر ونيجيريا حيث يقدم صفحات ناصعة ومشرقة للإسلام في منطقة ما وراء الصحراء بالسودان الغربي، ويبرز دور الدعاة والتجار والعلماء في نشر ذلك الدين الحنيف. ويؤكد أواصر التواصل العربي الإفريقي بين شمال القارة ومنطقة ما وراء الصحراء.

ويعتبر هذا الكتاب الدراسة العربية الأولى حول تاريخ تلك الإمارات في إطار متكامل من خلال الوثائق والمصادر والمراجع.



I.S.B.N. 978-977-10-2891-8
تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث